أخلاق وآداب الحرب

في عصر الرسول ﷺ

الدكتور
حامد محمد الخليفة



دار عمار

أخلاق وآداب الحرب
في عصر الرسول ﷺ

الطبعة الأولى
١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠٠٩/١١/٤٤٩٤)

٢١٢
الخليفة، حامد محمد
أخلاق آداب الحرب في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم /
حامد محمد الخليفة - عمان : المؤلف ،
٢٠٠٩ (   )ص.
ر.أ.: (٤٤٩٤ / ١١ / ٢٠٠٩).
الواصفات :/ الآداب الإسلامية // السيرة النبوية // الإسلام // التاريخ الإسلامي /

- أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية
- يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى .



دار عمار للنشر والتوزيع
عمّان - ساحة الجامع الحسيني - سوق البتراء - عمارة الحجيري
تلفاكس ٤٦٥٢٤٣٧ - ص.ب ٩٢١٦٩١ عمّان ١١١٩٢ الأردن
E-mail: dar_ammar@hotmail.com

رفع

عبد الرحمن النجدي

أسكنه الله الفردوس

أخلاق وآداب الحرب

في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم

الدكتور

حامد محمد الخليفة



دار عمار

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾

[التوبة: ١١١]

الإهداء

إلى كل مسلم محب لجميع رجال عصر الرسالة

ويعمل على بناء الجيل القادم المتمسك

بأخلاقهم وآدابهم وقيمهم التي

كانوا عليها بقيادة

رسول الله



رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله القائل: "إن الله لم يبعثني مُعَنِّتاً ولا مُتَعَنِّتاً ولكن بعثني معلماً ميسراً"(1) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١]............أما بعد:

فهذا البحث يتناول موضوعاً أساسياً يمثل مقصداً من مقاصد الرسالة الإسلامية التي جاء بها النّبي ﷺ رحمة للعالمين؛ ألا وهو موضوع ضوابط وآداب الحرب التي على نتائجها تقوم أنظمة الحكم التي تقود النّاس، وتمثل أحد الجوانب التطبيقية للتعامل الميداني مع الآخرين، وعلى ضوئها تبنى القيم الحضارية وتصنع الآداب الإنسانسية، ولما كان النّبي محمد ﷺ هو القدوة في القيم الأخلاقية كما شهد له القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] كان من الضرورة بمكان البحث والتدقيق عن الأخلاق والضوابط التي كان يعمل بها رسول الله ﷺ مع الآخرين، ولا سيما صبره ﷺ وهو يرى أصحابه يعذبون، في بداية الدعوة فلم يزد على حثهم على المصابرة؛ والبشارة على ذلك بالجنة، وكيف كان انضباطهم في التعامل مع من يؤذيهم ويؤذي نبيهم ﷺ تجنباً للفتنة، فكان ثمرة ذلك الصبر إسلام كثير من زعماء قريش ومنهم حمزة ﷺ والفاروق ﷺ.

---

(1) مسلم: صحيح مسلم، كتاب الطلاق، باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقاً إلا بالنية، ح (١٤٧٨).

وكيف كان موقف النّبي ﷺ حين جاءه ملك الجبال لينفذ ما يأمره به على أهل الطائف الذين ردوا عليه الرد القبيح وآذوه! فقال ﷺ: "**بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً**"[1] وفي موقفه ﷺ يوم كسرت رباعيته وشج وجهه ﷺ وهو يمسح الدم عن وجهه في أحد حين قيل له لو دعوت عليهم، فقال: " **إني لم أبعث لعاناً وإنما بعثت رحمة**"[2] وقال ﷺ: " **اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**"[3].

فأصبح كشف اللثام عن مثل هذه القيم وإظهارها على حقيقتها، لترسيخ اقتداء الأمة بها وعلاج مشكلاتها وفقاً لها، وبيان ما فيها من رحمة للعالمين، وحسن معاملة مع مختلف الشعوب والأمم وضرورة ترسمها في الدعوة والتعريف بالإسلام، مع دحض الافتراءات ورد الشبهات، من خلال تقديم الحقيقة التي تمحوا بوهج أنوارها أراجيف المبطلين، وأقاويل المزيفين، الذين يمارسون العدوان على عقيدة وبلاد ودماء المسلمين؛ ثم يتهمونهم بالعدوانية! دون الانجرار وراء تلك الشبهات الباطلة، أو تحويل البحث إلى منبر لنشرها باسم الرد عليها، وذلك عملاً بقاعدة، أميتوا الباطل بعدم ذكره.

فهذه المقاصد وأمثالها تمثل أبرز أسباب البحث في هذا الموضوع، وذلك لبيان قواعد العمل الأخلاقي والقيم الإنسانية التي عمل بها النّبي ﷺ وأصحابه الكرام؛ مع مختلف الشعوب والأديان التي عاصروها، ولكي يمثل ذلك الرد القاطع على من ينالون من أخلاق الحرب في عصر الرسالة، التي سمت بضوابطها في الرحمة والإنسانية والعدالة والوفاء على جميع العصور، ولما كانت هذه القيم محل تجاهل

---

(١) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب: بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم آمين، ح (٣٠٥٩).

(٢) مسلم: صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن لعن الدواب و غيرها، ح (٢٥٩٩) ينظر القرطبي: الإعلام بما في دين النصارى، ٢٩٩، ابن قتيبة: تأويل مختلف الحديث، ١٥٩.

(٣) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الأنبياء، باب: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ والرقيم﴾ (الكهف: من الآية٩)، ح (٣٢٩٠).

واستهداف وتشهويه وتزييف؛ عند أعداء عصر الرسالة، لم يعد هناك مناص من تجلية الرد على ذلك التجاهل، وتلك التخرصات، بالإجابة على سلسلة من التساؤلات؛ التي تظهر وتبين قيم وآداب الحرب في عصر النبي ﷺ.

فما هي الأخلاق التي تمسك بها الصحابة ﷺ حين واجهوا صلف قريش وكِبرها وتكذيبها وحصارها وتعذيبها؟ وإلى أي حد كانت طاقات المسلمين في التحمل والصبر والحلم والرحمة؛ قادرة على مواجهة جاهلية المشركين، قبل أن يؤذن لهم بالدفاع عن أنفسهم؟ ثم ما هو موقفهم من محنة الهجرة وترك الأهل والديار؟ وهل تعامل المسلمون بردود الأفعال حين تغلبهم على أعدائهم؟ وما موقفهم من الهجرة بعد فتح مكة؟ وما الآداب الحربية التي تخلقوا بها بعد أن أُذن لهم في القتال؟ ولماذا يُظهر الآخرون المسلمين وكأنهم متعطشين للحرب، في حين أنهم في عقيدتهم وثقافتهم لا يتمنون لقاء العدو إلا إذا أجبروا على ذلك؟ ويطمس الآخرون أصالة وعمق قيم الرفق والرحمة التي يتخلقون بها في ميادين القتال فضلاً عن الحياة الآمنة؟ ثم ما مدى التزام المسلمين في عصر الرسول ﷺ بالطاعة والنظام والجماعة، والمحافظة على العهود والمواثيق؟ وما موقفهم من أهل الغدر والخيانة، الذين كانوا لا يقيمون وزناً لعهد ولا ميثاق؟.

وما موقع الإعداد والتدريب في قيم الحرب في عصر الرسالة؟ وما وسائلهم في الإنفاق في سبيل الله وإعداد القوة ورباط الخيل؟ وإلى أي مدى يأخذ التدريب والتنظيم والمرابطة في سبيل الله مكانه في جهادهم؟ وما مواصفات وقيود الشجاعة وطلب الشهادة والعمل في سبيل الله عندهم؟ وما الموقف من حقوق العباد ومن أهل الأعذار في أخلاقهم؟ وما موقفهم من مشاركة المرأة في القتال والأعمال المساندة؟ وكيف كانوا ينكرون قتل النساء والأطفال والرقيق والضعفاء ويمقتون ويحاسبون من يتعمد ذلك؟.

وما موقفهم من الغنائم، وما مدى الدقة في أداء الأمانة وحفظ المكاسب؟ وما

هو حكم من ثبت عليه الغلول من الغنائم؟ ثم كيف كان تعامل الصحابة مع أهل الذمة؟ وإلى أي حد بلغت مكانة أهل الذمة وأصحاب الأعذار في أخلاق الحرب في عصرهم؟ وما الفرق في تعاملهم مع الأسرى الذين غالباً ما تجعلهم قوانين هذا العصر مجرمي حرب! في حال التغلب عليهم وعلى بلادهم؟ وحال الأسرى في عصر الرسول ﷺ الذين كان يقال لهم: إذهبوا فأنتم الطلقاء؟ على الرغم مما ارتكبوه من جرائم وآثام بحق المستضعفين من المسلمين؟ وما موقع وصية رسول الله ﷺ بالأسرى في أخلاق المجاهدين المسلمين؟.

وكيف كان من أخلاقهم في عصر النبي ﷺ الحرص على التواصل السلمي مع المشركين وأهل الكتاب؟ وكيف قاموا بتبليغ كتب النبي ﷺ الراقية العبارة الرائدة الهدف إلى الآخرين؟ وما موقف أهل الكتاب من رسل النبي ﷺ وكتبه؟ وما مدى معرفة أهل الكتاب بصدق رسالة النبي ﷺ ومدى مصداقية مواقفهم منها؟.

ثم ما هي أدبيات الصلح في أخلاق المسلمين في عصر الرسالة؟ وهل سجل التاريخ على المسلمين موقفاً واحداً من مواقف النقض ونكث العهود؟ وما مدى حذر المسلمين واحتراسهم من أعدائهم؟ وما معنى قوله ﷺ الحرب خدعة؟ وما الموقف من الجواسيس وأهل الغدر في قيم المجاهدين في عصر الرسول ﷺ؟ وما موقفهم من مكر المنافقين ونقض اليهود لعهودهم التي أقاموها مع المسلمين؟ وما هي أسباب إجلاء اليهود من جزيرة العرب؟ إلى غير ذلك من تساؤلات يظهر فيها زيف دعاوى أعداء الصحابة من أهل المشرق والمغرب وبطلان اتهاماتهم، ووفاء الصحابة ونبلهم ورحمتهم وعدلهم وشهامتهم في كل مواقفهم ﷺ.

إن الإجابة على هذه السلسلة من الأسئلة المتشعبة والدقيقة وغيرها بما يزيل عنها الغموض ويدفع الشك ويزيل الريب ويبطل الزيف، ويبعث على القبول والاطمئنان واليقين، وذلك بعد التمحيص والتدقيق والموازنة والمقارنة، سيمثل المادة الأساسية لهذا الموضوع فضلاً عمّا يتشعب عن ذلك من مسائل فرعية وتحليلات بحثية ونتائج علمية،

جميعها تستند إلى أدلة من الصحاح والسنن والمسانيد وغيرها من الكتب الموثقة التي تكاد أن تشكل بمجموعها وجهاً من وجوه السيرة الصحيحة المتكاملة، التي لا تتوفر في كتاب منفرد، ولا توجد في صنف واحد من كتب الحديث أو التراجم أو كتب التاريخ والسير، وإنما هي ثمرة من كل تلك الرياض المونقة، جاءت مستندة إلى روايات الصحاح وما يوافقها من بقية المصادر، يُرتجى منها أن تصل بتوافق تحليلاتها، وعميق استنباطاتها، وتجانس فصولها، وتآلف مباحثها؛ إلى نتائج حاسمة، تشكل بمجموعها مفاصل قيم وآداب الحرب في عصر الرسول ﷺ، التي جاءت في هذا البحث على وجه يستند إلى كتب الصحاح، ولا يبعد عن السنن والمسانيد، ولا يستغني عن كتب السير والتاريخ، والتراجم والمعاجم، ليشكل بعد ذلك لوناً جديداً من ألوان دراسة السيرة النبوية، وسبباً أساسيا في إبراز أخلاقها السامية على نحو من الوضوح والدقة والتحقيق والموضوعية، التي تؤكد سبق المسلمين في القيم الأخلاقية عن سائر الأمم.

منهج البحث

لعله من المناسب الإشارة إلى منهج البحث وكيفية جمع لحمته، فقد ابتدأ العمل في جمع المادة العلمية بكتب الصحاح، وأخذ ما فيها من مظان لمادة البحث، ثم التوجه إلى كتب السنن وجمع ما فيها من مادة قريبة من عنوان البحث، ثم كتب المسانيد والتفسير وعلوم القرآن، ثم كتب الصحابة والسير والمغازي والطبقات، ومراجعة بعض كتب التاريخ للاستزادة في تفاصيل بعض الوقائع والأحداث، ولم أجد بغيتي في عامة ما طالعته من الكتب المعاصرة، لذلك انصب اهتمامي على المصادر الأصيلة لتكوين مادة البحث المطلوبة، فكان أن اجتمع حوالي ألف صفحة، وبعد الفراغ من مرحلة الجمع بدأ الفرز بحسب العناوين التي ستكون جزءاً من الموضوع، ثم المقارنة واستبعاد المكرر وتنقية المتشابه، والتدقيق فيما له صلة مباشرة في الموضوع، واستبعاد ما ليس له صلة به، حتى إقتربت المادة من صلب الموضوع فبدأت العمل في تفصيل ما في العناوين فازداد حجم البحث، فعدت مرة

أخرى أدقق النظر أكثر فأكثر حتى لم يبق من النصوص إلا ما له علاقة مباشرة بأخلاق الحرب في عصر النبوة بحسب علمي وتجربتي، ثم باشرت الكتابة والتنسيق والمقارنة والتحليل والاستنباط والتقديم والتأخير، لإبراز أخلاق المجاهدين في الرسول ﷺ من عامة زوايا الحياة المتعلقة بمفاهيم الحرب، منذ مرحلة الإعداد لها، إلى ما بعد الإفراج عن الأسرى، وبعد التدقيق والتصفية وإعادة القراءة مرات ومرات، ظهر البحث بهذه الصورة التي أسأل الله تعالى أن يجعلها خالصة لوجهه الكريم وأن يسبغ عليها القبول عنده ﷻ ثم عند عباده الصالحين، ليضاف بذلك لبنة جديدة إلى زاد الدعاة وفن التعامل الشرعي مع الآخرين المنبثق من قيم وتجارب الصحابة الذين كان يرعاهم رسول الله ﷺ ويشاركهم بعلمه ونفسه الشريفة ﷺ.

عرض البحث

جاء هذا الموضوع بناء على خطة علمية منهجية منطقية، تهدف إلى تغطية جميع مفرداته بشكل متوازن متقارب، لا حيف فيه ولا تفريط، خال بقدر الإمكان من التكرار إلا بقدر ما يثبت المعلومة أوينبه إلى أهميتها وأصالتها، بعيداً عن الحشو والإطناب، شاملاً بقدر المستطاع لضوابط الحرب في عصر الرسالة، لا يستطرد وراء الأفكار لكي لا يخرج عن حدود الموضوع، ولا يبتر الأحداث فيقدمها مشوهة لا تخدم الحقيقة.

وقد جاء هذا الموضوع في **مقدمة وخمسة فصول**، في كل فصل **ثلاثة مباحث**، فاشتمل **الفصل الأول** على دراسة قيم وآداب أخلاق الحرب في عصر الرسالة، فأظهر المبحث الأول: قيم الصبر والحلم والعفو والرحمة التي يتمتع بها المسلمون، من خلال تعاملهم مع المشركين، وما مارسوه عليهم من الأذى والظلم! وأظهر المبحث الثاني: صبر المسلمين على محنة الهجرة وما رافقها من آلام وأخطار، وما سطروه من مواقف إنسانية رائدة، وتناول المبحث الثالث: الموقف من الحرب، وآداب المسلمين في عدم تمني لقاء العدو، وما اشتملت عليه ثقافتهم من الرحمة

والرفق والطاعة والحرص على الجماعة والوفاء بالعهود، والإشارة إلى ارتباطهم الدائم بخالقهم ﷻ واللجوء إلى الله تعالى في الدعاء وتفويض الأمر إليه سبحانه بعد الأخذ بجميع الأسباب المتاحة.

أما **الفصل الثاني**: فتحدث عن وسائل الإعداد والتدريب والتنظيم، ومكانة الشهادة في سبيل الله وضوابطها في عقيدتهم، فتناول المبحث الأول: وسائل الإعداد من الإنفاق في سبيل الله تعالى، ومباشرة التدريب واللياقة، وتعلم الرمي وسباق الخيل وما إلى ذلك، وجاء المبحث الثاني: حول وسائلهم في تنظيم أعمال الحرب واستعمال الرايات والشعارات وتنظيم التحركات، مع إظهار أخلاقهم في الشجاعة والصبر على القتال والمرابطة في سبيل الله، أما المبحث الثالث: فيعرض مكانة الشهادة في سبيل الله وضوابطها، والموقف من حقوق العباد، وأهل الأعذار في أخلاق الحرب في الرسالة.

واشتمل **الفصل الثالث**: على بيان الموقف من الضعفاء والجواسيس والأسرى، فبين المبحث الأول: الموقف من مشاركة المرأة في القتال وأعمال المساندة، وبيان تحريم قتل النساء والأطفال والمسالمين، وأظهر حرص المسلمين على تحرير الرقيق، والتعامل معهم وفقاً لوصية النبي ﷺ بهم. والمبحث الثاني: تناول مسألة الغنائم وأداء الأمانة، وشدة التحذير من الغلول. وفي المبحث الثالث: يتضح احتراس المسلمين وحذرهم وفهمهم لقوله ﷺ "الحرب خدعة" وبين الموقف من الجاسوس، وأظهر رقي وإنسانية وانضباط التعامل مع الأسرى في ميادين الحرب وبعد انتهاء المعارك في عصر الرسالة المباركة.

وبين **الفصل الرابع**: سبل ووسائل التواصل السلمي بين المسلمين والمشركين وأهل الكتاب، فأظهر المبحث الأول: أثر المعاهدات والرسل وكتب النبي ﷺ وموقف المشركين وأهل الكتاب من ذلك، وتناول المبحث الثاني: بيان أهمية الصلح والحرص عليه عند المسلمين، والمبحث الثالث: تحدث عن أهل الذمة والجزية وأهمية الوفاء لأهل الذمة وحمايتهم والدفاع عنهم، في كل ما قام به

الصحابة ﷺ في عصر الرسالة.

والفصل الخامس: بيّن الموقف الحربي المتوازن والمنضبط في التعامل مع مكر المنافقين وغدر اليهود، فبين المبحث الأول: خذلان المنافقين للنبي ﷺ وإرجافهم بالصحابة ﷺ ومحاولتهم الفتك برسول الله ﷺ وأهداف بنائهم لمسجد الضرار، وتحدث المبحث الثاني: عن تعامل المسلمين في عصر الرسالة مع اليهود والموقف من إعلان اليهود لهم بالعداوة ونقض العهود، وبيان صبر النبي ﷺ على زعمائهم الذين نقضو المواثيق وأعلنوا التعاون مع المشركين، وبيان الأسباب المشروعة التي دعت إلى التخلص من أولئك الزعماء، واتضح في المبحث الثالث: أسباب إجلاء اليهود من الحجاز، ثم الخاتمة ونتائج البحث وفيها بيان تمام الإجابة على سلسلة التساؤلات التي طرحت في هذه المقدمة، ولما توصلت إليه هذه الدراسة من نتائج وثمار يانعة، تجلت فيها أخلاق الحرب الحضارية المشرقة في عصر الرسالة، بعيداً عن شوائب المدلسين وغرائب المشوشين، وأباطيل أعداء الصحابة ومن يوافقهم من المستشرقين والصليبيين؛ وغيرهم من المتزمتين واللاموضوعيين، أو المرجفين والمهزومين، ثم قائمة المصادر والمراجع، ومحتويات البحث.

وفي نهاية هذه المقدمة؛ فإنّ هذا جهد المقل في هذا الميدان الفسيح، أدخره عند الله تعالى لظلمة القبر ويوم الحساب، وقد أبى الله تعالى أن يكون الكمال إلا لكتابه ﷻ فإن أحسنت فمن توفيق الله وفضله، وإن كانت الأخرى فلا حول ولا قوة إلا بالله، وحسبي أني أفرغت الوسع وبذلت الجهد، وأستغفر الله تعالى من كل خطأ وزلل يخالف الحق والصواب، والله من وراء القصد، وحسبي الله ونعم الوكيل.

حامد

الدوحة١٠/ ١١/ ١٤٣٠هـ

٢٩/ ١٠/ ٢٠٠٩

الفصل الأول

في قيم وآداب وأخلاق الحرب في عصر الرسالة

المبحث الأول

في قيم الصبر والحلم والعفو والرحمة

الموقف من أذى المشركين قبل الهجرة

لعل من أبرز القيم والثوابت في أخلاق الصحابة ﷺ؛ تجذر ثقافة الحلم والعفو والصفح والمسامحة والرحمة؛ ليس تجاه عامة الناس فقط، وإنما تجاه من مارس الظلم والقتل والحرمان والبهتان ضدهم، وهذه ثوابت حضارية وقيم أخلاقية تأكدت معانيها في مواقف رسول الله ﷺ ومن بعده في مواقف خلفائه الراشدين، ثم استمرت تُضيء صفحات الحضارة الإسلامية على مرّ العصور يرتفع منسوبها أحياناً إلى حد التنافس والمسابقة على تدوين أكبر وأوسع معانيها؛ وأحياناً ينخفض ذلك تحت وطأة آثار خارجية أو أفعال عدوانية غالباً ما تغلق أبواب التصالح والتسامح؛ حتى يضطر المسلم إلى الدفاع عن نفسه وأمته وعقيدته، فيصنع المغرضون من ذلك الحق المشروع، أو من بعض المواقف الدخيلة على الثقافة الإسلامية، مادة للتشهير بأخلاق الحرب في الإسلام عامة، ويعملون على تضليل الناس عن ثقافة كظم الغيظ والإحسان والعفو ومعاني قوله تعالى: ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٤] وقوله ﷻ: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فُصِّلَت: ٣٤] وقوله سبحانه: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ [فُصِّلَت: ٣٥] وأمثال ذلك مما يتخلق به المسلمون، ولا يوجد عند سواهم، وبناء على هذه الثوابت يمكن القول أن التشويش على القيم الإنسانية المتأصلة في الوقائع العسكرية التي خاضها

المسلمون في عصر النبوة؛ إنما هو من باب التخرص وثقافة الإفك التي ينميها خصوم عصر الرسالة، ذلك العصر الذي فاق بمواقفه الإنسانية جميع العصور حتى أصبح في موقع القدوة لكل موقف إنساني نبيل.

ولعل المطالع للسيرة النبوية بعلم وأمانة وعمق، يجد أن صفحات حربها أنقى وأطهر وأروع صفحات حرب خاضها البشر على وجه الأرض، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[الأنبياء: ١٠٧] فهذه التوجيهات المبنية على الرحمة والصبر والتسامح هي التي أثمرت أمّة الصحابة الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[آل عمران: ١١٠] تلك الأمة الرائدة التي كانت تعمل بهدي قوله تعالى:﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣] وقوله تعالى:﴿وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[التغابن: ١٤] وقوله ﷻ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: ١٤] ونحو هذه المعاني التي بلورت قواعد أساسية، وثوابت أخلاقية في الحضارة الإسلامية، تجلّت فيها قيم الصبر والعفو والحلم على أوسع نطاق، فكان النبي ﷺ وأصحابه الكرام يعفون عن المشركين وعن أهل الكتاب عفواً عملياً تطبيقياً، ويصبرون على أذاهم ونقضهم، عملاً بقوله تعالى: ﴿۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦] وقوله ﷻ: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فكان النبي ﷺ يتأول في العفو بما أمر الله

به[1] ويصبر على ألوان الأذى والفتنة التي صبّت عليه ﷺ وعلى أصحابه ﷺ يظهر ذلك في مواجهته الحليمة الهادئة لكثير من العنت والكِبر والتكذيب الذي واجه به المشركون مسيرة النبوة على مدى سنين طويلة.

ومن صور ما لقيَ رسول اللّه ﷺ من أذى قومه: "حثو سفهائهم التّراب على رأسه ﷺ ومنها أنّهم كانوا ينضدون الْفَرْثَ والأَفْحاث والدّماء على بابه ﷺ ويطرحون رحم الشّاة في بُرمته ومنها: بَصْقُ أُميّة بن خلفٍ في وجهه ﷺ ومنها: وَطْءُ عقبة بن أبي مُعَيْط على رقبته وهو ساجد عند الكعبة حتّى كادت عيناه تبرزان ﷺ ومنها أخذهم بمخنقه حين اجْتَمَعُوا لَهُ عِنْدَ الْحِجْرِ، وَقَدْ ذَكَرَهُ ابْنُ إسْحَاقَ، وَزَادَ غَيْرُهُ الْخبر أَنّهُمْ خَنَقُوهُ خَنْقًا شَدِيدًا ﷺ وقام أبو بكر دونه فجبذوا رأسه ولحيته حتّى سقط أكثر شعره وأمّا السّبّ والهجو والتّلقيب وتعذيب أصحابه وأحبّائه وهو ينظر ... وقد قال أبو جَهْلٍ لِسُمَيّةَ أُمّ عَمّارِ بْنِ يَاسِرٍ: مَا آمَنْت بِمُحَمّدٍ إلاّ لأنّك عَشِقْته لجماله ﷺ ثُمّ طعنها بِالْحَرْبَةِ فِي قُبُلِهَا حَتّى قَتَلَهَا رضي الله عنها، وَالأَخْبَارُ فِي هَذَا الْمَعْنَى كَثِيرَةٌ"[2] قال عبد الله بن مسعود ﷺ: بينما رسول الله ﷺ يصلي عند البيت، وأبو جهل وأصحاب له جلوس، وقد نحرت جزور بالأمس. فقال أبو جهل: أيكم يقوم إلى سلا جزور بني فلان فيأخذه، فيضعه في كتفي محمد إذا سجد؟ فانبعث أشقى القوم فأخذه. فلما سجد النبي ﷺ وضعه بين كتفيه. قال: فاستضحكوا وجعل بعضهم يميل على بعض، وأنا قائم أنظر لو كانت لي منعة طرحته عن ظهر رسول الله ﷺ والنبي ﷺ ساجد، ما يرفع رأسه، حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة رضي الله عنها فجاءت وهي جويرية، فطرحته عنه، ثم أقبلت عليهم تشتمهم، فلما قضى النّبي ﷺ صلاته رفع صوته ثم دعا عليهم، فلما سمعوا صوته

(١) ابن حجر: البخاري بشرح فتح الباري، كتاب التفسير، تفسير سورة آل عمران، شرح الحديث (٤٢٩٠).

(٢) السهيلي: الروض الأنف، ٢/ ٤١.

ﷺ ذهب عنهم الضحك، وخافوا دعوته ﷺ[1] ولعل موقف ابن مسعود ﷺ وهو يرى رسول الله ﷺ يؤذى علانية وقلبه يتقطع حسرات على نبيه ﷺ وهو لا يستطيع أن يغير ساكناً، ولا نصير ولا معين أو منكر لذلك العدوان، يبين صبر الصحابة وبعض ما كانوا يكابدونه من المشركين، وواضح في موقف قريش الاستفزازي المتعمد هذا تجاه رسول الله ﷺ كِبر الجاهلية وموت المروءة الذي قادهم إلى مثل هذا الفعل المشين، الذي لو تعرض له غير رسول الله ﷺ لكان من الممكن أن يوقد حرباً قد تأتي على وحدة قريش وأمنها ومكانتها، ولكن اكتفاء رسول الله ﷺ بالدعاء وامتصاصه لآثار ذلك الفعل المؤلم بحلمه ﷺ الذي تجلت فيه أخلاق النبوة وقدرتها على الاستيعاب والتجاوز، أسهم في استمرار الأمن والهدوء في مكة، وذلك يؤكد أمراً لازال مستقراً في نفوس المؤمنين ألا وهو حبهم للسلام والأمن وحرصهم على عافية الأمة ووحدتها؛ وإن كان ذلك على حساب استقرارهم وحقوقهم المشروعة، فما أحوج الدعاة في هذا العصر إلى التمسك بمنهج النبي ﷺ وسيرته، سعياً وراء تجديد ما اندرس من معالم الدين ووحدة المسلمين.

قالت الطاهرة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله! هل أتى عليك يوم كان أشدّ من يوم أحد؟ فقال ﷺ: " لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرَضت نفسي على ابن عبد يا ليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا بقرن الثعالب[2] فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني، فقال: إن الله عزّ وجل قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، قال: فناداني ملك الجبال وسلم عليّ، ثم قال: يا محمد

---

(١) مسلم: صحيح مسلم، كتاب، الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، ح(١٧٩٤).

(٢) قرن الثعالب: اسم موضع بقرب مكة، وأصل القرن كل جبل صغير منقطع من جبل كبير. والثعالب جمع ثعلب وهو الحيوان المشهور ولعله سمي الموضع بذلك لكثرة الثعالب فيه. ينظر شرح الحديث.

إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك، فما شئت؟! إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين " فقال له رسول الله ﷺ: "بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم، من يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئاً "[١]
وفي هذا الموقف النبوي العظيم يتبين حب السلم والعافية في أخلاق المسلم، ولم يكن ذلك صادراً عن ضعف بقدر ما هو خُلق ثابت في عقيدته، وسمتٌ ظاهر في مواقفه ﷺ وإلا فإنه من المعلوم أنّ أي صحابي يتشرف بافتداء رسول الله ﷺ بنفسه وماله، اتضح ذلك في مواقفهم العملية في يوم الهجرة ويوم أُحد وغير ذلك، كما أنّ محبّة النّبي ﷺ التي تزيد على النفس والولد هي علامة الإيمان برسول الله ﷺ قال ﷺ: " لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين "(٢).

وإذا كان الصحابة ﷺ عاجزين عن الدفاع عن رسول الله ﷺ في مكة، فإن موقف رسول الله ﷺ في رده على ملك الجبال ورجائه أن يُخرج الله من الذين يكذبونه ويؤذونه ﷺ ذرية توحد الله تعالى وتعبده، مصداق لأهمية السلام والمسامحة والرحمة في أخلاق رسول الله ﷺ وهذا يبين الفرق الواسع بين من يتخلق بأخلاق العفو أحياناً للحصول على مكاسب سياسيةٍ أو لتحقيق بعض التحالفات العسكرية أو المزايا الاقتصادية، وبين من يدين بخلق العفو وعقيدة التسامح أصالة، ويرجو من الله وحده المكافأة والقبول، حتى شهد القرآن الكريم لرسول الله ﷺ أنه كان يعزّ عليه عناد المشركين ويؤلمه إعراضهم، قال تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[التوبة: ١٢٨] فكانت قيم الحرص على هداية المشركين والشفقة عليهم ثابتة عند النّبي ﷺ وأصحابه ﷺ فأي دعوة تخلصت من أهوائها وعملت بهذه القيم لله تعالى ولم تفلح ويتحقق لها النجاح والظفر؟!.

---

(١) مسلم: صحيح مسلم، كتاب، الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، ح (١٧٩٥). البخاري: الجامع الصحيح، كتاب بدأ الخلق، باب إذا قال أحدكم آمين، ح (٣٠٥٩).

(٢) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الإيمان، باب حب الرسول من الإيمان، (١٥) صحيح مسلم: كتاب ا لإيمان، باب وجوب محبة رسول الله ﷺ ح (٤٤) ابن حجر: العجاب في بيان الأسباب، ٢/ ٩١٥. ابن أبي العز الحنفي: شرح العقيدة الطحاوية، ١/ ٣٤٢.

حرب المشركين للنبي ﷺ بالإغراءات ومطالب التعجيز والسخرية

لم يقتصر المشركون على لون واحد في حربهم المعلنة والصامتة على رسول الله ﷺ فاستعملوا حرب الإغراءات وتزيين الدنيا بكل شهواتها بما في ذلك المال والنساء والملك. قال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: اجتمعت قريش يوماً فقالوا: انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر، فليأت هذا الرجل الذي فرّق جماعتنا وشتت أمرنا وعاب ديننا فليكلمه ولينظر ماذا يرد عليه، فقالوا: ما نعلم أحداً غير عتبة بن ربيعة، فقالوا: أنت يا أبا الوليد، فأتاه عتبة فقال: يا محمد أنت خير أم عبد الله ؟ فسكت رسول الله ﷺ ثم قال: أنت خير أم عبد المطلب؟ فسكت رسول الله ﷺ فقال: إن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التي عبتها، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى نسمع قولك، إنا والله ما رأينا سخلة قط أشأم على قومه منك، فرّقت جماعتنا وشتت أمرنا وعبت ديننا وفضحتنا في العرب حتى لقد طار فيهم أن في قريش ساحراً، وأن في قريش كاهناً، والله ما ننتظر إلا مثل صيحة الحبلى أن يقوم بعضنا لبعض بالسيوف حتى نتفانى، أيها الرجل إن كان إنما بك الباءة فاختر أي نساء قريش ونزوجك عشراً، وإن كان إنما بك الحاجة جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش رجلاً واحداً، فقال رسول الله ﷺ: " أفرغت ؟ قال: نعم، فقرأ ﷺ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ [فُصِّلَت: ١-٢] حتى بلغ ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فُصِّلَت: ١٣] فقال عتبة: حسبك حسبك ما عندك غير هذا ؟ قال: لا فرجع إلى قريش فقالوا: ما وراءك؟ قال: ما تركت شيئاً أرى أنكم تكلمونه به إلا وقد كلمته به .فقالوا: فهل أجابك ؟ قال: نعم، قال: لا والذي نصبها بنية ما فهمت شيئاً مما قال غير أنه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود، قالوا: ويلك يكلمك رجل

بالعربية لا تدري ما قال. قال: لا والله ما فهمت شيئاً مما قال غير ذكر الصاعقة[1] وبعد هذا اللقاء المثير الذي اشتمل على نوع من الاستعطاف ودغدغة مشاعر الحرص على سمعة القبيلة ووحدتها، كمقدمة للإفصاح عن استعداد قريش أن تجعل منه ﷺ رجلها الأوحد في كل شيء مع ما رافق ذلك من عرض مغريات المال والنساء والملك، بعد ذلك قال رسول الله ﷺ: "ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكنّ الله بعثني إليكم رسولاً وأنزل عليّ كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا منّي ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم"[2].

وكان القرآن الكريم يتولّى الردّ على ما يطلبه المشركون من رسول الله ﷺ على سبيل التعجيز والاستهزاء، وعلى ما يثيرونه من شبهات لتنفير الناس عنه ﷺ وكل ذلك كان يتنزل بأوضح الردود وأفصحها وأكملها، وهم يعلمون أن ذلك ليس من قول البشر، ولكنّه العناد والكِبر ورفض الحق الذي كان يتلبس به المشركون. فأنزل الله فيما سأله قومه لأنفسهم من تسيير الجبال وتقطيع الأرض وبعث من مضى من آبائهم: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الرعد: ٣١]. وأنزل الله فيما قال عبد الله بن أبي أمية ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ [الإسراء:٩٠ - ٩٣][3] وأنزل عليه فيما

---

(١) ابن أبي شيبة: كتاب التاريخ والمغازي، في أذى قريش للنبي ﷺ ح (٣٦٥٦٠) مسند أبي يعلى: مسند جابر (١٨١٨).

(٢) المتقي الهندي، كنز العمال، ٦/ ٢١١، ح (١٥١٦٤) ابن سيد الناس: عيون الأثر، ١/ ١٩٥. ابن هشام: السيرة النبوية، ٢/ ١٣٦.

(٣) ينظر ابن سيد الناس: عيون الأثر، ١/ ١٩٥. ابن هشام: السيرة النبوية، ٢/ ١٣٦.

عرضوا من أموالهم ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [سبأ: ٤٧] فلما جاءهم رسول الله ﷺ بما عرفوا من الحق حال الحسد والكِبر بينهم و بين اتباعه.

فقال أبو جهل يوماً وهو يهزأ برسول الله ﷺ وما جاء به من الحق يا معشر قريش يزعم محمد أن جنود الله الذين يعذبونكم في النار ويحبسونكم فيها تسعة عشر وأنتم الناس كثرة وعدداً أفيعجز كل مائة رجل منكم عن رجل منهم ؟ فأنزل الله عز و جل في ذلك: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [المدثر: ٣١] [(١)] فلم يكن تكذيب زعماء قريش عن جهل بما جاء به النبي ﷺ وإنما كثير من تلك المواقف كانت مبنية على غمط الناس وسفه الحق، يتبين هذا في قول أبي جهل: "تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنّا كفرسي رهان. قالوا: منّا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدّقه![(٢)]".

وعلى الرغم من بعض المحامد التي كان يتخلق بها المشركون، إلا أنهم لم يكونوا يتنزهون عن اقتناص الفرص الانتهازية، كما فعل أبو جهل مع الإراشي كهلة الأصغر حين ابتاع منه الإبل ومطله بأثمانها، ومن ثم دلالة قريش إياه على رسول الله ﷺ لينصفه من أبي جهل استهزاء، لما يعلمون ما بينهما من العداوة "فخرج ﷺ حتى جاءه فضرب عليه بابه فقال: من هذا؟ فقال: محمد فخرج إليه وما في وجهه من رائحة قد انتقع لونه فقال: "أعط هذا حقه" قال: نعم لا تبرح حتى

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، ٢/ ١٣٦. ابن سيد الناس: عيون الأثر، ١/ ١٩٥.

(٢) ابن سيد الناس: عيون الأثر، ١/ ١٩٥. ابن هشام: السيرة النبوية، ٢/ ١٣٥.

أعطيه الذي له فدفعه إليه[1] ولعل المتبصر في مواقف مشركي قريش هذه لا يجد لهم عذراً في ما كانوا يقومون به، سوى غياب الرحمة والشفقة على الضعيف في الكثير من قيم الجاهلية، وأحياناً انتهاز فرصة الحلم عند رسول الله ﷺ وأصحابه ﷺ للمضي فيما هم عليه من تطاول على المسلمين، وتظاهر بالقوة أمام المشركين، وكما هو حاضر في كثير من صور التعامل مع المسلمين في هذا العصر، وإلا فإنّ المدقق في بعض مواقف السيرة النبوية يستشف أن رسول الله ﷺ كان بوسعه مواجهة المشركين مواجهة ذات طابع حربي بأكثر من وسيلة ووجه، ولكن صراحته وكراهيته للمداهنة وحرصه على الوحدة وبغضه للفتن وحبه لهداية الناس؛ كان يفرض عليه التسلح بالحلم وأخلاق العفو والصفح والتسامح، فعلى الرغم من أن قريشاً تتعامل مع رسول الله ﷺ بالسخرية لكنه إذا رأى ما ينصر المظلوم؛ يقتحم عليهم طغيانهم فيرد الحق إلى أصحابه غير منقوص، مما يؤكد أصالة الشجاعة في أخلاق المسلمين وحرصهم على الحق ونصرة الضعيف.

من ألوان الأذى التي واجهها النبي ﷺ بالصبر والحلم والعفو

بعد أن أثبت ﷺ نقاء مقصده وصفاء معتقده وأنه لا يريد من الناس مكافأة ولا مكانة، وإنما هو مكلف بأمانة يقوم بأدائها، فلما رفض مغريات المشركين، واجهوه بحرب الاستهانة والتكذيب لما جاء به ﷺ من قيم ربانية تخاطب الجميع. قال ربيعة بن عبّاد الدؤلي ﷺ: رأيت رسول الله ﷺ بذي المجاز[2] يتبع الناس في منازلهم يدعوهم إلى الله ﷻ ووراءه رجل وهو يقول: يا أيها الناس لا يغرنّكم عن

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، ٢/ ١٣٥. ابن سيد الناس: عيون الأثر، ١/ ١٩٥.

(٢) ذي المجاز: موضع بمِنًى كانت به سوق في الجاهلية. وقيل فيه إنه موضع عند عَرَفات كان يُقام فيه سُوقٌ في الجاهلية والميم فيه زائدة وقيل سمي به لأن إِجازَةَ الحاج كانت فيه. ابن منظور: لسان العرب، مادة (جوز) ٥/ ٣٢٦.

دينكم ودين آبائكم!! قلت من هذا: قالوا عمّه أبو لهب[1] وفي قوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت: ١٣] كان أبو جهل وصناديد قريش يتلقون الناس إذا جاءوا إلى النبي ﷺ يسلمون، فيقولون لهم: إنّه يحرم الخمر ويحرم الزنا ويحرم ما كانت تصنع العرب فارجعوا فنحن نحمل أوزاركم، فنزلت هذه الآية[2] ومن وسائل المشركين في مواجهة أخلاق المسلمين القائمة على العفو والتجاوز والصفح، تكذيب ما يأتي به النبي ﷺ مما يراه بعينه أو مما ينزل عليه من الوحي على الرغم من شعورهم بأن ذلك قائم على حقائق يصدقها واقع الحياة، كما فعل حين حدثهم عن ليلة الإسراء فكذبوه ﷺ وطلبوا منه وصف بيت المقدس فوصفه. فقال القوم: أما النعت فو الله لقد أصاب[3] ومع شهادتهم بصدق النّبي ﷺ في كل ما قاله إلا أن أحقاد الجاهلية أعمتهم عن رؤية الحقيقة، حتى دخلوا في تكذيب قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١].

ولما مرض أبو طالب دخل عليه رهط من قريش فيهم أبو جهل، فقالوا: إن ابن أخيك يشتم آلهتنا ويفعل ويفعل ويقول ويقول، فحين سأله أبو طالب عن ذلك، قال النبي ﷺ: يا عم إنما أريدهم على كلمة: "لا إله إلا الله" قال: فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم، وهم يقولون: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥][4]

---

(١) سنن البيهقي، كتاب السير، باب مبتدأ الفرض على النبي ﷺ ثم على الناس، وما لقي النبي ﷺ من أذى قومه، (١٧٥٠٥).

(٢) السيوطي: الدر المنثور، ٦/ ٤٥٤. سورة العنكبوت، تفسير الآية، (١٢، ١٣).

(٣) البخاري: كتاب فضائل الصحابة، باب حديث الإسراء، (٣٦٧٣) ابن عساكر: تاريخ دمشق، ٤١/ ٢٣٥.

(٤) الطبري: جامع البيان عن تأويل القرآن، ١٠/ ٥٥٠ سورة ص الآية (٥) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، سورة ص، الآية (٤، ٥).

وهكذا أصرّ المشركون على ردّ الصواب والرشد والإيغال في نصرة الأصنام، ومشوا إلى أبي طالب مرة أخرى بعمارة بن الوليد بن المغيرة فقالوا له: هذا عمارة بن الوليد أنهد فتى في قريش وأشعره وأجمله فخذه، فلك عقله ونصرته واتخذه ولداً فهو لك؛ وأسلم لنا ابن أخيك هذا الذي قد خالف دينك ودين آبائك وفرق جماعة قومك وسفه أحلامهم فنقتله فإنما رجل برجل فقال والله لبئس ما تسومونني أتعطونني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه هذا والله ما لا يكون أبداً[1].

ولعل في هذا ما يؤكد أخلاق الجاهلية حتى في هذا العصر عندما يُطَالب المسلم بترك دينه، والخضوع لأديان الآخرين فإن أبى رمي بألوان التهم والبهتان! مما يؤكد الفارق الكبير بين مواقف المسلمين الحريصة على وحدة الكلمة، والداعية إلى تجاوز الجمود الاعتقادي، والتعلق بالأصنام وامتداداتها الأخرى، والخروج من حال التقوقع التي يعيشها المشركون حول مصالحهم فقط؛ إلى الانفتاح الحضاري على العالم الفسيح، وبين ما كان يتعامل به المشركون ولا زالوا، بعقلية السيد والتابع، وإسقاط حقوق الآخرين في حرية الاعتقاد والعبادة ونمط الحياة.

ولما فشلت قريش آنذاك في تحقيق أهدافها كشّرت عن حقيقتها وأفصحت عن هويتها وظهرت وحشيتها التي لا ترحم؛ ولا تبحث عن المسوغات لإنزال أقصى ما يمكن من الأذى على من يخالف رأيها؛ حتى لو كان في ذلك الخلاف صلاحها ووحدة صفها، **فانقلبوا على المؤمنين يسومونهم سوء العذاب**، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم[2] ولا سيما بلال وخبّاب وصهيب وعمّار حيث أُلبسوا أدراع الحديد ثم صهروهم في الشمس حتى بلغ الجهد منهم كل مبلغ، فأعطوهم ما سألوا، فجاء إلى كل رجل منهم قومه بأنطاع الأدم فيها الماء فألقوهم فيها ثم حملوا بجوانبه، فلما كان العشي جاء أبو جهل فجعل يشتم سميّة ويرفث: ثم طعنها فقتلها فهي أول شهيد استشهد في

---

(١) الطبري: محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ، ١/ ٥٥٤.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ١/ ٥٥٤.

الإسلام، أما بلال فإنه هانت عليه نفسه في الله حتى ملّوا فجعلوا في عنقه حبلاً ثم أمروا صبيانهم فاشتدوا به بين أخشبي مكة وجعل يقول: أحد أحد[1] وقال الشعبي: أعطوهم ما سألوا إلا خبّاب، فجعلوا يلصقون ظهره بالرضف حتى ذهب ماء متنيه[2] قال خباب ﷺ شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة فقلنا ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا؟ فقال: "قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه فما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمنّ هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون"[3].

فكان النبي ﷺ يربي أصحابه على قوة الصبر والتحمل ويستنفر طاقاتهم في هذا الميدان لمزيد من العطاء خدمة للدين ونصرة لخُلق الرحمة والعفو الذي يسعى النبي ﷺ إلى تأصيله في ضمائرهم، ليجعل من ذلك الخلق بوابة للتلاقي والتآلف والمودة، دون أن يغفل ﷺ عن تغذية الأمل والبشارة في قلوبهم ووعدهم بأن المستقبل لهذا الدين بما فيه من القيم الرفيعة والأخلاق السامية[4] وعلى الرغم من أنّ أبا طالب بذل كل ما في وسعه لحماية ابن أخيه ﷺ إلا أن قريشاً كانت تعمل على النيل منه بوسائل متنوعة، سوى التكذيب والتسفيه، فقد مارست معه ﷺ

(١) الخلال: السنة، ٢/ ٤٤٧. ابن كثير: السيرة النبوية، ١/ ٤٣٦. الملطي: التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع، ١/ ٨٩.

(٢) ابن أبي شيبة: المصنف، كتاب الجهاد، ح (٣٦٥٨٨)، (٣٣٨٧٠). الطبري: جامع البيان عن تأويل أي القرآن، ٧/ ٦٥٠.

(٣) البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٤١٦) ابن حبان: صحيح ابن حبان، ١٥/ ٩١، ح (٦٦٩٨).

(٤) ينظر ابن أبي شيبة: المصنف، كتاب الجهاد، ح (٣٦٥٨٨)، (٣٣٨٧٠). الطبري: جامع البيان عن تأويل أي القرآن، ٧/ ٦٥٠.

أسلوب التحدي الاستفزازي التعجيزي، في مثل قولهم لرسول الله ﷺ: إن كنت نبياً كما تزعم فباعد جبلي مكة أخشبيها هذين مسيرة أربعة أيام أو خمسة، فإنها ضيقة حتى نزرع فيها ونرعى، وابعث لنا آباءنا من الموتى حتى يكلمونا ويخبرونا أنك نبي، واحملنا إلى الشام أو إلى اليمن أو إلى الحيرة حتى نذهب ونجيء في ليلة كما زعمت أنك فعلته، فأنزل الله تعالى[1]: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [الرعد: ٣١] وأمثال ذلك التعنت كثير في مواقف المشركين في مكة.

وعلى الرغم من كل ما لاقاه رسول الله ﷺ وأصحابه ﷺ من صلف ونكران المشركين لصبرهم وحلمهم وتواضعهم؛ فإن ذلك لم يغير في نفوسهم شيئاً من تلك القيم نظراً لأصالتها في عقيدتهم، ولنقائهم من الأحقاد وحب الانتقام والتشفي. قال جابر ﷺ: إن رسول الله ﷺ لبث عشر سنين يتبع الحاج في منازلهم في المواسم: في مجنّة[2] وعكاظ[3] ومنازلهم بمنى؛ من يؤويني وينصرني حتى أبلغ رسالات ربي وله الجنة، فلم يجد أحداً يؤويه وينصره حتى أنّ الرجل ليدخل صاحبه من مصر

---

(١) ابن أبي شيبة: المصنف، كتاب المغازي، في أذى قريش للنبي ﷺ ح (٣٦٥٦٩).

(٢) مجنّة: على أميال من مكة. قال بلال ﷺ: وهل أرِدَنْ يوماً مِياهَ مَجَنَّةٍ   وهل يَبْدُوَنْ لي شامةٌ وطَفِيلُ؟ قال ابن الأثير مَجَنَّة موضع بأسفل مكة على أميال وكان يُقام بها للعرب سُوق قال وبعضهم يكسر ميمها والفتح أكثر. ابن منظور: لسان العرب، مادة (مجن).

(٣) عُكاظ اسم سوق كان العرب يجتمعون فيها كلّ سنة شهراً ويتناشدون ويتفاخرون ثُمَّ يفترقون فهدمه الإسلام، وكانت فيها وقائع

يقول فيها دريد بن الصِمّة: تغيبت عن يومَيْ عكاظ كليهما ... وإن يكُ يومٌ ثالثٌ أتغيّب. وهو من مكّة على مرحلتين أو ثلاث. الفراهيدي: كتاب العين، ١/ ١٩٦. مادة (العين والكاف والظاء).

واليمن، فيأتيه قومه أو ذوو رحمه فيقولون: احذر فتى قريش لا يصيبك، وهو يمشي بين رحالهم يدعوهم إلى الله يشيرون إليه بأصابعهم، حتى يبعث الله من يثرب فيأتيه الرجل منّا فيؤمن به ويقرئه القرآن فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه، حتى لم تبق دار من دور يثرب إلا فيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام، فاجتمعنا سبعين رجلاً منا فقلنا حتى متى رسول الله ﷺ يطرد في جبال مكة ويخال أو قال ويخاف فرحلنا حتى قدمنا عليه الموسم فوعدنا شعب العقبة[1] فاجتمعنا فيه من رجل ورجلين حتى توافينا فيه عنده فقلنا يا رسول الله علام نبايعك قال ﷺ: تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، وعلى النفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن تقولوا في الله لا يأخذكم في الله لومة لائم، وعلى أن تنصروني إن قدمت عليكم يثرب وتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة، فقلنا نبايعك فأخذ بيده أسعد بن زرارة ﷺ وهو أصغر السبعين رجلاً إلا أنا. فقال: رويداً يا أهل يثرب إنّا لم نضرب إليه أكباد المطي إلا ونحن نعلم أنه رسول الله ﷺ وأن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة، وقتل خياركم وأن تعضكم السيوف، وأما أنتم قوم تصبرون على عض السيوف وقتل خياركم ومفارقة العرب كافة؛ فخذوه وأجركم على الله، وأما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه فهو أعذر لكم عند الله، فقالوا أخر عنّا يدك يا أسعد بن زرارة فوالله لا نذر هذه البيعة ولا نستقيلها فقمنا إليه رجلاً رجلاً يأخذ علينا شرطه ويعطينا على ذلك الجنة[2]. واستمر خُلق الرحمة والتسامح بعد هذه البيعة المباركة التي كان لها أبعاد جديدة وآثار واسعة، ولم يتغير رسول الله ﷺ وأصحابه على من كان يسومهم العذاب، ولم يصعدوا في المواجهة مع المشركين، واستمرت

---

(١) العقبة: بين منى ومكة ومنها ترمى جمرة العقبة. ياقوت: معجم البلدان، ٤/ ١٣٤.

(٢) البيهقي: سنن البيهقي، كتاب السير، باب مبتدأ الفرض على النبي ﷺ ثم على الناس وما لقي النبي ﷺ من أذى قومه، (١٧٥١٣).

قيم الحلم والاحتساب والصفح ثابتة لا تتزحزح، ولكن المشركين لم يفيقوا من سكرة ظلمهم ولم يبدلوا منهج بغيهم؛ وزادهم ذلك الأمر إيغالاً في الجريمة حتى راودتهم أحقادهم على قتل رسول الله ﷺ ومحاولة اغتياله بوسائل متعددة وتزيين ذلك للناس تحت مسوغات فاسدة، كما تبين ذلك في عرضهم مبادلة عُمارة بن الوليد برسول الله ﷺ وتسليمه للمشركين ليقتلوه ﷺ.

محاولات المشركين قتل النبي ﷺ قبل الهجرة

إن محالات قتل النبي ﷺ الفردية والجماعية، السرّية والعلنية؛ ما هي إلا إعلان حرب شاملة على المسلمين لاستئصال شأفتهم وإنهاء دعوتهم، لذلك لا يمكن تجاوزها دون الإشارة إليها وإمعان النظر في وسائل معالجتها، والآثار التي تركتها في نفوس المسلمين، وموقف النبي ﷺ ممن كان يقود تلك الأعمال أو ينفذها في حال الاستضعاف وحال القوة التي مرّ بها المسلمون في عصر الرسالة.

فمن المحاولات الفردية المبكرة التي استهدفت رسول الله ﷺ ما روي عن أنس بن مالك ؓ قال: "خرج عمر ؓ متقلداً السيف فلقيه رجل من بني زهرة فقال له أين تعمد يا عمر قال أريد أن أقتل محمدا"[1] وهذه المحاولة وإن كانت قد ختمت بإسلام عمر ؓ وتحوله إلى نصير عظيم للإسلام، إلا أنها تظهر إلى أي حد بلغت ثقافة الحقد على رسول الله ﷺ التي تبثها قريش في نفوس أبنائها آنذاك، لاستئصال دعوة النبي ﷺ من بداية شروعه العلني في تبليغها، وذلك باستهدافه شخصياً ﷺ بقصد قتله، ولكن النّبي ﷺ بصبره وحلمه ودعائه غالباً ما كان يحوّل تلك المواقف إلى صالح المسلمين ومصلحة الدعوة الإسلامية الناشئة آنذاك، ولم يؤثر أنه ﷺ استخدم العنف في يوم من الأيام ضد مناهضي دعوته، أو المعتدين على أصحابه

---

(١) ابن حجر: فتح الباري، فضائل الصحابة، مناقب عمر، شرح الحديث (٣٤٨١) ابن عساكر: تاريخ دمشق، ٤٤/ ٣٤. الدارقطني: سنن الدارقطني، ١/ ١٢٣، ح (٧). ابن الجوزي: صفة الصفوة، ١/ ٢٦٩.

ﷺ واستمر متمسكاً بمنهج الكف والعفو والتصالح، حتى هاجر من مكة مرغماً تحت وطأة تهديد السلاح الذي استهدفه وهو في الحرم مصلياً وساجداً؛ واستهدفه وهو في بيته وعلى فراشه بغياً وحسداً وظلماً، ومن محاولاتهم العلنية التي صدرت بتدبير من كبارهم، ما رواه عمرو بن العاص ؓ حين قال: " ما رأيت قريشاً أرادوا قتل النبي ﷺ إلا يوماً ائتمروا به وهم جلوس في ظل الكعبة ورسول الله ﷺ يصلي عند المقام، فقام إليه عقبة بن أبي معيط فجعل رداءه في عنقه ثم جذبه حتى وجب لركبتيه ساقطاً ﷺ وتصايح الناس فظنوا أنه مقتول، فأقبل أبو بكر يشتد حتى أخذ بضبعي رسول الله ﷺ من ورائه وهو يقول: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ (غافر: من الآية٢٨). ثم انصرفوا عن النّبي ﷺ فقام رسول الله ﷺ فصلّى، فلما قضى صلاته مرّ بهم وهم جلوس في ظل الكعبة، فقال ﷺ: " يا معشر قريش! أما والذي نفس محمد بيده! ما أرسلت إليكم إلا بالذبح، وأشار بيده إلى حلقه، قال: فقال له أبو جهل: يا محمد! ما كنت جهولاً، قال: فقال رسول الله ﷺ: أنت منهم!"[(١)].

ولم يتعظ أبو جهل بما سمعه من رسول الله ﷺ وهو يعلم أنه الصادق الأمين الذي إذا تكلم اليوم كلاماً جاء تصديقه في الغد القريب على أرض الواقع، لأن ثقافة الكراهية التي كانت تنفثها الجاهلية أزاحت ضوابط الحياة الآمنة، وقيم العرب التي كان زعماؤهم وقادتهم يفاخرون بها، ولم يكتف أولئك بالتنازل عن تلك القيم الكريمة، حتى أصبحوا يجاهرون بما هو ضدها، ويتمالؤون على ما هو معيب في تعامل الأقوياء مع الضعفاء والمسالمين، ولكن الجهل بالرسالة النبوية، جعلهم يقعون في تلك العداوات الشديدة والمواقف المشينة، فهذا أبو جهل يجاهر بذلك أمام قريش قائلاً: " يا معشر قريش إني أعاهد الله لأجلسن له غداً بحجر ما أطيق

---

(١) البخاري: خلق أفعال العباد، ١/ ٧٤. ابن حبان: صحيح ابن حبان بترتيب ابـن بلبـان، ١٤/ ٥٢٩، ح (٦٥٦٩).

حمله، فإذا سجد في صلاته فضخت به رأسه ﷺ فأسلموني عند ذلك أو امنعوني! فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم. قالوا: والله لا نسلمك لشيء أبداً فامض لما تريد! فلما أصبح أبو جهل أخذ حجراً كما وصف ثم جلس لرسول الله ﷺ ينتظره، وغدا رسول الله ﷺ كما كان يغدو، فلما سجد رسول الله ﷺ احتمل أبو جهل الحجر ثم أقبل نحوه، حتى إذا دنا منه رجع منهزماً منتقعاً لونه مرعوباً، قد يبست يداه على حجره، حتى قذف الحجر من يده، وقامت إليه رجال من قريش فقالوا له: مالك يا أبا الحكم ؟ قال: قمت إليه لأفعل ما قلت لكم البارحة، فلما دنوت منه عرض لي دونه فحل من الإبل، لا والله ما رأيت مثل هامته ولا قصرته ولا أنيابه بفحل قط، فهمّ بي أن يأكلني[1] ولكنه سرعان ما نسي ذلك وعاد يمارس ظلمه وعدوانه، ولم يتعظ من كان يعينه على العدوان.

ومع ما كان يشاهده زعماء المشركين من الآيات الملموسة، والمواقف الرحيمة الكريمة التي يلين لها الحجر، ازدادوا عتواً وعناداً وإصراراً على الإثم والبغي، حتى قاد أبو جهل المشركين في محاولتهم المفضوحة لاغتيال رسول الله ﷺ تلك المحاولة التي جاءت بعد مشاورات في دار الندوة استنفر لها أهل الشرك كل ما لديهم من مكر، ومن تحالفات جاهلية، استثمروها لتنفيذ ذلك المخطط الفاجر، الذي بلغ أقصى درجات العدوانية، لما فيه من الإصرار على الجريمة، والمشاركة العلنية والعمل الجماعي الهادف إلى قتل رسول الله ﷺ وذبحه في بيته وعلى فراشه ﷺ إمعاناً في الظلم وسقوطاً في مهاوي الغدر، وقطيعة الرحم وإثارة الأحقاد والثارات، وبذر الفتنة، وتغذية روح الانتقام، وذلك حين أقرّ المجتمعون ومعهم إبليس الذي حضر بصورة شيخ نجدي رأي أبا جهل القائل: أرى أن نأخذ من كل قبيلة من قريش غلاماً نهداً جلداً، ثم نعطيه سيفاً صارماً، فيضربونه ضربة رجل واحد، فيتفرق دمه

---

(١) ابن سيد الناس: عيون الأثر، ١/ ١٩٥. السيرة النبوية، ٢/ ١٣٦. الأصبهاني: دلائل النبوة، (٢٦٤) الهندي: كنز العمال، (١٥١٦٤).

في القبائل، فلا تدري بنو عبد مناف بعد ذلك كيف تصنع، ولا يمكنها معاداة القبائل كلها ونسوق إليهم ديته، فقال الشيخ النجدي: لله در الفتى هذا والله الرأي! قال: فتفرقوا على ذلك واجتمعوا عليه، فجاءه جبريل بالوحي من عند ربه تبارك وتعالى فأخبره بذلك وأمره أن لا ينام في مضجعه تلك الليلة ... وأمر ﷺ علياً رضي الله عنه أن يبيت في مضجعه تلك الليلة، واجتمع أولئك النفر من قريش يتطلعون من صير الباب ويرصدونه ويريدون بياته ويأتمرون أيهم يكون أشقاها فخرج رسول الله ﷺ عليهم فأخذ حفنة من البطحاء فجعل يذره على رؤوسهم وهم لا يرونه وهو يتلو: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٩] ومضى رسول الله ﷺ إلى بيت أبي بكر رضي الله عنه فخرجا من خوخة -أي فتحة- في دار أبي بكر رضي الله عنه ليلاً"[1] قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وما هذه المحاولات والوقائع إلا صور بيّنة تظهر البون الشاسع بين قيم الجاهلية التي لا تبالي في سبيل تحقيق مقاصدها، بين الوسائل المشروعة وغير المشروعة، فيستوي عندها الحلال والحرام، وبين القيم التي ظهرت جلية في أخلاق رسول الله ﷺ وأصحابه الأكرمين وفي مواقفهم ممن يواصل العمل على إيقاع الشرّ بهم بكل صوره وألوانه، ولا يزيدهم ذلك إلا رحمة وإشفاقاً على قومهم وحرصاً على هدايتهم، ولعل المتابع لما عاناه المسلمون؛ يجد أن تسامحهم وطيبهم يزداد عمقاً وصدقاً؛ كلما ازداد أذى المشركين عنفاً وظلماً، فكانت تعاليم النّبوة تزيد من حلمهم وصبرهم ومطاولتهم، وكانت وصايا رسول الله ﷺ في هذا الجانب تثمر الأمن والانضباط والوحدة؛ وتمتد إلى آفاق بعيدة فيما كان يستشرف به ﷺ المستقبل.

---

(١) ابن القيم: زاد المعاد، ٣/ ٤٥، ابن سعد: الطبقات الكبرى، ١/ ٢٢٧.

ومن ذلك معالجته لأزمة الاستئثار والجشع التي يقع بها كثير من الناس. قال ﷺ: "إنها ستكون أثرة وأمور تنكرونها. قالوا: فما يصنع من أدرك ذلك يا رسول الله؟ قال: أدّوا الحق الذي عليكم واسألوا الله الذي لكم"[1] وقال ﷺ: "من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر فإنه ليس أحد يفارق الجماعة قيد شبر فيموت إلا مات ميتة جاهلية"[2] فكانت ثقافة الطاعة والجماعة والتغاضي والرضا والقناعة والصفح، من أولويات بناء الفرد المسلم في عصر الرسالة، ومن آثار ذلك البناء أنّ بعض الصحابة أخذ يستشرف ضوابط الطاعة والمحافظة على الجماعة فيما بعد عصر النبوة، تبين ذلك في سؤال حذيفة ﷺ لرسول الله حين قال ﷺ: "يكون بعدي أئمة لا يهتدون بهداي ولا يستنون بسنتي! وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس، قلت: كيف أصنع يا رسول الله إن أدركت ذلك؟ قال: تسمع وتطيع للأمير، وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك فاسمع وأطع"[3] وقال رسول الله ﷺ: "سيكون بعدي خلفاء يعملون بما يعلمون ويفعلون ما يؤمرون، وسيكون بعدهم خلفاء يعملون بما لا يعلمون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن أنكر عليهم برئ، ومن أمسك يده سلم، ولكن من رضي وتابع"[4].

ولا شك أن النبي ﷺ في تعاليمه حريصاً على الأمن والجماعة، ولكنه ﷺ لم يثبت في حديث له أنه أمر بطاعة أمير لا يقيم الصلاة ولا يقيم وزناً للحلال

---

(١) السيوطي: الدر المنثور، سورة النساء، تفسير الآية (٥٩) الشوكاني: فتح القدير، سورة هود، تفسير الآية (١١٣).

(٢) سنن البيهقي، كتب قتال أهل البغي، باب الصبر على أذى يصيبه من جهة إمامه وإنكار المنكر بقلبه وترك الخروج، (١٦٣٩٣).

(٣) مسلم: صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين، (١٨٤٧). الشوكاني: الدرر المضية، ١/ ٥٠٦.

(٤) سنن البيهقي، كتاب قتال أهل البغي، باب الصبر على أذى يصيبه من جهة إمامه وإنكار المنكر بقلبه وترك الخروج، (١٦٣٩٥).

والحرام، فيتضح أن مفاهيم الرحمة وثقافة التسامح أثمرت تماسك المجتمع الإسلامي ونمّت قدرته على معالجة ما يطرأ عليه من خلافات، من خلال التمسك بتعاليم الشريعة السمحاء التي تمثل المرجعية لأبناء هذه الأمة الأوفياء، الذين أسهموا في نشر السلم العالمي، وإقامة العدل بين الشعوب وتغذية روابط الأخوة الإنسانية بين الأمم، فالمسلم حريص على السلم والأمن ولديه الاستعداد الدائم لبناء المشترك الإنساني، ولا يجد أي رغبة في الحرب المجردة من أسبابها المشروعة عند المسلمين، فالنبي ﷺ أسس لمعاني العفو والرحمة والمسامحة، وجعلها من الثوابت، وحاول المشركون حرفها عن مقاصدها بكل وسائل التخويف والترغيب والإغراء والاستفزاز لكنهم لم يفلحوا، وكلما خرج المشركون في تعاملهم عن سبل اللياقة والكياسة كلما ازدادت أخلاق المسلمين أصالة ومصداقية، حتى إذا فشل المشركون في تحقيق مقاصدهم، راحوا يكيدون لرسول الله ﷺ ويعملون على قتله، حتى اضطروه إلى الهجرة وترك الديار، وهذه أخلاق ثابتة في قيم المسلمين وقيم أعدائهم؛ الذين يناصبونهم العداوة في كل عصر ومصر.

الصبر على محنة الهجرة وترك الأهل والديار

لا يهاجر أحد من موطنه الذي درج في ربوعه إلا إذا كان مضطراً، لأن الهجرة ليست تحول من دار إلى دار، وإنما هي محاولة قطع مشاعر الانتماء والمحبة التي تنبت في قلوب الناس فتثير فيهم الحنين الدائم لأول منزل يعيشون فيه، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان رسول الله ﷺ بمكة فأمر بالهجرة وأنزل عليه ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴾[الإسراء: ٨٠] [(١)] وقال قتادة في قوله تعالى: وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق فأخرجه الله من مكة إلى المدينة مخرج صدق، وأدخله المدينة مدخل صدق[(٢)] وقد عُرف المسلّمون بحبهم لأوطانهم وإخلاصهم لها، بعكس

---

(١) الحاكم: المستدرك، كتاب الهجرة ،باب دار الهجرة، ح (٤٢٥٩) وقال: هذا حديث صحيح.

(٢) الحاكم: المستدرك، كتاب الهجرة ،باب دار الهجرة، ح (٤٢٦٠).

أعدائهم الذين لا يبالون أن يُسلموا الأوطان للأعداء والمخالفين للدين والعقيدة، فهذا رسول الله ﷺ توجه إلى موطنه مكة يوم أخرجه المشركون، فخاطبه قائلاً: "والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أُخرجت منك ما خرجت"[1] وبلال ﵁ لما وصل المدينة وأصابته حمّاها أخذ يتغنى بجبال مكة وأوديتها ومياهها التي ذاق فيها الويلات والعذاب على أيدي المشركين، ولكن هذا هو قدر المسلم دائماً الوفاء وحب الوطن والدفاع عنه في كل أحواله، حتى لو كان خصومه يقطفون ثماره، ويسقونه عصير حنظله! وكان بلال ﵁ إذا أقلعت عنه الحمّى ينشد فيقول:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة ... بواد وحولي إذخر وجليل

وهل أردن يوماً مياه مجنّة ... وهل يبدون لي شامة وطفيل

ولشدة وقع وآثار موقف المشركين في إخراجهم النّبي ﷺ توجه إلى ربه داعياً من كان سبباً في إخراجه، قائلاً: "اللهم العن شيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، وأميّة بن خلف، كما أخرجونا من أرضنا"[2] فالنّبي ﷺ لم يكن لعاناً ولكن حبه لبلاده وتألمه ممن كان سبباً في إخراجه من وطنه؛ أجبره على هذا الرد المخيف على الطغاة الذين يظلمون ولا يعدلون.

وحين تُفرض الهجرة ظلماً فلا شك أنّ الأمر عسير أشبه بخروج الروح من الجسد، وذلك حينما يقتلع الإنسان من بيته وأهله وعمله وثروته، ثم يلقى به بعيداً غريباً مجرداً محروماً من كل هذه الحقوق، وربما تذهب حقوقه في بلاد الغربة أيضاً، ولا يستطيع الوصول إليها، فهو معرض لأن يصاب بظلم على ظلم، لا لذنب إلا أن يقول ربي الله، فحينها يكون ذلك الفعل قاسياً وظالماً وعدوانياً، ولكن حين

---

(١) الحاكم: المستدرك، كتاب الهجرة ،باب الإرغام على الهجرة، ح (٤٢٧٠) هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٢) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب أبواب فضائل المدينة، باب كراهية النبي ﷺ أن تعرى المدينة، ح (١٧٩٠).

يتعلق الأمر بالعقيدة فإنّ كل شيء يهون عند المسلم في سبيل سلامتها، فقيم المشركين قائمة على حرمان المسلمين من كل شيء حتى يفارقوا عقيدتهم، وأخلاقيات المسلمين قائمة على التضحية بكل شيء من أجل سلامتها، فأثبتوا صواب خيارهم وإسهامه في حماية التوحيد وهوية الأمة، قالت أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها: "لما ضاقت علينا مكة وأوذي أصحاب رسول الله ﷺ وفتنوا ... قال لهم رسول الله ﷺ: إنّ بأرض الحبشة ملكاً لا يظلم أحد عنده فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه، فخرجنا إليها أرسالاً حتى اجتمعنا ونزلنا بخير دار إلى خير جار أمنا على ديننا ولم نخش منه ظلماً"[1] وهذا ربما كان نادراً ولا زال فمن مثل ذلك الملك الصالح، وها هي الغربة تأكل غرباء العقيدة ولا يبالي بهم أحد، إلا برحمة من الله تعالى.

وعلى الرغم من أنّ هجرة الحبشة قد أسهمت بحماية بعض المسلمين الذين أووا هناك؛ لكن تلك التجربة لم تتوسع ولا سيّما بعد أن تدخل المشركون وعملوا بانتهازية ظاهرة على إلحاق الأذى بالمسلمين بعد هجرتهم، وأمام تلك الضغوط المستمرة لم يكن بد من بلورة ثقافة الهجرة المنبثقة من العقيدة بضوابطها وآدابها وأهدافها، وذلك لما للهجرة من مصاعب ومتاعب وثمن باهض، لا يستطيع دفعه إلا النخبة المخلصة المختارة من أبناء كل جيل، قال رسول الله ﷺ: "إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه فقعد له بطريق الإسلام فقال تُسلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء أبيك؟ فعصاه فأسلم، ثم قعد له بطريق الهجرة فقال: تهاجر وتدع أرضك وسماءك؟ وإنما مثل المهاجر كمثل الفرس في الطول فعصاه فهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد فقال: تجاهد؟! فهو جهد النفس والمال فتقاتل فتقتل، فتُنكح المرأة ويُقسم المال، فعصاه فجاهد، فقال رسول الله ﷺ: فمن فعل ذلك كان حقاً على

---

(١) سنن البيهقي: كتاب السير، باب مبتدأ الفرض على النبي ﷺ ثم على الناس وما لقي ﷺ من أذى قومه في تبليغ الرسالة (١٧٥١٢).

الله عزّ وجلّ أن يدخله الجنة"[1] وقال النبي ﷺ: "أنا زعيم والزعيم الحميل لمن آمن بي وأسلم وهاجر ببيت في ربض الجنة، وببيت في وسط الجنّة، وأنا زعيم لمن آمن بي وأسلم وجاهد في سبيل الله؛ ببيت في ربض الجنة وببيت في وسط الجنة وببيت في أعلى غرف الجنة "[2] فلما كانت الهجرة عند الله وعند رسوله ﷺ بهذه المكانة وأمامها كل هذه المصاعب ولها كل هذه الثمار، أصبح لها قيم وضوابط قد لا يستطيعها بعض الناس، يظهر هذا في ردّ رسول الله ﷺ على الأعرابي الذي سأله عن الهجرة فقال ﷺ: "ويحك! إنّ شأن الهجرة شديدٌ"[3] وربما لا يسهل على كثير من الناس ترك الأهل والمال والديار من أجل العمل في سبيل الله، ولكن النّبي ﷺ وأصحابه ﷺ فعلوا ذلك بتمام ضوابطه وجميل وصحيح مقاصده.

والمتابع لحال النّبي ﷺ يوم الهجرة وكيف أُخرج من بلده وبيته وأهله قهراً، لا بد أن يتوقع أن يصاب بشيء من ردة الفعل لشدة ما وقع عليه من الظلم ولو بنسبة الحصاة إلى الجبل أو القطرة إلى البحر! لكن رسول الله ﷺ بقي رحيماً في كل مواقفه حتى مع سراقة الذي جاء لقتله ﷺ فما إن تلفظ بلغة السلام حتى وجد رسول الله ﷺ ملبياً لذلك النداء معيناً لمن يدعو إليه متناسياً ما حصل قبل ذلك[4] فلم تتغير قيم العفو والمسامحة عند رسول الله ﷺ حتى على من جاء يحمل عليه السلاح متعمداً قتله ﷺ.

ولعلّ في مثل هذا الموقف هتاف دائم يخاطب كل ضمير من ضمائر أبناء هذه الأمة يدعو إلى التبصر في سيرة رسول الله ﷺ ومنهجه في التسامي والتجاوز عن حقوقه وحظوظه الدنيوية، في سبيل الحفاظ على روابط الأخوّة، ومشاعر الوحدة

---

(١) النسائي: سنن النسائي، كتاب الجهاد :باب ما لمن أسلم وهاجر، ح (٣١٣٤).

(٢) النسائي: سنن النسائي، كتاب الجهاد :باب المجاهد في سبيل الله عز وجل، ح (٣١٣٣) وقال الألباني: صحيح الإسناد.

(٣) أبو داوود: سنن أبي داوود، باب ما جاء في الهجرة وسكنى البدو، (٢٤٧٧).

(٤) الحاكم: المستدرك، كتاب الهجرة ،باب دار الهجرة، (٤٢٦٩). حديث صحيح على شرط الشيخين.

وصناعة السلام والأمن وقطف ثمار العافية، وانسيابية وسائل الدعوة وتعاليمها لتسير على بصيرة فتخرج النّاس من الظلمات إلى النور لا يغيرها الغضب ولا الظلم ولا السفر أو الإقامة، ولا تقبل أن تكافئ الإحسان بالإحسان فقط بل تقابل السوء بالإحسان، لأنها أخلاق الأنبياء والأصفياء الذين على موائد علمهم يتعلم الأخيار، وعلى آثار سيرهم يهتدي النبلاء والأبرار، فهم دعاة المحبة ورسل السلام الذين تشرق بعلمهم العقول وتزهر بهم الديار.

البيعة على الهجرة

كانت الهجرة إلى المدينة فريضة على كل مسلم لبناء المجتمع الإسلامي وإقامة نواة الدولة الإسلامية قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾ [الأنفال: ٧٢] ومن ضوابط البيعة على الهجرة أنها لا تصلح لكل من طلبها ولا لمن جاء بعد مضي زمنها، فلم يكن النّبي ﷺ يبايع الابن على الهجرة دون إذن والديه، ولا العبد دون إذن سيده، جاء رجل إلى النّبي ﷺ فقال: "جئت أبايعك على الهجرة، وتركت أبويَّ يبكيان قال: "ارجع عليهما فأضحكهما كما أبكيتهما"[(١)] وهاجر رجل إلى النبي ﷺ من اليمن فقال: "هل لك أحدٌ باليمن؟" فقال: أبواي، قال: "أذنا لك؟" قال: لا، قال: "ارجع إليهما فاستأذنهما، فإن أذنا لك فجاهد، وإلاَّ فبرّهما"[(٢)] وقال مجاشع بن مسعود السلمي ﷺ: أتيت النبي ﷺ أبايعه على الهجرة، وذلك بعد فتح مكة، فقال: "إنّ الهجرة قد مضت لأهلها، ولكن على الإسلام والجهاد والخير"[(٣)] و "جاء عبدٌ فبايع رسول الله ﷺ على الهجرة ولا يشعر ﷺ أنه عبدٌ

---

(١) أبو داوود: سنن أبي داوود، باب في الرجل يغزو وأبواه كارهان، (٢٥٢٨).

(٢) أبو داوود: سنن أبي داوود، باب في الرجل يغزو وأبواه كارهان، (٢٥٣٠) و(٢٥٢٩).

(٣) مسلم: صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب المبايعة بعد فتح مكة على الإسلام والجهاد والخير، ح (١٨٦٣).

فجاء سيده فقال النبي ﷺ: بعنيه فاشتراه بعبدين أسودين ولم يبايع أحداً بعد حتى يسأله أعبدٌ هو؟"[1] قال الشافعي: ولو كان الإسلام يعتقه لم يشتر منه حراً ولكنه أسلم غير خارج من بلاد منصوب عليها الحرب[2] فعلى الرغم من حاجة النبي ﷺ إلى من يكثر سواد المسلمين آنذاك؛ لكنه ﷺ أشفق أن يكون سبباً في تمزق أواصر أسرة، أو في قطع الرابطة ما بين مولى ومواليه، مما يشير إلى قوة قيم الرحمة وشدة الحرص على صلة الأرحام وسعادة الأسر واستقرارها، في منهاج السيرة النبوية، وأن هذه القيم لا زالت في مكان القدوة لإعادة ترميم ما أصيبت به المجتمعات الإسلامية من مظاهر التفكك الأسري والتفلت على ضوابط الحنان والمودة والتواصل.

ولعل من المفارقات العجيبة على طريق الهجرة أن الدليل المشرك عبد الله بن أريقط الليثي،لم ينقض عهده، على الرغم من إغراءات جائزة المشركين وسهولة الحصول عليها، فوفى للنبي ﷺ وصاحبه ﷺ وسلك بهما أسفل مكة، ثم مضى حتى هبط بهما على الساحل أسفل من عُسفان[3] ثم استجاز بهما على أسفل أمج[4] ثم عارض الطريق بعد أن أجاز قديداً ثم سلك بهما الحجاز، ثم أجاز بهما ثنية المرار، ثم سلك بهما الحَفْيَاء[5] ثم أجاز بهما مدلجة ثقف، ثم استبطن بهما

---

(١) الترمذي: سنن الترمذي، أبواب السير، باب ما جاء في بيعة العبد. ح (١٦٤٤).

(٢) سنن البيهقي، كتاب السير: باب ما يستدل به على أنه إنما أعتقهم بالإسلام والخروج من بلاد منصوب عليها الحرب، (١٨٦٢٤).

(٣) عُسْفانُ: قَرْية جامعة بين مكة والمدينة وقيل هي مَنْهلة من مَناهِل الطريق بين الجُحفة ومكة. ابن الأثير: غريب الحديث، ٣/ ٤٦٨.

(٤) أمج: اسم موضع بين مكة والمدينة، ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث، ١/ ١٦١.

(٥) بالمدّ والقصْر، موضع بالمدينة على أميال. وبَعْضهم يُقدّم الياء على الفاء. ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث، باب الحاء والفاء.

مدلجة صحاح، ثم سلك بهما مذحج ثم ببطن مذحج من ذي الغصن ثم ببطن ذي كشد، ثم أخذ الجباجب ثم سلك ذي سلم من بطن أعلى مدلجة، ثم أخذ القاحة، ثم هبط العَرْج[1] ثم سلك ثنية الغائر عن يمين رَكوبة[2] ثم هبط بطن ريم فقدم قباء على بني عمرو بن عوف[3] فوصل ﷺ وصاحبه ﷺ إلى المدينة سالمين وأقاما فيها مطاعين.

فالحديث عن الهجرة ومكانتها، يظهر سماحة أخلاق الحرب في عصر الرسالة، ويبين صبر النبي ﷺ وأصحابه على المشركين حين أخرجوهم من بلادهم مرغمين، ويوضح عفوهم وسماحتهم حين عادوا فاتحين فعلّموا الدنيا كيف يكون العفو عند المقدرة عمّن قتل وسلب وشتم وفعل كل ما يفعله المعتدون، فبرهنوا لبناة الحضارة أنهم في المقدمة لكل من سلك مسالك الرحمة والإنسانية وهو في زهو انتصاره وعنفوان قوته، فلا انتقام ولا تشفي ولا أذى، وذلك يؤكد مقولة عمر ﷺ: " إنما تُنقض عرى الإسلام عروةً عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية "[4] فمن لا يعرف الجاهلية لا يعرف الإسلام؛ ومن لم يعرف المواقف العدوانية التي واجه بها المشركون رسول الله ﷺ وأصحابه على مدى أكثر من ثلاثة عشر عاماً، فإنه لن يدرك أن قيم التسامح وكظم الغيظ والإحسان إلى الناس لا توجد بهذا العمق والسعة إلا عند المسلمين، وأن النبي ﷺ كان مسالماً للمشركين مبجلاً لهم لا ينافسهم على تجارة ولا جاه، كافّ ليده ولسانه، مانعاً لأصحابه من الرد أو الدفع عن

---

(١) العرج: موضع بين مكة والمدينة، ١/ ١٩٥. والأسماء في هذا النص هي مواضع على الطريق الذي سلكه النبي ﷺ في هجرته.

(٢) رَكوبة: وهو جبل شامخ ينقاد إلى المتعشي بين العرج والسقيا.ياقوت: معجم البلدان، ٤/ ٣١١.

(٣) الحاكم: المستدرك، كتاب الهجرة، باب طريق الهجرة،(٤٢٧٢).وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

(٤) الجواب الكافي: ١/ ١٥٢، مفتاح دار السعادة، ١/ ٢٩٥. منهاج السنة النبوية، ٤/ ٥٩٠. درء تعارض العقل والنقل، ٣/ ٤٢.

النفس، والصحابة يتجرعون أذى المشركين دون أن يخالف أحد منهم تعاليم رسول الله ﷺ ولكن المشركين أصرّوا على العدوان ومحاربة النبي ﷺ والتآمر على قتله بغياً وظلماً، واستمروا على ذلك حتى بعد الهجرة حين بعثوا إليه عمير بن وهب الجمحي ليغتاله في مسجده بالمدينة بعد موقعة بدر(١) فاتضح أن المشركين كانوا يتعمدون صناعة الأذى وافتعال أسباب الفتن، والمسلمون يتلقون ذلك بمنتهى المسؤولية والتجاوز، وتبين أن إرغام المشركين للمسلمين على الهجرة، واقتلاعهم من ديارهم وأهليهم وأموالهم ما هو إلا إعلان حرب، ولكنّ المسلمين تلقوا ذلك بما عرف عنهم من حلم وصبر وحرص على وحدة الأمة.

وهذه النتيجة تدعو المسلمين العاملين في حقول الدعوة والتربية والإعلام والتوجيه وغير ذلك في هذا العصر، إلى التمعن في هذا المنهج النبوي التطبيقي، وبيان ما فيه من رحمة للعاملين، مع كامل التمسك بالعقيدة، واستقاء الدروس والعبر والتقيد بثوابته وترسيخ مناهج الاقتداء به، حرصاً على ما حرص عليه رسول الله ﷺ وأصحابه ﷺ في علاج مشكلات الأمة، وحسن التعامل مع مختلف الشعوب، وسعياً وراء نشر قيم التسامح والمحبة والرحمة وتأصيل قواعد العيش الآمن المشترك، وضرورة ترسمها في الدعوة والتعريف بالإسلام المجرد من الأهواء والنزوات، التي قد تأخذ بأصحابها عن منهاج النبوة، الذي أثمر للإنسانية العدل والطهر والرحمة والأمان.

---

(١) الطبراني: المعجم الكبير،باب العين، عمير بن وهب الجمحي، ح (١١٧).

المبحث الثاني

آداب الحرب في عصر الرسول ﷺ

أن يكون القتال في سبيل الله

لا تكون الحرب عادلة إلا إذا توافقت أهدافها الباطنة مع أهدافها الظاهرة المبنية على النية الصالحة البريئة من الأهواء والنزعات. قال ﷺ: "إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى"[1] والنيات لا يعلمها إلا الله تعالى لذلك كل قتال لا يقصد به وجه الله تعالى فهو لا يتوافق مع أخلاق الحرب في عصر الرسالة، التي لا تبيح العدوان ولا الغدر ولا نقض العهود، ولا تبيح القتال إلا لدفع الظلم، وإحقاق الحق، أو حماية حية تبليغ الرسالة كما جاء بها النبي ﷺ وبما يجعل كلمة الله هي العليا.

فالحرب المقيدة بأسمى القيم الإنسانية المشروعة، المبنية على النية الصالحة التي يبذل فيها المسلم أقصى ما يمكنه من الجهد والعطاء؛ هي التي تسمى في الإسلام الجهاد[2] والمسلمون إذا قاتلوا فهم ملزمون بالتقيد بالقيم الإنسانية، التي أباح الإسلام العمل بمبادئها والتضحية من أجلها وجعل لها أسمى مكانة في العقيدة التي

---

(١) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي، ح (١).

(٢) والجهاد مصدر جاهد جهادا ومجاهدة وجاهد فاعل من جهد إذا بالغ في قتل عدوه والجهد بالفتح المشقة والضم الطاقة وقيل يقال بالضم وبالفتح في كل واحد منهما فمادة (ج ه د) حيث وجدت ففيه معنى المبالغة وهو في الشرع عبارة عن قتال الكفار خاصة. البعلي: المطلع على أبواب الفقه، كتاب الجهاد، ١/ ٢٠٩. وينظر الزحيلي: آثار الحرب في الإسلام، ٢١. قال: والجهاد والحرب والغزو في أصل اللغة العربية بها مدلول واحد هو قتال العدو. وقال: من زعم أن الجهاد هو قتال المسلمين لكل من ليس بمسلم لإكراههم على الإسلام فهذا محض الافتراء والكذب على الإسلام. ص ٢٢.

حارب من أجلها جند السيرة النبوية، مع الرحمة والإنسانية وحسن المقصد وجميل العفو والاستعداد الدائم لصناعة السلام وبناء المجتمع الإنساني المشترك المتعدد الأعراق والثقافات؛ فإذا تحققت هذه الضوابط في الحرب أذن بها الإسلام ورعاها لأنها تنفيذ لمقاصد العقد القائم بين المؤمنين وخالقهم ﷻ. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة: ١١١] فالنبي ﷺ وأصحابه ﵃ قاتلوا في سبيل الله، ونفذوا مقاصد هذه الآية في الصبر والتضحية والبذل. قال تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ﴾ [التوبة: ٨٨] من غير كِبر ولا منّ، لأنّ هذه الصفقة خالصة لله تعالى، فمن بناها على الإخلاص ووفى لها قطف ثمارها. قال ﷺ: "مثل المجاهد في سبيل الله مثل الصائم القائم الذي لا يفتر من صلاة ولا صيام حتى يرجع"(١) وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: "دلني على عمل يعدل الجهاد، قال ﷺ: "لا أجده! " قال: "هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك، فتقوم ولا تفتر، وتصوم ولا تفطر" قال: ومن يستطيع ذلك؟!"(٢) إذ أنّ هذا فوق طاقة البشر، لسمو مقاصده ولما يتحقق به من المصالح القريبة والبعيدة للفرد والمجتمع. فبلغ المتمسكون بالجهاد في سبيل الله أن يُفضل أحدهم الخروج من الجنة من أجله، لما يرى فيها من رضا الله والأجر العظيم. قال ﷺ: "ما من عبد يموت، له عند الله خير، يسرّه أن يرجع إلى الدنيا، وأنّ له الدنيا وما فيها، إلا الشهيد، لما يرى من فضل الشهادة، فإنه يسرّه أن يرجع إلى الدنيا، فيقتل مرة

---

(١) الترمذي: سنن الترمذي، أبواب السير، باب فضل الجهاد، (١٦٦٩) ينظر مالك: موطأ مالك، باب الترغيب في الجهاد، (٩٥٦).

(٢) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب: فضل الجهاد والسير. ح (٢٦٣٣).

أخرى"[1] فهذه هي مواطن تجعل أنفاس المسلم كلها لله تعالى، في طريق سلكها السلف الصالح فأورثوا الأمة مجداً لو تمسك به المتأخرون لانقادت لهم البشرية جمعاء، ذلك أنهم خلّفوا الدنيا وشهواتها وراء مقاصدهم، فمن خرج لأجل هذه القيم التي تعود على الإنسانية بكل ما يسرها ويحمي استقرارها. كما جاء في الحديث "لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي، وتصديق برسلي. فهو عليّ ضامن أن أدخله الجنة، أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه، نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة" ثم قال ﷺ: "والذي نفسي بيده! لولا أن أشق على المسلمين، ما قعدت خلاف سرية تخرج في سبيل الله أبداً. ولكن لا أجد سعة فأحملهم. ولا يجدون سعة فيتبعوني، ولا تطيب أنفسهم فيتخلفون بعدي، والذي نفس محمد بيده! لوددت أن أغزو في سبيل الله فأقتل، ثم أغزو فأقتل، ثم أغزو فأقتل"[2] والناظر في هذه النصوص يجد أن التوجيه النبوي يرشد إلى العمل في سبيل الله والبراءة من الحظوظ والأهواء، فمن كملت فيه هذه المواصفات ووافق دعوة الأنبياء، وسلك باب النجاة إلى بشارة النصر. قال تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: ١٣].

ولما فقه المسلمون هذا المقاصد، أصبحت تمثل الغاية القصوى للمتسابقين بين يدي رسول الله ﷺ في مسارهم إلى مرضاة الله تعالى، بل إنّ رسول الله ﷺ كان يتمنى أن يُقتل في سبيل الله مرة بعد أخرى، لولا أنّه كان هو الراعي والدليل إلى تلك المعالي التي تصنع أنبل البشر بأجمل القيم، قيل يا رسول الله، أي الناس

---

(١) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب: الغدوة والروحة في سبيل الله، وقاب قوس أحدكم من الجنة. ح (٢٦٤٢).

(٢) ابن ماجه ،سنن ابن ماجه، باب فضل الجهاد في سبيل الله، (٢٧٥٣). موطأ مالك: باب الترغيب في الجهاد، (٩٥٧) سنن الدارمي: كتاب الجهاد، باب الجهاد في سبيل الله (٢٣٩١) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله، (١٨٧٦).

أفضل؟ قال ﷺ: "مؤمن يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله" قالوا: ثم من؟ قال: "مؤمن في شعب من الشعاب، يتقي الله، ويدع النّاس من شرّه"[1] فإمّا أن يتمسك المقاتل بمقاصد في سبيل الله وما فيها من الإخلاص، وإما أن يبتعد عن الحياة العملية ويتفرغ إلى معالجة الذات، بعيداً عن الوقوع فيما لا يرضي الله تعالى باسم الجهاد والسير على هدي السلف، فالحرب التي لا تثمر النفع للناس وحماية التوحيد، فهي مجهولة الهدف، لذلك قال ﷺ: "**والله أعلم بمن يجاهد في سبيله**"[2] فهل من يقاتل من أجل عصبية أو إقليمية أو حزبية، ويتعاون مع العدو، فيدمر الممتلكات ويصنع الخلافات، ويمزق الصفوف، ويفرق الكلمة، وينزع الثقة، ويوقد الفتن في بلاد المسلمين، ولا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر، ممن يجاهد في سبيل الله؟!.

فضوابط الحرب في سبيل الله، تحول بين كل من له أهداف في غير ما فرضه الله ورسوله ﷺ فلا بد أن يكون القتال في سبيل الله، وتصديقاً لما جاء به رسول الله ﷺ من رسالة عالمية لخدمة الناس أجمعين، ولهذا كان النبي ﷺ حين يستشرف مستقبل الجهاد يكرر في كثير من الأحاديث قوله ﷺ والله أعلم بمن يجاهد في سبيله، وقال ﷺ: " **لا يُكلم أحد في سبيل الله، والله أعلم بمن يُكلم في سبيله**، إلا جاء يوم القيامة وجرحه يثعب، اللون لون دم والريح ريح مسك"[3] وفي هؤلاء الأنقياء الأتقياء وأمثالهم من المخلصين قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣] فمن صدق الله لا يبدل ولا يحيد عن المنهج الرباني الرحيم ولا يكون أداة بيد أعداء

---

(١) البخاري: الجامع الصحيح، ، كتاب الجهاد، باب، أفضل الناس مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله، ح (٢٦٣٤).

(٢) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب أفضل الناس مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله، (٢٦٣٥).

(٣) مسلم: صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله،ح (١٨٧٦). البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب: من يجرح في سبيل الله عز وجل.ح (٢٦٤٩).

المسلمين يشق صفوفهم ويمزق جماعتهم ويهدد أمنهم.

فلما تحققت هذه المعاني في نفوس الصحابة وذاقوا حلاوة التخلق بقيمها؛ تنافسوا على جني ثمارها التي تعود عليهم وعلى أمتهم وعلى الإنسانية بظلال الأمن والعدل والرفاه، فنذروا أنفسهم للعمل في سبيل الله ونشر ثقافة السلام والتواصل، وهذا يبين أن حرب المسلمين هي حرب الرحمة المقيدة بزمام العدل وخطام السماحة، وهذا ما يميزها عن غيرها من الحروب المعاصرة، التي لا تفرق أسلحتها بين الأبرياء والمذنبين، ولا بين الأقوياء والمساكين، حتى إذا تحقق لهؤلاء نصر أطلقوا على زعماء أسراهم لقب مجرمي الحرب، في حين أن أسرى المسلمين يقال لهم إذهبوا فأنتم الطقاء، وفي فترة الأسر بعد أي معركة يتذكر المسلمون في حال نصرهم وصيّة نبيهم ﷺ وقوله ﷺ: "أحسنوا إلى أسراكم" كما سيتضح في المبحث الثالث من الفصل الثالث، وهذا فارق كبير بين قيم القتال في سبيل الله، وبين الحرب في سبيل المصالح والأطماع والتوسع أو الانتقام والأحقاد، ولعل ذلك يمثل خلاصة الموقف من القتال في أخلاق الحرب في عصر الرسالة.

في عدم تمني لقاء العدو

من آداب الحرب في عصر الرسالة، أن المسلم لا يتمنى وقوع الحرب، وإنما يتمنى العافية والسلامة له وللناس أجمعين، ورجال السيرة النبوية كانوا يأخذون بسياسة اللين والملاطفة مع الآخرين، فإذا أُرغموا على القتال خاضوا غمراته بأقصى ما يمكنهم من قوة، قال ﷺ: "أيها الناس، **لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية**، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف"[1] فالصبر على فتنة السيوف ورهبتها والثبات في مواجهة الظالمين، باب من أبواب الجنة، وسلّم يوصل إلى النصر الذي يحفظ الأمن ويصنع السلام ويحمي العقيدة.

فالمسلم يرفض ثقافة العنف المجرد والتعامل بأدبياته، وأخلاق عصر الرسالة،

---

(١) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب: لا تمنوا لقاء العدو.ح (٢٨٦٣). (٢٨٦٢). (٢٨٦١).

تربي أبناءها على محبة العدل الذي يصنع السلام، ويتمسك بأخلاق الأنبياء وما فيها من الرحمة والعفو والصفح والترويج لكل ما يؤازر تلك الثقافة ويغذيها في حياة المجتمع حتى في اختيار الأسماء وما توحي إليه، وهذا ما كان يؤكده النبي ﷺ في أكثر من مناسبة.

قال ﷺ: "للقحة - ناقة - عنده: من يحلب هذه الناقة؟ فقام رجل فقال له: ما اسمك؟ فقال له مُرّة قال: اجلس، ثم قال: من يحلب هذه الناقة؟ فقام رجل فقال له: ما اسمك؟ قال: حرب، قال: اجلس ثم قال: من يحلب هذه الناقة؟ فقام آخر فقال: ما اسمك؟ قال: يعيش، قال: احلب "[1] وما هذا إلا تأصيل لثقافةٍ تحب العيش الهانئ السعيد بلا حرب ولا ويلات، وتمسك بخيار التفاؤل والنظر إلى ما يجري في الكون بعين الجمال والذوق الظريف الذي تنبثق منه المودة والألفة ويثمر الأمن والاستقرار، وهذا ما أكده النبي ﷺ في قوله: " تسمّوا بأسماء الأنبياء، وأحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن، وأصدقها حارث وهمام، وأقبحها حرب ومرة"[2] وإن كان المسلم مأمور بالإعداد ومواكبة استخدام أحدث الأسلحة المعاصرة فكل ذلك لدفع الشر ورد الظلم والمحافظة على حرية الأمة وعقيدتها، وهذه سنة التدافع التي جاء ذكرها في قوله ﷻ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠].

وهذه من خصائص القتال في الإسلام، الدفاع عن حرمات المسلمين ومقدساتهم، عن كنائس النصارى ومعابد اليهود وأهل الذمة، وهذه هي نظرة الإسلام إلى الحياة التي تشمل جميع البشر وتضمن لهم حقوقهم وحرياتهم المشروعة، والحرب عند المسلمين مكروهة ولكن إذا اضطروا إليها يخوضون

---

(١) مالك: الموطأ، باب ما يستحب من الفأل والاسم الحسن، (٨٧٨).

(٢) سنن أبي داوود: كتاب الأدب، باب في تغيير الأسماء، ح (٤٩٥٠).

غمارها بمسؤولية كبيرة، وهي كره لهم غير محببة، والذي يحبب لهم خوضها نصرة الحق وردع الظالمين، وهي مبنية على معاني قوله تعالى: ﴿كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[النساء: ٧٧]لكن المشركين لم يبالوا بهذه المعاني فلما لم ينته المشركون عن غيهم أذن الله تعالى للمؤمنين بالدفاع عن أنفسهم وعقيدتهم. قال ﷻ:﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ﴾[الحج: ٣٩]. وبعد الإذن بالقتال أصبح من أهداف الحرب في عصر الرسالة، دفع هيمنة الشرك والجهل والظلم الذي حارب القيم التي جاء بها رسول الله رحمة للعالمين، فالمسلمون لم يبدؤوا الكفار بحرب. قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤]وقال ﷻ ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾[البقرة: ٢٦٥] ولكن المشركين مارسوا القتل والقهر ومنعوا المسلمين من ممارسة شعائر عقيدتهم سنين عديدة، قبل أن يفرّوا بدينهم، ولولم يأذن الله تعالى لعباده بالدفاع عن الحوزة لأفسدت قيم الجاهلية بظلمها بهجة الحياة ورونقها.

ولم يكن القتال غاية في عصر الرسالة، وإنما هو آخر الوسائل التي يستخدمها المسلمون في خياراتهم وهذا ما تؤكده أدبيات عقيدتهم وثقافتهم. قال تعالى ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ [البقرة: ٢١٦] وحينما تمضي مواجهة بدون حرب ودماء وقتل وأسر، فإن القرآن يُعلّم المؤمنين أن يحمدوا الله على حقن الدماء ونهاية المعركة من غير قتال وجراح وخراب ودمار. قال تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَ﴾ [الأحزاب: ٢٥] فهذه التعقيب على هذه النتيجة يؤكد أن آداب الحرب في السيرة مبنية على تمني السلم وتجنب القتال وأن يكفي الله المؤمنين القتال ويجنبهم إراقة الدماء.

وفي قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الفتح: ٢٤]. تتجلى قاعدة من قواعد آداب حرب المسلمين التي لا توجد عند غيرهم بهذا المعنى. فقد عدّ القرآن الكريم أن انفضاض الموقف ببطن مكة دون قتال وأسر وتشريد، منّة من الله تعالى تؤكد تفضيل السلم وخياره على الحرب، حتى لو كانت النتيجة ظفر المسلمين وانتصارهم على أعدائهم، لأن القتال هو الخيار الأخير للمسلمين، فلم يكونوا طلاب حرب في جميع مراحل دعوتهم، ولكنهم في الوقت ذاته، يمقتون العدوان والشح والجبن، فهم أئمة السلام ودعاته؛ ولكن إن ابتلوا بالحرب فهم قادتها وفرسانها، يخوضون غمارها حتى يسود السلام العادل ويُمحق الظلم، وتعلو كلمة الله تعالى، قال القائل في هذا المعنى:

والشر إن تلقه بالخير ضقت به	ذرعاً وإن تلقه بالشر ينحسم
والناس إن ظلموا البرهان واعتسفوا	فالحرب أجدى على الدنيا من السلم[1]

ومنها دفع العدوان، وإنقاذ المستضعفين، ومنع الفتنة، وتأديب الناكثين الذين ينقضون العهود والمواثيق. قال تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢] وقال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠] وقال ﷻ: ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٩٠] فإن لم يقبلوا السلام، قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ

(١) ينظر فرج: العبقرية العسكرية في غزوات الرسول ﷺ، ٧٣.

﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ٩١]

فأهداف الحرب في الإسلام، تعزيز السلام، ونشر الإسلام، ودفع العدوان عن الدين والأرض والعرض، وعن الحرمات والمقدسات، ولإنقاذ المستضعفين، قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ [النساء: ٧٥] فالقعود عن نصرة المستعضفين مستنكر في أخلاق المسلمين، ومن الأمور التي أبيحت الحرب من أجلها، منع الفتنة في الدين وكف اضطهاد المشركين للمسلمين، حتى يكون النّاس أحراراً، فيختار الإنسان دينه طواعية، دون أن يُكرَه على تغييره أو الارتداد عنه، قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣] وقال ﷻ: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ۚ﴾ [البقرة: ١٩١] لأن القتل إتلاف للجسد، والفتنة إتلاف للعقل والإرادة لهذا وصفت الفتنة وما فيها من الضيم والإذلال بأنها أكبر من القتل، لأن القتل الجسدي يكون مرة واحدة، أما قتل الدين والمعتقد فيقتل صاحبه في كل حين! ولا يكون لذلك القتل نهاية، قال تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧].

الانضباط في استخدم القوة، فلم تكن القوة عند المسلمين يوماً بلا هدف ولا قيد، بل كانت مضبوطة بخطام وزمام في وقائعها ومواجهاتها، فلا استباحة ولا استكبار ولا تشفي ولا ظلم ولا عدوان، فكانت حروب المسلمين فتحاً للشعوب المظلومة، وانتصاراً للفضيلة، وانحساراً للظلم والطغيان، ورحمة للإنسانية، والدليل أن هذه الشعوب حين تُخيَّر ولا تكره ترغب في الإسلام وتكون من جنده الأوفياء.

ومن أدبيات حروب السيرة **ألا تقتل النساء ولا الأطفال ولا الشيوخ والكبار**، ولا الرهبان والعبّاد، وهذا ما يميزها عن حروب اليوم، التي يسقط معظم ضحاياها من النساء والأطفال ومنافع الناس ومصالحهم وخدماتهم العامة، ولعل من المستهدفين المساجد وروادها تحت ذرائع ومسوغات شتى، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ

مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [البقرة: ١١٤].

الالتزام بوصايا رسول الله ﷺ لأمراء الجيوش، فكان ﷺ يوصي القائد: في خاصّته بتقوى الله، و بمن معه من المسلمين خيراً، ثم يقول: "اغزوا، على اسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلّوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً، وإذا لقيت عدوّك من المشركين، فادعهم إلى ثلاث خصال، فأيتهن أجابوك إليها، فاقبل منهم، وكفّ عنهم: ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم، ثم ادعهم إلى التحوّل من دارهم إلى دار المهاجرين، فإن أبوا، فأخبرهم بأنهم يكونون كأعراب المسلمين، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فاسألهم الجزية، فإن أجابوك فاقبل منهم، فإن هم أبوا فاستعن عليهم بالله تعالى وقاتلهم، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمّة نبيّه، فلا تفعل، ولكن اجعل لهم ذمّتك؛ فإنكم إن تخفروا ذمتكم أهون من أن تخفروا ذمّة الله، وإذا أرادوك أن تنـزلهم على حكم الله فلا تفعل، بل على حكمك؛ فإنك لا تدري أ تصيب فيهم حكم الله تعالى أم لا؟"[١].

فهذه أهم ضوابط القتال في سبيل الله من مصدرها الأصلي، وما فيها من العدل والإنصاف، وما تتحلى به من الرحمة والرفق والتدرج وحماية الضعفاء، والدعوة إلى أخوة الدين أو الأخوة الإنسانية تحت رعاية ضوابط الذمة، وما تهدف إليه من البر والإحسان وحفظ حرية الآخرين وكرامتهم، وما تتمسك به من الوفاء بالعهود وحفظ المواثيق، والوضوح في التعامل والبعد عن الغموض والتموية والظلم، وكل ذلك يؤكد ما تمتاز به أخلاق الحرب في عصر الرسالة وسموها على ما سواها من آداب الحروب في الماضي والحاضر، وأنها بخلاف ما يصفها به أعداء

---

(١) مسلم: صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصيته إياهم. (١٧٣١).

الإسلام، من القسوة والعنف، إما جهلاً وتقليداً، وإما عداوة وحقداً وبهتاناً وتلفيقاً، لتحريض الشعوب الجاهلة بقيم الإسلام على هذا الدين وأمته، أمة العدل والرحمة والمودة والإخاء.

ومنها أداء الأمانة وتحريم الاختلاس والغلول أو ادعاء حقوق الآخرين من المقاتلين إن انتصروا، فكل ما يجمع في الحرب من أنفال وغنائم تحصى وتضبط عند صاحب الأقباض الذي يقبض الغنائم ويدونها لتقسم على مستحقّيها كما سيتضح في المبحث الثاني من الفصل الثالث، وهذا يبين الفرق بين الحرب التي جرت في عصر الرسالة، وبين الحروب المعاصرة التي غالباً ما تنهب فيها الثروات وتغتصب أملاك الدول وثرواتها وأثارها بالقوة؛ والتغطية على ذلك بالتحايل وتسمية الأشياء بغير مسمياتها، وهل الاستعمار الذي جثم على أكثر أوطان المسلمين إلا وجه من وجوه السلب والقرصنة المستندة إلى قوة الحديد والنار، فضلاً عما يرافق ذلك من العمل على الإفساد الخلقي، وتغيير الهوية وطمس معالم الدين وقيمه النبيلة وبذل الجهود لنزع ثقة المسلمين به وفصله عن حياتهم. قال ﷻ: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الصف: ٨].

رعاية السلم والحفاظ على الأمن في حال النصر، فإذا انتصر المسلمون فلا فساد ولا تخريب ولا جور ولا غدر ولا طيش، وكيف يكون شيء من ذلك عند المسلمين؟ وأعمالهم يجب أن تكون خالصة لوجه الله تعالى الذي لا يقبل إلا طيباً، وحين قال سعد بن عبادة رضي الله عنه قبيل فتح مكة: "يا أبا سفيان اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الكعبة" فقال النبي ﷺ: "ولكن هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة يوم تكسى فيه الكعبة "[١] فالمرحمة هي ثمار الملحمة في الإسلام لذلك كان رسول الله ﷺ يسمي

---

(١) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب المغازي، باب أين ركز النبي ﷺ رايته يوم الفتح، ح (٤٠٣٠).

نفسه أسماء منها أنا: "نبي الرحمة ونبي الملحمة"[١] وروي "نبي الرحمة ونبي المرحمة"[٢] وهاتان متلازمتان لأن المرحمة الحقيقية لا تكون بدون قطع دابر الفساد والظلم وهذا لا يتحقق من غير أن تكون هناك ثقافة الاستعداد للتضحية في سبيل الله، فإذا كان هذا هو مسلكهم مع أهل مكة الذين آذوهم وأخرجوهم فمع غيرهم من باب أولى أن يكون العفو والصفح ونشر الأمن والسلام.

ولعل هذا الحديث الصحيح يصف أخلاق الحرب في عصر الرسول ﷺ وصفاً دقيقاً؛ ويمثل خير دليل على سموها وتميزها بكل مفرداتها عما يعلنه ويكتبه المغرضون، ولعل أهم علامات هذا التميز أنّ هذه القيم عمل بها المسلمون في عصور الفتوح فملكوا بها قلوب العباد قبل أن يملكوا البلاد، بينما الذي يُكتب في هذا العصر ويعلن عنه لا يتجاوز أكثره الجانب الإعلامي ومن يقارن بين ما يعلن عنه من حقوق الإنسان وما يجري في بعض بلاد المسلمين، يؤكد البون الشاسع بين ما يراد به التغرير والإعلام، وبين ما أُريد له أن يكون ديناً يُعمل به.

ومن آداب الحرب في عصر النبوة، التقوى والتوكل على الله تعالى والعمل في سبيله، والدعوة إلى الدخول في دين الله تعالى، فإذا دخل الإنسان في الإسلام، فليس هو مُستَعمراً، ولا مُستَرقّاً، ولا مضطهداً، وإنما هو مسلم له ما للمسلمين وعليه ما عليهم، وإنّ أصرّ الآخرون على الحرب، فإن مفاهيم القتال في الإسلام رحمة للعالمين، فكل من لا صلة له بالقتال من معاونة معلوماتية تجسسية أو تموينية لا يقتل، فلا يقتل شيخ كبير، ولا راهب في معبده، ولا صبيّ، ولا امرأة، وإنما يوجّه القتال إلى المقاتلين الصادّين عن دين الله تعالى، ثم إن هذا القتال ليس قتال ثأر ولا انتقام، يحصل به تمثيل، وتشويه للقتلى، فلا تمثّلوا، وإنما أجيز بمقدار رد الظلم

---

(١) صحيح ابن حبان: كتاب التاريخ، باب صفة النبي ﷺ وأخباره، ح (٦٣١٤) قال شعيب الأرنـؤوط: صحيح على شرط الشيخين.

(٢) الطبراني: المعجم الصغير، باب من اسمه إبراهيم، ح (٢١٧).

والعدوان، وفتح الأبواب لتبليغ قيم الرسالة التي جاءت للناس كافة. قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ [سبأ: ٢٨].

ومنها **تقديم برّ الوالدين على الجهاد في سبيل الله** "جاء رجل إلى النبي ﷺ فاستأذنه في الجهاد، فقال: "أحيّ والداك" قال: نعم، قال: ففيهما فجاهد"[1] وإن لم يكونا بحاجة إلى خدمة ولدهما، فالحصول على إذنهما يُعد بطاقة للمشاركة في الجهاد بإيمان وثقة، وقد ردّ النبي ﷺ بعض أصحابه عن المشاركة في الجهاد، ولم يأذن لهم بالمشاركة إلا بعد الحصول على موافقة الوالدين رعاية لمشاعرهم ورحمة بهم، وحفاظاً على الروابط والصلاة الأسرية.

ومنها **رعاية شؤون الأسرة وحمايتها في حال المشاركة في القتال**، فمن آداب الإسلام أن لا تسافر امرأة إلا ومعها محرم قال ﷺ: "لا يخلوّن رجل بامرأة، ولا تسافرن امرأة وإلا معها محرم" فقام رجل فقال: يا رسول الله: "اكتُتبت في غزوة كذا وكذا، وخرَجت امرأتي حاجّة، قال ﷺ: "اذهب، فحج مع امرأتك"[2] فالنبي ﷺ قدم مصلحة الأسرة على الجهاد في مثل تلك المرحلة، وهذا جانب إنساني لا تُراعيه كثير من أخلاق الجيوش المعاصرة.

ومنها **ألا تزر وازرة وزر أخرى** فلا تقتل قبيلة بذنب آثم من أبنائها، إلا إذا كان هناك إجماع على ذلك الفعل وتعاون على تنفيذه، ويشمل هذا المعنى قيم الحرب حتى مع الحيوانات. قال رسول الله ﷺ: "قرصت نملة نبياً من الأنبياء، فأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى الله إليه: أن قرصتك نملة أحرقت أمّة من الأمم تسبح"[3] وفي إيحاءات هذا الحديث من شفافية الإحساس بالمسؤولية التي يزرعها

---

(١) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب: الجهاد بإذن الأبوين.ح (٢٨٤٢).

(٢) البخاري: كتاب الجهاد، من اكتتب في جيش فخرجت امرأته حاجة، ح (٢٨٤٤).

(٣) البخاري: كتاب الجهاد، باب: هل للأسير أن يقتل ويخدع الذين أسروه حتى ينجو من الكفرة، (٢٨٥٦).

النّبي ﷺ في قلوب أصحابه ما لا يوجد في ثقافة من ثقافات الحرب الأخرى، التي لا يعرف القوي فيها سوى القتل والقهر والدمار، والجري وراء المغانم والمتع، وفرض الشروط والقيود والتبعية!.

ومنها تكسير الأصنام لما تجلبه معتقداتها من ثقاة تخريفية تلغي العقول، وتُشيع الجهل والعجز والتواكل. قال جرير بن عبد الله ﷺ: قال لي رسول الله ﷺ: "ألا تريحني من ذي الخلصة" وكان بيتاً في خثعم يسمى كعبة اليمانية، قال: فانطلقت في خمسين ومائة فارس من أحمس، وكانوا أصحاب خيل، قال: وكنت لا أثبت على الخيل، فضرب ﷺ في صدري حتى رأيت أثر أصابعه في صدري، وقال: "اللهم ثبته، واجعله هادياً مهدياً" فانطلق إليها فكسرّها وحرّقها، ثم بعث إلى رسول الله ﷺ يخبره، فقال رسول جرير: والذي بعثك بالحق، ما جئتك حتى تركتها كأنها جمل أجوف، أو أجرب. قال: فبارك ﷺ في خيل أحمس ورجالها خمس مرات[1] أي أنّ النّبي ﷺ أقرّ جرير وسريته فيما قاموا به من نشاط ضد ذلك الصنم الذي كان يضلل الناس ودعاً لهم، وكذلك سرية علي ﷺ إلى الفلس صنم طيء سنة ٩هـ ٦٣٠م[2] قامت بمهمة مشابهة لسرية جرير ﷺ وغير ذلك من حملات ضد الخرافة.

إباحة الرجز والحداء ورفع الصوت كما كانوا يفعلون في حفر الخندق، قال البراء ﷺ: رأيت النبي ﷺ يوم الخندق، وهو ينقل التراب حتى وارى التراب شعر صدره ﷺ وكان رجلاً كثير الشعر، وهو يرتجز برجز عبد الله بن رواحة ﷺ:

---

(١) البخاري: كتاب الجهاد، باب: ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب، وعقوبة من عصى إمامه. ح (٢٨٧٤).(٣٧٦٤).

(٢) ابن سعد: الطبقات، ٢/ ٣٣١. الأنصار في العصر الراشدي، ٧١. ابن القيم: زاد المعاد، ٣/ ٣٢٨، وفيه تفاصيل هدم الأصنام.

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا وثبت أقدامنا إن لاقينا. يرفع بها صوته[1]

وكما رجز مَنْ يقود ناقة رسول الله ﷺ يوم فتح مكة برجز عبد الله بن رواحة شهيد مؤتة، وحين انتقده عمر ﷺ قال ﷺ: "خل عنه يا عمر فو الذي نفسي بيده لكلامه أشد عليهم من وقع النبل"[2] وكان ابن رواحة أنشد ذلك بين يدي رسول الله ﷺ يوم عمرة القضية، وكما فعل عامر بن الأكوع ﷺ يوم خيبر حين كان يحدو بهم في الطريق، والأمثلة على ذلك كثيرة[3].

كراهية التنازع والاختلاف في الحرب، وأهمية طاعة ولي الأمر وخطورة عقوبة من عصى إمامه، قال الله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦] ومن العقوبات التي حصلت بسبب معصية الأمير ما حصل للمسلمين في موقعة أحد. قال البراء بن عازب رضي الله عنهما: جعل النبي ﷺ على الرجالة يوم أحد - وكانوا خمسين رجلاً - عبد الله بن جُبير فقال: "إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم، فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم" فهزموهم، قال: فأنا والله رأيت النساء يشتددن، قد بدت خلاخلهن وأسوقهن، رافعات ثيابهن. فقال أصحاب عبد الله بن جبير: الغنيمة أي قوم الغنيمة، ظهر أصحابكم فما تنتظرون؟ فقال عبد الله ابن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟ قالوا: والله لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة، فلما أتوهم صرفت

---

(١) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب: ما يجوز من الاحتيال والحذر، مع من تخشى معرته، (٢٨٧٠).

(٢) صحيح ابن خزيمة: كتاب المناسك، باب إنشاد المحرم الشعر والرجز (٢٦٨٠) سنن النسائي: كتاب مناسك الحج، باب استقبال الحج (٢٨٩٣) ابن القيم: زاد المعاد، ٣/ ٣٤٠، ٣٢٧. وفيه تنبيه على استشهاد ابن رواحة قبل فتح مكة وأن شعره هو الذي كان يُرتجز به.

(٣) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، ح (٣٩٦٠).

وجوههم فأقبلوا منهزمين، فذاك إذ يدعوهم الرسول في أخراهم، فلم يبق مع النبي ﷺ غير اثني عشر رجلاً، فأصابوا منا سبعين"[1] قال تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٣] فكان في ذلك درس عظيم وعبرة كبرى استقى منها الصحابة حب الوحدة والجماعة والتقرب إلى الله تعالى بطاعة الأمير الصالح بالمعروف، والوقوف عند حدود تعاليمه وأوامره ونواهيه.

إحساس الفرد بالمسؤولية تجاه المجتمع والأمة، حتى قام عدد من الصحابة بمهام لا يقوم بها إلا سرية أو جيش، ومن ذلك ما قام به سلمة بن الأكوع ﷺ في غزوة الغابة. قال: " خرجت من المدينة ذاهباً نحو الغابة، حتى إذا كنت بثنية الغابة لقيني غلام لعبد الرحمن بن عوف، قلت ويحك ما بك؟ قال: أُخذت لقاح النبي ﷺ قلت: من أخذها؟ قال: غطفان وفزارة، فصرخت ثلاث صرخات أسمعْت ما بين لابتيها: يا صباحاه يا صباحاه، ثم اندفعت حتى ألقاهم وقد أخذوها، فجعلت أرميهم وأقول:

أنـــا ابـــن الأكـــوع   واليـــوم يـــوم الرضـــع

فاستنقذتها منهم قبل أن يشربوا، فأقبلت بها أسوقها، فلقيني النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله، إن القوم عِطاش، وإني أعجلتهم أن يشربوا سقيهم، فابعث في أثرهم، فقال: (يا ابن الأكوع: ملكت فاسجح، إن القوم يقرون في قومهم"[2] ومن صلاحيات الحرب في عصر الرسالة، ما أقرّه النّبي ﷺ إذا حدث للقائد حادث، فعلى من يجد في نفسه القوة أن يتولى الأمر ولا ينتظر الإذن؛ حرصاً على المسلمين، كما فعل خالد ﷺ يوم مؤتة، قال أنس ﷺ: خطب رسول الله ﷺ فقال: " أخذ الراية

---

(١) البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب ما من يكره التنازع والاختلاف في الحرب، ح (٢٨٧٤).

(٢) البخاري:كتاب الجهاد، باب: من رأى العدو فنادى بأعلى صوته: يا صباحاه، حتى يسمع النـاس، ح (٢٨٧٦).

زيد فأصيب، ثم أخذها جعفر فأصيب، ثم أخذها عبد الله بن رواحة فأصيب، ثم أخذها خالد بن الوليد عن غير إمرة ففتح عليه، وما يسرني، أو قال: ما يسرهم، أنهم عندنا. وقال: وإن عينيه لتذرفان[1].

ومن آداب ما بعد المعركة الإقامة ثلاثاً في حال النصر وإرسال المبشرين إلى المدينة. عن أبي طلحة ﷺ أنّ النبي ﷺ كان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال[2]. وكان ﷺ يرسل بالبشارة في الفتوح كما حصل يوم بدر وكان قادته يرسلون إليه بها بعد إنجاز النصر كما فعل جرير بن عبد الله ﷺ حين بعثه إلى صنم ذي الخلصة[3] وكما أرسل علي ﷺ حين انتصر على زبيد ومن معهم[4] وغير ذلك.

وآداب الحرب العامة في عصر الرسول ﷺ كثيرة تمثل مَعيناً من القيم السامية والمواقف الخالدة، في منظومة من التشريع الإنساني، الذي يصلح لكل زمان ومكان ولكل أمة، وذلك قبل أن يعرف العالم شيئاً من الشرائع التي تنظر في آثار الحروب، فلم تكن تلك النظم العسكرية تعرف سوى الدمار والقتل، ولا تميز بين صغير وكبير ولا بين حق أو باطل؛ والقوي فيها هو الذي يفرض ما يريد من قتل وتشريد واستعباد، ولا يبالي بآلام الضعفاء ولا أنين الثكالى، ولعل ما يجري في كثير من حروب هذا العصر الذي أزيحت فيه قيم الحرب في السيرة النبوية عن قيادة الحياة، وأبعدت معانيها ومقاصدها عن توجيه حركة القوى المقاتلة، أصبح الناس يلاحظون عودة كثير من أخلاق الحروب الجاهلية التي تنشر الخوف والخراب، ولا تبالي بما يكتب من قوانين؛ فمن يحاسب القوي إن لم يكن له وازع من ضمير

---

(١) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب: من تأمر في الحرب من غير إمرة إذا خاف العدو. ح (٢٨٩٨).

(٢) البخاري: الصحيح، كتاب الجهاد، باب: من غلب العدو فأقام على عرصتهم ثلاثا، (٢٩٠٠).

(٣) البخاري: كتاب الجهاد، باب: ما يكره من ذبح الإبل والغنم في المغانم،ح (٢٩١١).

(٤) ابن سعد: الطبقات، ٢/ ١٦٩.ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٣/ ١٣١. الخليفة: مهاجرة الحجاز، ١٦٨.

يحاسب به نفسه ويضبط مشاعره ويزن أفعاله، وكيف توجد هذه القيم عند من أسقط من حساباته الله والدار الآخرة؟ ومن هنا تظهر أهمية آداب وأخلاق الحرب في عصر الرسالة.

قال الفيلد مارشال مونتجمري عن إنسانية حروب الإسلام: "إن المسلمين كانوا يُستقبلون في كل مكان يصلون إليه كمحررين للشعوب من العبودية، وذلك لما اتسموا به من تسامح وإنسانية وحضارة، فزاد إيمان الشعوب بهم، علاوة على تميزهم في الوقت نفسه بالصلابة والشجاعة في القتال وقد أدى كل هذا إلى اعتناق معظم الشعوب التي انتصر عليها العرب الدين الإسلامي"[1] وهذا يؤكد بأن الحاجة لا زالت ماسة إلى نشر ثقافة الحرب في عصر الرسالة بعدلها ورحمتها؛ لإزالة ما يعانيه الناس في هذا العصر من تظالم وتطاحن وتسابق إلى صناعة أفتك الأسلحة وأعتى قوى التدمير؛ التي نزعت الأمان من هذا الكون وجعلت أهله تحت رحمة تجار الحروب وتحالفات قوى المال والاقتصاد؛ التي غالباً ما يكون التنافس بين أربابها باباً من أبواب شقاء الإنسانية، ولهذا فإن الواجب الإنساني يفرض على المسلين التعريف بقيم وثقافة السيرة النبوية كأفضل علاج لمعضلات العصر ومشكلات الأمة. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحُجُرات: ١٣] دون أن يتخلل ذلك شك أو تردد أو يأس؛ في أن العودة إلى قيم العقيدة الإسلامية، هي التي تنظم العلاقات البشرية برؤيتها العالمية، وموازينها الإنسانية، وتوازناتها الروحية والمادية، التي لا تحابي أحداً ولا تتحزب لغير الحق والسلام، فالعمل بآدابها يمثل العلاج الناجع لمعاناة البشرية وضيقها وتخوفاتها وتيه الكثير من أبنائها.

---

(١) محفوظ: نظريات الإسلام العسكرية، تقاليد الجندية وآداب الحرب، ٥٢. عن كتاب مونتغمري: الحرب عبر التاريخ.

قـال تعـالى: ﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الرعد: ١٩].

في الرفق والرحمة

الرحمة خُلق أصيل في ثقافة المقاتلين في عصر الرسالة، دعا إليها القرآن الكريم ودعت إليه السيرة النبوية وكتبه الله على نفسه. فقال ﷻ: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۖ﴾[الأنعام: ٥٤] ودعا عباده إلى طلبها فقال سبحانه: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨] ومَنّ تعالى على نبيه ﷺ أنه هو الذي وهبه الرحمة بقوله: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وقال سبحانه: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُهُۥ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٧]. ونهى سبحانه وتعالى عن اليأس من رحمة الله ﴿قَالَ وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦]. وقال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزُّمَر: ٥٣] وخاطب البشرية بأنه ﷻ أرسل إليهم نبيه ﷺ رحمة لهم. فقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. ووصف الله تعالى نبيه ﷺ بالرأفة والرحمة فقال عنه: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة: ١٢٨].

فبلغ من رحمته ورفقه ورأفته ﷺ أن شملت المنافقين واليهود على الرغم مما كانوا عليه من النقض والنكث وتعمد الأذى كما سيظهر ذلك في الفصل الخامس،

وكان ﷺ يترفق حتى بمن يغضبه فقال ﷺ داعياً الله تعالى: "اللهم إنما محمد بشر يغضب كما يغضب البشر، وإني قد اتخذت عندك عهدًا لن تُخْلِفَنِيهُ، فأيما مؤمن آذيته أو سببْته أو جلدته فاجعلها له كفارة وقربة تُقرِّبه بها إليك يوم القيامة"[1].

قال أنس ﷺ: كانت عند أم سليم - أمّه رضي الله عنها- يتيمة فرأى رسول الله ﷺ اليتيمة فقال لها ﷺ: "أنت هيه؟ لقد كبرت لا كبر سنّك، فرجعت اليتيمة إلى أم سليم تبكي فقالت أم سليم: مالك يا بنيّة؟ قالت الجارية: دعا عليّ نبي الله ﷺ أن لا يكبر سني فالآن لا يكبر سني أبداً أو قالت: قرني، فخرجت أمّ سليم مستعجلة تلوث خمارها حتى لقيت رسول الله ﷺ فقال لها رسول الله ﷺ: مالك يا أم سليم؟ فقالت: يا نبي الله أدعوت على يتيمتي؟ قال: وما ذاك يا أم سليم؟ قالت: زعَمَت أنك دعوتَ أن لا يكبر سنها ولا يكبر قرنها، قال فضحك رسول الله ﷺ ثم قال: يا أم سليم أما تعلمين أن شرطي على ربي، أني اشترطت على ربي فقلت: إنما أنا بشر أرضى كما يرضى البشر؛ وأغضب كما يغضب البشر، فأيما أحد دعوت عليه من أمتي بدعوة ليس لها بأهل؛أن تجعلها له طهوراً وزكاة وقربة يقربه بها منه يوم القيامة"[2].

فخلق الرفق والرحمة لم يفارق النبي ﷺ في موقف من مواقف حياته، وكيف يفارقه وهو ﷺ رحمة للعالمين، فها هوا حين واجه سفهاء الطائف وناله ما ناله من أذاهم، الذي استوجبوا به العقوبة لولا رحمة النّبي ﷺ حين خاطبه جبريل عليه السلام قائلاً: بأنّ الله بعث ملك الجبال يقول: إن شئت يا محمّد أن أطبق عليهم الأخشبين، فعفا عنهم ﷺ قائلاً: "أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك

(١) مسلم: صحيح مسلم، كتاب البر والصلة، باب من لعنه النبي ﷺ أو سبه أو دعا عليه وليس هو، ح (٢٦٠١).

(٢) مسلم: صحيح مسلم، كتاب البر والصلة، باب من لعنه النبي ﷺ أو سبه أو دعا عليه وليس هو، ح (٢٦٠٣).

به شيئاً"[1] فأي شفقة وأي عفو وصفح وحلم يُضاهي هذا الحلم والرحمة التي كان يحملها رسول الله في قلبه؟! وأي حرص منه ﷺ على العافية والسلامة للنّاس أجمعين! فالنّبي ﷺ هو المدرسة الكبرى التي يستقي منها العلماء والدعاة والمفكرون والمشرعون وغيرهم؛ قيم الرحمة والرأفة التي تركت آثارها في أخلاق المحاربين المسلمين، وأسهمت في بناء الشخصية المثالية التي تقاتل من أجل المصلحة الإنسانية بناء على ثوابت العلوم الفقهية والنفسية والقيم التربوية الهادفة إلى بناء العلاقات الإنسانية التي تتلقاها في المناهج التعليمية التي تشكل أخلاق الحرب الإسلامية، التي منها التجاوز عن الجاهلين وأصحاب العاهات وأمثالهم ممن لا يقاتلون، ففي معركة أحد في شوال ٣هـ إبريل ٦٢٤م، لما توجه رسول الله ﷺ بجيشه صوب أحد، وأخذ به الطريق على مزرعة لرجل ضرير من المنافقين، فأخذ ذلك المنافق يسب النّبي ﷺ وينال منه، وأخذ في يده حفنة من تراب وقال: والله لو أعلم أنّي لا أصيب بها غيرك لرميتك بها! حَتى همَّ أصحاب النبي ﷺ بقتله فأبى عليهم وقال ﷺ: "دعوه"[2].

ولم يقل رسول الله ﷺ أنّ الحال لا يحتمل الرحمة، وأن هيبة قيادة الجيش لا بد أن تُحفظ من خلال الحسم مع كل من يناقشهم القول، ولكن النبي ﷺ علّم أصحابه أنّ هذا الضرير لا خطر منه فلا يحولوا بينه وبين ما يقول، فلا يوجد في قيم الحرب الإسلامية الرد على الضعفاء والمعاقين بغير الرحمة، حتى لو كان ذلك في ساعة الحرب، بل كانت سنته معهم ﷺ الرفق بهم والعفو عنهم والاتعاظ بحالهم والإشفاق عليهم. ولما كُسِرت رُباعيته ﷺ وشُجَ وجهه يوم أُحد، شَقّ ذلك على أصحابه، وقالوا: يا رسول الله ادعُ الله على المشركين، فأجاب أصحابه قائلاً لهم: "**إني لم أبعث لعّاناً وإنما بعثت رحمة**"[3].

---

(١) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم آمين، ح (٣٠٥٩).

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ٣/ ٢٣٩.

(٣)مسلم: صحيح مسلم، كتاب البر والصلة، باب النهي عن لعن الدواب، ح (٢٥٩٩).

ومن مواقف رحمته الرائعة وعفوه الجميل موقفه مع **أهل** مكة يوم **الفتح** حين تمكن منهم، فلم يلمهم على ما فعلوا به وبأصحابه من ألوان الأذى وسوء الجوار، ولم يفتح معهم صفحات الحساب أو العتاب، في حين نرى أن أخلاق الحرب في هذ العصر، ولا سيما عند أدعياء حقوق الإنسان، كثيراً ما تعمل بعقلية الاجتثاث فتسمي أمثالهم مجرمي حرب، فتغذي بذلك عوامل الحقد ونوازع الانتقام وتديم الشر بين الناس، أما النبي ﷺ بحلمه ورحمته فقد ملك قلوب أعدائه وأسر مشاعرهم، فكان من ثمار تلك الرحمة وذلك الموقف النبيل أنه لم يبق قرشي حين وفاة النبي ﷺ لا يفتديه بنفسه ﷺ فضلاً عن أن يعاديه، كل ذلك بفضل لين الجانب والرحمة التي كان يسبغها ﷺ على من آذاه وحاربه فضلاً عمّن ناصره وآمن به وجاهد معه، فما أحوج أبناء الأمة إلى التحلي بأخلاقه ﷺ والاقتداء بهديه والتمسك برحمته ورفقه، قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠]. وفي غزوة **الفتح** قال ابن عباس رضي الله عنهما: "خرج النبي ﷺ في رمضان، فصام حتى بلغ الكديد أفطر"[1] أي رحمة ورأفة بالصائمين ورخصة لهم ليروه فيفطروا.

وإن كانت الحرب هي الحرب بمشاهد الدماء والقتل والخراب إلا أن من خصائص أخلاق الحرب في عصر النبوة التمسك بخلق الرحمة في كل صفحاتها. قال ﷺ: "**أعفّ الناس قتلة أهل الإيمان**"[2] وقال ﷺ: "**إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح**"[3] وجند النبوة إن قَتلوا لا يُنكلون وإذا انتصروا لا يُمثلون ولا يتشفون، ويحترمون الإنسان حياً وميتاً عملاً

---

(١) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب: الخروج في رمضان، ح (٢٧٩٤).

(٢) البيهقي: سنن البيهقي، كتاب السير، باب المنع من صبر الكافر بعد الإسار بأن يتخذ غرضا، (١٧٨٤٠).

(٣)مسلم: صحيح مسلم، كتاب الصيد والذبائح، باب الأمر بإحسان القتل والذبح، (١٩٥٥).

بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]قال أبو هريرة ﷺ: بعثنا رسول الله ﷺ في بعث، وقال لنا: "إنْ لقيتم فلاناً وفلاناً - لرجلين من قريش سمّاهما - فحرّقوهما بالنار" قال: ثم أتيناه نودعه حين أردنا الخروج، فقال ﷺ: "إني كنت أمرتكم أن تحرقوا فلاناً وفلاناً بالنار، وإنّ النار لا يعذب بها إلا الله، فإن أخذتموهما فاقتلوهما"[1] ولما عاقب علي ﷺ بالنار بعض المارقين، وبلغ ذلك ابن عباس قال: لو كنت أنا ما حرقتهم لقول رسول الله ﷺ لا تعذبوا بعذاب الله ولقتلتهم لقول رسول الله ﷺ من بدّل دينه فاقتلوه. فقال عمار ﷺ لم يحرّقهم ولكن حفر لهم حفائر وخرق بعضها إلى بعض ثم دخن عليهم حتى ماتوا. فقال عمرو قال الشاعر:

لترم بي المنايا حيث شاءت   إذا لم ترم بي في الحفرتين

إذا ما أججوا حطباً وناراً   هناك الموت نقداً غير دين[2]

والرحمة في أخلاق الصحابة ﷺ تتجاوز الرفق بالإنسان حتى لو كان من العدو، إلى الرفق بالحيوان، فعلى الرغم من أهمية التدريب على الرمي في أخلاق الحرب في عصر النبوة فإنّ النّبي ﷺ قال: "**لا تتخذوا شيئاً فيه الروح غرضاً**"[3] أي هدفاً، وخرج ابن عمر يوماً في طريق من طرق المدينة فرأى غلماناً قد نصبوا **دجاجة يرمونها** فلما رأوه فرّوا فغضب. وقال: "من فعل هذا؟ إنّ رسول الله ﷺ قد لعن من مثّل بالحيوان"[4] وقالت الطاهرة أم المؤمنين عائشة رضي اللّه عنها: "كان رسول اللّه ﷺ يَبْدو إلى هذه التلاعِ، وإنه أراد البداوة مرة فأرسل إليَّ ناقة مُحَرَّمة

---

(١) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب: التوديع.ح (٢٧٩٥).

(٢) البيهقي: سنن البيهقي، كتاب السير، باب المنع من إحراق المشركين بالنار بعد الإسار، (١٧٨٤١).

(٣) سنن البيهقي، كتاب السير، باب المنع من صبر الكافر بعد الإسار بأن يتخذ غرضا، (١٧٨٣٥).

(٤) البيهقي: سنن البيهقي، كتاب السير، باب المنع من صبر الكافر بعد الإسار بأن يتخذ غرضا، (١٧٨٣٦).

من إبل الصدقة فقال لي: "يا عائشة أرفقي؛ فإنَّ الرِّفقَ لم يكن في شيء قطٌّ إلا زانه، ولا نزع من شيءٍ قطٌّ إلاّ شانه"[1] وعن عبد الرحمن بن عبد اللّه عن أبيه قال: كنا مع رسول اللّه ﷺ في سفر فانطلق لحاجته، فرأينا حُمَّرَةً معها فرخان فأخذنا فرخيها، فجاءت الحمرة فجعلت تفرش ، فجاء النبيُّ ﷺ فقال: "من فجع هذه بولدها؟ ردُّوا ولدها إليها. ورأى ﷺ قرية نمل قد حرَّقناها، فقال: "من حرّق هذه؟" قلنا: نحن، قال: "إنه لاينبغي أن يعذب بالنار إلا ربُّ النار"[2] فأخلاق الحرب في عصر الرسالة قائمة على الرفق والرحمة بالإنسان والحيوان، وفي كل أمر نقية من مظاهر الانتقام والجبروت وحب التسلط على المغلوب الضعيف، وذلك أنها تستقي معانيها من عين الرحمة الإنسانية، رسول الله ﷺ إلى البشرية، الذي جاء بالدين العالمي الصالح لكل زمان ومكان، والمؤهل لقيادة البشرية على قواعد المودة والعدل والاستقرار، وكل هذه المعاني تمثل دعوة لأبناء الأمة في هذا العصر، إلى ترسيخ اقتدائها في تعاملاتها بسيرة نبيها ﷺ لعلاج مشكلاتها ومداواة إصاباتها، لتعود أواصرها كما كانت مبنية على الرفق والرحمة والمودة والتسامح.

الوفاء بالعهد والأمان في أخلاق المقاتلين في عصر الرسالة

ومن أخلاقهم الحربية الوفاء بالعهد والأمان وإنفاذ العقود، لما لهذه المعاني من جذور راسخة في عقيدة المسلم. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة: ١]. وقال سبحانه: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا﴾ [النحل: ٩١] وأمر الله تعالى بالاستقامة والوفاء لمن يفي ويستقيم من المشركين وغيرهم. قال تعالى: ﴿فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٧] ورغب ﷻ بالوفاء بالعهد ووعد على ذلك الأجر العظيم. فقال: ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠] وحذر سبحانه من

---

(١) أبو داوود: سنن أبو داوود، باب ما جاء في الهجرة وسكنى البدو، (٢٤٧٨).

(٢) أبو داوود: سنن أبو داوود، باب في كراهية حرق العدوٌ بالنار، (٢٦٧٥).

نقض العهود والعبث بالمواثيق والإفساد في الأرض. فقال ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾[الرعد: ٢٥] فهذه ثوابت تؤكد على الوفاء وحفظ العهود واحترام المواثيق، وتدعو إلى الاستقامة وتعِد الموفين بالعهد بالمكانة الرفيعة عند الله تعالى، وبالمقابل تُحذر من النقض والغدر الذي يقود إلى غضب الله تعالى والطرد من رحمته، ومعلوم أنّ كل هذه القيم أصيلة في أخلاق المسلمين لم تأت مقابل كسب أو في حال دون حال، فلا يجوز للمسلم إلا الوفاء وسلوك الوسائل المشروعة إلى أهدافه لأنه مسؤول عن كل ما يقوم به، وهذا ما يميز أخلاق الحرب في عصر الرسول ﷺ عن أخلاقها عند غير المسلمين، ممن أسقط من حساباته مسألة الضمير والرحمة وضوابط الإنسانية وقيم الدار الآخرة.

ومن الوفاء الجميل بالعهود ما حصل لحذيفة بن اليمان **يوم بدر**، قال: ما منعني أن أشهد بدراً إلا أني خرجت أنا وأبي، حُسيل. قال: فأخَذَنا كفار قريش. قالوا: إنكم تريدون محمداً؟ فقلنا: ما نريده. ما نريد إلا المدينة، فأخذوا منا عهد الله وميثاقه لننصرفن إلى المدينة ولا نقاتل معه. فأتينا رسول الله ﷺ فأخبرناه الخبر، فقال: "**انصرفا. نفي بعهدهم، ونستعين الله عليهم**"[1] فهل هناك بناء في القيم النبيلة وأخلاق الوفاء بالعهد للعدو؛ كما هو في عند المسلمين في ذلك العصر؟ وهذا ما ينشأ عليه المؤمنون في كل عصر، فالوفاء قيمة نابعة من معتقد المسلم الذي يدين به لله رب العالمين، وبلغ من شمول العمل بالعهد وسعة أفاق صلاحياته عند المسلمين؛ **أن المرأة المسلمة إذا أعطت الأمان للعدو فقد وجب الوفاء به**، دون أي شرط أو قيد آخر ينتقص من تلك الصلاحية، وهذا على عكس ما يعمل به كثير ممن ينادون بحقوق الإنسان في هذا العصر، لكن عملهم بتلك الحقوق مقيد بقوة أعدائهم فإن ضعف العدو أسقطوا القيمة الحقيقية للوفاء المجرد من الغش

---

(١) مسلم: صحيح مسلم، كتاب، الجهاد والسير، باب الوفاء بالعهد،ح (١٧٨٧).

والخديعة، وأبقوا على المسميات التي لا تسمن ولا تغني، فالوفاء عندهم يوهب للأصدقاء والحلفاء وينزع عن الضعفاء والغرباء. ومن مواقف الوفاء بالأمان والعهد، أن النبي ﷺ يُعلم أصحابه الوفاء حتى للموتى، قال ﷺ في حق أسرى المشركين يوم بدر: "لو كان المطعم بن عدي حياً، ثم كلمني في هؤلاء النتنى، لتركتهم له"[1] وذلك أن المطعم بن عدي كانت له يد معروف وموقف كريم عند رسول الله ﷺ في هذا الباب حين دخل مكة بجواره، يوم عاد من رحلته التي آذاه فيها أهل الطائف[2].

ومن مواقف الوفاء في السيرة النبوية، ما ذكره الواقدي يوم خيبر من أن يسار الحبشي الأسود، كان لعامر اليهوديّ في خيبر، وكان في غنم مولاه فلمّا رأى أهل خيبر يتحصّنون، ويقاتلون سألهم. فقالوا: نقاتل هذا الذي يزعم أنّه نبيّ، قال: فوقعت تلك الكلمة في نفسه فأقبل بغنمه يسوقها إلى رسول اللّه ﷺ فقال: يا مُحَمّدُ ما تقول؟ ما تدعو إليه؟ قال: "أدعو إلى الإسلام فأشهد أنّ لا إله إلاّ اللّه، وأنّى رسول اللّه " قال: فما لي؟ قال: "الجنّة إن ثبتّ على ذلك" قال: فأسلم، وقال: إنّ غنمي هذه وديعة، فقال النبيّ ﷺ: "أخرجها من العسكر، ثمّ صح بها وارمها بحصياتٍ، فإنّ اللّه عزّ وجلّ سيؤدّى عنك أمانتك". ففعل العبد، فخرجت الغنم إلى سيّدها، وعلم اليهودي أنّ عبده قد أسلم[3] فقيم الحرب عند المسلمين، تحفظ حقوق الآخرين حتى لو كانوا محاربين، ولا تبيح شيئاً من غير أن يكون مبنياً على أسس شرعية، ولما كان هذا الحبشي مؤتمن على مال سيده فقد أمره النّبي ﷺ أن يؤدي أمانته، ولم يبح له التفريط في الأمانة حتى في حالة الحرب التي كانت في خيبر آنذاك.

---

(١) البخاري: كتاب المغازي، باب: فضل من شهد بدرا، (٣٧٩٩) كتاب الخمس، باب منّ النبي ﷺ على الأسارى (٢٩٧٠).

(٢) السهيلي: الروض الأنف، ٢/ ١٦٦.

(٣) الواقدي: المغازي، ٢/ ١١٨.

وما روي من الوفاء ليهود بني قينقاع بعد غدرهم بالمسلمين! ومن ثم طردهم من المدينة، واستفزازهم للمسلمين في ذلك المسير وهم مطرودين لا يمتلكون ما يدفعون به عن أنفسهم، يبين حقيقة الوفاء عند المسلمين، فلم تسمح لهم أخلاقهم أن يُسمعوا أحداً منهم ما يؤذيه، وكانت يهود قينقاع في مسيرهم قد: "حملوا النّساء والصّبيان فخرجوا على بني الحارث بن الخزرج، ثمّ على الجبليّة، ثمّ على الجسر حتّى مرّوا بالمصلّى، ثمّ شقّوا سوق المدينة، والنّساء في الهوادج عليهنّ الحرير والدّيباج وقطف الخزّ الخضر والحمر، وقد صفّ لهم النّاس فجعلوا يَمُرّونَ قِطَارًا في أثر قطار، فحملوا على ستّمائة بعير وَمَرّوا يَضربونَ بالدّفُوف وَيُزَمّرون بالمزامير وعلى النّساء الْمُعَصْفَرَاتُ وحُليّ الذّهب مُظهرين ذلك تجلّداً، ونساءهم في الهوادج قد سفرن عن الوجوه في أيديهنّ أسورة الذّهب، والدّرّ في رقابهنّ"[1] ويقال غيّبوا بعض سلاحهم وخرجوا به"[2] وهذا مخالف لشروط استسلامهم الذي تم الاتفاق عليه مع المسلمين، ومع كل ما حصل منهم من استفزاز لمشاعر المسلمين المنتصرين، بتجميل نسائهم والسير بهن سافرات عليهن الحلي والملابس الملونة للفت الانتباه واستخدام المزامير والسفور وما شابه ذلك، مما يقوم به كثير من محترفي الغزو الثقافي والأخلاقي لحرف الناس عن قيمهم وعفافهم، ومن ثم العمل على تمزيق هويتهم وطمس انتمائهم، لكن المسلمين آنذاك كانوا على أعلى درجات الوعي الحضاري وبأبهى مواقع الاعتزاز بالهوية والتمسك بالعقيدة، فلم يتأثروا بما فعله يهود قينقاع، ولم يبدر منهم أي رد فعل مؤذ لأولئك القوم الذين أساؤوا الجوار ونقضوا المواثيق، مما يؤكد على وفاء المسلمين، وسعة آفاق ثقافتهم التي تحترم خيارات الآخرين وتعمل بمفاهيم التعايش العالمي، الذي يقوي الحوار والتواصل، قال تعالى: ﴿قُلْ

---

(١) الواقدي: المغازي، ١/ ٢٧١.

(٢) الواقدي: المغازي، ١/ ٢٧٤.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

فضوابط الحرب في عصر الرسالة، تنحو دائماً باتجاه الحوار والأخوة الإنسانية، والدعوة إلى الله تعالى، والارتقاء بالقيم البشرية والأخلاق الحربية، وتأصيل قيم الرحمة وآدابها في أحلك الظروف وأحرجها. قال النبي ﷺ لعلي ﷺ حين أعطاه الراية يوم خيبر: "انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم، فو الله **لأن يهدي الله رجلاً بك، خير لك من أن يكون لك حمر النعم**"(١) وهذا الموقف يظهر الوفاء التام لقيم العقيدة وللأخوة الإنسانية ويبين أن أهداف الحرب في الإسلام لم تكن مادية أو توسعية، وإنما هي أخلاقية تربوية تمد الجسور وتبني القيم، ويبرهن على أن الحضارة الإسلامية جزء من المجتمع الإنساني تعمل دائماً على إثراء عوامل الاستقرار والأمن في الأرض، من خلال ثوابتها المتوازنة التي تعمل على تبني القيم النبيلة في الحضارات السابقة وتقويم البعض منها، والأخذ من إبداعات الحضارة المعاصر كل ما ينفع الناس ويحمي كرامتهم، لتجعل من الحضارة الإسلامية مرتكزاً يقف عليه دعاة الأخوة الإنسانية المعاصرة، إذ لا يجوز للمسلم غير الوفاء وأداء الحقوق لأصحابها، ولا سيما في حال النصر، أما الآخرون من أعداء الصحابة وحلفائهم، إذا انتصروا على المسلمين فإنهم ﴿ لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ ﴾ [التوبة: ١٠] وهذا يؤكد الفرق في قيم الوفاء وآداب القتال عند المسلمين، حين تُقارن بحروب غير المسلمين الماضية أو المعاصرة؛ وهو الفرق بين الإسلام وبين الجاهلية، وبين المسلمين وبين من لا دين لهم ولا ميثاق، قال تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ لَّا يَسۡتَوُۥنَ ﴾ [السجدة: ١٨].

---

(١) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب: فضل من أسلم على يديه رجل، ح (٢٨٤٧).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

المبحث الثالث

حول الطاعة والعدل، والتحذير من الخروج، ونقض العهود. واللجوء إلى الدعاء.

الحث على الطاعة والعدل بين الرعية والوفاء بالبيعة

الطاعة باب من أبواب تنظيم التعاون والتواصل لا بد منه، تؤكده الحاجة إلى بناء المشترك الإنساني المكوّن للمجتمعات والأمم، وهو ثابت في أخلاق المسلمين وتعاملاتهم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] ومبني على ثوابت العقيدة التي لا يوجد فيها طاعة عمياء بلا هدف ولا دليل، قال ﷺ: "السمع والطاعة حق ما لم يؤمر بالمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة"[(١)].

ولا يوجد مَن هو معصوم بعد رسول الله ﷺ لتكون طاعته مطلقة، فلا بد أن تكون الطاعة مقيدة بطاعة الله تعالى، فهذا خليفة رسول الله الصدّيق رضي الله عنه يخطب في الأمة بعد بيعته فيقول: "أطيعوني ما أطعت الله فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم"[(٢)] وقال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] فالطاعة بالمعروف طاعة بَنّاءة هادفة إلى كل خير، وإلى تأصيل السلام في الأرض ونبذ الظلم والاستبداد، وكثيراً ما يستشهد الباحثون بحوار حول حدود الطاعة، دار بين أفراد سرية من سرايا النّبي ﷺ وأميرهم، قال علي رضي الله عنه: بعث النبي ﷺ سرية فاستعمل عليها رجلاً من الأنصار، وأمرهم أن يطيعوه، فغضب، فقال: أليس أمركم النبي ﷺ أن تطيعوني؟ قالوا: بلى، قال: فاجمعوا لي حطباً، فجمعوا، فقال: أوقدوا ناراً،

(١) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب: السمع والطاعة الإمام. ح (٢٧٩٦).

(٢) البخاري: كتاب المغازي، باب: سرية عبد الله بن حذافة، وعلقمة بن مجزز المدلجي. ويقال: إنها سرية الأنصاري. (٤٠٨٥).

فأوقدوها، فقال: ادخلوها، فهمّوا وجعل بعضهم يمسك بعضاً، ويقولون: فررنا إلى النبي ﷺ من النار، فما زالوا حتى خمدت النار، فسكن غضبه، فبلغ النبي ﷺ فقال: "لو دخلوها ما خرجوا منها إلى يوم القيامة، **الطاعة في المعروف**"[1].

وأخلاق عصر النبوة بيّنت علامات حدود الطاعة وإطارها العام، من خلال الحديث عن صفات خيار القادة وشرارهم، قال ﷺ: "خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، ويصلّون عليكم وتصلّون عليهم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم" قيل: يا رسول الله! أفلا ننابذهم بالسيف؟ فقال ﷺ: لا، ما أقاموا فيكم الصلاة، وإذا رأيتم من ولاتكم شيئاً تكرهونه، **فاكرهوا عمله، ولا تنزعوا يداً من طاعة**"[2].

وهذا يؤكد أهميّة الجماعة وخطورة الخروج عليها تحت بعض الذرائع، كما يبين نهي النّبي ﷺ عن استعمال السلاح ومنابذة المسلمين حتى لو كان ذلك تحت قيادة قائد لا تحبه رعيته، ووجه النبي ﷺ إلى كراهية عمل الظالم والبراءة منه لمحاصرة الظلم والبراءة بين يدي الله تعالى، إلا إذا أعلن ذلك الإمام الحرب على الصلاة وأركان الإسلام، ولعل المتمعن في توجيه النبي إلى كراهية العمل وليس كراهية الشخص ما يوحي بأهمية دوام التواصل بين الناس وخطورة التقاطع والتناحر، على الرغم من مرارة الظلم ودناءة الظالم، وكيف يحب الناس إماماً إن لم يكن عادلاً رحيماً بهم، والعدل والرحمة بعض صفات القادة، حيث كان القادة قائمين على حوائج جندهم يقاسمونهم آلامهم وآمالهم، وكان قادة الحرب في عصر الرسالة يفتدون جندهم ويواجهون أعداءهم، فإن شذ قائد عن هذه القيم ولم يخرج من الدين، فالواجب كراهية ظلمه ومعاصيه مع الالتزام بالطاعة والمحافظة على الجماعة خشية على الأمة من الفتن وما تجلبه من الشرّ والتمزق وضياع الأمن

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب خيار الأئمة وشرارهم،ح (١٨٥٥) ويقال سرية: علقمة بن مجزز المدلجي وإنها سريةا لأنصاري.

(٢) مسلم: صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب خيار الأئمة وشرارهم، (١٨٥٥).

والوحدة.

ولما كانت مواصفات القادة في أخلاق عصر الرسالة، إنسانية حضارية راقية في أهدافها ومقاصدها، لا يخرج عنها إلا من في وجدانه نزعة للظلم والتمرد على أخلاق النبوة، شددت النصوص على تحقيق تلك المواصفات، إذ لا رخصة في العدل بكل أنواعه، أصبح المسلمون يتدافعون مواقع الإمارة التي يقتتل عليها غيرهم، لما فيها من المتاعب، فضلاً عن الخضوع للمحاسبة، فكل فرد مسؤول عمّا تحت يده، قال ﷺ: " **ألا كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته، فالأمير الذي على الناس راع، وهو مسئول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عنهم، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده، وهي مسئولة عنهم، والعبد راع على مال سيده، وهو مسئول عنه**"[1] فلا يفرط بالعدل إلا عاجز ناقص الفهم والعلم شرّ على الأمّة في عقيدتهها وأمنها ومستقبلها، ولما زار عبيد الله بن مرجانة الفارسية وابن زياد بن أبيه والي الكوفة، معقل بن يسار المزني ﷺ في مرضه الذي مات فيه، قال معقل لابن مرجانة الفارسية: إني محدثك حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ لو علمت أنّ لي حياة ما حدثتك، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "**ما من عبد يسترعيه الله رعية، يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته، إلا حرم الله عليه الجنة**"[2] فلم يحدد النص جنسية الرعية ولا ديانتهم، مما يبين الروح العالمية في نصوص ومقاصد التشريع الإسلامي، ويسقط الدعوات التي تنال من الإسلام بأنه دين العرب أو أنه لا يحترم سوى أتباعه من المسلمين، ولكي لا يقع صراع بين المسلمين على الخلافة أشار لهم النبي ﷺ من خلال استشرافه لحال الأمة ومعرفته بأبنائها آنذاك أين تكون الخلافة، فقال ﷺ: "**الناس تبع لقريش في هذا الشأن. مسلمهم تبع**

(١) مسلم: صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، وعقوبة الجائر، (١٨٢٩).

(٢) مسلم: صحيح مسلم، كتاب الإمارة ، باب استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار، ح (١٤٢).

لمسلمهم ـ وكافرهم تبع لكافرهم"[1] وكان النبي ﷺ ينهى أصحابه عن طلب الإمارة، قال عبد الرحمن بن سمرة: قال لي رسول الله ﷺ: "يا عبد الرحمن! لا تسأل الإمارة. فإنك إن أعطيتها، عن مسألة، أوكلت إليها. وإن أعطيتها، عن غير مسألة، أعنت عليها "[2] وقال ﷺ: "إنّا، والله! لا نولي على هذا العمل أحداً سأله. ولا أحداً حرص عليه"[3] وقال أبو ذر ﷺ: قلت: يا رسول الله! ألا تستعملني؟ قال: "فضرب بيده على منكبي. ثم قال: "يا أبا ذر! إنّك ضعيف، وإنها أمانة وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها وأدّى الذي عليه فيها "[4].

فيستنبط من هذه النصوص أن المسؤولية أمانة، لا تعطى لمتحزب ولا لمن يتعصب لإقليمه وبلدته وقبيلته على حساب الحق، فيجعلون أحزابهم وأقاليمهم فوق الحق! فيكونون سبباً في خراب البلاد وقلوب العباد، وهذا ما يقع فيه كثير ممن ضعف دينهم وقلّ إنصافهم، ولا تعطى لراغب فيها لكي يحقق مآرب شخصية سواء كانت ما دية أو معنوية، ذلك أن حرصه عليها سيقوده إلى النفاق والمداهنة والسكوت عن الحق، لذلك كان النّبي ﷺ يمنعها لمن سألها ويعطيها لمن زهد بها، لأنه أحرى أن لا يميل بها أو تميل به عن الحق والعدل، وهذا ما يمثل موقف ا لصحابة ﷺ من المسؤولية فلم يثبت في يوم من الأيام أنهم ﷺ اختلفوا عليها بذاتها إذ أن هذه المسألة محسومة في ثقافتهم وفهمهم واجتهاداتهم، وإن حصل خلاف فإنّه كان على الوسيلة المتبعة في معالجة الأحداث وليس على الخلافة[5] وهذه نقطة خطيرة استغلت للطعن في أمانة أصحاب رسول الله ونزاهتهم وفهمهم، بينما تربية الصحابة وثقافتهم تمنعانهم من الاختلاف على ما يختلف

---

(١) صحيح مسلم، كتاب، كتاب الإمارة، باب الناس تبع لقريش،ح (١٨١٨) باب الاستخلاف وتركه،ح (١٨٢١).

(٢) مسلم: صحيح مسلم، كتاب الإمارة ، باب النهي عن طلب الإمارة والحرص عليها،ح(١٦٥٢).

(٣) صحيح مسلم، كتاب الإمارة ، باب النهي عن طلب الإمارة والحرص عليها،ح (١٧٣٣).

(٤) مسلم: صحيح مسلم، كتاب الإمارة ، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة،ح(١٨٢٥)

(٥) ينظر الخليفة: الإنصاف فيما وقع في تاريخ العصر الراشدي من الخلاف، ١٤١.

عليه كثير من الناس من شؤون الدنيا.

وأظهر الإسلام فضيلة الإمام العادل وبيّن عقوبة القائد الجائر الظالم، وحث على الرفق بالرعية، ونهى عن إدخال المشقة والعنت عليهم. قال ﷺ: "إن المقسطين، عند الله، على منابر من نور، عن يمين الرحمن عز وجل، وكلتا يديه يمين؛ **الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا**"[1] وقال عبد الرحمن بن شماسة: أتيت الطاهرة عائشة رضي الله عنها أسألها عن شيء. فقالت: ممن أنت؟ فقلت: رجل من أهل مصر. فقالت: كيف كان صاحبكم لكم في غزاتكم هذه؟ فقال: ما نقمنا منه شيئاً. إن كان ليموت للرجل منّا البعير، فيعطيه البعير، والعبد، فيعطيه العبد، ويحتاج إلى النفقة، فيعطيه النفقة، فقالت: أما إنه لا يمنعني الذي فعل في محمد بن أبي بكر، أخي، أن أخبرك ما سمعت من رسول الله ﷺ يقول في بيتي هذا "**اللهم! من ولىَ من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم، فاشقق عليه، ومن ولىَ من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم، فارفق به**"[2] وفي هذا النص شهادة عالية لأمير مصر عمرو بن العاص ﷺ ولفتة كريمة إلى سمو قيادته وجميل رعايته، وفيه إشارة لطيفة إلى مقتل محمد بن أبي بكر الصديق ﷺ هناك[3] ودخل عائذ بن عمرو ﷺ على عبيد الله مرجانة الفارسية والي الكوفة. فقال ﷺ: "أي بني! إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن شرّ الرعاء الحطمة، فإيّاك أن تكون منهم" فقال له ابن الفارسية: اجلس. فإنّما أنت من نخالة أصحاب محمد ﷺ فقال ﷺ: وهل كانت لهم نخالة؟ إنما النخالة بعدهم، وفي غيرهم"[4] أي لا تكن من الأمراء القساة الظلمة المنزوعة منهم قيم الرحمة والسماحة

---

(١) مسلم: صحيح مسلم، كتاب الإمارة ، باب فضيلة الإمام العادل. وعقوبة الجائر، والحث على الرفق بالرعية، ح(١٨٢٧).

(٢) مسلم: صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل. وعقوبة الجائر، والحث على الرفق بالرعية، ح (١٨٢٨).

(٣) ينظر الخليفة: الإنصاف فيما وقع في تاريخ العصر الراشدي من الخلاف، ٤٢٨.

(٤) مسلم: صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، وعقوبة الجائر، والحث على الرفق بالرعية، ح (١٨٣٠).

والرفق؛ الذين يحطمون الناس ولا يرفقون بهم، كموقف ابن زياد هذا الذي جابه نصح صاحب رسول الله ﷺ بهذا التعالي والغلظة، التي تنبيء بأن كل من يجرؤ على أحد من الصحابة ﷺ بأنه معدوم الذوق والأدب.

فيتأكد من هذه النصوص أنّ قواعد أخلاقيات الحرب والقيادة في عصر الرسالة بنيت على أسس من العدل والرحمة والسماحة، وسار عليها المسلمون فيما بعد ذلك العصر، ولم تدع تلك الأخلاق إلى الخروج على الأئمة حتى لو كانوا ظلمة، وأكدت على وجوب طاعة في غير معصية الله تأكيداً لا لبس فيه ولا غموض، وبيّنت تحريمها في المعصية. قال ﷺ: "من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن يطع الأمير فقد أطاعني، ومن يعص الأمير فقد عصاني"[1] وبالتأكيد فإن أمراء رسول الله ﷺ كانوا على خلق ودين وأمانة، فلا يخرج عليهم إلا عاص، ولا يقارن أولئك بمن تركوا الدين وأعلنوا الحرب على المسلمين.

وقال ﷺ: "عليك السمع والطاعة في عسرك ويسرك، ومنشطك ومكرهك، وأثرة عليك"[2] وكل هذا فيه تأكيد على حب الجماعة والبعد عن الفتن، ومثلما أوصى النبي ﷺ أصحابه بوجوب الطاعة في كل أحوالهم، أوصاهم بطاعة جميع أمرائهم المسلمين المحبين لمحمد ﷺ وأصحابه المتبرئين من أعدائهم، من أي لون أو جنس كانوا، حرصاً على وحدة الصف، وتأكيداً على عالمية الإسلام ونظرته المتوازنة القائمة على المساواة بين جميع أتباعه، وتساويهم في الفرص والتكاليف والواجبات. قال أبو ذر ﷺ: "إن خليلي أوصاني أن أسمع وأطيع، وإن كان عبداً

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، وتحريمها في المعصية، ح (١٨٣٥).

(٢) مسلم: صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، وتحريمها في المعصية، ح (١٨٣٦).

مجدّع الأطراف"[1].

وبقيت قيود الطاعة هذه في الحرب والسلم، مقيدة بموافقة الحق وطاعة الله تعالى. قال ﷺ: "على المرء المسلم السمع والطاعة، فيما أحب وكره، إلا أن يؤمر بمعصية، فإن أمر بمعصية، فلا سمع ولا طاعة"[2] وقال ﷺ: "إنما الطاعة في المعروف"[3] ومن أخلاقيات الحرب في النبوة الانضباط والالتزام بالنظام قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ [النور: ٦٢]. وهذا ما أكد عليه النّبي ﷺ في قوله: "إنكم سترون بعدي أثرة وأموراً تنكرونها" قالوا: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: "أدوا إليهم حقهم، وسلوا الله حقكم"[4] وقال ﷺ: "من كره من أميره شيئاً فليصبر، فإنه من خرج من السلطان شبراً مات ميتة جاهلية"[5] وقال ﷺ: "من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر عليه فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات، إلا مات ميتة جاهلية"[6] قال عبادة بن الصامت ﷺ: "دعانا النبي ﷺ فبايعناه، فقال فيما أخذ علينا: أن بايعنا على السمع والطاعة، في منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، إلا أن

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، وتحريمها في المعصية، ح (١٨٣٧).

(٢) مسلم: صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، وتحريمها في المعصية،ح (١٨٣٩).

(٣) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، وتحريمها في المعصية، ح (١٨٤٠).

(٤) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الفتن، باب: قول النبي ﷺ: سترون بعدي أموراً تنكرونها، (٦٦٤٤).

(٥) البخاري: كتاب الفتن، باب: قول النبي ﷺ:(سترون بعدي أموراً تنكرونها) (٦٦٤٥/ ٦٦٤٦).

(٦) البخاري: كتاب الفتن، باب: قول النبي ﷺ: (سترون بعدي أموراً تنكرونها). (٦٦٤٦).

تروا كفراً بواحاً، عندكم من الله فيه برهان"[1] وبالتأكيد لا يقع في خلد مسلم أن الأمراء الذين يعنيهم النبي ﷺ غير المصلين الموحدين الذين ربما يبدر منهم انحياز عن الحق.

ذلك أن جيل الصحابة ﷺ تربى على نصرة الحق وعلى الجرأة في ذلك، فهذا عبادة ﷺ يروي ما يؤكد بعدهم عن الخنوع أمام الظلمة كما هو حاصل لكثير من البلاد التي يسومها الظلمة ألوان الذل والقهر والبغي، ومع هذا يسمع المتابع لكثير من العلماء من الفتاوى النشاز التي تخالف الحق والصواب، قال وبايعنا: "**على أن نقول بالحق أينما كنا؛ لا نخاف في الله لومة لائم**"[2].

فيتضح من هذا أنّ أهمية وحدة المسلمين والمحافظة على تلاحم صفوفهم وأمن بلادهم ومنعتها أمام أخطار المتربصين بها شراً؛ أهم من كثير مما يلاحظه البعض على أخلاق بعض السلاطين والحكام المسلمين وما يمارسونه من أخطاء يرتكبونها بحق أنفسهم وعقيدتهم، فالصبر على أخطائهم هذه أهون من إثارة فتنة تأتي على الأبرياء وتسفك فيها الدماء وتنتهك فيها حرمات المسلمين، وتستباح أخوتهم فيتحزبون أحزاباً، ترتفع من خلالها في بلادهم رايات الفتن والأحقاد، وهذا كله خطر على الأمة والعقيدةلم يعمل به أصحاب رسول الله ﷺ الذين يؤخذ عنهم الفقه في كل جوانبه السياسية والحربية وغيرها، على أنهم كانوا دائما من الناصحين الذين لا تأخذهم في الله لومة لائم، ولم يخضعوا لغير أبناء ملتهم وإخوانهم من أمة الكتاب والسنة!.

فأمر الطاعة والنظام أمر محسوم لا رخصة فيه منذ بايع الأنصار رسول الله ﷺ في بيعة العقبة قبل الهجرة، وجاء كل هذا التأكيد على الطاعة، لما لها من الأهمية القصوى إذ أن أمة بلا قائد لا قيمة لها، لانفراط عقدها وتشتت قوتها، وانحراف الإمام في بعض شؤونه الخاصة أهون ضرراً على الأمّة من زواله بالفتن والاحتراب

---

(١) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الفتن، باب: قول النبي ﷺ: (سترون بعدي أموراً تنكرونها) (٦٦٤٧).

(٢) مسلم: صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، وتحريمها في المعصية،ح(١٧٠٩).

الداخلي، إذ أنّ زوال الإمام من موقع القيادة بغير الوسائل الشرعية لن يقود إلا إلى مزيد من الفتن والحروب التي تقضي على قوة الأمة ووحدتها، والإمام يجتمع حوله الناس ويتقون به من الأعداء الذين هم أشد خطراً على الأمة من بعض المظالم التي يقع بها بعض قاصري النظر من الولاة. قال ﷺ: "إنما الإمام جنّة. يقاتل من ورائه، ويُتقى به، فإن أمر بتقوى الله عزّ وجل وعدل، كان له بذلك أجر، وإن يأمر بغيره، كان عليه منه"[1] وليس هناك إمام إلا إذا كان على هدي السنة والجماعة، فإذا كان الأمر كذلك كان النبي ﷺ **يأمر** بالصبر **عند ظلم الولاة** واستئثارهم بأمور الدنيا ما **داموا يقيمون الصلاة**، وفي عصر الرسالة خلا رجل من الأنصار ﷺ برسول الله ﷺ فقال: "ألا تستعملني كما استعملت فلاناً؟ فقال ﷺ: "إنكم ستلقون بعدي أثرة، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض"[2] وهكذا كان النبي ﷺ يصرف أصحابه عن بعض حظوظهم في الدنيا إلى الصبر والرجاء من الله والصبر على الطاعة، وإن منع بعض الأمراء ما لا يحق له.

قال سلمة بن يزيد الجعفي ﷺ: "يا نبي الله! أرأيت إن قامت علينا أمراء يسألونا حقهم ويمنعونا حقنا، فما تأمرنا؟ فأعرض عنه، ثم سأله فأعرض عنه، ثم سأله في الثانية أو في الثالثة فجذبه الأشعث بن قيس، فقال رسول الله ﷺ: "اسمعوا وأطيعوا، فإنما عليهم ما حمّلوا وعليكم ما حمّلتم"[3] فالمتابع للنصوص التي تؤكد على الطاعة والصبر عليها ولزوم الجماعة والوفاء للبيعة؛ لا يجد رخصة في الخروج على إمام مادام يقيم الصلاة، لأن بعض الشرّ أهون من بعض والناظر في أحداث التاريخ الإسلامي يجد أن الخروج على أئمة المسلمين لم يجلب على الأمة سوى الدمار والخراب والفتن، وتمزق الصفوف ونشوء الفرق المنحرفة التي تعمل على تشويه قيم الكتاب والسنة، فما دام أمرذ الإمام لا يصل إلى المجاهرة بالمعاصي

---

(١) البخاري: كتاب الجهاد، باب: يقاتل من وراء الإمام ويتقى به (٢٧٩٧) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب الإمام جنة، (١٨٤١).

(٢) مسلم: صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب الأمر بالصبر عند ظلم الولاة واستئثارهم، ح(١٨٤٥).

(٣) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب في طاعة الأمراء وإن منعوا الحقوق، ح (١٨٤٦). (٣٤٣٣).

والاستهانة المعلنة بأوامر الدين ونواهيه، فإن أخلاق الحرب في عصر الرسالة لا تجيز نقض البيعة والخروج عليه بالسلاح، وإن أمرت بنصحه والدعاء له بالصلاح، حرصاً على وحدة الأمة ودرءاً للفتن التي يركب أمواجها النفعيون ومن لا صلة لهم بأمة الكتاب والسنة.

ومن ضوابط الحرب في عصر النبوة بيعة الإمام أو القائد قبيل المعركة تأكيداً على الطاعة وتبياناً لقوة الاستعداد والجاهزية والتعاون. قال تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨] وكانت البيعة تتم على مقاصد متعددة منها البيعة على الموت في سبيل الله، وعلى الثبات حتى نهاية المعركة وأن لا يفروا، ومنها البيعة على الصبر كما جاء ذلك في النصوص الصحيحة. قال نافع عن يوم الحديبية: "بايعهم على الصبر"[(١)] وكان بعض الصحابة يكرر بيعته لرسول الله ﷺ على القتال في سبيل الله في الموقف الواحد أكثر من مرة، قال سلمة بن الأكوع ﷺ: "بايعت النبي ﷺ ثم عدلت إلى ظل الشجرة، فلما خف النّاس قال: "يا ابن الأكوع ألا تبايع؟ "قال: قلت: قد بايعت يا رسول الله، قال: "وأيضاً" فبايعته الثانية. فقلت له: يا أبا مسلم، على أي شيء كنتم تبايعون يومئذ؟ قال: على الموت"[(٢)] وعند مسلم قال سلمة: "فبايعته أول الناس، ثم بايع وبايع، حتى إذا كان في وسط من الناس قال ﷺ: "بايع. ياسلمة! "قال قلت: قد بايعتك. يا رسول الله! في أول الناس. قال: "وأيضاً" قال: ورآني رسول الله ﷺ عزلاً "يعني ليس معه سلاح " قال: فأعطاني رسول الله ﷺ حجفة أو درقة، ثم بايع، حتى إذا كان في آخر الناس قال: "ألا تبايعني؟ يا سلمة!"

---

(١) البخاري: كتاب الجهاد، باب: البيعة في الحرب أن لا يفروا، وقال بعضهم: على الموت، ح (٢٧٩٨).

(٢) البخاري: كتاب الجهاد، باب: البيعة في الحرب أن لا يفروا، وقال بعضهم: على الموت، (٢٨٠٠). (٣٩٣٦، ٦٧٨٠، ٦٧٨٢).

قال: قلت: قد بايعتك. يا رسول الله! في أول الناس، وفي أوسط الناس. قال: "وأيضا" قال: فبايعته الثالثة ثم قال لي: "يا سلمة! أين حجفتك أو درقتك التي أعطيتك؟" قال: قلت: يا رسول الله! لقيني عمي عامر عزلاً، فأعطيته إياها قال: فضحك رسول الله ﷺ وقال: "إنك كالذي قال الأول: "اللهم! أبغني حبيباً هو أحب إليّ من نفسي"[1] وكانت الأنصار يوم الأحزاب وحصار المدينة يحفرون الخندق وينشدون:

نحن الذين بايعوا محمدا ... على الجهاد ما حيينا أبدا

فأجابهم النبي ﷺ فقال: "اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة. فأكرم الأنصار والمهاجرة"[2].

فكان الشعار في أخلاق الحرب في عصر الرسول ﷺ تحقيق أعلى درجات الإخلاص وبذل الجهد لتحقيق مقاصد رسالة الإسلام العالمية في الرحمة والأخوّة والحريّة على ضوابط ثوابت التوحيد، وكان الإمام أحياناً يعزم على الناس فيما يطيقون لتحقيق تلك المقاصد، وقد تكون تلك العزيمة بدلاً عن البيعة، قال عبد الله رضي الله عنه: "لقد أتاني اليوم رجل، فسألني عن أمر ما دريت ما أرد عليه، فقال: أرأيت رجلاً مؤديا نشيطاً، يخرج مع أمرائنا في المغازي، فيعزم علينا في أشياء لا نحصيها؟ فقلت له: والله ما أدري ما أقول لك، إلا أنا كنّا مع النبي ﷺ فعسى أن لا يعزم علينا في أمر إلا مرة حتى نفعله، وإن أحدكم لن يزال بخير ما اتقى الله، وإذا شك في نفسه شيء سأل رجلاً فشفاه منه، وأوشك أن لا تجدوه، والذي لا إله إلا هو، ما أذكر ما غبر من الدنيا إلا كالثّغب[3] شُرب صفوه وبقي كدره[1] ومن رحمة النبي

---

(١) مسلم: صحيح مسلم، كتاب، الجهاد والسير، باب غزوة ذي قرد وغيرها ،ح (١٨٠٧).

(٢) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب: البيعة في الحرب أن لا يفروا، وقال بعضهم: على الموت، ح (٢٨٠١).

(٣) الثَّغْبُ والثَّغَبُ والفتح أكثرُ ما بَقِيَ من الماءِ في بطنِ الوادي، وقيل: هو بَقِيَّةُ الماءِ العَذْبِ في الأرض.وقيل: هو أُخْدُودٌ تَحْتَفِرُهُ المَسايلُ فَيَمْضي السَّيْلُ ويُغادِرُ الماءَ فيها فتُصَفِّقُه الرِّيحُ ويَصْفُو ويَبْرُد فليس شيءٌ أصْفَى منه ولا أَبْرَدَ فسُمِّيَ الماءُ بذلك المكانِ. وقيل: الثَّغْبُ الغَدِيرُ يكون في ظلٍّ

ﷺ كان إذا بايع أحداً من أصحابة على السمع والطاعة قال له فيما استطاع. قال عبد الله بن عمر: "كنا نبايع رسول الله ﷺ على السمع والطاعة. يقول لنا: "فيما استطعت"[٢] فكان الصحابة يبادرون إلى تنفيذ شروط تلك البيعة، وتقديم أهم الأمرين المتعارضين إذا حصل لهم مثل ذلك وكان النبي ﷺ يقرهم على ما يجتهدون به لخدمة العقيدة ونصرة الأمة، مثلما حصل يوم قريظة حين نادى منادي رسول الله ﷺ يوم انصرف عن الأحزاب، فقال: " أن لا يصلين أحد الظهر إلا في بني قريظة " فتخوف ناس فوت الوقت، فصلّوا دون بني قريظة. وقال آخرون: لا نصلّي إلا حيث أمرنا رسول الله ﷺ وإن فاتنا الوقت، قال: فما عنّف واحداً من الفريقين[٣] تقديراً وإقراراً لثقافة الاجتهاد وحرية الرأي المنضبط بقواعد الشرع الحنيف وعلوم الفقه المستنبط من مواضعه الأصلية. وبهذا يتبين التأصيل والتمكين لمسألة الإمامة في الأمة وأهميتها وعلو منزلتها وخطورة شأنها وتقدير دورها في نصوص الكتاب والسنة، لما ينطوي على ذلك من المنافع والأمن والاستقرار والألفة والتعاون في حال الوفاء لها ونصرتها ونصحها، ومن المخاطر في حال خذلانها أو الخروج عليها.

التحذير من الخروج على الجماعة

قال النبي ﷺ: "من خرج من الطاعة، وفارق الجماعة، فمات، مات ميتة جاهلية، ومن قاتل تحت راية عمّية، يغضب لعصبة، أو يدعو إلى عصبة، أو ينصر عصبة، فقتل، فقتلة جاهلية. ومن خرج على أمتي، يضرب برها وفاجرها، ولا

جَبَل لا تُصِيبُه الشمس فيَبْرُد ماؤه والجمع ثِغْبانٌ. قال الأخطل: وثالثةٍ من العَسَل المُصَفَّى مُشَعْشَعةٍ بثِغْبانِ البِطاح. ابن منظور: لسان العرب، ما دة (ثغب).

(١) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب: البيعة في الحرب أن لا يفروا، وقال بعضهم: على الموت. ح (٢٨٠٣).

(٢) مسلم: صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب البيعة على السمع والطاعة فيما استطاع،ح (١٨٦٧).

(٣) مسلم: صحيح مسلم، كتاب، الجهاد والسير، باب المبادرة بالغزو، وتقديم أهم الأمرين المتعارضين،ح (١٧٧٠).

يتحاشى من مؤمنها، ولا يفي لذي عهد عهده، فليس مني ولست منه"[1] وهذا ما تعلمه الصحابة ﷺ وعملوا به وعلّموه للناس فأسهموا في صناعة السلم العالمي، والاستقرار الإقليمي الذي دفع شرور الحروب والدمار عن أبناء البشرية، فحين كان من أمر يوم الحَرّة في المدينة ما كان، زمن يزيد بن معاوية رضي الله عن معاوية، جاء عبد الله بن عمر إلى عبد الله بن مطيع أحد قادة الثورة على يزيد، فقال: "اطرحوا لأبي عبد الرحمن وسادة. فقال: إني لم آتك لأجلس، أتيتك لأحدثك حديثاً، سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من خلع يداً من طاعة، لقي الله يوم القيامة، لا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة، مات ميتة جاهلية "[2] فتعلم الصحابة ﷺ من أخلاق النبوة، حسن الطاعة وخطورة الخروج على الجماعة، وأهمية الوفاء بالبيعة، وأن البديل عن ذلك الفتنة والتناحر، وأن أمر الفتنة خطر على الأمة، لا يأتي بخير على أحد، هذا فضلاً عن سقوط الحجة بين يدي الله تعالى في مفارقة الجماعة والتخلق بأخلاق الجاهلية التي لا ضوابط لها ولا قيم تقيدها.

وأمام هذه المخاطر المترتبة على فرط عقد الجماعة ووحدة المسلمين حذّر النبي ﷺ أمته من السقوط في هاوية الفتنة وتفريق المسلمين، فقال ﷺ: "إنه ستكون هنات وهنات، فمن أراد أن يفرّق أمر هذه الأمة، وهي جميع، فاضربوه بالسيف، كائناً من كان"[3] وقال ﷺ: "من أتاكم، وأمركم جميع، على رجل واحد، يريد أن يشق عصاكم، أو يفرق جماعتكم، فاقتلوه"[4] فأخبر النبي ﷺ أن من يعيش من المسلمين طويلاً سيرى بعض الأخطاء والمخالفات والهنات التي لا ترضي المؤمنين فدعا إلى الصبر عليها وتجاوزها والوقوف مع الجماعة على ما فيها من تلك الهنات.

---

(١) مسلم: صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب في طاعة الأمراء وإن منعوا الحقوق، ح (١٨٤٨).

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب في طاعة الأمراء، (١٨٥١) وينظرالشيباني: مواقف المعارضة في خلافة يزيد، ٣٤٧ فما بعدها.

(٣) مسلم: صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب حكم من فرق أمر المسلمين وهو مجتمع،ح (١٨٥٢).

(٤) مسلم: صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب حكم من فرق أمر المسلمين وهو مجتمع،ح (١٨٥٢).

وتأكيداً على قوة الجماعة حبب النبي ﷺ مبايعة إمام الجيش وقائده عند إرادة القتال كما حصل في بيعة الرضوان يوم الحديبية وبيعتهم للنّبي ﷺ: "**على الموت**"[1] وهذا يبين أن قيم الحرب في عصر الرسول ﷺ جلية واضحة، تشمل أنبل القيم مع سماحة النفوس وحب الأمة؛ والحرص على وحدتها وقوة جماعتها، وحين بعث النبي ﷺ أبا موسى الأشعري ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما إلى اليمن قبل حجة الوداع قال ﷺ: "**يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا**"[2] وفي صحيح مسلم، قال ﷺ: "**وتطاوعا ولا تختلفا**"[3] وذلك لخطورة الخلاف وما يجلبه على الأمة من الشرّ والبلاء، وحرصاً على الجماعة والوحدة ودفع أسباب الفتن كان النبي ﷺ يوصي أمراءه بالرفق والعدل ويحثهم على التيسير على الناس، ومن وسائل التيسير التي أوصى بها ﷺ التدرج في المطالبة بأداء التكاليف، قال ﷺ لمعاذ بن جبل ﷺ حين بعثه إلى اليمن: "إنك ستأتي قوماً من أهل الكتاب، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لك بذلك، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة، تؤخذ من أغنيائهم، فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك، فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينه وبين الله حجاب"[4].

وبهذه التعاليم النبوية يتبين أن المنهج الإسلامي يسلك مسالك الرحمة والرفق

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال. وبيان بيعة الرضوان تحت الشجرة،ح(١٨٦٠).

(٢) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب المغازي، باب: سرية عبد الله بن حذافة السهمي، وعلقمة بن مجزز المدلجي. ويقال: إنها سرية الأنصاري.ح (٤٠٨٦/ ٤٠٨٨).

(٣) مسلم: صحيح مسلم، كتاب، الجهاد والسير، باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير ح (١٧٣٣) (١٧٣٢). (١٧٣٤)

(٤) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب المغازي، ح (٤٠٩٠).

والبراءة من الظلم، والتدرج في توصيل ما ينفع الناس من تدابير وأخلاق، ولا يقبل بفرضها على أحد بالقوة، فهو يدعو إلى التعريف بقيمه وإلى فهم مقاصدها وإلى تدرج العمل بها، حتى إذا قبل الناس ما جاءهم به النبي ﷺ وأقرّوا بقبول الإسلام وأداء الصلاة أمروا بدفع الزكاة فإذا قبلوا ذلك، أوصى النّبي ﷺ عمّاله بتجنب كرائم أموال الناس والقبول بأوسطها وبما لا يترك أيّ أثر في نفوس من يدفعها مراعاة لمشاعر الناس واعترافاً بجبهم لممتلكاتهم، وحرصاً على تمام الألفة والمحافظة على الجماعة التي أكد عليها النبي ﷺ في عامة تعاليم الطاعة والأخوة والتعاون فقال ﷺ: "يد الله مع الجماعة وإن الشيطان مع من فارق الجماعة يرتكض"[1] وروي: "يد الله مع الجماعة والفذ مع الشيطان وإن الحق أصل في الجنة وإن الباطل أصل في النار"[2] وقال ﷺ: "يد الله على الجماعة فإن الشيطان مع من فارق الجماعة يركض"[3] وهذا يبين عمق أخلاق الطاعة ولزوم الجماعة عند المسلمين في عصر الرسالة.

التحذير من نقض المواثيق

بقدر ما في السيرة النبي ﷺ وأصحابه من قيم الوفاء والصدق، فإن فيها من النصوص التي تحذر من التنصل من تبعات ومتطلبات العهود والمواثيق وتبين حال الناقضين والناكثين لها، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[الفتح: ١٠] وقال ﷺ: "إنّ الغادر يُنصب له لواءٌ يوم القيامة، فيقال: هذه

---

(١) صحيح ابن حبان: كتاب السير، باب طاعة الأمير، (٤٥٧٧) قال الأرنؤوط صحيح. سنن الترمذي: الفتن، لزوم الجماعة (٢١٦٦).

(٢) الطبراني: المعجم الأوسط، ٦/ ٢٧٧. وقال: تفردبه عمرو بن خالد.

(٣) سنن النّسائي: كتاب تحريم الدم، باب قتل من فارق الجماعة، (٤٠٢٠) وينظر: المستدرك، كتاب العلم، (٣٩١) وفيه خلاف.

غدرة فلان ابن فلان"[1] وخطب رسول الله ﷺ يوماً فقال: "**لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له**"[2] وبلغت قوة التحذير من التجاوز على الذمّة والتفريط بالعهود أن قال ﷺ: "من قتل معاهداً في غير كنهه حرّم اللّه عليه الجنة"[3] وقال ﷺ: "إذا أمّن الرجلُ الرجلَ على نفسه ثم قتله فأنا بريء من القاتل وإن كان المقتول كافراً"[4] فأصبحت مسألة الوفاء بالعهد وإنفاذ الأمان بناء على هذه النصوص مسألة عقيدة، وليست مسألة أخلاق فاضلة فقط، مما ينبيء بمكانة الوفاء وحفظ الأمان وإنجاز العهود، لما يثمر ذلك من الأمن والاستقرار وإشاعة الطمأنينة في نفوس الناس، وهذا ما تمتاز به أخلاق الحرب في عصر النبوة، عن غيرها من أخلاقيات وقيم دعاة حقوق الإنسان والمهتمين في هذا الباب الذين لا تتجاوز ثوابت الوفاء عندهم في الغالب حدود القانون والنظام، فمن استطاع الإفلات من رقابة القانون فلا بأس عليه من تجاوز هذه القيم والعمل بما يراه محققاً لمصالحه وأهوائه ما دام آمناً من دائرة المحاسبة المباشرة، إذ لا يوجد في معتقداتهم محاسبة الله للظالمين وأكلت حقوق الناس!.

لهذا لم تدع التعاليم الإسلامية أمر إعلان الحرب أو إبطال العهد لمن شاء من الناس، وإن كانت جعلت مسألة إعطاء الأمان وحفظ الجوار والدعوة إلى السلم والصلح لعامة المسلمين، ولكنها جعلت نقض العهد من مسؤولية ولي الأمر. قال ﷺ: "إنّما الإِمام جنةٌ يقاتل به"[5] فالإمام من خلال موقعه هو الذي يعلم مصلحة الأمة في إعلان الحرب وكيفية إنهاء العمل بالمواثيق والعهود، فمكانة القائد أشبه بالحصن الذي يحتمي به الناس من العدو.

---

(١) أبو داوود: سنن أبو داوود، باب في الوفاء بالعهد [باب في الوفاء بالعهد، (٢٧٥٦) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب أبواب الجزية والموادعة، باب: إثم الغادر للبر والفاجر.ح (٣٠١٦)

(٢) البيهقي: سنن البيهقي، كتاب السير: باب الوفاء بالعهد، (١٨٦٣١).

(٣) سنن أبي داوود، باب في الوفاء للمعاهد وحرمة ذمته، (٢٧٦٠).

(٤) البيهقي: سنن البيهقي، كتاب السير، باب من أسلم من أهل الصلح سقط الخراج عن أرضه، ح (١٨٢٠٣).

(٥) سنن أبي داوود: باب في الإِمام يُستجنُّ به في العهود، (٢٧٥٧).

الحرص على إنجاز العهود تامة كما اتُفق عليها. يتضح ذلك في مواقف علماء الأمة الذين يمثلون رقابة على مسار أخلاق الحرب. وقد "كان بين معاوية ﷺ وبين الروم عهد، وكان يسير نحو بلادهم، حتى إذا انقضى العهد غزاهم، فجاء رجل على فرس أو بِرْذَوْنٍ وهو يقول: اللّه أكبر، اللّه أكبر، وفاءٌ لا غدرٌ، فنظروا فإذا عمرو بن عبسة ﷺ فأرسل إليه معاوية فسأله، فقال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: "من كان بينه وبين قوم عهدٌ فلا يشدُّ عقدةً ولا يحلُّها حتى ينقضي أمدها، أو ينبذ إليهم على سواء" فرجع معاوية ﷺ"[1].

وفي هذا النص تظهر قوة الرقابة الإسلامية ومتابعتها لفعاليات ونشاط القوات العسكرية في الدولة الإسلامية، كما يظهر انقياد القادة في الأمة لأعلامها وحراس عقيدتها، وقبولهم لتوجيهاتهم، بعكس ما عليه كثير من القوى والفعاليات المعاصرة التي لا تبالي بعقدية ولا بنصح، وأيضاً الدقة المتناهية في التعامل حتى مع الأعداء والحرص في كل ذلك على العدل والبعد عن الغدر، فلم يكن جيش معاوية ﷺ هذا الذي يقترب من الروم يريد نقض العهد، وإنما كان يريد الاستفادة من الوقت والاقتراب إلى حدود العدو حتى إذا انقضى زمن العهد قام بما يوجبه عليه مكانه كقائد من حماية حدود أمته وأخذ زمام المبادرة، دون أن يدع فرصة للعدو لمباغتته أو القيام بأي عمل ضد المسلمين، وكان هذا يدخل في باب الحذر والتحوط، وهو من حزم معاوية ﷺ المعروف عنه في سيرته السياسية والعسكرية، لكن الرقابة وأخلاق الحرب عند المسلمين، لم تقرّ مثل هذا العمل الذي لا يخرج عن إطار المشروع خشية من أن يحمل في مضامينه وجهاً من وجوه الشبهة، أو يؤثر على سلامة النية الصالحة التي يبني عليها المسلم أعماله، وهذا ما يحق لكل مسلم أن يفاخر به لعلو شأنه في

---

(١) سنن أبي داوود، باب في الإمام يكون بينه وبين العدو عهد فيسير عدوه ليقرب منهم فيغير بعد المدة عليهم، (٢٧٥٩). سنن البيهقي، كتاب السير: باب الوفاء بالعهد إذا كان العقد مباحا وما ورد من التشديد في نقضه، (١٨٦٢٧).

المواقف الأخلاقية، ولانفراد المسلمين بمثل هذه القيم الإنسانية السامية.

وهذا ما فعله النبي ﷺ مع المشركين، حين أرسل علياً ﷺ لتنيظم العهود بينه وبين المشركين، وليعلمهم بإنهاء العمل بما كان معروفاً في الجاهلية، ولم يدع النّبي ﷺ الأمر على حاله حتى إذا انتهت العهود فعل ما يريده، فأعلمهم ﷺ بذلك وبيّن لهم ما ينوي العمل به من مواثيق جديدة، حتى لم يعد هناك من يجهل هذا الأمر، قال أبو هريرة ﷺ: كنت مع علي بن أبي طالب ﷺ لما بعثه رسول الله ﷺ ليبلغ ما جاء في سورة براءة عن المشركين ومما نادى به أن: "من كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فإن أجله إلى أربعة أشهر فإذا مضت الأربعة فإنّ الله برئ من المشركين ورسوله"[1] قال تعالى: ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة: ٢].

الحرص على توسيع دائرة ثقافة السلام وتنمية آفاق الوفاء والصلح وحفظ العهود، وتوسيع صلاحية إنفاذ الأمان لأي مسلم أو مسلمة، وبأي لغة كان ذلك العهد أو الأمان حتى لو كان بالإيماء أو الإشارة دون الإفصاح والكلام، وعلى جميع المسلمين رعاية ذلك والعمل على إنجازه، سئل الإمام مالك عن الإشارة بالأمان، أهي بمنزلة الكلام؟ فقال: "نعم، وإني أرى أن يتقدم إلى الجيوش أن لا تقتلوا أحداً أشاروا إليه بالأمان، لأن الإشارة عندي بمنزلة الكلام، وإنه بلغني أن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: ما ختر قوم بالعهد، إلا سلط الله عليهم العدو"[2].

ولم تكن قيم الوفاء في أخلاق المقاتلين في عصر النبوة مقصورة على مواطن القتال والعهود فقط، وإنما الدعوة إلى الوفاء قائمة عند المسلم في كل شؤونه، وبجميع أوقاته، ومن لم يتخلق بهذه القيم قد يقوده ذلك إلى حال النفاق، وما فيه من مفاسد القيم وسوء الذكر والمآل، قال ﷺ: "أربع خلال من كنّ فيه

(١) الدارمي: كتاب السير، باب في الوفاء للمشركين بالعهد، (٢٥٠٦)

(٢) مالك ،موطأ مالك، باب ما جاء في الوفاء بالأمان، (٩٦٧).

كان منافقاً خالصاً: من إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر. ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها"[1] فعمل المسلمون في عصر الرسالة بقيم الوفاء وإنفاذ العقود بينهم وبين المشركين أواليهود، حتى إذا نقض البعض منهم عهودهم، حذّرهم النبي ﷺ من مغبة النقض فإنّ أصروا نبذ إليهم عهودهم. قال تعالى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ [الأنفال: ٥٨] ومن وسائل نبذ العهد إلى المشركين أن يكون ذلك معلناً لا لبس فيه ولا غموض. قال أبو هريرة ﷺ: "بعثني أبو بكر ﷺ فيمن يؤذن يوم النحر بمنى: لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ويوم الحج الأكبر يوم النحر. وإنما قيل الأكبر من أجل قول الناس: الحج الأصغر، فنبذ أبو بكر إلى الناس في ذلك العام، فلم يحج عام حجة الوداع الذي حج فيه النبي ﷺ مشرك "[2] وبذلك كف النبي ﷺ أهل الشرك عن الكعبة المشرفة، فحج النبي ﷺ إلى البيت الحرام في حجة الوداع وليس فيه أحد من المشركين، فكان في ذلك مدرسة تعلم منها المسلمون كيفية الحج الصحيح وأداء المناسك على الوجه الشرعي، دون أن يكون للمشركين أي شائبة.

برّ الوالدين ولو كانوا في صفوف المشركين المحاربين قالت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما: "قدمت علي أمي وهي مشركة، في عهد قريش إذ عاهدوا رسول الله ﷺ ومدتهم مع أبيها، فاستفتت رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إنّ أمي قدمت علي وهي راغبة، أفأصلها؟ قال: "نعم صليها "[3] فلم تكن أخلاقيات الحرب

---

(١) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب أبواب الجزية والموادعة، باب: إثم من عاهد ثم غدر.ح (٣٠٠٧). سنن البيهقي: كتاب السير، باب الوفاء بالعهد إذا كان العقد مباحاً وما ورد من التشديد في نقضه، (١٨٦٢٥).

(٢) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب أبواب الجزية والموادعة، باب: كيف ينبذ إلى أهل العهد.ح (٣٠٠٦).

(٣) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب أبواب الجزية والموادعة، باب: إثم من عاهد ثم غدر. (٣٠١٢).

في عصر النبوة في موقف من المواقف تحول بين التواصل والتراحم والتعاون البريئين الذي يخدم العلاقات الأسرية والحياة الاجتماعية، مما يوحي بحياة حضارية متوازنة، يرسي قواعدها المسلمون في كل عصر يتاح لهم فيه العمل بأخلاق عقيدتهم دون ضغوط أو تشويه لقيمها الرائدة.

ومن آداب المسلمين مواجهة غدر المشركين بالوفاء كما فعلوا بأصحاب عاصم بن ثابت بالهدأة بين عُسفان ومكة، حين أحاط بهم المشركون. فقالوا لهم: انزلوا، ولكم العهد والميثاق: أن لا نقتل منكم أحداً. فنزل ثلاثة نفر على العهد والميثاق، منهم خبيب بن عدي ﷺ وكان هو الذي قتل الحارث بن عامر يوم بدر فلبث خبيب عندهم أسيراً حتى أجمعوا على قتله، فاستعار من بعض بنات الحارث موسى يستحد بها فأعارته، فدرج بني لها وهي غافلة حتى أتاه، فوجدته مجلسه على فخذه والموسى بيده، قالت: ففزعت فزعة عرفها خبيب، فقال: أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك، قالت: والله ما رأيت أسيرا قط خيرا من خبيب، والله لقد وجدته يوماً يأكل قطفا من عنب في يده، وإنه لموثق بالحديد، وما بمكة من ثمرة، وكانت تقول: إنه لرزق رزقه الله خبيباً، فلما خرجوا به من الحرم، ليقتلوه في الحل، قال لهم خبيب ﷺ: دعوني أصلي ركعتين، فتركوه فركع ركعتين، فقال: والله لولا أن تحسبوا أنّ بي جزع لزدت، ثم قال ﷺ: اللهم أحصهم عدداً، واقتلهم بدداً ولا تبق منهم أحداً، ثم أنشأ يقول:

فلست أبالي حين أُقتل مسلماً ... على أي جنب كان لله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلو ممزع

ثم قام إليه أبو سروعة عقبة بن الحارث فقتله، وكان خبيب هو سَنّ لكل مسلم قُتل صبراً الصلاة، وأخبر، النبي ﷺ أصحابه يوم أصيبوا خبرهم"[1] والشاهد في هذه الرواية الصحيحة وفاء المسلمين وبعدهم عن الغدر، فهذا خبيب ﷺ كان

(١) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب المغازي، باب: فضل من شهد بدرا، ح (٣٧٦٧).

بإمكانه أن يمسك هذا الطفل البريء الذي درج إليه فيفاوض أهله على حياته إما أن يطلقوا إساره وإما أن يقتله، ولكن خبيب بإيمانه وشيمه وسمو أخلاق الحرب التي تعلمها، أبا أن يدخل الروع والخوف على أم ضعيفة أو على طفل برئ حتى لو كان ذلك مقابل حياته، ولا يوجد شيء في هذا الكون أثمن من الحياة، لكن خبيباً ﷺ علّم الدنيا أن الوفاء وإدخال الأمن والطمأنينة في قلوب الأبرياء والضعفاء في أخلاق الحرب في عصر الرسول ﷺ أثمن من الحياة، وهذه خصوصية ناصعة من خصوصيات أخلاق الحرب في عصر النبوة؛ فأي أمة بلغ فيها الحرص على الوفاء بالعهود وحفظ الأمن أن يضحي الرجل بنفسه من أجلها، وإن وجد في بعض الأمم مثل هذه الحالة فإنه لا توجد أخلاقيات تجعل من هذه القيم دين يتقرب به الناس إلى مولاهم وخالقهم ﷻ كما هو الحال عند المسلمين، ومن صور الوفاء الأخرى والحرص على الصلح والسلم، عفو النّبي ﷺ عن الذين أسرهم المسلمون من مشركي قريش يوم الحديبية، وقوله ﷺ: "دعوهم. يكن لهم بدء الفجور فعفا عنهم رسول الله ﷺ وأنزل الله فيهم قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الفتح: ٢٤](١).

وما هذه المشاهد والروايات إلا صور عاشها المسلمون عملياً في عصر الرسالة ظهر فيها حب العفو والصفح والتجاوز عن الناس، واحتساب الأجر عند الله تعالى، وحب الوفاء بالعهود وإنفاذ العقود وتحقيق الأمان لكل من يقع تحت أيدي المسلمين، والحرص الكامل على السلم والصلح ونبذ الحروب، وما يوصل إليها من ثقافات أو خلافات وشقاقات لا زال يتمسك بها من لا يعرف أخلاقيات الحرب التي شرعها دين المسلمين.

فهذه القيم التي تزخر بها الثقافة الإسلامية، تمثل أفضل وأمتن القيم لنظام

---

(١) مسلم: صحيح مسلم، كتاب، الجهاد والسير، باب غزوة ذي قرد وغيرها ،ح (١٨٠٧).

عالمي يلتقي تحت ظلاله أبناء البشرية في هذا العصر الذي ندرت فيه القيم البريئة من المنافع والمكاسب المادية والتجارية أو الاستعمارية والعنصرية أو غيرها، ولعل هذه القيم والمبادئ التي قامت عليها الحضارة الإسلامية، تفضح بمصداقيتها قيم الآخرين المنغمسة في تحالفات استعمارية أباحت لنفسها حقوقاً حرمتها على الآخرين، كما هو حاصل في نظام حق النقض الفيتو في الأمم المتحدة، الذي يهب للدول القوية ما تريد، ويحرم ذلك على الدول الأضعف، وهذا الواقع المنحرف عن الحق يؤكد الحاجة إلى ثقافة أخلاق عصر النبوة بعدلها ورحمتها وقيمها العالمية العريقة، وقدرتها على قيادة العالم بكل أجناسه وأديانه إلى برّ الأمان، ولكن هذا لن يكون مالم يتخلق أبناء هذه الأمة بأخلاقيات حضارتهم، ويتمسكوا بعقيدتهم، ولو فعل المسلمون ذلك في هذا العصر لتجرد كثير من الآخرين حضارياً، ولسقط الكثير مما يزعمونه في ميادين القيم والأخلاق من ذلك الركام الذي تجتره كثير من الدوائر الإعلامية حول حقوق الإنسان وحقوق المرأة وحقوق الأسرى والأطفال والرقيق وما إلى ذلك من دعاوى تصادم الواقع العملي لحياة الأمم والشعوب، مما يؤكد مرة أخرى الواجب الإنساني الملقى على أبناء الحضارة الإسلامية؛ المتمثل بضرورة التعريف بثوابت حضارتهم وأهمية العمل بآدابها، لما فيها من قيم قادرة على صناعة الأمن العالمي وحفظ السلم الدولي؛ دون تحيز يفسد الثقة فيعكر الحياة.

ومن آداب الحرب في عصر الرسول ﷺ اللجوء إلى الدعاء

قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[غافر: ٦٠] وقال عز وجل: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾[الفرقان: ٧٧] وقال تعالى: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[الأعراف: ٥٦] والدعاء سلاح استخدم في طلب النصرة-من الله تعالى على الظالمين، والفرج عن المستضعفين، مثلما دعا واستنصر النبي ﷺ ربه لنجاة المستضعفين من أيدي الطغاة والمتجبرين،

الذين يريدون فتنتهم عن دينهم، فكان ﷺ يدعو في القنوت لأصحابه الذين يعذبون في مكة على أيدي المشركين فيقول: "اللهم أنج سلمة بن هشام، اللهم أنج الوليد بن الوليد، اللهم أنج عياش بن أبي ربيعة، اللهم أنج المستضعفين من المؤمنين، اللهم اشدد وطأتك على مضر، اللهم سنين كسني يوسف)"[1] وكان ﷺ يدعو بالهداية للضالين، كما قال ﷺ: "اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك بأبي جهل أو بعمر بن الخطاب قال وكان أحبهما إليه عمر"[2] ولجأ ﷺ إلى الدعاء في ظروفه الحرجة، مثل يوم وضع المشركون عليه رفث الناقة فدعا على نفر من قريش بعينهم فقتلوا يوم بدر كما اتضح في المبحث الأول، ولجأ إلى الدعاء يوم صده مشركوا الطائف وآذوه وردوا عليه رداً قبيحاً ورشقه سفهاؤهم بالحجارة، وكان دعاؤه ذلك في منتهى السمو الأخلاقي والكمال الإنساني. فقال ﷺ: "اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس أنت أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك"[3] وظاهر في هذا الدعاء تجريد التوحيد لله تعالى والشفقة على الآخرين، ومن أشد ما ألح به ﷺ في الدعاء يوم بدر عندما كان في عريشه فألح في الدعاء حتى سقط رداؤه ﷺ[4] وقد أجيبت دعوة النبي ﷺ على عتاة مشركي قريش ورأى المسلمون كيف كانت نهايتهم في قليب بدر.

ويوم أحد حين انكفأ المشركون، قال رسول الله ﷺ: " استووا حتى أثني على

---

(١) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب: من صف أصحابه عند الهزيمة، ونزل عن دابته واستنصر. ح (٢٧٧٤).

(٢) الترمذي: سنن الترمذي، كتاب المناقب، باب في مناقب عمر، ح (٣٦٨١). قال الألباني: صحيح.

(٣) البغوي: تفسير البغوي، سورة الأحقاف، تفسير الآية (٢٩). ابن هشام: السيرة النبوية، (٢/ ٢٦٨).

(٤) ابن حنبل: المسند، مسند عمر بن الخطاب (٢٠٨) الطبري: جامع البيان من تأويل القرآن، ٦/ ١٨٨ تفسير سورة الأنفال، الآية (٩).

ربي عز وجل " فصاروا خلفه صفوفاً فقال ﷺ: " اللهم لك الحمد كله اللهم لا قابض لما بسطت ولا باسط لما قبضت ولا هادي لمن أضللت ولا مضل لمن هديت ولا معطي لما منعت ولا مانع لما أعطيت ولا مقرب لما باعدت ولا مباعد لما قربت، اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك، اللهم إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول، اللهم إني أسألك النعيم يوم العيلة، والأمن يوم الخوف، اللهم إني عائذ بك من شرّ ما أعطيتنا ومن شرّ ما منعتنا، اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين، اللهم توفنا مسلمين وأحينا مسلمين وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين، اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك ويصدون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك، اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب إله الحق"[1] ودعا ﷺ حين أشرف على خيبر قبيل دخولها، وكان ﷺ لا يدخل قرية إلا قال حين يراها: "اللهم رب السموات السبع و ما أظللن ورب الأرضين السبع وما أقللن ورب الشياطين وما أضللن ورب الرياح وما ذرين فإنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها ونعوذ بك من شرّها وشرّ أهلها وشر ما فيها"[2] ودعا النبي ﷺ على من قتل أصحابه غدراً يوم بئر معونة، وبقي يدعو عليهم في القنوت لمدة شهر، قال أنس رضي الله عنه إن النّبي ﷺ " قنت شهراً بعد الركوع، يدعو على أحياء بني سليم، قال: بعث أربعين - أو سبعين، يشك فيه- من القراء، إلى أناس من المشركين، فعرض لهم هؤلاء فقتلوهم، وكان بينهم وبين النّبي ﷺ عهدا، فما رأيته وجد على أحد ما وجد عليهم ﷺ"[3].

وكان عامر بن الطفيل استنفر على المسلمين قبائل عُصيّة ورِعل

---

(١) البخاري: الأدب المفرد، كتاب الأذكار، باب دعوات النبي ﷺ (٦٩٩). ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، تفسير سورة الحجرات، ٤/ ٢٦٦. ٤/ ٢٦٦. ابن حنبل: المسند، حديث عبد الله الزرقي ويقال عبيد الله، (١٥٥٣١).

(٢) الحاكم: المستدرك، كتاب الجهاد، (٢٤٨٨).

(٣)البخاري: الجامع الصحيح، كتاب أبواب الجزية والموادعة، باب: دعاء على من نكث عهدا، ح (٢٩٩٩)

وذكوان[1] وقال أنس ﷺ: "أن النّبي ﷺ أتاه رعل وذكوان وعصية وبنو لحيان، فزعموا أنهم قد أسلموا، واستمدوه على قومهم، فأمدهم النبي ﷺ بسبعين من الأنصار، قال أنس: كنا نسميهم القراء، يحطبون بالنهار ويصلون بالليل، فانطلقوا بهم، حتى بلغوا بئر معونة غدروا بهم وقتلوهم، فقنت ﷺ شهراً يدعو على رعل وذكوان وبني لحيان[2] كما اتضح ذلك في المبحث الثالث من هذا الفصل. ودعا ﷺ على المشركين بالهزيمة والزلزلة يوم الأحزاب، قال عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنهما" دعا رسول الله ﷺ يوم الأحزاب على المشركين، فقال: "اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اللهم اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم"[3] ودعا عليهم حين شغلوا المسلمين عن الصلاة فقال ﷺ: "ملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً، شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس"[4] ولما خرج ﷺ لفتح مكة دعا الله تعالى فقال ﷺ: "اللهم عمّ عليهم خبرنا حتى نأخذهم بغتة"[5] فأجاب الله دعاءه ﷺ وكان من قصة كتاب حاطب بن أبي بلتعة لقريش قبيل الفتح ما كان كما اتضح ذلك في الفصل الثالث.

ويوم حنين نزل النبي ﷺ عن دابته واستنصر الله تعالى على المشركين. قال البراء بن مالك ﷺ وقد سأله رجل: " أكنتم فررتم يا أبا عمارة يوم حنين؟ قال: لا والله، ما ولّى رسول الله ﷺ ولكنه خرج شبان أصحابه وأخفاؤهم حسراً ليس بسلاح، فأتوا قوماً رماة، جمع هوازن وبني نصر، ما يكاد يسقط لهم سهم، فرشقوهم

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، ٤/ ١٣٩. ابن سعد: الطبقات، ٢/ ٢٧٥. الخليفة: الأنصار في العصر الراشدي، ٦٥.

(٢) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب: العون بالمدد، ح (٢٨٩٩).

(٣) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب: من صف أصحابه عند الهزيمة، ونزل عن دابته واستنصر. ح (٢٧٧٥).

(٤) البخاري: الجامع الصحيح ، كتاب الجهاد، باب: من صف أصحابه عند الهزيمة، ونزل عن دابته واستنصر. ح (٢٧٧٣).

(٥) الطبراني: المعجم الكبير، حديث ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها زوج النبي ﷺ ح (١٠٥٢).

رشقاً ما يكادون يخطئون، فأقبلوا هنالك إلى النبي ﷺ وهو على بغلته البيضاء، وابن عمه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب يقود به، فنزل واستنصر، ثم قال: "أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب" ثم صف أصحابه[1] فهذه أمثلة تبين أن الدعاء خُلق من أخلاق المجاهدين في عصر النبوة، وأدب من آدابها، استعمله النّبي ﷺ في مواطن متعددة، وشهره كسلاح كان له الفعل الحاسم في عامة ما دعا به ﷺ وهذا السلاح يكاد ينفرد به المسلمون؛ إذ إنّه يمثل لهم الملجأ الأخير حين تعجز تدابيرهم المادية عن حسم ما يريدون في الحرب، وبذلك يؤكدون تفويضهم وتسليمهم الأمور إلى الله تعالى بعد أن يكونوا أخذوا بالأسباب المتاحة كافة وأعلنوا استعدادهم لنصرة عقيدتهم وافتدائهم لها بأرواحهم

ومن الفضائل الأخلاقية لهذا الدعاء التي تعود بنفعها على الإنسانية، أن المسلم يلجأ إلى الدعاء وتفويض الأمور إلى الله تعالى على أنه سبحانه هو المتصرف في هذا الكون وهو الحاكم فوق جميع عباده، والمسلم يعتقد أنه لا يُستجاب له دعاء إلا إذا كان طاهراً من الذنوب بعيداً عن الظلم والغش والغدر وإيذاء الآخرين من أي ملة أو جنس كانوا، كما أن المسلم يعلم أنه لا يستطيع أحد من الناس أن يخادع الله تعالى، لأنه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور قال ﷻ: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [المُلك: ١٤] فالمسلم الذي يؤمن بفاعلية الدعاء لا يمكن أن يسعى لارتكاب إثم أو ظلم أو قتل أو عدوان، لأن ذلك سيحول بينه وبين استجابة دعائه.

ولعل هذه الثقافة المتأصلة في أخلاقيات الحرب عند المسلمين، تمثل ضمانة ذاتية للتمسك بالقيم الإنسانية، وتشكل حاجزاً يحول بين المسلم وبين تعمد الظلم تجاه، وهذا ما تنفرد به قيم المسلمين المنبثقة من عقيدتهم، لأنه ينبع من العقيدة

---

(١) البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب من صفّ أصحابه عند الهزيمة، (٢٧٧٢) صحيح مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين، (١٧٧٦). ابن الجارود: المنتقى من السنن المسندة، في دوام الجهاد إلى يوم القيامة، باب من صف أصحابه للقتال، (١٠٦٦).

ويتأصل في الفعل الذي يقوم به المسلمون، وهو ما يجب البحث عنه وتأصيل قيمه في الثقافات المعاصرة للحد من الظلم الذي يقوم به الأقوياء على الضعفاء معتقدين أنهم لن يحاسبوا على ما تقترفه أيديهم ضد الضعفاء والمغلوبين على أمورهم من الناس.

في حين إذا دعا الآخرون فإنهم لا يخلصون التوحيد لله تعالى ويشركون في دعائهم، وليس الدعاء عندهم خلق من أخلاق الحروب، بل الشتم والطعن واللعن هو السائد في أدعيتهم المبتدعة كما هو الحال في قيم أعداء الصحابة وثقافة الكراهية التي يدينون بها في مواقعهم الدينية والثقافية والإعلامية وغيرها، ذلك أن غالب ما عندهم هو التحريض والتأليب على القتل ونشر الكراهية والحقد على الآخرين، أو الإغراء بالمغانم والهيمنة والتشفي من الأعداء، وهذه الثقافة لا يدين بها المسلمون ولا يقبلون العمل بها لتناقضها مع مقاصد الحرب عندهم، التي لا تتجاوز الجانب الأخلاقي المشروع، ومتى ما انتفت شرعية الحرب فإنها لا تجوز عند المسلمين، حيث تخضع ضوابط الحرب لقيم العقيدة الإسلامية ولرقابة الضمير الحي الذي ينبض به قلب كل مسلم، فلا يحتاج بعدها إلى رقابة خارج إطار الضمير الذي حُشي رحمة ومودة وحباً وتكريماً لبني آدم، دون تفريق بين لون أو عرق أو إقليم. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجُرات: ١٣].

الفصل الثاني

وسائل الإعداد والتنظيم ومكانة الشهادة
في آداب الحرب في عصر الرسول ﷺ

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

المبحث الأول

الإعداد والتدريب في قيم الحرب في عصر النبي ﷺ

الإنفاق في سبيل الله في عصر النبي ﷺ

الإنفاق في سبيل الله تعالى له مكانته وأثره الفاعل في أخلاق الحرب في عصر الرسالة، فهو أحد وسائل الإعداد التي لا يتحقق النصر إلا بها، وهذا أصل ثابت في كتاب الله تعالى وفي سنّة النّبي ﷺ وقد امتثل المهاجرون والأنصار لذلك حتى حازوا قصب السبق، ونالوا الثناء والرضوان من الله تعالى، ومما ورد عن الإنفاق.

قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:٢٦١).

وقوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ (البقرة:من الآية٢٧٤) وقوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران:١٣٤) ومن آداب الإنفاق أن يكون خالصاً لله تعالى بلا من ولا أذى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة:من الآية ٢٦٢).

والآيات التي ترغب في الإنفاق في سبيل الله متنوعة المبشرات والمقاصد، تهدف إلى إعداد الأمة وإتمام جاهزيتها، لحماية أمنها وترابط بنيانها، وهذا ما امتثله المهاجرون الذين تركوا الدار والوطن والمال والولد في سبيل نصرة دينهم، وفيهم

قال تعالى: ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ (الحشر: من الآية٨) وهو ما فعله الأنصار أيضاً. قال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر:من الآية ٩) وقد قدم القرآن الكريم النفقة بالمال على النفقة في النفس. قال تعالى: ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ (الحجرات: من الآية١٥). وقال النبي ﷺ: "من أنفق زوجين من شيء من الأشياء في سبيل الله، دعي من أبواب - الجنة - يا عبد الله هذا خير، فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الصيام وباب الريان، فقال أبو بكر ﷺ: ما على هذا الذي يدعى من تلك الأبواب من ضرورة، وقال هل يدعى منها كلها أحد يا رسول الله ؟ قال ﷺ: نعم وأرجو أن تكون منهم يا أبا بكر "[١] وقال ﷺ: "من جهّز غازياً في سبيل الله فقد غزا، ومن خلف غازياً في سبيل الله بخير فقد غزا"[٢] ومفاهيم الإنفاق راسخة في أخلاقيات الحرب في عصر الرسول ﷺ ومنذ أيام الدعوة الأولى وأيام الهجرة، فحين عزم رسول الله ﷺ على الهجرة كان أبو بكر ﷺ قد أعد الزاد والراحلة قبل أن يباشر ذلك رسول الله ﷺ كياسة وفطنة، وهذه أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما: صنعت سفرة رسول الله ﷺ في بيت أبي بكر ﷺ حين أراد أن يهاجر إلى المدينة، قالت: فلم نجد لسفرته، ولا لسقائه ما نربطهما به، فقلت لأبي بكر: والله ما أجد شيئاً أربط به إلا نطاقي، قال: فشقيه باثنين فاربطيه: بواحد السقاء وبالآخر السُفرة، ففعلت، فلذلك سميت: **ذات النطاقين**

---

(١) البخاري: كتاب فضائل الصحابة، باب لو كنت متخذاً خليلاً، (٣٤٦٦).كتاب الجهاد، باب: فضل النفقة في سبيل الله، (٢٦٨٦).

(٢) البخاري: الجامع الصحيح، ، كتاب الجهاد، باب: فضل من جهز غازيا أو خلفه بخير، (٢٦٨٨).

رضي الله عنها[1].

فكان من آداب الحرب عند المسلمين الإعداد والجاهزية قبل وقوع الأحداث، والاهتمام بموارد التموين والتزود به أياً كان نوعه، قال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: "كنا نتزود لحوم الأضاحي على عهد رسول الله ﷺ إلى المدينة"[2] وقال سويد بن النعمان ﷺ: أنه خرج عام خيبر، فدعا النبي ﷺ بالأطعمة، فلم يؤت ﷺ إلا بسويق، فلكنا فأكلنا وشربنا[3] وعن جابر رضي الله عنه قال: "خرجنا ونحن ثلاثمائة نحمل زادنا على رقابنا، ففني زادنا، حتى كان الرجل منا يأكل في كل يوم تمرة، قال رجل: يا أبا عبد الله، وأين كانت التمرة تقع من الرجل؟ قال: لقد وجدنا فقدها حين فقدناها، حتى أتينا البحر، فإذا حوت قد قذفه البحر، فأكلنا منه ثمانية عشر يوماً ما أحببنا[4].

وهذه المشاهد تبين ما كان عليه المسلمون من ضيق ذات اليد وشظف العيش، وضعف إمكانيات التموين ووسائل النقل حتى بلغ بهم الحال أن يحملوا زادهم على رقابهم وأن يقتات أحدهم يومه كله بتمرة واحدة، فهل سُمِع بمثل تموين هذا الجيش؟ وهل عُرف مثل طاعة أفراده وأخلاق قادته ﷺ؟ بالتأكيد لا مثيل لهذا الكم من الجند، ولا لمثل هذه الروح المتوثبة لنصرة الحق وإزاحة الباطل، ولا مثيل لهم بأخلاقياتهم الطاهرة وانضباطهم ونظامهم، وكل ذلك الضيق والضنك لم يزدهم إلا صبراً واحتساباً وإقداماً على التضحية في سبيل الله، ولم يؤثر ذلك على أخلاقياتهم القائمة على الرحمة، فلم تحدثنا المصادر الموثوقة أن أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ قد تجاوز الحد على غيره في ساحات الحرب، أو في تحركات السرايا

---

(١) البخاري: الجامع الصحيح ، كتاب الجهاد، باب: الأجير. باب: حمل الزاد في الغزو، ح (٢٨١٧

(٢) البخاري: كتاب الجهاد، باب: الأجير. باب: حمل الزاد في الغزو، (٢٨١٨).

(٣) البخاري: كتاب الجهاد، باب: الأجير. باب: حمل الزاد في الغزو، (٢٨١٩).

(٤) البخاري: كتاب الجهاد، باب: الأجير. باب: حمل الزاد في الغزو، ح (٢٨٢١).

والغزوات ولم ينقل عن أحدَ منهم أنه أكل لقمة من غير مصدر حلال أو لبس ثوباً أو نعلاً أو ركب دابة أو قام بأي لون من ألوان التطاول على الآخرين، على الرغم من كل ما مرّ بهم من الحاجة والخصاصة.

وهذا يضاف إلى خصائص أخلاقيات الجهاد في الإسلام، عن غيرها من أخلاقيات الحروب عند الأمم الأخرى؛ التي غالباً ما يرافق أعمال قواتها العسكرية وتحركاتها التعبوية ألواناً من الأذى والتخريب والهيمنة على حقوق وممتلكات الآخرين، وكل ذلك يعود إلى مقاصد وأهداف وقيم المسلمين والآخرين، وإلى ما يحمله كل منهم من خلفية ثقافية ورؤية وجدانية إلى الأحداث والأشخاص والأملاك، فالمسلم لا يحق له أن يظلم في كل أحواله؛ بينما كثير من غير المسلمين يرون أن مجرد التلبس في أي باب من أبواب الجندية يبيح لهم السلب والنهب وإتلاف أموال الناس وقطع الطرق وفرض الضرائب وغير ذلك؛ تحت ذرائع كل شيء من أجل المعركة فتكون الأعمال العسكرية عند هذا الضرب من السلطات المهزومة حضاريا وأخلاقياً، باب من أبواب الارتزاق وفرض المكوس والتسول تحت ذريعة الدفاع وحماية الثورات والثروات، بينما أثبتت أخلاق المسلمين أن كل من يخرج عن منهج الحق والأمانة والعدل؛ أنه لا يجني نصراً ولا يحمي أرضاً ولا ثروة، ولا يؤتمن على عقيدة، وذلك أنه لا يملك قواعد النصر وأسباب الرقي وقيم التمكين، وهذا مشاهد في هذا العصر عند من يعلنون التشويه والتزييف والتحريف لأحداث ووقائع وقيم وأخلاقيات الحرب في عصر النبوة!.

ولعل التساؤل الذي يثار عن **وسائل سد العجز في التموين عند المسلمين**، وطرق معالجة حاجتهم إلى الطعام والشراب ودواب الحمل وما إلى ذلك، ولا سيما أن أخلاقيات الحرب في عصر الرسول ﷺ أثبتت قدرتها وحيويتها في معالجة الأزمات التي تعترض مسارها وبأيسر الطرق، قال سلمة ﷺ: " خفّت أزواد الناس

وأملقوا، فأتوا النبي ﷺ في نحر إبلهم فأذن لهم، فلقيهم عمر ﷺ فأخبروه، فقال: ما بقاؤكم بعد إبلكم، فدخل عمر على النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ما بقاؤهم بعد إبلهم؟ قال رسول الله ﷺ: "ناد في الناس يأتون بفضل أزوادهم". فدعا وبرّك عليه، ثم دعاهم بأوعيتهم، فاحتثى حتى فرغوا، ثم قال رسول الله ﷺ: "أشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله"[1] واستخدام الدعاء في الحرب ثابت في أكثر من حال ومكان، فهل هناك في أخلاقيات الأمم الأخرى من يمتلك هذه الخصيصة التي كانت من أسلحة عصر الرسالة، ولم يكن المسلمون يعتمدون في توفير متطلبات نجاح مشاريعهم على وسيلة واحدة، فلديهم من القدرة على الابتكار ومواجهة المستجدات ما مكّن لهم الإمساك بأزمة النجاح وتحقيق النصر في ميادين الحياة المتشعبة، ومن الوسائل الأخرى التي كان يتصدى بها المؤمنون لأزمات التموين وغيرها، أصالة روح الإنفاق في سبيل الله واستعدادهم للتضحية وسخائهم في سبيل نصرة دينهم وحفظ هويتهم، قال أبو مسعود البدري ﷺ " جاء رجل بناقة مخطومة. فقال: هذه في سبيل الله. فقال رسول الله ﷺ: " **لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلها مخطومة** "[2] فهذه البشارة وأمثالها كانت تزيد من رغبة الناس في الإنفاق والعطاء والكرم.

ومن ذلك التعاون والتكامل على إنجاز المهام واقتسام المسؤوليات والرضا بما يحصل على ذلك من الأجر مع روح المحبة والمودة والإخلاص التي كانت تتم بها تلك العمليات، قال أبو سعيد الخدري ﷺ إن رسول ﷺ بعث بعثاً إلى بني لحيان، من هذيل. فقال: " لينبعث من كل رجلين أحدهما، والأجر بينهما "[3] ثم قال ﷺ

---

(١) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب: الأجير. باب: حمل الزاد في الغزو، ح (٢٨٢٠).

(٢) مسلم: صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الصدقة في سبيل الله، وتضعيفها،ح (١٨٩٢).

(٣) مسلم: صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله بمركوب وغيره، وخلافته في أهله بخير، (١٨٩٦).

للقاعد: "أيكم خلف الخارج في أهله وماله بخير، كان له مثل نصف أجر الخارج"[1] فأوجد ﷺ من ثقافة التعاون تلك روح التنافس على فعل الخير وادخار الأجر واعتقاد الثواب. قال صفوان بن يعلى عن أبيه ﷺ: "غزوت مع رسول الله ﷺ غزوة تبوك، فحملت على بكر، فهو أوثق أعمالي في نفسي"[2] وفي تلك الغزوة قامت سوق الإنفاق في سبيل الله وتبارى المسلمون على المشاركة فيها على الرغم مما ينتظرهم من الأهوال لشدة الحر، وبعد الشقة، وقوة العدو وكثرته، وبلغ من إقبال المسلمين أن أهل الحاجة والفاقة يأتون إلى رسول الله ﷺ يسألونه أن يحملهم ليخرجوا إلى قتال الروم، فإذا أعتذر لهم رجعوا باكين حزناً أن تفوتهم المشاركة في موقف من مواقف الجهاد في سبيل الله. قال تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ (التوبة:٩٢) وكان عثمان ﷺ قد جاء إلى النبي ﷺ بألف دينار حين جهز جيش العسرة فأفرغها عثمان في حجر النبي ﷺ قال فجعل النبي ﷺ يقلبها و يقول: ما ضر عثمان ما عمل بعد هذا اليوم قالها مرارا"[3] وحمل ﷺ على تسعمائة بعير و مائة فرس وجهز ركابا"[4].

وجاء أبو بكر الصديق ﷺ بماله كله"[5] وأنفق عبد الرحمن بن عوف كثيراً يوم

---

(١) مسلم: صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله بمركوب وغيره، وخلافته في أهله بخير، (١٨٩٦).

(٢) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب: الجعائل والحملان في السبيل. باب: الأجير، ح (٢٨١٤).

(٣) المستدرك: كتاب معرفة الصحابة، باب فضائل عثمان (٤٥٥٣) الأحاد والمثاني، ذكر محمد بن أبي بكر، (٦٦٦).

(٤) ابن خلدون تاريخ ابن خلدون، ٢/ ٤٦٥. المباركفوري: الرحيق المختوم، ٤٣٣.

(٥) ابن حجر: العجاب في بيان الأسباب، الرد على حصر الطبراني، ١/ ٦٢٨. تفسير القرآن العظيم، سورة البقرة، الآية (٢٧١).

تبوك، وجاء عمر ﷺ بنصف ماله, وجاء العباس ﷺ بمال كثير، وجاء طلحة وسعد بن عبادة ومحمد بن مسلمة ﷺ كلهم جاءوا بمال، وجاء عاصم بن عدي بتسعين وسقاً من التمر، وتتابع الناس بصدقاتهم قليلها وكثيرها، حتى كان منهم من أنفق مُداً أو مُدين لم يكن يستطيع غيرها؛ وبعثت النساء ما قدرن عليه من مسك ومعاضد وخلاخل وقرط وخواتم[1] وأنفق الأنصار وبقية المسلمين كل على قدر طاقته ﷺ حتى سار جيش العسرة إلى الروم ولم يكن لديهم كل ما يحتاجه الجند من الحمل والزاد ولكنهم تزودوا بالإخلاص والتوكل وحب العمل في سبيل الله، والمشاركة مع رسول الله ﷺ ونظراً للحاجة والمشقة، سمي ذلك الجيش بجيش العسرة، وعلى هذا يكون النّبي ﷺ استعمل جميع الطاقات واستنفذ كل فرص الإعداد وأوصد أبواب التراجع والحاجة إلى الاستعانة بغير المؤمنين، الذين أصبح مجتمعهم أشبه بخلايا من النحل العاملة، فهم ما بين عملهم في بناء أسس دعوتهم، وإعدادهم لمواجهة أعدائهم وإشادة بنيان دولتهم، وجني ثمار جهودهم في تكوين مجتمع النظام والرحمة والبطولة؛ التي تصنع النصر وتحمي الأمن وتزرع الأمل، وتنشر السلام وتجلو الضمائر بروح المحاسبة، وأداء الواجبات التي تُكوّن المجتمع وتبني الأمة الآمنة اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً، والمتماسكة اجتماعياً المتناسقة أخلاقياً، التي تدور ثقافتها وقيمها مع كتاب الله تعالى حيث دار، لا تضللها الهمهمات الإعلامية، ولا تزعزها الحروب النفسية، فهي الأمة القائمة على بصيرة في كل شؤون تكوينها وامتداداتها.

إعداد القوة ورباط الخيل من قيم الحرب في عصر الرسول ﷺ

قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن

---

(١) المباركفوري: الرحيق المختوم، ٤٣٣. وينظر ابن حجر: فتح الباري: باب قوله تعالى: الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين، ٨/ ٣٣٢.

شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ (لأنفال:٦٠) وقال ﷻ: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ (البقرة:١٩٠). فلا قتال في الإسلام إلا بسبب شرعي خالص لوجه الله تعالى وإذا حصل القتال فلا عدوان ولا ظلم، ومن تجاوز هذه الضوابط فإن الله لا يحب المعتدين، والوصول إلى محبة الله هي غاية كل مؤمن، ومن وسائل صد العدوان ودفع الظلم عند المسلمين، الإعداد وصناعة أسباب القوة لإدخال الخوف والرهبة في نفوس الأعداء، فلا يطمعون بالأمة ولا يجترئون عليها، فيكون الإعداد سبباً في الحفاظ على السلام ودوام الاستقرار، وهذا فقه عظيم حث عليه القرآن الكريم والسنّة النبوية، لصيانة العدل وحماية الأمن، فإذا تكاملت قواعد الإعداد تحققت أهداف هذه الآية في حمل العدو على ترك الحرب والجنوح إلى السلم واحترام العهود والمواثيق يؤيد هذا المعنى الآية التالية التي أعقبت الأمر بالإعداد، قال تعالى: ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ (لأنفال:٦١) فأصبحت نتيجة الإعداد عند المسلمين ليس من أجل القتال، أو العمل بما أمروا به؛ أو كسب الحرب فحسب؛ بل من أجل الاستغناء عنها بإرغام المعتدين على أداء الحقوق، وكف العدوان والجنوح إلى السلم، وإذا حصل هذا صار التخلي عن الحرب واجباً، وهذه النتيجة هي ثمرة توجيهات **وأعدوا** وهي المقصد من ترهبون به عدو الله وعدوكم، التي عمل بها المسلمون في عصر الرسالة، فحفظوا دينهم وأقاموا شريعتهم، وهذه المعاني تدحر ادعاءات المزيفين الذينَ يحملون النصوص على غير وجهها ويفسرونها على غير مقاصدها، وتفرض على المسلمين الاستعداد الدائم والإعداد المتجدد إسهاماً في نشر السلم، وحماية لعقيدة التوحيد، وحفظاً لحقوق الإنسان التي يقرها الإسلام، ويحميها على وجهها الصحيح لجميع بني الإنسان من جميع الأجناس.

ومن أجل صناعةالسلام كان الإعداد محوراً ومرتكزاً في أخلاق الحرب في

عصر النبي ﷺ، وكان الإهتمام بإعداد الخيل وتدريبها وتربيتها وإكرامها قائم على هدي من الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (النحل:٨) وقال النبي ﷺ: "الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة: الأجر والمغنم"[١] قال الإمام أحمد: وفقه هذا الحديث أن الجهاد مع كل إمام إلى يوم القيامة[٢] أي أن الجهاد دائم لا ينقطع وعلى المؤمنين أن يكونوا على أهبة الاستعداد لحماية الأمة ونصرة الدين ضمن ضوابط وآداب الشريعة الإسلامية، ومن ذلك اقتناء الخيل، أو ما يعادلها في هذا العصر، قال ﷺ: "من احتبس فرساً في سبيل الله، إيماناً بالله، وتصديقاً بوعده، فإنّ شِبعه وريه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة"[٣] واقتناء الخيل التي يؤجر صاحبها تكون في سبيل الله. قال النبي ﷺ: "الخيل لثلاثة: لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر، فأما الذي له أجر فرجل ربطها في سبيل الله، فأطال في مرج أو روضة، فما أصابت في طيلها ذلك من المرج أو الروضة كانت له حسنات، ولو أنها قطعت طيلها، فاستنت شرفا أو شرفين، كانت أرواثها وآثارها حسنات له، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه ولم يرد أن يسقيها كان ذلك حسنات له. ورجل ربطها فخراً ورئاء ونواء لأهل الإسلام فهي وزر على ذلك". وسئل رسول الله ﷺ عن الحمر، فقال: "ما أنزل علي فيها إلا هذه الآية الجامعة الفاذة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ (الزلزلة:٧، ٨)"[٤]. وكان النبي ﷺ

---

(١) البخاري: الجامع الصحيح، ، كتاب الجهاد، باب: الجهاد ماض مع البر والفاجر. ح (٢٦٩٧) و(٢٦٩٥، ٢٦٩٤) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة،ح (١٨٧١).

(٢) الترمذي: سنن الترمذي، أبواب الجهاد عن رسول الله ﷺ باب ما جاء في فضل الخيل، (١٧٤٥).

(٣) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب: من احتبس فرساً. ح (٢٦٩٨).

(٤) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب: الخيل لثلاثة. ح (٢٧٠٥).

يشجع على اقتناء الخيل، ويبشر أهلها بيسر النفقة عليها وبالأجر الكبير. فيقول ﷺ: " **وأهلها معانون عليها والمنفق عليها كالباسط يده بالصدقة** "[(١)].

فآداب الجهاد في صدر الإسلام مبنية على حب السلام وإنجاز وسائل حفظه، وعلى قيم الإخلاص والعدل والنباهة والاستعداد والاختيار الأمثل لتلك الوسائل قال ﷺ : " خير الخيل الأدهم الأقرح الأرثم، ثم الأقرح المحجل طلق اليمين فإن لم يكن أدهم فكميتٌ على هذه الشية "[(٢)] وقال ﷺ: " عليكم بكلِّ كميتٍ أغرَّ مُحَجّل أو أشقر أغرَّ مُحَجّلٍ ، أو أدهم أغر محجلٍ"[(٣)] وهذه من صفات وألوان الخيل المفضلة عند رسول الله ﷺ التي أرشد إليها لتمايز هيآتها وجمالها وأناقتها وأصالتها ولغير ذلك، ومثلما وجّه ﷺ إلى أنواع من الخيل كذلك نهى عن أنواع أخرى فكان رسول الله ﷺ " يكره الشكال من الخيل، والشكال يكون الفرس في رجله اليمنى بياض وفي اليد اليسرى، أو في يده اليمنى وفي رجله اليسرى"[(٤)] وقال أبو حاتم: " **الشكال** من الخيل الذي كرهه رسول الله ﷺ هو أن تكون الدابة إحدى قوائمها بيضاء والباقي على هيئتها "[(٥)] والخيل مكرمة وقريبة من أصحابها، قال رسول اللّه ﷺ: "ارتبطوا الخيل، وامسحوا بنواصيها وأعجازها" أو قال: "أكفالها" وقلّدوها، ولا تقلدوها الأوتار"[(٦)].

فهذا الاهتمام بإعداد الخيل وانتقاء ألوانها وأنواعها دليل على دقة المتابعة وجدية الموقف المترتب على النجاح في هذا الميدان الذي يؤدي إلى تحقيق أهداف

---

(١) ابن حبان، صحيح ابن حبان: كتاب السير، باب فضل الشهادة، (٤٦٧٤).

(٢) الترمذي: سنن الترمذي، أبواب الجهاد عن رسول الله ﷺ ، باب ما يستحب من الخيل، (١٧٤٧).

(٣) أبو داوود: سنن أبو داوود، باب فيما يستحب من ألوان الخيل، (٢٥٤٣).

(٤) البيهقي: سنن البيهقي ، كتاب قسم الفيء والغنيمة، باب ما يكره من الخيل وما يستحب، (١٢٦٧٣).

(٥) ابن حبان: صحيح ابن حبان: كتاب السير، باب فضل الشهادة، (٤٦٧٧)

(٦) أبو داوود: سنن أبو داوود، باب إكرام الخيل وارتباطها، والمسح على أكفالها، (٢٥٥٣).

أخلاقيات الحرب في عصر الرسالة؛ من الإعداد وإدخال الرهبة على العدو الطامع، حفاظاً على السلم وتجنباً للمواجهة، إذ أن إعداد القوة يوقع الهزيمة في نفوس الأعداء وينزع منهم إرادة القتال فينتشر بذلك السلم قال ﷺ: " **نصرت بالرعب من مسيرة شهر** "[1] ومقصود القوة في الآية شامل لكل أنواعها المادية والمعنوية، ونظراً لأهمية نتائج رباط الخيل وما فيه من الاستعداد الدائم واليقظة المستمرة، وما يعود ذلك على أمن الأمة وهيبتها، قال ﷺ: " **من خير معاش الناس رجل ممسك بعنان فرسه في سبيل الله يطير على متنه كلما سمع هيعة أو فزعة طار عليه يبتغي القتل والموت مظانه** "[2] غيرة على الأمة وحمية على الدين وتأكيداً لوحدة هذه الأمة وتواصل أبنائها وتعاونهم في ساعات الخطر.

وقد كانت نتائج إظهار القوة في فتح مكة خير معين على هزيمة إرادة القتال في نفوس المشركين حين أمر النبي ﷺ العباس ﷺ باحتجاز أبي سفيان عند مضيق الوادي ليرى قوة المسلمين عن قرب وقد فعل ذلك فِعله في نفس أبي سفيان حتى صاح في العباس لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيماً!! فقال له العباس ﷺ: إنها النبوة فقال نعم إذن، فانطلق يصرخ في مكة: " **يا معشر قريش هذا محمد جاءكم فيما لا قبل لكم به** "[3].

فتم فتح مكة بأقل الخسائر الممكنة بعد أن حقق إعداد القوة ورباط الخيل وإظهار القوة مفعوله في نفوس المشركين، ولاستمرار مثل هذه النتائج التي تعود بالأمن والسلم على الجميع كان النبي ﷺ يحث المسلمين على الاستعداد والإعداد والأهبة الدائمة ورعاية وسائل القوة والمحافظة على التدريب واللياقة بكل أشكالها ومن ذلك:

---

(١) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الصلاة، باب قوله ﷺ جعلت لي الأرض مسجدا وطهوراً، ح (٤٢٧).

(٢) البيهقي: سنن البيهقي الكبرى، كتاب السير، باب في فضل الجهاد، (١٨٢٧٨).

(٣) ابن القيم: زاد المعاد، ٣ / ٣٢٠.

المسابقة بين الخيل وتضميرها

قال ابن عمر إن رسول الله ﷺ " سابق بالخيل التي قد أضمرت من الحفياء، وكان أمدها ثنية الوداع. وسابق بين الخيل التي لم تضمر، من الثنية إلى مسجد بني زريق[(١)] قال ابن عمر: " وكنت فيمن أجرى. وقال سفيان: بين الحفياء إلى ثنية الوداع خمسة أميال أو ستة، وبين ثنية الوداع إلى مسجد بني زريق ميل "[(٢)] وسئل أنس رضي الله عنه " يا أبا حمزة أكنتم تراهنون على عهد رسول الله ﷺ أكان رسول الله ﷺ يراهن قال: نعم لقد راهن والله على فرس يقال له سبحة فسبق الناس فأنهش لذلك وأعجبه قال عبد الله أنهشه يعني أعجبه "[(٣)] والنبي ﷺ " سابق بين الخيل وجعل بينهما سبقاً وجعل بينهما محللاً وقال ﷺ لا سبق إلا في حافر أو نصل "[(٤)].

وكان من إعداد النبي ﷺ لنفسه أنه كان في المقدمة في ركوب الدابة الصعبة والفحولة من الخيل والفرس العري. قال أنس رضي الله عنه: "كان بالمدينة فزع، فاستعار النبي ﷺ فرساً لأبي طلحة يقال له مندوب، فركبه ﷺ وقال: " ما رأينا من فزع، وإن وجدناه لبحراً "[(٥)] وقال: " استقبلهم النبي ﷺ على فرس عري، ما عليه سرج، في عنقه ﷺ سيف "[(٦)] فكان ﷺ قدوة لأصحابه في الإعداد ورباط الخيل والاستعداد وتمام الأهبة لمواجهة أي طارئ يلم بالمسلمين، وبلغ من اهتمام النبي ﷺ بالسباق وإعداد الأفراد في التدريب أنه كان يسابق على قدميه ﷺ قالت الطاهرة أم المؤمنين

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب المسابقة بين الخيل وتضميرها، (١٨٧٠). مالك ، الموطأ، باب ما جاء في الخيل والمسابقة بينها والنفقة في الغزو، (١٠٠٠).

(٢) البخاري: كتاب الجهاد، باب: السبق بين الخيل، (٢٧١٣). كتاب الجهاد، باب: إضمار الخيل للسبق، (٢٧١٤). (٢٧١٥).

(٣) سنن الدارمي، كتاب الجهاد، باب في رهان الخيل (٢٤٣٠).

(٤) ابن حبان: صحيح ابن حبان : كتاب السير، باب السبق، (٤٦٨٩) (٤٦٩٠).

(٥) البخاري: كتاب الجهاد، باب: باب: الركوب على الدابة الصعبة والفحولة من الخيل.ح (٢٧٠٧).

(٦) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب: ركوب الفرس العري. ح (٢٧١١).

عائشة: " سابقني النبي ﷺ فسبقته فلبثنا حتى إذا أرهقني اللحم سابقني فسبقني فقال النبي ﷺ هذه بتلك"[1] وبقدر ما في هذا النص من إشارة إلى أهمية الإعداد والمحافظة على اللياقة البدنية؛ فيه إشارة إلى عمق العلاقات الأسرية وتوافقها.

ناقة النّبي ﷺ وبغلته

ومن الإعداد اهتمام النبي ﷺ بناقته القصواء. قال ابن عمر: " أردف النبي ﷺ أسامة على القصواء " وقال ﷺ: " ما خلأت القصواء "[2] أي ما حرنت وليس ذلك من خُلقها لأنها مدربة على الطاعة. وقال أنس ﷺ: " كانت ناقة النبي ﷺ يقال لها العضباء[3] والعضباء والقصواء بمعنى واحد. وكانت لا تُسبق، أو لا تكاد تسبق، فجاء أعرابي على قعود فسبقها، فشق ذلك على المسلمين حتى عرفه النبي ﷺ في وجوههم. فقال ﷺ: " حق على الله أن لا يرتفع شيء من الدنيا إلى وضعه "[4].

وكانت العضباء لرجل من بني عقيل وتتلخص قصتها ومكانتها في هذا النص الصحيح، قال عمران بن حصين ﷺ: (كانت ثقيف حلفاء لبنى عقيل فأسرت ثقيف رجلين من أصحاب رسول الله ﷺ وأسر أصحاب رسول الله ﷺ رجلاً من بني عقيل، وأصابوا معه العضباء فأتى عليه رسول الله ﷺ وهو في الوثاق قال يا محمد ﷺ فأتاه فقال: ما شأنك؟ فقال بم أخذتني وبم أخذت سابقة الحاج؟ فقال إعظاما لذلك أخذتك بجريرة حلفائك ثقيف، ثم انصرف عنه فناداه فقال: يا محمد يا محمد وكان رسول الله ﷺ رحيماً رقيقاً، فرجع إليه فقال: ما شأنك؟ قال: إني مسلم! قال ﷺ: لو قلتها وأنت تملك أمرك أفلحت كل الفلاح، ثم انصرف ﷺ فناداه فقال: يا محمد يا محمد ﷺ فأتاه فقال ﷺ: ما شأنك؟ قال إني جائع فأطعمني،

---

(١) ابن حبان ، صحيح ابن حبان: كتاب السير، باب السبق، (٤٦٩١).

(٢) لبخاري: كتاب الجهاد، باب: ناقة النبي ﷺ. ح (٢٥٨١).

(٣) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، ناقة النبي ﷺ ح (٢٧١٦،٢٧١٧).

(٤) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، ناقة النبي ﷺ. ح (٢٧١٧).

وظمآن فأسقني، قال ﷺ: هذه حاجتك، ففدي بالرجلين، قال: **وأسرت امرأة من الأنصار** رضي الله عنها **وأصيبت العضباء**، فكانت المرأة في الوثاق، وكان القوم يريحون نعمهم بين يدي بيوتهم، فانفلتت ذات ليلة من الوثاق، فأتت الإبل فجعلت إذا دنت من البعير رغا فتتركه، **حتى تنتهي إلى العضباء**، فلم ترغ قال: وناقة منوقة – مدربة – فقعدت في عجزها ثم زجرتها فانطلقت! ونذروا بها فطلبوها فأعجزتهم، قال: ونذرت لله إن نجاها الله عليها لتنحرنها، فلما قدمت المدينة رآها الناس **فقالوا: العضباء ناقة** رسول الله ﷺ فقالت: إنها نذرت إن نجاها الله عليها لتنحرنها، فأتوا رسول الله ﷺ فذكروا ذلك له، فقال ﷺ: سبحان الله بئسما جزتها نذرت لله إن نجاها الله عليها لتنحرنها، لا وفاء لنذر في معصية، ولا فيما لا يملك العبد، وفي رواية ابن حجر لا نذر في معصية الله)[1].

وكان للنبي ﷺ **بغلة** يهتم بها ويحسن إعدادها. قال أنس رضي الله عنه: " أهدى ملك أيلة للنبي ﷺ **بغلة بيضاء**"[2] قال البراء رضي الله عنه يصف المشهد الحربي يوم حنين وكان: " النبي ﷺ على بغلته البيضاء، وأبو سفيان بن الحارث آخذ بلجامها، والنبي ﷺ يقول: أنا النبي لا كذب، **أنا** ابن عبد المطلب"[3] وكل هذا التوجيه النبوي للأمة بوجوب الإعداد وحثه عليه وممارسة ذلك بنفسه؛ يؤسس للعمل بقواعد **وأعدوا لهم**، بكل معانيها حماية للأمة وعقيدتها، ورعاية لأجيالها، وردعاً للطامعين والمعتدين. قال رسول الله ﷺ: " كل شيء من لهو الدنيا باطل إلا ثلاثة **انتضالك** بقوسك، **وتأديبك فرسك**، **وملاعبتك أهلك**، فإنها من الحق "[4] وقال ﷺ: " انتضلوا واركبوا "[5] أي تعلموا الرمي وقواعد الفروسية وركوب الخيل.

---

(١) صحيح مسلم: ح (٣٠٩٩).

(٢) البخاري: كتاب الجهاد، بغلة النبي ﷺ البيضاء.ح (٤٠٨٢).

(٣) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، بغلة النبي ﷺ البيضاء. ح (٢٧١٩).

(٤) الحاكم، المستدرك: كتاب الجهاد، ح (٢٤٦٨).

(٥) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، بغلة النبي ﷺ البيضاء. ح (٢٧١٨).

وكان من اهتمامه بالإعداد أنه توفي ﷺ ولم يُخلف من الدنيا سوى سلاحه. و " ما ترك النبي ﷺ إلا بغلته البيضاء، وسلاحه، وأرضاً تركها صدقة "[1] وفي هذا درس لأمته بوجوب الاهتمام بإعداد القوة وما يدفع الشر عن الأمة ويدخل ا لهيبة في قلوب الأعداء لكي لا يجترئوا عليها فيبقى الأمن عزيزاً والسلم قائماً. ولما كان توفر الخيل لجميع أفراد الأمة أمراً متعذراً. قال ﷺ موضحاً ذلك: " لا أجد حمولة، ولا أجد ما أحملهم عليه، ويشق علي أن يتخلفوا عني "[2] وردماً لتلك الهوة التي تحول بين المسلمين وبين امتلاك وسائل القوة لكل فرد فيهم، وجّه النبي ﷺ الأمة إلى التضامن والتعاون من أجل رفد الأمن وصناعة أسباب السلام وهيبة الأمة، فكان التعاون قائماً بين المسلمين على أحسن الوجوه. قال عمر ﷺ: حملت على فرس في سبيل الله، فرأيته يُباع، فسألت النبي ﷺ: آشتريه؟ فقال: " لا تشتره، ولا تعد في صدقتك "[3] وقال مجاهد: قلت لابن عمر: أريد الغزو، قال: " إني أحبّ أن أعينك بطائفة من مالي، قلت: أوسع الله عليّ، قال: إن غناك لك، وإنّي أحبّ أن يكون من مالي في هذا الوجه[4].

فبلغ من حبّ الإعداد وتمام الجاهزية عند المسلمين في عصر الرسالة، أن يحرص المسلم على المشاركة بأي وسيلة تعين على الإسهام في إعداد القوة وما ينصر الأمة، وأصبح من آثار ذلك أن لا يُرد من يعرض مثل تلك الإسهامات التي تغذي رباط الخيل والقوة، لعمق ثقافة الإعداد وتفهم أهميتها في نفوس المؤمنين، ولما تشكله من قوة رادعة وقوة ضغط على أطماع الأعداء ورغباتهم في التوسع والهيمنة وممارسة العدوان أو في نشر مفاهيم الشرك والوثنية ومنع انتشار دعوة التوحيد في العالمين، ومساندة لأهل الخيل ورعاية لقاعدة الإعداد وصناعة القوة

---

(١) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، بغلة النبي ﷺ البيضاء. ح (٢٧١٨).

(٢) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد والسير، باب تمني الشهادة، ح (٢٦٤٤).

(٣) البخاري: كتاب الجهاد، باب: الجعائل والحملان في السبيل.ح (٢٨٠٨).

(٤) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب: الجعائل والحملان في السبيل، ح (٢٨١٠).

الرادعة، المنبثقة من الكتاب والسنة وعمل بها رجال السيرة النبوية، أقرّ النبي ﷺ نظام الحمى الذي يخدم خيول المسلمين ويسهم في توسيع ثقافة رباط الخيل والاستعداد والأهبة الدائمة التي يجب أن يتحلى بها المؤمنون. قال النبي ﷺ: "حمى النقيع لخيل المسلمين"[1] فيتبين أنّ أخلاق الحرب في عصر الرسول ﷺ قائمة على الاستعداد والإعداد، ومعرفة ما يجري حولهم من حركات سياسية أو عسكرية والتحسب لذلك ورصده ومعرفة مقاصد قوة الأعداء وإعداد ما يواجهها في حالة عدوانها، ويردعها عن التفكير في الوقوف أمام الدعوة الإسلامية، وبذلك فإن إعداد القوة ورباط الخيل وجه من وجوه الدفاع عن الأمة، وإلزام الآخرين باحترام أرضها وعقيدتها وثرواتها، فيتأكد أن هذه النظرية الإسلامية الحربية نظرية دفاعية شامخة؛ تعمل بقواعد لا ظلم ولا تظالم؛ مقاصدها تغذية عوامل السلام والتوازن والعلاقات المتكافئة بين الناس.

تَعلُم الرمي ومكانته في آداب الحرب في عصر الرسول ﷺ

قال ﷻ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ (الأنفال: من الآية١٧) وقال النّبي ﷺ: " لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق، ظاهرين إلى يوم القيامة "[2] وقال ﷺ: "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة، **ألا إن القوة الرمي**، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي"[3] ومنذ أن نزل الأمر بالإعداد والمسلمون حريصون على هذا الأمر عبادة وطاعة لله تعالى حتى أصبح الإعداد الدائم من أخلاقيات المسلمين، يقرّه النبي ﷺ ويشجع عليه ويحذر من تركه ويشارك الصحابة فيه، قال

---

(١) صحيح ابن حبان، كتاب السير، باب الحمى،(٤٦٨٣). والحمى: موضع فيه العشب والكلأ يحميه الإمام من الناس ويرصده لرعي خيل الجهاد وإبل الصدقة. والنقيع: عين قريبة من المدينة. البخاري: كتاب المزارعة، باب لا حمى إلا لله ولرسوله، شرح (٢٢٤١).

(٢) مسلم: صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الرمي والحث عليه، ودم من علمه ثم نسيه،ح (١٩٢٣).

(٣) مسلم: صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الرمي والحث عليه،ح (١٩١٧). سنن أبي داوود، باب في الرمي، (٢٥١٤).

سلمة بن الأكوع ﷺ: " مرّ النبي ﷺ على نفر من أسلم ينتضلون، فقال النبي ﷺ: "ارموا بني إسماعيل، فإنّ أباكم كان رامياً، ارموا وأنا مع بني فلان" قال: فأمسك أحد الفريقين بأيديهم، فقال رسول الله ﷺ: "ما لكم لا ترمون". قالوا: كيف نرمي وأنت معهم؟ فقال النبي ﷺ: "ارموا فأنا معكم كلكم"[1].

فهذه المشاركة والتفاعل مع الرماة في التدريب، يعد من وسائل إعداد الأمة وتهيئتها لمواجهة الأخطار المحتملة والمفاجآت الطارئة، فكان النّبي ﷺ يُرّغب في الرمي ويُقدمه بالفضل والأجر على جميع أنواع الإعداد الأخرى، قال ﷺ: " إنّ الله لَيُدخل بالسهم الواحد، الثلاثة، الجنة: صانعة، يحتسب في صنعته الخير، والرامي به، والممد به" وقال ﷺ: " ارموا واركبوا. وأن ترموا أحب إليّ من أن تركبوا، وكل ما يلهو به المرء المسلم باطل، إلا رميه بقوسه، وتأديبه فرسه، وملاعبته امرأته. فإنهن من الحق"[2] وقال ﷺ: " من رمى العدو بسهم، فبلغ سهمه العدو، أصاب أو أخطأ، فيعدل رقبة "[3] ونظراً لهذه المرغبات كان الصحابة ﷺ يبذلون الكثير من أوقاتهم في التدرب على الرمي وكانوا يصلون الليل في النهار لتعلمه وإتقان فنونه، قال جابر ﷺ: " إنهم كانوا يصلون المغرب مع رسول الله ﷺ ثم ينتضلون "[4] أي يتدربون على الرمي.

وبقدر ما رغب النّبي ﷺ في فنون الرمي فإنه حذّر ﷺ من نسيان هذا العلم الذي يدفع عن الأمة الشرّ ويصون لها الأمن. قال ﷺ: " **من تعلم الرمي ثم تركه،**

---

(١) البخاري: كتاب الجهاد، باب: التحريض على الرمي، (٢٧٤٣) ابن حبان: صحيح ابن حبان، كتاب السير، باب الرمي، (٤٦٩٥).

(٢) ابن ماجه ،سنن ابن ماجه، باب الرمي في سبيل الله، (٢٨١١). الترمذي: سنن الترمذي، أبواب السير، باب ما جاء في فضل الرمي في سبيل الله، (١٦٨٧). سنن الدارمي، كتاب الجهاد، باب في فضل الرمي والأمر به، (٢٤٠٥).

(٣) ابن ماجه ،سنن ابن ماجه، باب الرمي في سبيل الله، (٢٨١٢).

(٤) ابن حبان: صحيح ابن حبان، كتاب السير، باب الرمي، (٤٦٩٦).

فقد عصاني"[1] وقال ﷺ: " من ترك الرمي بعدما علمه رغبةً عنه، فإنها نعمةٌ تركها" أو قال: "كفرها"[2] وقال ﷺ: " ستفتح عليكم أرضون، ويكفيكم الله، فلا يعجز أحدكم أن يلهو بأسهمه "[3] وهذا الحشد من النصوص النبوية الصحيحة يدل على مكانة الرمي في تعاليم الحرب في المسلمين ويبين أهمية إعداد الأمة وتهيئتها للدفاع عن هويتها وحماية عقيدتها، وتبين هذه النصوص اهتمام النبي ﷺ بهذا الفن من القوة لمواجهة ما كان يدبره المشركون له ولأمته من التحالفات الظالمة، وما فيها من القوة التي تزيد على ما كان عليه وأصحابه في العدد والعدة، قال ﷺ لأصحابه يوم بدر حين تصافّ المسلمون مع المشركين: " إذا أكثبوكم فعليكم بالنبل"[4].

فكان أول سلاح شهره المسلمون في أول مواجهة مع المشركين في يوم بدر هو سلاح الرمي، وكان له مفعوله في صد المشركين وتصديع صفوفهم، ومن ثم انقضاض المسلمين عليهم لإنجاز أعظم نصر أعزّ المؤمنين وأذل المشركين، وقال أبو أسيد الساعدي ﷺ: لما التقينا نحن والقوم يوم بدر قال لنا رسول الله ﷺ: " إذا كثبوكم فارموا بالنبل واستبقوا نبلكم "[5] يحثهم ﷺ على عدم التفريط في الأسهم وضرورة الاقتصاد بها من خلال دقة الرمي.

وفي يوم أحد كان للرماة أثر فاعل ودور عظيم في حماية رسول الله ﷺ وصد هجمات المشركين التي كانت تهدف إلى قتله ﷺ واستئصال المسلمين، وبلغ من اهتمام رسول الله بالرماة يوم أحد أن قال ﷺ للمسلمين: " أنبلوا سعداً ارم يا سعد

---

(١) ابن ماجه ،سنن ابن ماجه، باب الرمي في سبيل الله، (٢٨١٤).

(٢) أبو داوود: سنن أبي داوود، باب في الرمي، (٢٥١٣).

(٣) مسلم: صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الرمي والحث عليه، وذم من علمه ثم نسيه،ح (١٩١٨).

(٤) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب: التحريض على الرمي، (٢٧٤٤).

(٥) الحاكم، المستدرك: كتاب الجهاد، (٢٤٧١).

رمى الله لك ارم فداك أبي وأمي "[1] وقال علي ﷺ: ما رأيت النبي ﷺ يفدي رجلاً بعد سعد، سمعته يقول: (ارم فداك أبي وأمي)[2] وذلك يوم كان يرمي بين يدي النبي ﷺ يوم أحد، وقال أنس ﷺ: " إن أبا طلحة ﷺ كان يرمي يوم أحد بين يدي رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ خلفه وكان أبو طلحة رامياً وكان إذا رمى يرفع النبي ﷺ شخصه لينظر أين يقع سهمه، وكان أبو طلحة يرفع صدره ويقول هكذا بأبي أنت يا رسول الله لا يصيبك سهم نحري دون نحرك[3] وقال: كان أبو طلحة يتترس مع النبي ﷺ بترس واحد، وكان أبو طلحة حسن الرمي، فكان إذا رمى تشرّف النّبي ﷺ فينظر إلى موضع نبله[4] وهذا الحشد من نصوص الترغيب في اتقان فن الرمي والتحذير من نسيانه وإهماله يؤكد مكانة هذا الصنف من القوة في قيم المجاهدين في عصر الرسول ﷺ، ويوضح أثره في المعارك الأولى التي قررت مصير الإسلام وأهله، وأسست لكيان الأمة، وأسهمت في حماية العقيدة وتأمين حرية نشرها في العالمين.

وزيادة في تأصيل فن الرمي في نفوس أبناء المجتمع الإسلامي أباح الإسلام اللعب بالحراب واللهو في الأفراح بأنواع الحراب والسيوف والدرق وغيرها، كوجه من وجوه التسلية مع تجديد التدريب وتأكيد أهمية السلاح وأن الأمة التي لا سلاح لها لا أمن لها ولا عزة. قالت الطاهرة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: " كان يوم عيد، يلعب السودان بالدرق والحراب، فإما سألت رسول الله ﷺ وإما قال: " تشتهين تنظرين " فقالت: نعم، فأقامني وراءه، خدي على خده، ويقول: " دونكم بني أرفدة " حتى إذا مللت، قال: " حسبك " قلت: نعم، قال: فاذهبي "[5]. فأصبح اللعب

---

(١) الحاكم: المستدرك، كتاب الجهاد،(٢٤٧٢). وقال: هذا صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه بهذه السياقة

(٢) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد باب: المجن ومن يتترس بترس صاحبه.ح (٢٧٤٩).

(٣) الحاكم: المستدرك، كتاب الجهاد، باب رمي أبي طلحة في أحد، (٢٥٤٧).

(٤) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد باب: المجن ومن يتترس بترس صاحبه.ح (٢٧٤٦).

(٥) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد باب: الدرق.ح (٢٧٥٠).

بالسلاح أيام الأفراح من وسائل الترفيه في أخلاقيات الحرب في صدر الإسلام، لا ينكر ذلك النبي ﷺ ولا الخلفاء، مما يوحي بجدية الأمة آنذاك واستفادتها من الوقت لإدامة جاهزيتها واستعدادها ومن ذلك أوقات الأفراح والأعياد وما شابهها من المناسبات، قال أبو هريرة ﷺ: " بينما الحبشة يلعبون عند النبي ﷺ بحرابهم دخل عمر، فأهوى إلى الحصى فحصبهم بها، فقال ﷺ: "دعهم يا عمر". وزاد علي: حدثنا عبد الرزاق: أخبرنا معمر: في المسجد"[1].

فكان من أخلاقيات الحرب فيعصر الرسالة، اتقان استعمال السلاح بضوابط صارمة لا تبيح حمله على وجه من الممكن أن يسبب ضرراً لأحد من الناس، في غير ساحات القتال. قال جابر ﷺ " نهى النبيَّ ﷺ أن يتعاطى السيف مسلولاً "[2] حذراً وتحوطاً من الخطأ وإمعاناً في تحريم توجيه السلاح إلى المسلمين حتى لو كان ذلك على وجه من وجوه التداول أو المداعبة، ولم يكن النبي ﷺ يأمر أصحابه بكثرة التدريب ثم يبيح لنفسه القعود فقد كان ﷺ من أحسن الناس استخداماً للسلاح ومن أكثرهم فناً في حمله في حالات الخطر والفزع، قال أنس ﷺ: " كان النّبي ﷺ أحسن النّاس، وأشجع النّاس، ولقد فزع أهل المدينة ليلة، فخرجوا نحو الصوت، فاستقبلهم النبي ﷺ وقد استبرأ الخبر، وهو على فرس لأبي طلحة عري، وفي عنقه السيف، وهو يقول ﷺ: "لم تراعوا، لم تراعوا "[3] فكان النبي ﷺ يجيد استخدام أنواع السلاح، وبأعلى المهارات، ويعمل به في المعارك التي خاضها ﷺ وقد " جرح وجه النّبي ﷺ وكسرت رباعيته، وهشمت البيضة على رأسه، وكانت فاطمة رضي الله عنها تغسل الدم، وعلي ﷺ يمسك، فلما رأت أن الدم لا يزيد إلا كثرة، أخذت حصيراً فأحرقته حتى صار رماداً، ثم ألزقته، فاستمسك الدم"[4] مما يشير إلى خوض

---

(١) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب: اللهو بالحراب ونحوها. ح (٢٧٤٥).

(٢) أبو داوود: سنن أبو داوود، باب في النهي أن يُتعاطى السيف مسلولاً، (٢٥٨٨).

(٣) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد باب: الحمائل وتعليق السيف بالعنق.ح (٢٧٥١).

(٤) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب: لبس البيضة. ح (٢٧٥٤).

النبي ﷺ غمار الأخطار مع أصحابه ﷺ ويؤكد أهمية مشاركة القيادة لجندها في الساعات الحرجة ومواطن الشدة، ومثلما كان النبي ﷺ يرغب بالرمي والعناية بالسهام ومهارة ركوب الخيل ويتقلد السيف ويلبس البيضة والدرع كذلك كان يهتم بالرمح والتدريب عليه حتى قال ﷺ: مشيراً إلى ما يؤكد أهمية هذا السلاح وعلو منزلته: "**جعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري**"[1].

فإذا كان رسول الله ﷺ يجيد استخدام الأسلحة المتوفرة في عصره ويرغب في إتقان فنونها مع ما عليه ولديه ﷺ من المهام والأعباء الأخرى؛ فكيف لا يجيد ذلك أصحابه ﷺ الذين كانوا يقتدون به ﷺ ويمتثلون أمره في كل أحوالهم؟ قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ (الحشر: من الآية٧) وقال ﷻ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب: من الآية٢١) وبناء على هذه القيم وعلى ما تم من الإنجازات الهائلة من الفتوح والانتصارات التي حققها المسلمون في عصر السيرة يتأكد أنهم كانوا على أعلى درجات التدريب والاستعداد والأهبة، دون اهتمام بالمظاهر التي انتشرت فيما بعد من تحلية السيوف وتزيين السلاح. قال أبو أمامة: "لقد فتح الفتوح قوم، ما كانت حلية سيوفهم الذهب ولا الفضة، إنما كانت حليتهم العلابي والآنك والحديد"[2].

ومما يشير إلى أهمية السلاح في أخلاقيات الحرب عند المسلمين، أن رسول الله ﷺ مع كل زهده وتجافيه عن الدنيا، بقي ﷺ متمسكاً بسلاحه فما ترك بعد وفاته ﷺ: "إلا سلاحه، وبغلة بيضاء، وأرضاً جعلها صدقة"[3] وقالت الطاهرة أم المؤمنين عائشة رضي ا لله عنها: "توفي رسول الله ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي، بثلاثين

---

(١) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، ما قيل في الرماح الباب (٨٧).

(٢) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب: حلية السيوف.ح (٢٧٥٢).

(٣) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب: من لم ير كسر السلاح عند الموت، (٢٧٥٥).

صاعاً من شعير"[1] ومن هذه النصوص تظهر الحال التي كان عليها المسلمون في عصر الرسالة إذ لم يكن من أخلاقياتهم الحربية حب الأبهة والمظاهر البراقة فهذا النبي ﷺ يلبس درع الحديد ويتعامل بذلك مع عامة أبناء المجتمع المحيط به ﷺ وما رهنه درعه عند أحد تجار اليهود إلا شاهد على الانفتاح على الآخرين في ثقافة وأخلاقيات الصحابة ﷺ وحرصهم على صناعة المجتمع المتآخي المتعاون دون اللجوء إلى وسائل قاصرة من إجبار ا لناس على تغيير معتقداتهم أو مقاطعتهم ما لم يقوموا بنقض ما هو متفق عليه فيما بينهم من ثوابت ومسوغات استمرار العيش المشترك الآمن المستقر، وكما يحصل من التضييق على بعض المسلمات في هذا العصر على مجرد التمسك بزي بلادها أو ارتدائها لباسها الشرعي وما شابه ذلك مما يوحي بضيق آفاق من أسقط من حساباته الإيمان بالله واليوم الآخر.

ولولا حرص النّبي ﷺ على الانفتاح على الآخرين، لما تعامل مع ذلك اليهودي، فهل يعجز المسلمون عن توفير ثلاثين صاع من شعير لرسول الله ﷺ بالتأكيد لا يعجزون، ولو أنهم كانوا يرون في ذلك حرجاً لما قبلوا أن تبقى درع رسول الله ﷺ مرهونة عند ذلك اليهودي، لكن هذا يؤكد على عفاف القائد المسلم، فهو لا يأخذ من أصحابه لأنهم ربما لا يقبلون أن يأخذوا منه الثمن، فيأخذ من الآخرين لكي يكون التعامل معهم من غير مؤثرات أخرى، فأخلاقيات الجهاد في عصر الرسالة كانت أخلاق حضارية حيوية عالمية تقبل التجديد والتأقلم مع أطياف المجتمع، وتؤمن بالعيش المشترك وبالتعاون والتعامل والتواصل مع جميع الأطراف التي تؤمن بذلك، لبناء المجتمع الآمن المستقر، مالم يحصل نقض أو تعد على قيم الأمة وثوابت عقيدتها، وهذا ما كان حاصل في عصر الرسالة التي كان يقودها رسول الله ﷺ ويوجهها الوحي، ولم يكن ذلك التسامح على حساب، الحذر والإعداد والتنظيم والجاهزية، والتحسب لكل طارئ والحذر من المفاجآت.

---

(١) البخاري: كتاب الجهاد، باب: ما قيل في درع النبي ﷺ والقميص في الحرب، (٢٧٥٩) قال يعلى: حدثنا الأعمش: درع من حديد.

المبحث الثاني

التنظيم والشجاعة والمرابطة في سبيل الله

الرايات والألوية من آداب الحرب في عصر الرسول ﷺ

ومن الأنظمة التي أخذت بها آداب الحرب في السيرة النبوية بمنهجية حضارية ونظام وضبط وتمايز يحدد المهام والمسؤوليات؛ تعيين الأمراء والطلائع والعيون وتحديد الرايات والألوية والشعارات، بما يمايز الكتائب والوحدات، وفي هذه الأنظمة أدلة على حسن الترتيب وجميل التنسيق الذي يتم بين القيادة وأفراد السرايا فكانت تخرج كتائب المسلمين وسراياهم بأجمل نظام وترتيب وهم إن كانوا لا يهتمون بالجوانب الكمالية وأدوات الزينة الممشقة بالذهب والديباج فإنهم قد جملوا تحركاتهم بالتزام الحق والوفاء بالعهود، وزينوا ذلك بدقة النظام وجميل الطاعة والألفة والمودة التي كانت تسري بينهم في تحركاتهم التي كانت تقوم على نصرة الحق ودفع الظلم والشرك، وفي تلك التحركات التي ازدانت بأخلاقياتها جزيرة العرب، واستنار بها الكون فيما بعد، كان التأكيد على التمسك بالنظام كأحد مكونات ودعائم أخلاقياتها، فكانت تخرج سرايا المسلمين براياتها وألويتها خفاقة نحو أهدافها النبيلة السامية.

قال البراء بن عازب: " **راية رسول الله ﷺ كانت سوداء مربعة من نمرة** "[1]

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: " **كانت راية النبي ﷺ سوداء ولواؤه أبيض** "[2]

---

(١) سنن الترمذي، أبواب الجهاد عن رسول الله ﷺ بابٌ في الرايات، (١٧٣١) سنن أبي داوود، باب في الرايات والألوية، ح (٢٥٩١).

(٢) الترمذي: سنن الترمذي، أبواب الجهاد عن رسول الله ﷺ بابٌ في الرايات، ح (١٧٣٢).

وقال نافع بن جبير بن مطعم: سمعت العباس بن عبد المطلب ﷺ يقول للزبير بن العوام ﷺ يا أبا عبد الله: ههنا أمرك رسول الله ﷺ أن تركز الراية، زاد أبو كريب يوم فتح مكة[1] وقال الحارث بن حسان البكري ﷺ انتهيت إلى النبي ﷺ وهو على المنبر، وبلال ﷺ قائم متقلد السيف، وإذا رايات سود والناس يقولون: هذا عمرو بن العاص ﷺ قد قدم...فقلت: ما شأن الناس اليوم؟ قالوا: هذا رسول الله ﷺ يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجهاً[2] وكانت "أول راية عقدت في الإسلام لعبد الله بن جحش "[3].

فيتضح من هذه النصوص أن أخلاق الجهاد في عصر الرسول ﷺ كانت قائمة على النظام في كل تفاصيل تكوينها وحركتها، كما هو في قيمها وأهدافها، فهذه الرايات تخفق فوق السرايا وقد تبينت ألوانها وأنواعها وهيئاتها وكل ما فيها يشير إلى أمر واحد هو البعد عن التكلف والكبر وما يثير الآخرين ويستفز مشاعرهم، ولم تكن رايات المسلمين أو ألويتهم تهدف إلى الطعن أو النيل من أمة أو عقيدة أخرى وإنما كان الهدف منها زيادة النظام وتقوية الروابط والتعريف بمسار ونقاط تجمع السرايا والكتائب ليسهل التعامل مع الحركة والإقامة وسرعة وصول المجاهدين إلى مواضعهم وأهدافهم.

أما الألوية فقد ذُكرت في كثير من النصوص، وكان قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري ﷺ صاحب لواء رسول الله ﷺ[4] وروى جابر ﷺ " أنّ النّبي ﷺ دخل

---

(١) البيهقي :سنن البيهقي ، كتاب قسم الفيء والغنيمة، باب ما جاء في عقد الألوية والرايات، (١٢٨٣٨). البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب: الجعائل والحملان في سبيل الله (٢٨١٣). ابن ماجة، سنن ابن ماجه، باب الرايات والألوية، (٢٨١٦).

(٢) البيهقي :سنن البيهقي ، كتاب قسم الفيء والغنيمة، باب ما جاء في عقد الألوية والرايات، (١٢٨٤٧).

(٣) البخاري: كتاب الجهاد، باب: الجعائل والحملان (٢٨١١) سنن البيهقي، كتاب قسم الفيء، باب الألوية والرايات، (١٢٨٤٣)

(٤) البخاري: صحيح البخاري، كتاب الجهاد، باب: الجعائل والحملان في السبيل. ح (٢٨١١).

مكة يوم الفتح، ولواءه أبيض "[1] وبعث النبي ﷺ عبد الرحمن بن عوف ﷺ على سرية وعقد له اللواء بيده[2] وكان النعمان بن مقرّن ﷺ أحد الذين حملوا ألوية رسول الله ﷺ وهو صاحب لواء مزينة يوم فتح مكة[3] في السنة الثامنة من الهجرة.

والشعار في آداب المجاهدين في عصر الرسول ﷺ يأتي متمماً لتقسيمات القوة المقاتلة ومساعداً على تنفيذ نظامها، فكان نداء كل قبيلة بشعارها أمر متعارف عليه و "جعل رسول الله ﷺ **شعار المهاجرين** يوم بدر يا بني عبد الرحمن، وشعار الخزرج يا بني عبد الله وشعار **الأوس** يا بني عبيد الله وسمى خيله يا **خيل الله** "[4] وعن سلمة بن الأكوع قال: " غزوت مع أبي بكر ﷺ زمن رسول الله ﷺ فكان شعارنا **أمت أمِت** "[5] وقال: "كان شعارنا مع خالد بن الوليد أمت يعني اقتل "[6] وقال ﷺ لأصحابه: " إنْ بيّتكم العدو فقولوا حم لا ينصرون "[7] وسمع رسول الله ﷺ رجلاً ينادي في شعاره يا حرام يا حرام فقال رسول الله ﷺ يا حلال يا حلال[8].

---

(1) سنن ابن ماجه، باب الرايات والألوية (٢٨١٧) صحيح ابن حبان، كتاب السير، باب الخروج وكيفية الجهاد، (٤٧٤٣).

(2) البيهقي :سنن البيهقي، كتاب قسم الفيء والغنيمة، باب ما جاء في عقد الألوية والرايات، (١٢٨٤٥).

(3) البيهقي :سنن البيهقي ، كتاب قسم الفيء والغنيمة، باب ما جاء في عقد الألوية والرايات، (١٢٨٤٦).

(4) سنن البيهقي، كتاب قسم الفيء والغنيمة، باب ما جاء في شعار القبائل، (١٢٨٢٩) المستدرك، كتاب الجهاد، ح (٢٥١٠).

(5) سنن البيهقي ، كتاب قسم الفيىء والغنيمة،، باب ما جاء في شعار القبائل (١٢٨٣٢). الحاكم: المستدرك، كتاب الجهاد، (٢٥١٦).

(6) الدارمي: كتاب السير، باب الشعار، (٢٤٥١).

(7) الترمذي: سنن الترمذي، أبواب الجهاد، باب ما جاء في الشعار، (١٧٣٣). الحاكم: المستدرك، كتاب الجهاد، (٢٥١٥).

(8) الحاكم: المستدرك، كتاب الجهاد، (٢٥١٨). صحيح على شرط الشيخين.

وأجمَلَ الواقدي ألفاظِ الشعار وعباراته التي استعملت في حروب عصر الرسالة، فقال: "كان شعار رسول اللّه ﷺ في القتال في بدر يا منصور أمت، ويقال: جعل شعار المهاجرين بني عبد الرّحمن، والخزرج بني عبد اللّه، والأوس بني عُبَيد اللّه. وفي يوم أحد: أَمِتْ أَمِت، وفي بني النّضير: أمِت أمِت، وَفِى الْمُريسيع: أَمِتْ أمت، وفى الخندق: " حم لا ينصرون" وفى قريظة والغابة لم يُسمّ أَحَدًا، وفي حُنين: يا منصور أَمِت، وفى الفتح شعار المهاجرين، بني عبد الرّحمن، وجعل شعار الخزرج: بني عبد اللّه والأوس، بني عُبيد اللّه، وفي خَيبر، بني عَبْد الرّحمن للمهاجرين، وللخزرج، بني عبد اللّه، والأوس، بني عُبَيد اللّه، وفى الطّائف لم يُسَمّ أحَدًا[1].

وكان من نظام المجاهدين في عصر الرسالة أنهم يستعملون العلامة في القتال ليمتازوا باستهداف الأعداء وزيادة في العزيمة والجرأة على المواجهة، قال عبد الرحمن بن عوف ﷺ: قال لي أمية بن خلف وأنا بينه وبين ابنه علي آخذ بأيديهما - يوم أسرهما في بدر - يا عبد الإله من الرجل منكم المُعَلَم بريشة نعامة في صدره؟ قال: قلت: ذاك حمزة بن عبد المطلب ﷺ قال ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل[2].

وبهذا يتبين أن آداب الحرب في عصر رسول الله ﷺ كانت تمتاز بالنظام والترتيب وإتقان تجميع القوى والقدرة على الانتشار والتجمع والوصول إلى الهدف، والاستفادة من جميع الطاقات على أسس علمية تطبيقية هادفة، واضحة المسار نقية الأهداف عظيمة المقاصد، وقد أثبتت براعتها وحيويتها وتفوقها على جميع تنظيمات الحرب في عصرها مع سرعة الحركة وقوة الرصد، والقدرة الفائقة

---

(١) الواقدي: المغازي، ١/٧.

(٢) المستدرك، كتاب الجهاد، (٢٥٤٨) قال: صحيح على شرط مسلم. وكان ابن عوف يسمى قبل الإسلام عبد الإله.

على الوصول إلى أعتى القوى وأوعر الأماكن بفنون وإبداعات عبرت عن الأصالة والخبرة والتجديد وحسن النظام، وعزة الإسلام والمسلمين.

آداب التوقيت والحركة في أخلاقيات الحرب في عصر الرسول ﷺ

السيرة النبوية بجميع أخلاقياتها نظام حيوي يتجدد بحراك دائم نحو الأفضل، لا جمود فيه ولا انغلاق، وهو نظام يدعو إلى التفكر والاتعاظ والاعتبار والتعلم من أجل التقويم والانطلاق الأسمى، قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (الأنعام:١١) والسير والحركة العسكرية لها آدابها عند المجاهدين في عصر الرسول ﷺ فهي في سبيل الله تعالى لا بطر فيها ولا رياء، وهي متجددة بالتدريب والإعداد واليقظة والتفاعل مع كل ما يجري من حول أمة المسلمين، وأهداف تلك الحركة كانت دائماً مشروعة فهي إما لنصرة ضعيف وقمع ظالم متجبر، أو لتبليغ الدين إلى من يجهله ليكون على بيّنة من اختياره أو رفضه، ولتتحدد علاقته بالمسلمين على أحد هذين الخيارين، وحينها سيكون الناس على بيّنة من أمرهم فينتشر الأمن والسلام ويتحقق الاستقرار الذي هو من أهم أهداف الحرب بعد تبليغ الدين في عصر الرسالة.

ومن آداب حركة الحرب في عصر الرسالة أنّ على جميع المسلمين مشاركة رسول الله ﷺ ومساندته في تحركاته الحربية الهادفة إلى نشر التوحيد وإقامة العدل وقمع الظلم. قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ﴾ (التوبة:من الآية١٢٠) فمن وافق سيره أخلاق حرب المسلمين فإنّ كل حركاته وسكناته وحتى الغبار الذي يقع عليه له به أجر، قال ﷺ: "ما اغبرت قدما عبد في سبيل الله فتمسه النار"[1] فالترغيب في العمل

---

(١) البخاري: كتاب الجهاد، باب: من اغبرت قدماه في سبيل الله، (٢٦٥٦) سنن الترمذي، أبواب السير، (١٦٨٢).

في سبيل الله، وتجنب التقاعس والخلود إلى الراحة، أحد آداب حرب المسلمين، قال ﷺ: " تعس عبد الدينار، والدرهم، والقطيفة، والخميصة، إن أعطي رضي، وإن لم يعط لم يرض "[1] ومن آداب الحركة؛ **السلام على النّبي ﷺ وطلب الدعاء منه**، عن أنس رضي الله عنه قال جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني أريد سفراً فزودني، قال ﷺ: " زودك الله التقوى قال: زدني قال وغفر ذنبك قال زدني بأبي أنت وأمي قال: ويسر لك الخير حيث ما كنت "[2] وكان رسول الله ﷺ إذا ودّع جيشاً قال: " **أستودع الله دينكم وأمانتكم وخواتيم أعمالكم** "[3] وودع ﷺ السرية المكلفة بمواجهة كعب بن الأشرف ومشى معهم ﷺ إلى بقيع الغرقد فوجههم ثم قال: " انطلقوا على اسم الله اللهم أعنهم "[4] ومن تلك الآداب **الدعوة إلى التعاون والتآزر**، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه أراد أن يغزو فقال: " يا معشر المهاجرين والأنصار إن من إخوانكم قوماً ليس لهم مال ولا عشيرة فليضم أحدكم إليه الرجلين أو الثلاثة وما لأحدنا من ظهر جمله إلا عقبة كعقبة أحدهم قال فضممت إلي اثنين أو ثلاثة ما لي إلا عقبة أحدهم "[5].

فكان رجال الحرب في السيرة النبوية يتنافسون على تحمل المشاق والمسؤوليات، ومواساة المحتاجين، والقيام بأعمال الحراسة والطليعة للمسلمين في تحركاتهم، قالت الطاهرة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: كان النبي ﷺ سهر، فلما قدم المدينة، قال: " ليت رجلاً من أصحابي صالحاً يحرسني الليلة " إذ سمعنا صوت سلاح. فقال ﷺ: "من هذا ؟". فقال: أنا سعد بن أبي وقاص جئت لأحرسك، ونام

---

(١) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب: الحراسة في الغزو في سبيل الله. ح (٢٧٣٠).

(٢) الحاكم: المستدرك، كتاب الجهاد، (٢٤٧٧).

(٣) الحاكم: المستدرك، كتاب الجهاد، (٢٤٧٨)

(٤) الحاكم، المستدرك: كتاب الجهاد، (٢٤٨٠).

(٥) الحاكم، المستدرك: كتاب الجهاد، (٢٤٥١). قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

النبي ﷺ "[1] وقال جابر ﷺ: ندب النبي ﷺ الناس يوم الخندق، فانتدب الزبير، ثم ندبهم فانتدب الزبير، ثم ندبهم فانتدب الزبير، فقال النبي ﷺ: " إن لكل نبي حوارياً وحواري الزبير "[2] فكان استعداد الزبير ﷺ للحركة والتضحية في ذلك اليوم العصيب أحد الأسباب التي رفعته مكاناً علياً عند رسول الله ﷺ فأغدق عليه ذلك الوسام الذي لا يذهب بريقه أبداً حيث أصبحت مرتبة الزبير أنه حواري النبي ﷺ أي نصيره ومعينه. وكانت الحركة الهادفة مقدرة في آداب الحرب، قال ﷺ: " لروحة في سبيل الله، أو غدوة، خير من الدنيا وما فيها، ولقاب قوس أحدكم من الجنة، أو موضع قيد - يعني سوطه - خير من الدنيا وما فيها "[3] ومن آداب الحركة في عصر الرسالة، أن لا يسير الراكب وحده قال ﷺ: " لو يعلم الناس ما في الوحدة ما أعلم، ما سار راكب بليل وحده"[4] وقال ﷺ: " الراكب شيطان والراكبان شيطانان والثلاثة ركب"[5] وكان النبي ﷺ يحب أن تكون حركة جيشه يوم الخميس قال كعب بن مالك ﷺ: إن النبي ﷺ خرج يوم الخميس في غزوة تبوك، وكان يحب أن يخرج يوم الخميس"[6] ومن رحمته أنه كان يسن **الإفطار في السفر** حتى لو كان ذلك في شهر رمضان قال أنس ﷺ: " كنا مع النبي ﷺ أكثرنا ظلاً الذي يستظل بكسائه، وأما الذين صاموا فلم يعملوا شيئاً، وأما الذين أفطروا فبعثوا الركاب وامتهنوا وعالجوا، فقال

---

(١) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب: الحراسة في الغزو في سبيل الله. ح (٢٧٢٩).

(٢) البخاري: كتاب الجهاد، باب: السير وحده، ح (٢٨٣٥) فضل الطليعة. (٢٦٩١) قال سفيان: الحواري الناصر.

(٣) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب: الغدوة والروحة في سبيل الله، وقاب قوس أحدكم من الجنة. ح (٢٦٤٣).

(٤) البخاري: الجامع الصحيح ، كتاب الجهاد، باب: السير وحده. ح (٢٨٣٦).

(٥) مالك: الموطأ، كتاب الاستئذان، باب ما جاء في الوحدة في السفر للرجال والنساء، (١٧٦٤) المستدرك، كتاب الجهاد، (٢٤٩٥).

(٦) البخاري: كتاب الجهاد،باب: دعاء النبي ﷺ إلى الإسلام والنبوة، وأن لا يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله (٢٧٩٠).

النبي ﷺ: "ذهب المفطرون اليوم بالأجر"[1] ومن السنّة الجمع بين المغرب والعشاء في الصلاة تخفيفاً عن الناس في السفر. قال ابن عمر: "إني رأيت النبي ﷺ إذا جدّ به السير أخّر المغرب، وجمع بينهما"[2].

وكان يجيز الارتداف على الدواب في الغزو والحج[3] و"ركب ﷺ على حمار، على إكاف عليه قطيفة، وأردف أسامة وراءه"[4] و"أقبل ﷺ يوم الفتح من أعلى مكة على راحلته، مردفاً أسامة بن زيد، ومعه بلال، ومعه عثمان بن طلحة من الحجبة، حتى أناخ في المسجد"[5] وقال أنس بن مالك ﷺ: كنا مع النبي ﷺ مقفله من عُسفان، ورسول الله ﷺ على راحلته، وقد أردف صفية بنت حيي، فعثرت ناقته فصرعا جميعاً، فاقتحم أبو طلحة فقال: يا رسول الله جعلني الله فداءك، قال: "عليك المرأة" فقلب ثوباً على وجهه وأتاها فألقاه عليها، وأصلح لهما مركبهما فركبا، واكتنفنا رسول الله ﷺ فلما أشرفنا على المدينة، قال ﷺ: "آيبون تائبون، عابدون، لربنا حامدون" فلم يزل يقول ذلك، حتى دخل المدينة[6] فمن آداب الحركة التعاون والتخلق بالأخلاق الحسنة والصبر على وعثاء السفر، والمحافظة على الفرائض والإسهام في نظافة الطرق وإصلاحها لتكون آثار حركة جيش المسلمين خيراً على أي أرض يحلّ بها. قال ﷺ: "ويعين الرجل على دابته فيحمل عليها، أو يرفع عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وكل خطوة يخطوها إلى الصلاة صدقة، ويميط الأذى عن الطريق صدقة"[7].

---

(١) البخاري: كتاب الجهاد، باب: فضل الخدمة في الغزو. ح (٢٧٣٣).

(٢) البخاري: كتاب الجهاد، باب: السرعة في السير ح (٢٨٣٨).

(٣) البخاري: كتاب الجهاد باب: الارتداف في الغزو والحج.(٢٨٢٤).

(٤) البخاري: الجامع الصحيح ، كتاب الجهاد، باب: الردف على الحمار. ح (٢٨٢٥).

(٥) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب: الردف على الحمار، ح (٢٨٢٦).

(٦) البخاري: الجامع الحصيح، كتاب الجهاد، باب: ما يقول إذا رجع من الغزو، (٢٩١٩،٢٩٢٠).

(٧) البخاري: كتاب الجهاد، باب: من أخذ بالركاب ونحوه. ح (٢٨٢٧).

وهذا بعكس ما نشاهده اليوم في كثير من الحروب المعاصرة من استخدام القوات العسكرية للدبابات والآليات الثقيلة في الطرق العامة، مما يؤدي إلى إتلافها وتدمير الأرصفة والتسبب في إعاقة الحركة أمام الناس ووضع العقبات أمام التواصل الاجتماعي فيما بينهم، وما يترك ذلك من آثار سلبية في نفوس الناس، ويتسبب في كثير من المواقف التي لا تثمر إلا الدمار والخراب على البلاد والعباد، وهذا ما يميز الحركة الحربية في السيرة النبوية وما يرافقها من آداب ورحمة ونفع للناس، عن غيرها من تحركات الجيوش التي لا تبالي بما تحدثه من أضرار في أملاك الآخرين ولا سيّما جيوش هذا العصر وما تمتلكه من الآليات والمعدات الثقيلة.

ومن النظام الحربي المتبع في السيرة النبوية اختيار **التوقيت المناسب للقتال**، فالنبي ﷺ إذا لم يقاتل أول النهار أخّر القتال، وكان يدعو أصحابه أن لا يتمنوا الحرب حباً للسلام وتفاؤلاً به ولكن إذا ابتلوا به فيوصيهم بالصبر واللجوء إلى الله تعالى بالدعاء والتضرع، وكان ﷺ في بعض أيامه التي لقي فيها العدو، انتظر حتى مالت الشمس، ثم قام في الناس خطيباً. فقال: " أيها الناس، لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنّة تحت ظلال السيوف ثم قال: اللهم منزل الكتاب، ومجري السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم"[١] وقال النعمان بن مقرن رضي الله عنه: " شهدت القتال مع رسول الله ﷺ كان إذا لم يقاتل في أول النهار، انتظر حتى تهب الأرواح وتحضر الصلوات"[٢] وكانت الحركة الحربية للمسلمين أنساً للأرض وأمناً للناس أبعد ما تكون عن مظاهر العنف والجبروت والعدوان، يسير جند السيرة مخبتين منيبين إلى الله تعالى يألفهم الناس

---

(١) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب: كان النبي ﷺ إذا لم يقاتل أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس، (٢٨٠٤).

(٢) البخاري: الجامع الصحح، كتاب أبواب الجزية والموادعة، باب: الجزية والموادعة مع أهل الذمة والحرب، ح (٢٩٨٩).

وتحبهم البقاع وتسر برؤيتهم النفوس،، يقضون مسيرهم تهليلاً وتكبيراً. قال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: " كنا إذا صعدنا كبّرنا، وإذا نزلنا سبّحنا "[1] وكان النبي ﷺ إذا قفل من الحج أو العمرة أو الغزو: كلما أوفى على ثنية أو فدفد كبر ثلاثاً، ثم قال: " لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. آيبون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون. صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده "[2].

والنبي ﷺ في حركاته الحربية يعلم أصحابه الوفاء لديارهم ومحبتها ويدعو الله لها، قال أنس بن مالك ﷺ: " خرجت مع رسول الله ﷺ إلى خيبر أخدمه، فلما قدم النبي ﷺ راجعاً وبدا له أحد، قال: " هذا جبل يحبنا ونحبه " ثم أشار بيده إلى المدينة، وقال: " اللهم إني أحرم ما بين لابتيها[3] كتحريم إبراهيم مكة، اللهم بارك لنا في صاعنا ومدنا "[4] ومن يتخلف من جند السيرة عن صحبتهم في حركتهم في سبيل الله كان يتألم أن يفوته الأجر فكان النبي ﷺ يبشرهم بالخير والأجر ليبعد عنهم الحزن والأسى ولتبقى أخلاق الحرب في عصر الرسالة، قائمة على الثقة والحب والتعاون والرضا والتفاؤل، قال ﷺ: " إذا مرض العبد، أو سافر، كُتب له مثل ما كان يعمل مقيماً صحيحاً "[5].

- ومن آداب الحرب في عصر الرسالة سرعة العودة إلى الأهل بعد انهاء الوجبات والمهام، وكان أهلوهم يستقبلونهم بعد عودتهم. قال ﷺ: " السفر قطعة من العذاب، يمنع أحدكم نومه وطعامه وشرابه، فإذا قضى أحدكم نهمته فليعجل

---

(١) الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب: التسبيح إذا هبط واديا. ح (٢٨٣١).

(٢) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب: التكبير إذا علا شرفا، ح (٢٨٣٣).

(٣) لا بتيها: حرتيها مثنى حرة، وهي أرض ذات حجارة سوداء، والمدينة بين حرتين. البخاري: كتاب الصوم، شرح الحديث (١٨٣٤).

(٤) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب: فضل الخدمة في الغزو. ح (٢٧٣٢).

(٥) الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب: يكتب للمسافر مثل ما كان يعمل في الإقامة، ح (٢٨٣٤).

إلى أهله"[1] وقال السائب بن يزيد ﷺ: "ذهبنا نتلقى رسول الله ﷺ مع الصبيان إلى ثنية الوداع"[2] وقال ابن الزبير لابن جعفر ﷺ: أتذكر إذ تلقينا رسول الله ﷺ أنا وأنت وابن عباس؟ قال: نعم، فحملنا وتركك"[3] وهذه النصوص توضح حراك المجتمع آنذاك والتعبئة التي كانت ترفد ثبات المقاتلين في أحداث السيرة النبوية، ومن رحمة رسول الله ﷺ أنه كان يرفق بالحيوانات والدواب، فإذا مرّ المسلمون بأرض خصبة علمهم ﷺ أن لا ينسوا حق إبلهم من نبات الأرض، لتقوى به على المسير، وإذا كانت الأرض مجدبة أن لا يحبسوها في الجدب ويسرعوا إلى حيث العلف والطعام. قال ﷺ "إذا سافرتم في الخصب، فأعطوا الإبل حظها من الأرض، وإذا سافرتم في السنة، فأسرعوا عليها في السير"[4].

ولعل مما انفردت به آداب المسلمين في العودة من الحرب والسفر، **كراهة الدخول إلى أهليهم ليلاً**، قال أنس ﷺ "أن رسول الله ﷺ كان لا يطرق أهله ليلاً، وكان يأتيهم غدوة أو عشية"[5] وذلك من شدة الاهتمام في شؤون الأسرة والحرص التام على دوام المحبة بين أبنائها وتنظيم وسائل تقوية الروابط الأسرية فكان ﷺ إذا قدم من سفر لا يدخل المدينة على حين غرة، وقال لا تطرقوا النساء أي لا تدخلوا عليهن ليلاً دون علمهن، وكان ﷺ يرسل من يخبر أهل المدينة بقدومهم. قال ﷺ: "لا تطرقوا النساء وأرسل من يؤذن الناس أنه قادم الغد"[6] وفي هذا من الذوق

---

(١) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب: السرعة في السير ، ح (٢٨٣٩).

(٢) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب: استقبال الغزاة، ح (٢٩١٧).

(٣) البخاري: كتاب الجهاد، باب: استقبال الغزاة. ح (٢٩١٦).

(٤) مسلم: صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب مراعاة مصلحة الدوس في السير، والنهي عن التعريس في الطريق،ح (١٩٢٦).

(٥) مسلم: صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب كراهة الطروق، وهو الدخول ليلا، لمن ورد من سفر،ح (١٩٢٨).

(٦) سنن البيهقي، كتاب السير، باب الإذن بالقفول وكراهية الطرق أي الدخول على الأهل ليلاً، (١٨٣٦٤).

الحضاري الإنساني الرائع ما لا يوجد إلا في المجتمع المترابط البنيان القائم في علاقاته على الثقة والمودة والرحمة، كما كان حاصلاً في مجتمع السيرة النبوية وما فيه من نبل القيم وجميل الشمائل والبعد عن الريبة وتصيد العثرات. قال جابر ﷺ: "نهى رسول الله ﷺ أن يطرق الرجل أهله ليلاً، يتخونهم أو يلتمس عثراتهم"[1].

والحاصل أن من آداب الحركة في الحرب في السيرة النبوية التعاون والتناصر والترابط والصبر على وعثاء السفر، واعتقاد عظيم الأجر لكل من أخلص نيته لله تعالى وبذل من الجهد ما يميزه عن أقرانه، والسفر سبب في التخفيف عن المسلمين في عباداتهم كجواز الإفطار والقصر في الصلاة ولزوم الذكر والدعاء، واختيار الأوقات المناسبة لذلك، وكان من وصايا النبي ﷺ عدم تمني لقاء العدو والبعد عن استفزازه بأي وسيلة كانت حرصاً على السلام والتواصل بين الناس، وأخلاق الحرب في السيرة تراعي أصحاب الأعذار، وحقوق الحيوان في تناول ما يعينها على الحركة، والالتزام بآداب الأخوة من السلام والتوديع واستقبال العائدين بعد إعلام أهليهم تجنبا لمفاجأة الأهل بالعودة لتأخذ مظاهر البهجة مكانها في نفوسهم بعد انقطاعهم عنهم وخوضهم غمرات الأخطار، وعيون الأهل ترعاهم وترقب عودتهم سالمين.

في الشجاعة والنفير والصبر على القتال

قال تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (التوبة:٤١) وقال ﷻ: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾(التوبة: من الآية٤٢) فكان جند السيرة النبوية يتمتعون بأعلى درجات الشجاعة والاستعداد للنفير وبذل المال

---

(١) مسلم: صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب كراهة الطروق، وهو الدخول ليلا، لمن ورد من سفر، (٧١٥).

والنفس في سبيل الله، وذلك أنهم لم يقاتلوا في موقف من المواقف وفي أنفسهم ريب أو تردد، إذ أن قيم الحرب التي كانوا يتعلمونها ويؤمنون بها ترفض كل ما هو حرام أو ظلم أو كِبر أو تسلط على الناس، أما من كان يتردد في تنفيذ أي أمر مما أقره رسول الله ﷺ فإنه كان موطن تهمة مجرد من أخلاق الحرب في عصر الرسالة، وما أولئك إلا المنافقون الذين كانوا حرباً على الرسالة والرسول ﷺ فلم تكن أهدافهم بريئة من حب الذات والمصلحة والهوى، حتى فضحهم القرآن الكريم في آيات سورة التوبة، وكشف أسرارهم وتعاونهم مع أعداء الإسلام كما في سور التوبة والحشر والمنافقين، فلم يكن بين الصحابة ﷺ إلا مقداماً جسوراً مؤمناً بكل ما يؤمر به، وكيف لا يكونون كذلك ورسول الله ﷺ بين أظهرهم يَقدمهم في مواطن الخطر كما فعل يوم حنين حين كان يتقدم إلى المشركين وهو يعلن عن هويته واسمه ﷺ بقوله: " أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب"[(١)] فكان النبي ﷺ دائم الاستعداد آخذاً بالأسباب، قال أنس ﷺ: " كان النبي ﷺ أحسن الناس وأشجع الناس وأجود الناس، ولقد فزع أهل المدينة، فكان النبي ﷺ سبقهم على فرس، وقال: (وجدناه بحرا) "[(٢)].

وكان ﷺ يبرأ من الجبن كما أعلن بذلك للناس يوم حنين: حين " اضطروه إلى سمرة فخطفت رداءه، فوقف النبي ﷺ فقال: " **أعطوني ردائي، لو كان لي عدد هذه العضاة نعماً لقسمته بينكم، ثم لا تجدوني بخيلاً، ولا كذوباً، ولا جباناً**"[(٣)] وبلغ من كراهيته للجبن أنه كان يتعوذ منه فيقول ﷺ دبر الصلاة: " اللهم إني أعوذ بك من الجبن"[(٤)] وكان يستعيذ بالله " من العجز والكسل"[(٥)] وكان يعلم أصحابه ﷺ ما يُكرّه

---

(١) البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب من قاد دابة غيره في الحرب، ح (٢٧٠٩).

(٢) البخاري: الجامع الصحيح، ، كتاب الجهاد، باب: الشجاعة في الحرب والجبن. ح (٢٦٦٥).

(٣)البخاري: كتاب الجهاد، باب: الشجاعة في الحرب والجبن. ح (٢٦٦٦).

(٤)البخاري: الجامع الصحيح، ، كتاب الجهاد، باب: ما يتعوذ من الجبن.ح (٢٦٦٧).

(٥)البخاري: الجامع الصحيح، ، كتاب الجهاد، باب: ما يتعوذ من الجبن (٢٦٦٨).

إليهم البخل والخوف فيقول ﷺ: "شرّ ما في رجلٍ شحٌّ هالعٌ وجبنٌ خالعٌ"[1] فكانت التوجيهات النبوية تسكب في قلوب الصحابة حب الكرم والإنفاق في سبيل الله، كما تقذف في قلوبهم حب الإقدام والشجاعة والتضحية، فأصبح الانكماش عن النفقة في سبيل الله والانشغال بأعمال ا لدنيا وإهمال الدفاع عن الأمة وعقيدتها، وجه من وجوه التهلكة، يظهر ذلك في مواقف الصحابة ﷺ وأخلاقياتهم الحربية، فلما غزا المسلمون القسطنطينية، وعلى الجماعة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد "والروم مُلصِقُو ظهورهم بحائط المدينة، فحمل رجل على العدوّ فقال الناس: مَهْ، مَهْ، لا إله إلا اللّه، يلقي بيديه إلى التهلكة، فقال أبو أيوب ﷺ: إنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار لما نصر اللّه نبيه ﷺ وأظهر الإسلام، قلنا: هلُمَّ نقيم في أموالنا ونصلحها، فأنزل اللّه تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾ (البقرة: من الآية١٩٥) فالإلقاء بالأيدي إلى التهلكة: أن نقيم في أموالنا ونصلحها وندع الجهاد، فلم يزل أبو أيوب يجاهد في سبيل اللّه حتى دفن بالقسطنطينية"[2].

وبلغت الشجاعة بأصحابه أن يقوم أحدهم بالطليعة وحده، قال جابر ﷺ: " ندب النبي ﷺ الناس - قال صدقة: أظنه - يوم الخندق، فانتدب الزبير، ثم ندب الناس، فانتدب الزبير، فقال النبي ﷺ: " إن لكل نبي حوارياً، وإن حواريّ الزبير بن العوام"[3] والأمثلة على ذلك كثيرة فكان النبي ﷺ يرسل الرجل سرية وحده من ذلك سرية عبد الله بن أنيس الجهني ﷺ إلى سفيان بن خالد بن نبيح الهذلي الذي كان يجمع الجموع في وادي عرنة لغزو المدينة[4] وكان ﷺ يرسل الرجلين سرية

---

(١) سنن أبي داوود، باب في الجرأة والجبن أبو داوود: السنن، (٢٥١١). سنن البيهقي، كتاب السير، باب الشجاعة والجبن، (١٨٣٤٢).

(٢) سنن أبي داوود، في قوله عز وجل: ﴿وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ (البقرة: من الآية١٩٥) باب الشجاعة والجبن، (٢٥١٢).

(٣) البخاري: الجامع الصحيح، ، كتاب الجهاد، باب: هل يبعث الطليعة وحده. ح (٢٦٩٢).

(٤) ابن هشام: السيرة النبوية، ٦/ ٣٠. الخليفة: الأنصار في العصر الراشدي، ٦٦.

مثلما أرسل عمرو بن أمية الضمري ﷺ وسلمة بن أسلم بن جريش الأنصاري ﷺ في مهمة إلى مكة[1].

ومن مواقف الشجاعة وهي كثيرة ما رواه أنس عن عمه، قال أنس ﷺ: " غاب عمّي أنس بن النضر عن قتال بدر، فقال: يا رسول الله، غبت عن أول قتال قاتلت المشركين، لئن الله أشهدني قتال المشركين ليريّن الله ما أصنع، فلما كان يوم أحد، وانكشف المسلمون، قال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء، يعني أصحابه، وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء، يعني المشركين، ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ، فقال: يا سعد بن معاذ الجنة ورب النضر، إني أجد ريحها من دون أحد، قال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع، قال أنس: فوجدنا به بضعا وثمانين: ضربة بالسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم، ووجدناه قد قتل وقد مثّل به المشركون، فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه. قال أنس: كنا نرى، أو نظن: أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ (الأحزاب:٢٣)"[2] وبقي الصحابة متمسكين بأخلاق حرب المسلمين؛ وما فيها من شجاعة وإقدام وتضحية بعد وفاة النّبي ﷺ ففي " يوم اليمامة أتى أنس ﷺ ثابت بن قيس ﷺ وقد حسر عن فخذيه وهو يتحنط، فقال: يا عم، ما يحبسك أن لا تجيء؟ قال: الآن يا ابن أخي، وجعل يتحنط، يعني من الحنوط، ثم جاء فجلس، فذكر في الحديث انكشافاً من الناس، فقال: هكذا عن وجوهنا حتى نضارب القوم، ما هكذا كنا نفعل مع رسول الله ﷺ بئس ما عودتم أقرانكم"[3] أي في التقهقر من أمامهم قبل تحقيق النصر أو الشهادة!

فالحديث عن شجاعة قوم نشروا الإسلام في جزيرة العرب، وبين صناديد الشرك وأزاحوا إمبراطورية الفرس وزلزلوا إمبراطورية الروم ونشروا الإسلام فيها

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ٢/ ٢٦٩. الزرقاني: شرح المواهب اللدنية، ٣/ ١٦٧.

(٢) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب: من يجرح في سبيل الله. (٢٦٥١).

(٣) البخاري: الجامع الصحيح، ، كتاب الجهاد، باب: التحنط عند القتال، (٢٦٩٠).

لا يحتاج إلى شواهد، ولكن هذه المواقف وما تخللها من أعمال بطولية فريدة وما في ذلك من إقدام وشجاعة واستجابة للنفير، أمثلة للتدليل على قوة الصحابة ﷺ وشجاعتهم وانضباطهم واحتسابهم لجهادهم في سبيل الله، والأهم من ذلك أنهم في جميع أحوالهم وصفحات مشاركاتهم في معارك نشر الإسلام والدفاع عن حرية العقيدة أمام بغي المشركين والقتال ضد المرتدين ومن ثم فارس والروم؛لم يسجل عليهم التاريخ أنهم خرجوا عن ضوابط أخلاق الحرب في عصر الرسالة، وما فيها من الإقدام والعدل والرحمة، ولم تكن انتصاراتهم في يوم من الأيام لتأخذ بهم إلى الطيش والهوى، فلم يخرجوا عن الحق والرحمة في كل أحوالهم.

ومن آدابهم الصبر على القتال

ومن أخلاق الصحابة في الحرب الصبر على القتال وآلامه يستمدون ذلك من هدي الكتاب الذي مدح الصابرين وأعلن محبتهم وأنه معهم، وهذا ما استلهمه أصحاب رسول الله ﷺ في ما مرّ بهم من حروب وشدائد، حيث كانوا يتسلحون بالصبر فيستمدون منه طاقات إضافية تزيد من قدرتهم على المطاولة في انتظار ساعة النصر. قال تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ (البقرة: من الآية ١٧٧). وحين البأس هو حين شدة القتال والمواجهة في ساحات الحرب، وكما أن القتال في عصر الرسالة مقيد بضوابط العقيدة، كذلك الصبر في سبيل الله مقيد بتلك الضوابط، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ (الرعد: من الآية٢٢). فلم يكن الصبر من أجل تحقيق مكاسب أو انتصارات تلبي أهواء بشرية مثل التمكين لسلطان، أو الانتقام من الأعداء أو تحقيق الأطماع والمغانم وما إلى ذلك؛ إنما الصبر لون من ألوان العبادة والطاعة لله تعالى، وفي أخلاق المسلمين في عصر الرسالة من القدرة على التخلق بقيم الصبر، وإمكانية التحمل وامتصاص نوازع الشر والقتال التي واجههم

بها المشركون في مكة؛ ما يجعلهم في محل القدوة في هذا الميدان بلا منازع، ثم جاء القرآن الكريم ليجعل منهم أئمة في الصبر، ونقاء الأهداف والسرائر، قال تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ (الأنفال: من الآية٦٥). ولما استقرت هذه القيم في مراميها، وأعد المسلمون أنفسهم لتحمل ذلك، وأن يواجه العشرون منهم المائتين من المشركين وأن تواجه المائة ألفاً، خفّف الله عنهم ذلك. فقال تعالى: ﴿ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (الأنفال:٦٦). ثم أضاف القرآن الكريم إلى آداب الحرب فيعصر الرسالة، بأن أصحاب النبي ﷺ ليسو أول من يخوض هذه التجربة بل سبقهم فيها مؤمنون آخرون. قال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ (آل عمران:١٤٦) فأخلاقيات الصبر في الشدائد هي قدر المؤمنين وأصحاب الأنبياء على مر التاريخ، لتصحيح مسار الإنسانية وإظهار ثوابت الحق الذي يجب أن تدور حوله كتائب المؤمنين، فأصبحت آداب الصبر في عصر الرسالة في ساحات القتال، مدرسة تتعلم منها الأجيال مبادئ قوة الإرادة النابعة من الإيمان، الذي يحوط جميع أفعال جنده بضوابط الحق وقواعد العدل والرحمة، التي تلتقي عليها الأمم والشعوب في دائرة الأخوة الإنسانية التي تسمو بها روابط التواصل على نوازغ الخلافات العارضة، والمصالح المتنافرة أحياناً.

ولما كان دعاة الحروب والفتن خارجين عن أصل طبيعة العلاقات الإنسانية فقد واجههم الأنبياء والمؤمنون بأقصى درجات التضحية والصبر، ليدفعوا شرهم

عن الإنسانية ويسهموا في بناء السلام على الأرض، ولما كانت هذه هي مقاصد الحرب في السيرة النبوية فقد حثهم القرآن الكريم على الصبر في ساحات القتال وأمر النبي ﷺ أن يحرض المؤمنين على ذلك فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ﴾(لأنفال: من الآية٦٥) ولما كان القتال العادل المشروع أوسع الأبواب الموصلة إلى الجنة أصبح ركناً مكيناً في ثقافة أخلاق الحرب في عصر الرسول ﷺ، بذل فيه الصحابة وسعهم واستفرغوا جهدهم. قال أنس ﷺ: " خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق، فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع، قال ﷺ: " اللهم إن العيش عيش الآخره، فاغفر للأنصار والمهاجرة" فقالوا مجيبين له ﷺ:

نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبداً[1].

فالصبر كان يمد صناع السيرة النبوية بطاقات إضافية في حروبهم التي واجهوا بها الجبت والطاغوت الجاهلي، وكان الصبر خير عون لهم على مواجهة الجوع والبرد والخوف والحصار الأليم محتسبين في ذلك الأجر من الله تعالى، مبدين مبايعتهم لرسول الله ﷺ على التمسك بأخلاق الحرب التي تعلموا آدبها وقيمها بين يديه ﷺ وما فيها من القيم النبيلة وإثارة الطاقات المكنونة، فكان النبي ﷺ يُرّغب أصحابه بالصبر أمام المشركين، ويأمرهم بالتخلق به في ساعات الشدة. قال ﷺ:" إذا لقيتموهم فاصبروا "[2] وقال ﷺ معلناً الموقف من الذين يواجهون طهر الأنبياء وعدلهم بلوثات الجاهلية وظلمها: " اشتد غضب الله على من قتله النبي ﷺ في سبيل الله، اشتد غضب الله على قوم أدموا وجه نبي الله ﷺ"[3] وكان المشركون ببغيهم قد استهدفوا رسول الله ﷺ حتى " كسرت رباعيته يوم أحد وشج في رأسه فجعل

---

(١) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب: التحريض عند القتال، ح (٢٦٧٩).

(٢) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب: الصبر عند القتال، ح (٢٦٧٨).

(٣) البخاري: كتاب المغازي، باب ما أصاب النبي ﷺ من الجراح يوم أحد، (٣٨٤٦).

يسلت الدم عنه ويقول ﷺ: " كيف يفلح قوم شجوا نبيهم وشجوا رباعيته وهو يدعوهم إلى الله ؟" فأنزل ﷻ:﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ (آل عمران:١٢٨)[1] وكان من صبره تحت آلام الجراح أنه ﷺ لم يدع على من آذاه وشجّه وكسر رباعيته كما لم يدع على مشركي الطائف الذين أدموا قدميه الشريفتين ﷺ بعد أن ردوا عليه رداً قبيحاً. بل قال ﷺ: " لعل الله يخرج من أصلابهم من يوحد الله تعالى "[2] وما ذلك إلا لأصالة أخلاق العفو في عصر الرسالة وعمقها في نفوس المسلمين؛ وبراءة تلك الأخلاق من الغلظة والتشفي والانتقام والأحقاد.

فأخلاق الحرب في عصر الرسالة المبنية على الصبر والعطاء ابتغاء وجه الله تعالى، هي التي تمثل محاور الأحداث التي قادها رسول الله ﷺ في سيرته العطرة التي شاركه أصحابه في تنفيذ آدابها، ومن ذلك ما كان يُحدّث به أبو بكر ﷺ فكان " إذا ذكر يوم أحد بكى ثم قال ذاك كله يوم طلحة، ثم أنشأ يحدث قال: كنت أول من فاء يوم أحد فرأيت رجلاً يقاتل مع رسول الله ﷺ دونه وأراه قال يحميه. قال: فقلت كن طلحة حيث فاتني ما فاتني فقلت يكون رجلاً من قومي أحب إليّ، وبيني وبين المشرق رجل لا أعرفه؛ وأنا أقرب إلى رسول الله ﷺ منه وهو يخطف المشي خطفاً لا أخطفه فإذا هو أبو عبيدة بن الجراح فانتهينا إلى رسول الله ﷺ وقد كسرت رباعيته وشج في وجهه وقد دخل في وجنته حلقتان من حلق المغفر فقال رسول الله ﷺ عليكما صاحبكما يريد طلحة وقد نزف لا يلتفت إلى قوله وذهبت لأنزع ذاك

---

(١) مسلم: صحيح مسلم، كتاب الجهاد والمغازي، باب غزوة أحد، (١٧٩١) وفي شرح الحديث: (شج في رأسه) أي حصل جرح في رأسه الشريف والجراحة إذا كانت في الوجه أو الرأس تسمى شجة يسلت) أي يمسح.

(٢) الشوكاني: نيل الأوطار، كتاب ما يجوز من الشروط مع الكفارات، ٨/ ١٣١. تفسير القرآن العظيم، سورة الأنعام أية. (٥٠)

من وجهه ﷺ فقال أبو عبيدة ﷺ: أقسمت عليك بحقي ما تركتني فتركته فكره أن يتناولهما بيده فيؤذي النبي ﷺ فادم عليهما بفيه فاستخرج إحدى الحلقتين ووقعت ثنيته مع الحلقة، وذهبت لأصنع ما صنع. فقال: أقسمت عليك بحقي إلا ما تركتني. قال: ففعل مثل ما فعل في المرة الأولى فوقعت ثنيته الأخرى مع الحلقة، فكان أبو عبيدة من أحسن الناس هتماً فأصلحنا من شأن النبي ﷺ ثم أتينا طلحة في بعض تلك الحفار فإذا به بضع وسبعون أو أقل أو أكثر بين طعنة ورمية وضربة، وإذا قد قطعت أصبعه فأصلحنا من شأنه"[1].

ولعلّ هذه المشاهد بقدر ما تصور المحبة التي كانت قائمة فيما بين الصحابة وتنافسهم على فعل الخير وخدمة الأمة بصبر عجيب، بقدر ذلك تبين ارتباطهم برسول الله ﷺ وافتدائهم له بأرواحهم وما يمتلكون، وهذا طلحة ﷺ الذي قاتل حتى أصابه ما أصابه من الجراح والآلام، وكل ذلك يقومون به بإقبال وصبر يؤكد أن آداب الحرب في السيرة تقوم على قيم من الحب والصبر والتضحية، أسهمت في تحقيق أهدافها المشروعة في كل ما جرى من أحداث في عصر الرسالة.

- **ومن مشاهد أخلاق الحرب في عصر الرسالة التي تتجلى فيها قيم الصبر والفداء**: "أن رسول الله ﷺ أفرد يوم أحد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش، فلما رهقوه قال: "من يردهم عنّا وله الجنة أو هو رفيقي في الجنة ؟" فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل ثم رهقوه أيضا فقال: "من يردهم عنّا وله الجنّة أو هو رفيقي في الجنة ؟" فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل فلم يزل كذلك حتى قُتل السبعة فقال رسول الله ﷺ لصاحبيه: "ما أنصفنا أصحابنا"[2] ووصية سعد بن الربيع وهو يحتضر ﷺ لمن جاء يتفقده بأمر النبي ﷺ فقال: "أخبر رسول الله ﷺ أني في الأموات وأقرئه السلام وقل له: يقول سعد: جزاك الله عنّا وعن جميع الأمة

---

(١) مسند الطيالسي: أحاديث أبي بكر الصديق ﷺ، ح (٦).

(٢) مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب غزوة أحد، (١٧٨٩). قال في شرح الحديث: "فلما رهقوه" أي غشوه وقربوا منه. و"ما أنصفنا أصحابنا" أي الذين فروا من القتال فإنهم لم ينصفوا لفرارهم.

خيراً"[1] و في غزوة مؤتة "أمّر رسول الله ﷺ زيد بن حارثة فقال رسول الله ﷺ " إن قتل زيد فجعفر؛ وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة" قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: كنت فيهم في تلك الغزوة، فالتمسنا جعفر ﷺ فوجدناه في القتلى ووجدنا ما في جسده بضعاً وتسعين من طعنة ورمية"[2].

فكان الصحابة يعتصمون بالصبر على الآلام في ساعات الضيق والشدة لأنه خلق من أخلاق الحرب في السيرة النبوية التي أمر الله تعالى بها فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ (الأنفال:٤٦) والملفت في كل ذلك أنه لم يُسمع عن أحد منهم أنه تغير خُلقه من السماحة إلى الشدة والعنف أو إلى الشتم واللعن أو الدعاء على من فعل بهم كل الذي يعانونه من تلك الآلام لا لذنب سوى أنهم يريدون نشر كلمة التوحيد في الأرض؛ ويعملون على حمايتها وحفظ سلامة وحرية أهلها، و"لما أصيب سعد ابن معاذ بالرمية يوم الخندق جعل دمه يسيل على النبي ﷺ"[3] مما يشير إلى التلاحم الذي كان قائماً بين المسلمين وشدة قرب قيادتهم منهم وقربهم منها، ومواساة بعضهم بعضاً في ساعات الشدة والبأس، وكان قتادة بن النعمان الظفري الخزرجي ﷺ من الرماة المذكورين من أصحاب رسول الله ﷺ شهد بدراً وأحداً فرميت عينه يوم أحد، فسالت حدقته على وجنته، فأتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إنّ عندي امرأة أحبها وإن هي رأت عيني خشيت تقذرها فردها رسول الله بيده فاستوت ورجعت وكانت أقوى عينيه وأصحهما بعد أن كبر وشهد أيضا الخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وكانت معه راية بني ظفر في غزوة الفتح[4].

---

(١) الحاكم: المستدرك، كتاب معرفة الصحابة، ذكر سعد بن الربيع، (٤٩٠٧). تعليق الذهبي قي التلخيص مرسل.

(٢) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب المغازي، باب غزوة مؤتة، ح (٤٠١٣).

(٣) ابن أبي شيبة: المصنف، كتال الفضائل، باب ما ذكر في سعد بن معاذ، (٣٢٣٢٢).

(٤) الحاكم: المستدرك، كتاب معرفة الصحابة، ذكر مناقب قتادة بن النعمان الظفري، (٥٢٨١).

وبعد معركة أحد وما أصاب المسلمين فيها من الجراح، دعاهم النبي ﷺ إلى تتبع قريش فأجابوا دعوة النبي ﷺ صابرين محتسبين وساروا إلى حمراء الأسد، وقد كان عبد الله ورافع ابنا سهل من بني عبد الأشهل أثقلتهما الجراح في أُحد فخرجا على أثر الناس يتزاحفان؛ لكي لا تفوتهما غزوة مع رسول الله ﷺ[1] وصور الصبر مع الرضا والاستقامة والبعد عن الفحش والعنف، والتفاؤل بمستقبل الإسلام وسلامة الأمة وتمني الهداية للناس والعمل على حفظ العهود والوفاء بها كان خُلقاً ثابتاً من أخلاق السيرة. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (آل عمران:١٧٢) ولم يكن ما أصاب المسلمين من القتل والجراح وشدة الآلام داعياً إلى تحريضهم على الخروج من قيم وضوابط الرحمة والتسامح، وما تفيض به أخلاق المسلمين في عصر الرسالة من الشواهد على المودة لكل من يكف الشر والعدوان عن المسلمين، لا يكاد يخلو منه كتاب من كتب السيرة، ولم يكن أيضاً ذلك في أخلاقهم سبباً للانتقام والحقد وقد اتضح ذلك في ثوابت عقيدتهم، في مثل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ (النحل:١٢٦) ﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾ (هود:١١٥) وقوله ﷻ: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾ (الرعد: من الآية٢٢) **فهذه من ثوابت أخلاق الحرب في عصر الرسول ﷺ لا يأتيها الباطل ولا تعبث بها الأهواء، صبر واحتساب، وإيثار وتآزر ورحمة واستعداد للتضحية في سبيل الله، فبأي لسان ينطق متهمو أخلاق الحرب في الإسلام بأباطيل ما يُروَّج له في هذا العصر من أن**

---

(١)الصالحي: سبل الهدى والرشاد، ٤/ ٤٤١.

الإسلام انتشر بالسيف والعنف والدم[1] والقرآن الكريم يحث المؤمنين على الصبر والتجاوز والاحتساب، ويعلمهم أن العفو عند الله تعالى خير من أخذ الحقوق في الدنيا، فأي أمة تملك في رصيد قيمها الأخلاقية الحربية مثل هذه القيم المنصفة الرحيمة المتسلحة بالصبر والعفو والاحتساب؟ أو قريباً من ذلك؟!

فأخلاق الحرب في السيرة بأصالة قيمها وحيويتها وعالميتها، هي المؤهلة لقيادة السلم والأمن في العالم، إذ أن ثوابتها تقوم على الرحمة والصبر والعدل، وهذا لا يتحقق في قيم بشرية أخرى، وإن كتب البعض من هذه القيم على الورق، وذلك أن هذه الوثائق الورقية، تُسقط من حساباتها الإيمان بالله واليوم الآخر، وغالباً ما يكون الخصم فيها هو الحكم، وإذا كان الأمر كذلك فمن ينتصر للضعيف؟ أما في آداب الحرب في السيرة فالرقيب لا يغيب لا في السر ولا في العلن، ومن تجاوز على أي مخلوق فلابد من الجزاء. قال تعالى ﴿ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (البقرة: من الآية٢٢٩) فنظام أخلاق الحرب في عصر الرسالة بما فيه من القيم هو المهيأ والمؤهل لقيادة العدل وبسط الأمن وحماية الاستقرار على وجه الأرض، وإن لم يكن له هذا الدور في هذا العصر، فما هو إلا لضعف أنصاره، وغياب معاني التضحية والصبر والعلم التي كانت في عصر الرسالة من نفوس عامة أتباعه. قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ (آل عمران:١٤٢) ولم يكن ذلك لنقص أو عجز في تلك القيم النبيلة.

ومن أخلاق الحرب في عصر الرسالة تفضيل الصبر على الموت وآلامه عن الخضوع لأعداء النبوة، ومن ذلك حين "بعث رسول الله ﷺ عشرة رهط سرية عيناً وأمر عليهم عاصم بن ثابت الأنصاري جد عاصم بن عمر ﷺ فانطلقوا حتى إذا

---

(١) ينظر شلبي: الإسلام وخرافة السيف، ٥٨.

كانوا بالهداة وهو بين عُسفان ومكة، ذكروا لحي من هذيل يقال لهم بنو لحيان فنفروا لهم قريباً من مائتي رجل كلهم رام فاقتصوا آثارهم حتى وجدوا مأكلهم تمراً تزودوه من المدينة. فقالوا: هذا تمر يثرب فاقتصوا آثارهم، فلما رآهم عاصم وأصحابه لجؤوا إلى فدفد وأحاط بهم القوم. فقالوا لهم: انزلوا وأعطونا بأيديكم ولكم العهد والميثاق ولا نقتل منكم أحداً . قال عاصم بن ثابت أمير السرية أما أنا فوالله لا أنزل اليوم في ذمة كافر؛ اللهم أخبر عنا نبيك فرموهم بالنبل فقتلوا عاصماً في سبعة، فنزل إليهم ثلاثة رهط بالعهد والميثاق منهم خبيب الأنصاري وابن دثنة ورجل آخر، فلما استمكنوا منهم أطلقوا أوتار قسيهم فأوثقوهم فقال الرجل الثالث: هذا أول الغدر والله لا أصحبكم، إن في هؤلاء لأسوة يريد القتلى فجرروه وعالجوه على أن يصحبهم فأبى، فقتلوه فانطلقوا بخبيب وابن دثنة حتى باعوهما بمكة بعد وقعة بدر، فابتاع خبيباً بنو الحارث بن عامر بن نوفل ابن عبد مناف، وكان خبيب هو الذي قتل الحارث بن عامر يوم بدر، فلبث خبيب عندهم أسيراً فأخبرني عبيد الله بن عياض أن بنت الحارث أخبرته أنهم حين اجتمعوا استعار منها موسى يستحد بها فأعارته، فأخذ ابناً لي وأنا غافلة حين أتاه. قالت: فوجدته مجلسه على فخذه والموسى بيده؛ ففزعت فزعة عرفها خبيب في وجهي. فقال: تخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك. والله ما رأيت أسيراً قط خيراً من خبيب والله لقد وجدته يوماً يأكل من قطف عنب في يده وإنه لموثق في الحديد وما بمكة من ثمر، وكانت تقول: إنه لرزق من الله رزقه خبيباً فلما خرجوا من الحرم ليقتلوه في الحل قال لهم خبيب: ذروني أركع ركعتين فتركوه فركع ركعتين ثم قال: لولا أن تظنوا أنّ ما بي جزع لطولتها اللهم أحصهم عدداً.

ولست أبالي حين أقتل مسلماً ... على أي شق كان لله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلو ممزع

فقتله ابن الحارث فكان خبيب هو سنّ الركعتين لكل امرئ مسلم قتل صبراً،

فاستجاب الله لعاصم بن ثابت يوم أصيب فأخبر النبي ﷺ أصحابه خبرهم وما أصيبوا. وبعث ناس من كفار قريش إلى عاصم حين حدثوا أنه قتل ليؤتوا بشيء منه يعرف، وكان قد قتل رجلاً من عظمائهم يوم بدر، فبعث على عاصم مثل الظلة من الدبر فحمته من رسولهم فلم يقدروا على أن يقطعوا من لحمه شيئاً[1]

ومما يشير إلى صبرهم وشدة إقدامهم ﷺ " لما نفذ الرمح في جسد حرام بن ملحان ﷺ حين طُعن غدراً في سرية بئر معونة، قال: "فزت ورب الكعبة "[2] وهذا عبد الله بن رواحة ﷺ في غزوة مؤتة يتمنى الشهادة ويطلبها في قوله:

ولكنني أســأل الرحمن مغفــرة وضـربة ذات فرع تقذف الزبدا
حتى يقال إذا مروا على جدث أرشده الله من غاز وقد رشدا[3]

ومجمل ما يستخلص من هذه المواقف أن الصبر والاستعداد للتضحية والوفاء وحب الشهادة في سبيل الله هي أخلاق ثابتة في قيم الحرب في عصر الرسالة، فهذا عاصم ﷺ يصبر على القتل في سبيل الله على أن يخضع لمشرك غادر لأن من لا دين له لا أمان له، وقد فعل ذلك ﷺ وجُعل من صبره على آلام القتل طريقاً يسلكه المؤمنون يفتدون عقيدتهم بأرواحهم، وهذا الذي قام به عاصم وجه من وجوه الفقه الشرعي والسياسي العميق الذي تأكدت صحته في موقف عبد الله بن طارق الذي فضل الموت على أن يخضع لقوم غادرين لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا

---

(١) البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب هل يستأسر الرجل. (٢٨٨٠). وجاء في شرح الحديث: (الهدأة) اسم موضع. (فدفد) كل موضع مرتفع. (رجل آخر) هو عبد الله ابن طارق البلوي. (قسيهم) جمع قوس. (يستحد) وهو حلق شعر العانة. (قطف) عنقود.
(شلو) عضو. (مثل الظلة) أي مثل السحابة المظلة (الدبر) ذكور النحل أو الزنابير واحدة دبرة.

(٢) البخاري:كتاب الجهاد والسير، باب من ينكب في سبيل الله، (٢٦٤٧). مسلم: كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد، (٧٦٦).

(٣) أبو نعيم الأصفهاني: حلية الأولياء، ١/ ١١٩عبد بن رواحة ﷺ. ابن كثير: البداية والنهاية، ٤/ ٢٤٢.

ذمة، أما وفاء خبيب فهو مدرسة تتعلم منها الإنسانية الرحمة والشفقة والعفو والتعالي على الجراح ومواجهة الغدر بالوفاء، فهو حين تمكن من الصبي وبيده الموسى كان بإمكانه أن يرتهنه ويفاوضهم على روحه وحقه في الحياة، ولكن أخلاق الحرب في عصر الرسالة التي يؤمن بها كانت تأبى عليه أن يُدخل الحزن والرعب على أمّ أو طفل بريء حتى لو كان في ذلك العمل خلاصه من موت محقق! وعودته إلى أهله وزوجته وأطفاله! فعلى الرغم من غدر المشركين به وبأصحابه فإنه أبى أن يخرج عن أخلاقه فقابل الغدر بالوفاء؛ **فبقي عِزّ الوفاء تاجاً يفخر به المؤمنون؛ وبقي الغدر عاراً يتساقط في أوديته أعداء الصحابة على مر العصور**، ومن وفاء خبيب رضي الله عنه أيضاً ما أجاب به المشركين حين سألوه عن النبي فأجاب بحبه العافية للنبي ﷺ وأن لا تصيبه شوكة يشاكها، وتقديم ذلك على عافيته وحياته وحريته، ومن آداب الحرب في السيرة أيضاً، حب الشهادة وسلوك الطرق المشروعة الموصلة إليها بالمرابطة في سبيل الله في مواطنها ومظانها وتقديم أعبائها وتبعاتها وحرقة الفراق وترك الأهل والولد على فرحة النصر وسرور إعلانه وبهجة نتائجه، وهذا ما نطق به عبد الله بن رواحة رضي الله عنه وصبر عليه وقاتل من أجله ومعه أبطال مؤتة رضي الله عنهم، حتى لقي ربه وهو سائر على طريق نيرة عبّد وهادها وأزال عقباتها عن طريق السائرين إلى الله تعالى من المتمسكين بقيم عصر الرسالة، وكل هذه المواقف تؤكد أن أخلاق الحرب التي قادها الرسول ﷺ، لا مثيل لها بأهدافها ومقاصدها في قيم الحروب عند أمة من الأمم الأخرى، وهذه من خصائص أخلاق الحرب في عصر الرسالة؛ صبر على الأذى، وعفو عن الظالم، ووفاء للعقيدة وفقه بأخلاقيات المشركين، ورحمة مطلقة بالنساء والأطفال، وحرص على السلم والأمن، والاستعداد الكامل لدفع ثمن ذلك، واحتساب الأجر والثواب عند الله تعالى، وكل هذا وغيره كثير يؤكد سمو قيم المسلمين في الحرب والسلم على ما سواها من قيم.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران:٢٠٠) فمن متلطلبات المرابطة الناجحة في سبيل الله التخلق بالصبر فإذا طال الرباط وكاد أن ينفذ الصبر فعلى المرابط أن يصل صبره بالمصابرة والتحمل، فإذا تحقق له ذلك وجب أن يسبغ على أعماله منتهى الإخلاص فينزع عنها حظوظ النفس وحب السمعة، مع التقيد بالعدل في كل ما يقدم عليه والرحمة في كل ما ينفذه، فإذا زاغ يميناً أو شمالاً حُرم التقوى ومن حُرم التقوى أوصدت أمامه أبواب القبول لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (المائدة: من الآية٢٧).

فأخلاق الحرب في عصر الرسالة تولي الرباط في سبيل الله أهمية كبرى لما يترتب على ذلك من نتائج تعود بخيرها على المجتمع بأسره، مثل حفظ الأمن وقرار الناس وانصرافهم إلى أعمالهم دون قلق أو وجل، فبلغ من اهتمام المسلمين بالرباط في سبيل الله أن أصبح ذلك خلقاً يتخلق به كثير من الصالحين في المجتمع الإسلامي وثقافة يؤدون ثمنها راغبين طائعين، فيقتطعون من أموالهم وأوقاتهم جزءاً يخصص للرباط في سبيل الله فإن كان هناك عدو يهدد أمن الأمة واجهوه، وإن لم يكن رابطوا صابرين محتسبين يمضون أوقاتهم بين العبادة والحراسة وطلب العلم، حتى بلغ بالمرابطين في المغرب أن أقاموا دولة المرابطين ذائعة الصيت طيبة الذكر لما أحيت من السنة وأماتت من البدعة، التي وحدت المغرب والأندلس وأقامت دولة أقرب ما تكون مقاصدها بآداب الحرب في صدر الإسلام، كان لها دور عظيم في توحيد بلاد المسلمين ورد طغيان الحملات الصليبية عنهم، ولا سيّما في معركة الزلاقة الشهيرة التي قادها أمير المسلمين يوسف بن تاشفين عام ٤٧٩هـ[1] فكان

---

(١) ينظر الخليفة: يوسف بن تاشفين، ٢٢٣.

للرباطات التي تتوزع على حدود بلاد المسلمين دور رائد في الحماية ودفع الظلم والمحافظة على روح وأخلاق الحرب في السيرة النبوية، وكل ذلك كان ينمو منبثقاً من ثقافة دعت إليها قيم المسلمين في عصر الرسول ﷺ، قال فضالة بن عبيد الأنصاري ﷺ: قال رسول الله ﷺ: "من مات على مرتبة من هذه المراتب بعث عليها يوم القيامة رباط أو حج أو غير ذلك، قال فضالة: وسمعت رسول الله ﷺ يقول كل ميت يختم على عمله إلا الذي مات مرابطاً في سبيل الله؛ ينمو له عمله إلى يوم القيامة؛ ويؤمن فتنة القبر"[1] وقال ﷺ: "رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه وإن مات، جرى عليه عمله الذي كان يعمله، وأجري عليه رزقه، وأمن الفتان"[2] أي فتنة القبر. وقال ﷺ: "رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها "[3] و"من قاتل في سبيل الله فواق ناقة وجبت له الجنة، وهو قدر ما تدر حلبها لمن حلبها"[4] فكيف بمن يمضي عمره في سبيل الله؟ ويتقيد بآداب الحرب عند المسلمين وهو يحمل السلاح والعتاد فلا يظلم ولا يعتدي ولا يتكبر ولا يطغى، وإنما يمضي الأيام والليالي مُخبتاً لله تعالى فإنْ أصاب الأمة خطر أو هدد أمنها عدو كان دريئة لأمته يفتديها بدمه، يدفع الشر ويصنع السلام ويمد جسور المحبة بين بني الإنسان.

ولقد أولت أخلاق الحرب في عصر الرسالة معاني حماية الأمة والدفاع عن أمنها في البحر أهمية وعناية مميزة وجعلت للرباط والجهاد في البحر أولوية خاصة فهو أكثر أجراً من الرباط في البر لما يترتب على ذلك من المشقة والأخطار. قال ﷺ: "غزوة في البحر خير من عشر غزوات في البر ومن أجاز البحر فكأنما أجاز الأودية

---

(١) الحاكم، المستدرك: كتاب الجهاد، باب أجر المرابط، (٢٦٣٧) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٢) مسلم: صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الرباط في سبيل الله عز وجل، (١٩١٣)

(٣) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب: فضل رباط يوم في سبيل الله.ح (٢٧٣٥).

(٤) الدارمي: سنن الدارمي، كتاب الجهاد، باب من قاتل في سبيل الله فواق ناقة، (٢٣٩٤).

كلها، والمائد فيها كالمتشحط في دمه"[1] مما يصور حال المرابط في سبيل الله وهو في البحر كيف تتقاذفه الأمواج ويميد به سطح البحر من تحته فإذا تلاطمت به الأمواج وأخذ الناس الهلع والمرابط صابر محتسب متمسك بأخلاقه وآدابه الإسلامية من الشجاعة والاستعداد للتضحية من أجل سلامة الأمة والعقيدة وحماية السلام ورد الظالمين، فإنّ له كل هذه المرغبات التي تصلح أن تكون ميدان تنافس بين أبناء الأمة لنيل رضاء الله والإسهام في بسط الأمن على وجه البسيطة.

من أنواع الجهاد وآدابه في عصر الرسالة

وإذا كانت الحرب في السيرة أو الجهاد هو بذل الجهد والاستطاعة في عمل صالح يرضي الله تعالى ويعود على خلقه بالنفع والخير، فإن ذلك الجهد قد يكون بالسيف أو بالمال أو بالكلمة الطيبة أو بالعفو والصفح والتجاوز وما إلى ذلك؛ فدين الإسلام دين السماحة والتيسير، قال ﷺ: " **إن ا لله لم يبعثني مُعنّتاً ولا مُتعنّتاً ولكن بعثني مُعلماً مُيسّراً** "[2] وقد كان النبي ﷺ يُسأل عن أنواع الجهاد وأفضل الجهاد فيظهر في إجاباته كل ذلك، قالت الطاهرة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: " يا رسول الله، ترى الجهاد أفضل العمل، أفلا نجاهد؟ فقال ﷺ: " **لكن أفضل الجهاد حج مبرور**"[3] وقال عبد الله بن مسعود ﷺ: " سألت رسول الله ﷺ قلت: يا رسول الله، أي العمل أفضل؟ قال: " الصلاة على ميقاتها " قلت: ثم أي؟ قال: " ثم برّ الوالدين" قلت: ثم أي؟ قال: "الجهاد في سبيل الله". فسكتُّ عن رسول الله ﷺ ولو

---

(١) الحاكم، المستدرك: كتاب الجهاد، باب أجر المرابط، (٢٦٣٤) وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري.

(٢) مسلم: صحيح مسلم، كتاب الطلاق، باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقاً إلا بالنية، ح (١٤٧٨).

(٣) البخاري: كتاب الجهاد، باب: فضل الجهاد. (٢٦٣٢). وقال ﷺ:"الشهداء خمسة: المطعون، والمبطون، والغرق، وصاحب الهدم، والشهيد في سبيل الله" البخاري: باب: الشهادة سبع سوى القتل (٢٦٧٤). صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب بيان الشهداء، (١٩١٤).

استزدته لزادني"[1] وجاء رجل إلى النّبي ﷺ فقال: "الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليُرى مكانه، فمن في سبيل الله؟ قال ﷺ: " من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله"[2] فمن كانت نيته خالصة لوجه الله تظهر علامات صلاحها في صلاح العمل والتمسك بالمنهج الشرعي دون تحريف أو تزييف، والمصالح الخاصة مع العامة قال ﷺ: " من آمن بالله وبرسوله، وأقام الصلاة، وصام رمضان، كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، جاهد في سبيل الله، أو جلس في أرضه التي ولد فيها، فقالوا: يا رسول الله، أفلا نبشر الناس؟ قال: "إن في الجنة مائة درجة، أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة"[3] .

وصلاح النية يرتفع بصاحبه إلى أعلى المقامات جاءت أم الرُبيَّع بنت البراء، وهي أم حارثة بن سراقة، إلى النبي ﷺ فقالت: " يا نبي الله، ألا تحدثني عن حارثة؟ وكان قتل يوم بدر، أصابه سهم غرب، فإن كان في الجنة صبرت، وإن كان غير ذلك، اجتهدت عليه في البكاء؟ قال ﷺ: " يا أم حارثة، إنها جنان في الجنة، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى"[4]. وهو لم يُقتل في مواجهة مباشرة مع خصم ولكنه كان أخلص النية فنال ما يناله الشهداء، فمن قاتل للرياء والسمعة استحق النار حتى لو بذل دمه وماله. قال ﷺ: " إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه، رجل استشهد. فأتى به فعرّفه نعمه فعرفها. قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت

---

(١) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب: فضل الجهاد والسير. ح (٢٦٣٠).

(٢) البخاري: كتاب الجهاد، باب: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، ح (٢٦٥٥) مسلم: صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله،ح (١٩٠٤).

(٣) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب: درجات المجاهدين في سبيل الله. يقال: هذه سبيلي وهذا سبيلي، ح (٢٦٣٧).

(٤)البخاري: الجامع الصحيح، ، كتاب الجهاد، باب: من أتاه سهم غرب فقتله. ح (٢٦٥٤).

فيك حتى استشهدت. قال: كذبت. ولكنك قاتلت لأن يقال جريء. فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار[1] وإذا كان من مفاهيم الحرب في السيرة النبوية؛ أن السرية التي تواجه العدو وجميع أفرادها في منتهى الإخلاص؛ فإذا انتصرت وغنمت، ذهب ثلثي أجر أفرادها وإن لم يصيبوا غنيمة تم لهم الأجر[2] فمن باب أولى أنّ من خرج فاسد النية، ثم قتل لا يحسب على الشهداء لغياب الهدف الصحيح، وما ذلك إلا لأن أخلاق الحرب في الإسلام لم تشرع إلا لنصرة الحق وإزاحة الظلم ونشر التوحيد ولتكون كلمة الله تعالى هي العليا، فهي لا تعود على الناس إلا بخير، أما من يقاتل لأهوائه ومصالحه أو شركاته وأرباحه، فإنه سيكون ضرراً على الإنسانية ومخالف للشرعية، فلا مكان له في مفاهيم وأخلاق الحرب في عصر الرسول ﷺ.

---

(١) مسلم: صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار،ح (١٩٠٥).

(٢) مسلم: صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب بيان قدر ثواب من غزا فغنم ومن لم يغنم،ح (١٩٠٦).

المبحث الثالث

مكانة الشهادة ووسائل نيلها والموقف من حقوق العباد في أخلاق الحرب في عصر الرسالة

مكانة الشهادة في قيم الحرب في عصر الرسالة

تبين أن أخلاقيات الحرب في عصر الرسول ﷺ مبنية على ثقافة وعقيدة الصبر والصفح والرحمة، وقد عمل المسلمون بهذه القيم لمدة ثلاثة عشر عاماً؛لم يباشروا فيها الدفاع عن النفس ولا رد العدوان، فتأكد أنه لا يوجد في آداب الحرب في عصر الرسول ﷺ أي أمر أو إشارة، فضلاً عن فعل أو مباشرة لعمل مخالف للقيم التي تصنع الأمن وترسي قواعد السلام في الأرض، اتضح ذلك في صفحات صبر رسول الله ﷺ وأصحابه على أذى المشركين ومرارة ظلمهم، وثبات النبي ﷺ على دعوة التسامح والمغفرة، والعمل على تأصيل قيم العفو وتنمية، روابط المودة في المجتمع؛ على الرغم من طلب بعض الصحابة ﵃ منه أن يأذن لهم في رد بعض ما يصيبهم من الأذى والعدوان، وهذا ما ثبت في رده ﷺ حين جاء عبد الرحمن بن عوف ﵁ وأصحاباً له إلى " النبي ﷺ بمكة فقالوا: يا رسول الله إنا كنّا في عزّ ونحن مشركون فلما آمنّا صرنا أذلة!! فقال ﷺ: "**إني أمرت بالعفو؛ فلا تقاتلوا**"[1] .

وهذا يثبت لكل عاقل أن الإسلام هو دين السلام والتسامح، ولا أدل على ذلك من هذا الصبر الذي تحمل مشاقه رسول الله ﷺ وأصحابه ﵃ ولكن أعداء الإسلام ومبغضي الصحابة في كل عصر ومصر، هم دعاة الشر والفتن، لا يبالون

---

(١) النسائي، سنن النسائي، كتاب الجهاد:باب وجوب الجهاد،ح (٣٠٨٦). الحاكم، المستدرك: كتاب الجهاد، (٢٣٧٧).

في سبيل تحقيق مصالحهم من العبث بالأمن والسلم، من خلال إقرار العدوان ومباشرته على عقائد وممتلكات الآخرين، لا يردعهم خلق ولا آداب ولا قيم، إذ أن أخلاقيات الكثير وعقائد كثير من الأمم مجردة من قيم السلم والرحمة والتعاون المشترك، وإنما هي مصالح من طرف واحد فإن تحققت وإلا فالخراب! وهذا يناقض قيم المسلمين وأخلاقهم في الجهاد، فثبت بالدليل العملي أن الدعوة إلى السلم والأمن إذا لم تكن هناك قوة للمسلمين تحفظ صفوها من الكدر، فإن الآخرين لايردعهم قانون ولا استجداء، لتجرد قيم الحرب التي يدينون بها من أخلاق العفو والتسامح إلا من رحم الله تعالى منهم، فوجب على المسلمين في كل عصر أن يكونوا على أقصى درجات الاستعداد والحذر، ليحموا عقيدتهم وبلادهم من شرور الغزاة، ومن ثم ليكونوا هم صناع السلام العادل في العالم.

يؤكد ذلك أن المسلمين استمروا بقيادة رسول الله ﷺ لأكثر من نصف عمر الدعوة؛ متمسكين بقيم الصبر والتجاوز والتحمل، لتأصيل أخلاق التسامح والسلام بين المؤمنين، حتى إذا استفرغوا الوسع في ذلك ونشأ جيل قادر على استيعاب المصاعب بروح من الأريحية والتعالي على الجراح والصفح عن المسيء، ويمتلك القدرة الأخلاقية المميزة بين العمل الخالص لوجه الله تعالى، وبين ما هو تلبية للأهواء أو ردود على بعض الأفعال التي لا تخرج عن دائرة الانتقام والانتصار للذات؛ عندما صقل ذلك الجيل بكل هذه المعاني المتأصلة في قيم الحرب عند المسلمين، نزل الإذن بالقتال وعندها أصبح التخلف عن الجهاد في سبيل الله إحدى الذنوب الكبائر، الذي يعمل المسلمون على البراءة من تبعاته؛ في عصور عملهم بالسنّة النبوية وبراءتهم من مخالفيها، وفي أيام تفعيل العمل بأداب الحرب في عصر الرسالة.

فأصبح من لا يسهم في صناعة الأمن والسلام وحماية الأمة من خلال ممارسة عمليات الرباط والقتال المنضبط بأخلاق الحرب عند المسلمين، ومن لا يحدث نفسه

بذلك أصبح على خطر كبير قال النبي ﷺ: "من مات ولم يغز، ولم يُحدِّث به نفسه، مات على شعبة من نفاق"[1] فتأصل فقه بناء الأمة والعمل على حمايتها في ضمائر المؤمنين، وأصبح هدفاً لمحبي عزّتها وأمنها؛ على قواعد وثقافة حب التعايش المشترك والتعاون الإنساني الذي يصل الجسور بين الأمم والشعوب، فينشر ثقافة المودة والتعارف وردع الظالمين؛ يظهر ذلك في ردّه ﷺ حين قال له رجل يا رسول الله: ائذن لي في السياحة، قال ﷺ: "إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله"[2] فإذا كان من مقاصد السياحة الترفيه عن النفس والبحث عن الراحة، وإن كان في الغالب تكون الراحة بدنية مادية إلا إذا كانت في سبيل الله، فإن امتثال آداب الحرب في عصر الرسالة باب من أبواب الراحة والسمو الروحي والخلقي الذي يبعث على انشراح النفس وسرور القلب من خلال انتشال صاحبه من الانغماس في أوحال المادية الشهوانية إلى مواطن الإشراق الروحي المرتبط بحب الأمة وإيثار مصالحها وأمنها على النفس و الولد. قال رسول الله ﷺ: "عليكم بالجهاد في سبيل الله فإنّه باب من أبواب الجنة يُذهب الله به الهمّ والغمّ!"[3] .

فأصبحت ثقافة الترفيه والسياحة وأسباب زوال الهم وانشراح الصدر الباعث على السرور، تتمثل في التمسك بأخلاق الحرب التي أقرها الإسلام؛ لما فيها من الإيثار، ولذة السهر على راحة المسلمين، ومواجهة الظلم ورد الباطل، وقد امتثل ذلك سلف هذه الأمة على أتم وجه وأجمله، حتى أصبح حب الأمة وحماية عقيدتها، والإسهام في نشر الاستقرار والنظام فيها ميدان تنافس بين الصحابة ﷺ قال جابر ﷺ: قيل: "يا رسول الله أي الجهاد أفضل؟ قال من عقر جواده وأهريق

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب ذم من مات ولم يغز، (١٩١٠). سنن أبي داوود، باب كراهية ترك الغزو، (٢٥٠٢).

(٢) الحاكم: المستدرك، كتاب الجهاد، النهي عن السياحة (٢٣٩٨). أبو داوود: سنن أبو داوود، باب في النهي عن السياحة، (٢٤٨٦).

(٣) الحاكم: المستدرك، كتاب الجهاد، ح (٢٤٠٤) وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

دمه"[1] أي خاض في أعمق تجمعات العدو اجتراء عليهم ودفعاً لشرهم، وافتداء لأبناء أمته وإعلاناً لأعلى درجات الاستعداد للتضحية في سبيل الله تعالى، وهذا خلق من أخلاق عصر الرسالة تخلّق به الكثير من المسلمين، منهم جعفر بن أبي طالب ﷺ يوم مؤتة حيث عقر جواده وقُطعت ذراعيه[2] وكما أخبرهم النبي ﷺ عن أفضل الجهاد في سبيل الله، أخبرهم ﷺ عن أفضل الناس الذين يقومون بذلك.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: " إن النّبي ﷺ خرج عليهم وهم جلوس، فقال ألا أخبركم بخير الناس منزلة؟ قلنا بلى قال ﷺ: رجل ممسك برأس فرسه أو قال: فرس في سبيل الله حتى يموت أو يقتل"[3] أي أن أفضل الناس من أمضى حياته مستعداً للتضحية وافتداء عقيدته متحفزاً للدفاع عن أمن الأمة وسلامة الدين وتنفيذ ما يؤمر به من أعمال ضمن دائرة آداب الجهاد في عصر الرسالة، وما فيها من شمائل الأخلاق ومحاسن القيم التي تخدم البشرية وتغذي قوة الحق، لا يشغله عن ذلك مال ولا ولد، ولا يؤخره جاه ولا مكانة في المجتمع، دائم الاستعداد طيب النفس سامع مطيع في كل أحواله، يبحث عن مواطن السبق وفضائل الإقامة فيها.

قال ﷺ: " مقام الرجل في الصف في سبيل الله أفضل من عبادة الرجل ستين سنة "[4] ذلك أنّ الصف المسلم لا يقف فيه إلا الأتقياء الذين يعملون في سبيل الله تعالى؛ وأي عمل في سبيل الله فإنّ مقاصده تتجاوز المكان والزمان فهي في نتائجها تتجاوز الأفراد إلى خدمة المجتمعات وما يعود ذلك من خير عميم على الناس، وما يحصده من كان سبباً في ذلك الخير يكون أكثر من الجهد الفردي الذي تعود منافعه على صاحبه فقط كما هو حال العبّاد والزهاد، فمن يعمل من أجل الأمة يكون

(١) الدارمي: سنن الدارمي، كتاب الجهاد، باب أي الجهاد أفضل، (٢٣٩٢) .

(٢) ابن القيم: زاد المعاد، ٣٠٣.

(٣) سنن الدارمي ، كتاب الجهاد، باب أفضل الناس رجل ممسك برأس فرسه في سبيل الله، (٢٣٩٥).

(٤) سنن الدارمي، كتاب الجهاد، باب في فضل مقام الرجل في سبيل الله، (٢٣٩٦).

مقدماً على من يعمل لنجاة نفسه فقط. قال النّبي ﷺ: "حرمت النّار على عين سهرت في سبيل الله، وحرمت النار على عين دمعت من خشية الله. قال: وقال الثالثة فنسيتها، قال أبو شريح: سمعت من يقول ذاك، حرمت النار على عين غضت عن محارم الله، أو عين فقئت في سبيل الله ﷻ"[1] .

فأداب الحرب في عصر الرسالة قائمة على قواعد العفو والرحمة، والإخلاص لوجه الله تعالى والخلو من الشوائب المادية والعنصرية وغيرها، مع التمسك التام بالإعداد والحذر والحيطة، تلك القيم التي تورث انشراح الصدر وزوال الهمّ وراحة الضمير والإيمان المطلق بصحة العمل ومصداقيته، لما فيها من المسير على منهاج النبوة، الذي يجعل العاملين بقيمه في منتهى الإقدام والشجاعة والاستعداد للشهادة في سبيل الله، مما يسمو بهم إلى مكان الذروة والقدوة؛ كونهم من أبرز أسباب زوال الظلم والبغي، ونشر الأمن والسلم والاستقرار في الأرض.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ (النساء:٦٩). وقال عز وجل: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ (آل عمران:١٦٩) وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ (البقرة:١٥٤).

فالشهادة في سبيل الله مكانها عظيم في عقيدة المسلم، فكانت ولا زالت محل تنافس بين أهل البذل والعطاء وطلاب الجنة، حتى بلغ الأمر من حبها أن تكون

---

(١) سنن الدارمي، كتاب الجهاد، باب في الذي يسهر في سبيل الله حارسا، (٢٤٠٠). أبو يعلى: مسند أبي يعلى: سعيد بن سنان عن أنس، (٤٣٤٦). القضاعي: مسند الشهاب، (٣٢٠).

سبب للتنافس بين الآباء والأبناء، ومن ذلك: " أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى بدر أراد سعد بن خيثمة وأبوه أن يخرجا جميعاً فذُكِرا لرسول الله ﷺ فأمرهما أن يخرج أحدهما فاستهما فخرج سهم سعد فقال: أتؤثرني بها يا بُني؟ فقال سعد: إنها الجنة ولو كان غيرها لآثرتك به، فخرج سعد ﷺ مع النبي ﷺ فقتل يوم بدر ﷺ ثم قتل خيثمة ﷺ من العام المقبل يوم أحد"[1] ومعلوم أن هناك درجة بين من سبق إلى بدر على من لحقهم يوم أحد.

وكما حصل ذلك لعمرو بن الجموح وبنوه ﷺ فقد: " كان عمرو بن الجموح أعرج شديد العرج، وكان له أربعة بنون شباب يغزون مع رسول الله ﷺ إذا غزا فلما أراد رسول الله ﷺ يتوجه إلى أحد. قال له بنوه: إن الله عزّ وجل قد جعل لك رخصة فلو قعدت فنحن نكفيك فقد وضع الله عنك الجهاد فأتى عمرو بن الجموح رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله إن بنيّ هؤلاء يمنعوني أن أخرج معك، والله إني لأرجو أن استشهد فأطأ بعرجتي هذه في الجنة. فقال له رسول الله ﷺ: أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد وقال ﷺ لبنيه ﷺ وما عليكم أن تدعوه لعل الله يرزقه الشهادة، فخرج مع رسول الله ﷺ فقتل يوم أحد شهيدا"[2] ويبدو أنه بعد أن حصل على الإذن " أتى عمرو بن الجموح ﷺ إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أرأيت إن قاتلت في سبيل الله حتى أقتل، أمشي برجلي هذه صحيحة في الجنة؟ وكانت رجله عرجاء. فقال رسول الله ﷺ نعم. فقتلوا يوم أحد، هو وابن أخيه ومولى لهم ﷺ فمرّ عليه رسول الله ﷺ فقال: كأني أنظر إليك تمشي برجلك هذه صحيحة في الجنة فأمر رسول الله ﷺ بهما وبمولاهما فجعلوا في قبر واحد"[3].

ولما أرسل النبي ﷺ السبعين من أصحابه وعَرَضت لهم بعض القبائل: "

---

(١) سنن سعيد بن منصور: باب ما جاء في فضل الشهادة، ح (٢٥٥٨).

(٢) البيهقي: سنن البيهقي الكبرى، كتاب السير، باب من اعتذر بالضعف والمرض، (١٧٩٩).

(٣) الدارمي: سنن الدارمي، كتاب الجهاد، باب فيمن سأل الله الشهادة، (٢٤٠٧).

فقتلوهم. قبل أن يبلغوا المكان. فقالوا: اللهم! بلّغ عنّا نبينا؛ أنا قد لقيناك فرضينا عنك، ورضيت عنا. قال وأتى رجل حراماً، خال أنس، من خلفه فطعنه برمح حتى أنفذه، فقال حرام ﷺ: فزت، ورب الكعبة! فقال رسول الله ﷺ لأصحابه " إن إخوانكم قد قتلوا. وإنهم قالوا: اللهم! بلغ عنّا نبينا؛ أنّا قد لقيناك فرضينا عنك. ورضيت عنا "(١) فكان ذلك العدوان الغادر على طلاب العلم من أصحاب رسول الله ﷺ الذين يعملون سلمياً في التعريف بالإسلام وضمن الوسائل المشروعة دون استفزاز أو تجاوز لعرف أو ثقافة أو عقيدة للآخرين، يعد من الأدلة الدامغة على كذب كل من يتهم الصحابة ﷺ أنهم تلبسوا في العدوان على أحد من الناس، إذ أن أخلاقيات الحرب التي يدينون بها لا تجيز لهم سوى العمل المشروع الذي تصحبه صفحات الرحمة والعفو والتجاوز، مع شديد الحرص على الوحدة والأخوة وترابط أبناء المجتمع بكل أطيافهم، أما ما يقوم به أعداء الصحابة من عمل متواصل على تشويه سيرتهم واتهام مناقبهم؛ فإنه يؤكد على أبناء هذا الجيل الحذر ممن يحمل في قلبه غل على الصحابة ﷺ ذلك أن من يبغضهم ﷺ فإنما يبغض أخلاقهم وقيمهم التي استقوها من الكتاب والسنة، فعلى من يعلم بالكتاب والسنة ويحب الصحابة، أن يجاهد ماستطاع إلى ذلك سبيلاً، حتى تزول هذه الصورة المقلوبة والمشوّه عن أصحاب رسول الله ﷺ، والتسلح بثوابت العقيدة لمواجهة أعدائها، في مثل فقه قوله تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ (النساء: من الآية٧٦).

فقتال هؤلاء يكون بالعلم من خلال التمحيص والتبيّن حين تلقي أي خبر، وبالفقه الذي يبعث ويوضح الحقائق الدامغة التي تفضح المزيفين، ومن خلال التمسك بأخلاق المؤمنين في الجد والشجاعة وقوة وشائج المودة والألفة وحسن الطاعة، والحرص الدائم على سلامة التوحيد وروابط الوحدة، والسير على مدارج

(١) مسلم: صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد،ح (٦٧٧).

الإيثار والتعاون، حباً لأمن الأمة وعقيدتها، فهذه القيم يجب أن تتصل وشائجها بأخلاق عصر الرسالة التي كان يعمل تحت ظلالها الصحابة ﷺ ومنها الإخلاص في طلب الشهادة في مواطنها مع التقيد التام في قيمها وثوابتها قال ﷺ: " من سأل الشهادة بصدق، بلّغه الله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه"[1] وهذا يعود إلى تأكيد النبي ﷺ في تعاليمه لأصحابه ﷺ أن تكون الأعمال في سبيل الله تعالى، وألا تكون للوصول إلى حظ من حظوظ الدنيا، إلا إذا جاء ذلك عارضاً، بل حتى لو كان ذلك المكسب عارضاً وحلالاً مباحاً، فإنه سيكون سبباً في نقص الأجر المرجو من ثواب الشهادة، قال ﷺ: " **ما من غازية تغزو في سبيل الله فيصيبون غنيمة إلا تعجلوا ثلثي أجرهم من الآخرة؛ ويبقى لهم الثلث فإن لم يصيبوا غنيمة تم لهم أجرهم** "[2] ولعل في هذا النص الذي استشهد به في أكثر من موضع وأمثاله ما يلجم كل المتقولين على نزاهة مقاصد حروب السيرة عصر الرسالة، وعلى جميع الجبهات، إذ أن من ثوابت طلاب الشهادة أن تكون خالصة في سبيل الله، وما دامت كذلك فإنها لن تجلب إلا الخير على الأمة المسلمة وعلى الناس أجمعين، لانتفاء الظلم عنها وثبات الحق فيها. قال ﷺ **من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله** "[3] .

والشهداء على مراتب بحسب إخلاصهم وأهدافهم. قال ﷺ: " **الشهداء أربعة** رجلٌ مؤمنٌ جيد الإيمان لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذاك الذي يرفع النـاس إليـه أعينهم يـوم القيامة هكذا ورفع رأسه حتى وقعت قلنسوته، فلا أدري قلنسوة

---

(١) ابن حنبل: المسند، حديث أبي قتادة (٢٢٦٠٦) سنن الترمذي، أبواب السير، بـاب مـا جـاء فـيمن سأل الشهادة، (١٧٠٥) (١٧٠٤).

(٢) البيهقي: سنن البيهقي، كتاب السير، باب بيان النية التي يقاتل عليها ليكون في سبيل الله عز وجـل، (١٨٣٢٦).

(٣) البيهقي: سنن البيهقي، كتاب السير، باب بيان النية التي يقاتل عليها ليكون في سبيل الله عز وجـل، (١٨٣٢٦).

عمر أراد أم قلنسوة النبي ﷺ قال: ورجلٌ مؤمنٌ جيد الإيمان لقي العدو فكأنما ضرب جلده بشوك طلح من الجبن أتاه سهمٌ غربٌ فقتلـه فهو في الدرجة الثانية ورجلٌ مؤمنٌ خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذاك في الدرجة الثالثة ورجلٌ مؤمنٌ أسرف على نفسه لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذاك في الدرجة الرابعة"[1] .

وليس الشهيد في قيم الحرب الإسلامية من يقتل في المعركة فقط، وإنما كل من استحضر النية مخلصاً، وأعدّ نفسه لذلك أو شارك المجاهدين في أعمالهم، ثم أدركه الأجل فهو يحسب على الشهداء. قال رسول الله ﷺ: " من خرج من بيته مجاهداً في سبيل الله، قال: ثم ضم أصابعه الثلاث **وأين المجاهدون في سبيل الله**؟ من خرج في سبيل الله فخرّ عن دابته فمات فقد وقع أجره على الله، وإن لدغته دابة فمات فقد وقع أجره على الله، ومن مات حتف أنفه. قال: وإنها لكلمة ما سمعتها من أحد من العرب أول من رسول الله ﷺ يعني بحتف أنفه على فراشه فقد وقع أجره على الله، ومن قتل قعصاً فقد استوجب الجنة"[2] وقال ﷺ: " من تعدون الشهيد؟ قالوا من قتل في سبيل الله. قال ﷺ: إن شهداء أمتي إذاً لقليل، من قتل في سبيل الله فهو شهيد، ومن غرق في سبيل الله فهو شهيد، ومن قتله طاعون فهو شهيد"[3] .

فهذا الحرص الذي يتمتع به المسلم على صحة النية والمقصد من الجهاد؛ نابع من أن أي تفريط أو هوى في أداء متطلبات تلك المقاصد سيكون سبباً في حرمان الأجر الأكبر، فلا بد أن تكون النية سليمة والمقاصد كريمة والأداء شرعي بكل المقاييس، فإن نجح في ذلك وسما بروحه وأهدافه إلى آفاق مقاصد الشهداء كان من

---

(١) الترمذي: سنن الترمذي، أبواب السير، باب ما جاء في فضل الشهداء عند الله، (١٦٩٥).

(٢) البيهقي: سنن البيهقي، كتاب السير، باب فضل من مات في سبيل الله، (١٨٣١٧).

(٣) ابن حميد: مسند ابن حميد، مسند عبد الله بن عمرو، (٣٣٤).

أولى المكافآت أنه: " لا يجتمع كافر وقاتله في النار أبداً "[1] أي وقاتله المؤمن بالله المستقيم على شرعه. وأيضاً " ما يجد الشهيد من ألم القتل إلا كما يجد أحدكم من ألم القرصة "[2] و " يشفع الشهيد في سبعين من أهل بيته"[3] و " يعطى الشهيد ست خصال عند أول قطرة من دمه: يكفر عنه كل خطيئة، ويرى مقعده من الجنة، ويزوج من الحور العين، ويؤمن من الفزع الأكبر، ومن عذاب القبر، ويحلى حلة الإيمان "[4] .

وهذا ما يؤمن به ويعمل له المجاهدون في سبيل الله تعالى، فهم على يقين بصدق عقيدتهم فيعملون كل ما في وسعهم للترفع عن الأهواء والشهوات التي تحول بينهم وبين تحقيق أهدافهم الكبرى، لا يبالون بكل ما يعترضهم من المصاعب التي تحول بينهم وبين أهدافهم.قال أبو موسى الأشعري ﷺ يوماً وهو بحضرة العدو، قال رسول الله ﷺ: " إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف فقال رجلٌ من القوم رث الهيئة أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ يذكره قال: نعم، قال: فرجع إلى أصحابه قال أقرأ عليكم السلام وكسر جفن سيفه فضرب به حتى قتل"[5] وهم يقومون بهذا لأنهم يخدمون أهداف النبوة في نشر التوحيد وإقامة العدل بين الناس، وإزالة الشرك والبغي والظلم، وهذه الأعمال هي مبعث محبة الله تعالى لعباده. قال

---

(١) مسلم: صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب من قتل كافرا ثم سدد،ح (١٨٩١).

(٢) سنن الدارمي، كتاب الجهاد، باب في فضل الشهيد، باب أرواح الشهداء، (٢٤٠٨).

(٣) سنن أبي داوود، باب في الشهيد يُشفع، (٢٥٢٢) سنن البيهقي، كتاب السير، باب الشهيد يشفع، (١٨٣٠٨).

(٤) ابن حنبل: المسند، حديث قيس الجذامي ﷺ (١٧٨١٨). الطبراني: المعجم الكبير، باب الصاد، صدي بن العجلان أبو أمامة الباهلي ﷺح (٧٩٤١). ابن ماجة: سنن ابن ماجة، كتاب الجهاد، باب فضل الشهادة في سبيل الله، ح (٢٧٩٩).

(٥) الترمذي: سنن الترمذي، أبواب السير، باب ما جاء في فضل من يُكلم في سبيل الله (١٧١٠) مسلم: صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد،ح (١٩٠٢).

ﷺ: "أما الذي يحبه الله تعالى فرجل لقي فئة فانكشفت فئته فقاتل من وراءهم حتى يقتل أو يفتح الله له"[1] .

فأي نفوس هذه التي صنعتها أخلاق الجهاد التي جاء بها رسول الله ﷺ؟ وأي أمة من الأمم أو ثقافة من الثقافات تحمل مثل هذه القيم وما فيها من تنافس على بيع الروح في سبيل العقيدة، بين الابن وأبيه! وبين الأب وبنوه! ومن أجل المشاركة في مواطن الخطر تقوم القرعة ويُكلم رسول الله ﷺ في ذلك خشية المنع والحرمان من الموت في سبيل الله!! إنّ هذه الأخلاق التي أنبتها ورعاها رسول الله ﷺ حتى أوجد جيلاً فريداً من حملتها، لا ينافسه جيل على وجه الأرض في سمو المبادئ ونصرة القيم، وفي رسوخ اليقين وقوة الإيمان بالغيب، وشدة الشغف بالتنافس على مكارم الوقائع وعزائم الأمور، ولكن إذا علم المتابع أن تلك الأخلاق وذلك الجيل هو الذي أنتج الحضارة الإسلامية بما فيها من الرقي الأخلاقي والسمو الروحي، وما رافقها من العلم والعدل والرحمة يزول عنه العجب، إذ أن جيل المكرمات من أصحاب رسول الله ﷺ هو أهل لأن يرسم لنا أمتع وأجمل صور المؤمنين؛ الذين ساروا على وجه هذه البسيطة، وهو المؤهل لتأصيل أخلاق التراحم والفداء والتنافس على الشهادة بين أبناء الإنسانية، حتى أصبح الصحابة ﷺ بأخلاقهم في كل جوانب الحياة الحربية والسياسية والفكرية وغيرها محل القدوة، قال عمر الفاروق ﷺ إنما أنتم يا أصحاب محمد ﷺ قدوة"[2] نعم لقد كان أصحاب محمد ﷺ وسيبقون هم القدوة في المكارم ونبل القيم؛ لما في مواقفهم من طهر الطوية، وجمال الأداء ودقة المسار، حتى أصبحوا كالنجوم في مسار القيم الإنسانية، وكالأزهار في عيون المنصفين من أئمة البشرية، وسيبقى أعداؤهم محل التهمة والريبة لما في نفوسهم من الغدر والبغي والزيف الذي قادهم إلى بغض أشرف البشر وأكرم

---

(١) ابن أبي شيبة: مصنف ابن أبي شيبة ، كتاب الجهاد، في فضل الجهاد والحث عليه، (١٩٣٥٥).

(٢) المتقي الهندي: كنز العمال، كتاب المعيشة قسم الأفعال، أدب حقوق البيت، محظورة، (٤١٩٤٥).

الناس بعد الأنبياء عليهم السلام.

من آداب طلب الشهادة في عصر الرسول ﷺ

قال رسول الله ﷺ لأصحابه ﷺ: " لما أصيب إخوانكم بأحدٍ جعل اللّه أرواحهم في جوف طيرٍ خضر ترد أنهار الجنة: تأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهبٍ معلقةٍ في ظلِّ العرش، فلمَّا وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم، قالوا: من يبلغ إخواننا عنَّا أنَّا أحياءٌ في الجنة نُرزق، لئلاّ يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا عند الحرب؟ فقال اللّه سبحانه: أنا أبلِّغهم عنكم، قال: فأنزل اللّه تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ "[1] (آل عمران:١٦٩) ونظراً لتقدير المؤمنين لمكانة الشهادة ومقام الشهداء، كان التنافس على نيلها على الوجه الصحيح، وتحت رايات التوحيد والطاعة، وبعد التنافس كان هناك تمني نيل الشهادة بما فيهم رسول الله ﷺ الذي ثبت عنه تمنيه للشهادة كما سبق. قال ﷺ: " والذي نفسي بيده، لوددت أن أقتل في سبيل الله ثم أحيا، ثم أقتل ثم أحيا، ثم أقتل ثم أحيا، ثم أقتل "[2] ولما كان رسول الله ﷺ يتمنى ذلك فقد كان أصحابه ﷺ يتمنون ما يتمناه ﷺ حتى أصبحت حياتهم كلها في سبيل الله فقتالهم لا يشبهه قتال أحد لأنه خالص لوجه الله تعالى لا رياء فيه ولا سمعة.

قال سعد بن أبي وقاص ﷺ إن عبد الله بن جحش ﷺ قال يوم أحد: ألا تأتي ندعو الله؟ فخلوا في ناحية فدعا سعد ﷺ فقال: يا رب إذا لقينا القوم غداً فلقني رجلاً شديداً بأسه شديداً حرده؛ فأقاتله فيك ويقاتلني، ثم ارزقني عليه الظفر حتى أقتله وآخذ سلبه، فقام عبد الله بن جحش ثم قال: اللهم ارزقني غداً رجلاً شديداً حرده شديداً بأسه أقاتله فيك ويقاتلني، ثم يأخذني فيجدع أنفي وأذني، فإذا لقيتك

---

(١) أبو داوود: سنن أبو داوود، باب في فضل الشهادة،(٢٥٢٠).

(٢) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب: تمني الشهادة. ح (٢٦٤٤) وانظر [٢٨١٠، ٦٧٩٩، ٦٨٠٠]. مسلم: صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الشهادة في سبيل الله تعالى،ح (١٨٧٧).

غداً قلت يا عبد الله فيم جدع أنفك وأذنك؟ فأقول فيك وفي رسولك فيقول ﷻ: صدقت، قال سعد بن أبي وقاص ﷺ كانت دعوة عبد الله بن جحش ﷺ خيراً من دعوتي، لقد رأيته آخر النهار وإن أذنه وأنفه لمعلقان في خيط[1] وهذا المقام الذي سمى به أصحاب رسول الله ﷺ لا شك أنه منتهي ما يتوصل إليه البشر من السمو الروحي، والتعالي على الدنيا حيث يزهد أحدهم في كل شيء حتى بالنصر على عدوه اللدود، فضلاً عن أن ينال أي مكسب من مكاسب الدنيا، وكل ذلك يتمناه ويعمل من أجله في سبيل مسألة واحدة هي أن يقبله الله تعالى مع الشهداء المخلصين، وهذا الموقف وأمثاله في السيرة النبوية فيه الرد الكاسح على كل مروجي البهتان على جهاد المسلمين الصادقين، وعلى المشككين بإخلاصهم وزهدهم وصدق شعاراتهم، التي كانوا يرفعونها ويجاهدون من أجلها، فأثبتت أنهم خرجوا في سبيل الله لإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ولو كان لهم هدف آخر ظهر في أفعالهم ومواقفهم على شكل انتقام أو استباحة أو نهب أو سلب ودمار وتخريب؛ كما يفعل الغزاة والمحتلون في هذا العصر وما قبله، الذين ليس بينهم وبين إعلان الحروب على مخالفيهم سوىً أن تكون لديهم وسائل القوة المادية المدمرة، وعندها يتفننون في فرض شروطهم وإخضاع عدوهم، بينما التنافس في أخلاق الحرب عند المجاهدين، دائماً يكون على الفضائل والمكارم وخدمة الأمة، قال ﷺ: "ألا أنبئكم بليلة أفضل من ليلة القدر؟ حارس حرس في أرض خوف لعله أن لا يرجع إلى أهله"[2] وقال ﷺ: "وأخرى يرفع بها العبد مائة درجة في الجنة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض" قال: - أبو سعيد الخدري ﷺ - وما هي

---

(١) البيهقي: سنن البيهقي الكبرى، كتاب قسم الفيء والغنيمة، باب السلب للقاتل. الحاكم، المستدرك: كتاب الجهاد، (٢٤٠٩) قال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

(٢) الحاكم: المستدرك، كتاب الجهاد، (٢٤٢٤) النسائي: النسائي الكبرى، كتاب السير، باب فضل حارس حرس (٨٨٦٨).

يا رسول الله؟! قال ﷺ:_(الجهاد في سبيل الله، الجهاد في سبيل الله)[1] .

فأهمية التمسك بآداب الحرب التي عمل بها النّبي ﷺ وأصحابه ﷺ لا مفر منه لأنه هو السبيل المضمون والطريق الموصل إلى ما يحبه الله ورسوله ﷺ ولأنها الباب الأوسع لدخول الجنة، وهذا ما آمن به حملة الصحابة ﷺ وعملوا بمفهومه ففي معركة بدر بلغت معنويات المسلمين وشوقهم إلى الجنة، أن البعض منهم لم يعد يصبر حتى يأكل ما بيده من التمر! خشية التأخر عن مواجهة المشركين، بل شوقاً إلى الجنة، فلما هاجمهم المشركون يوم بدر. قال رسول الله ﷺ: " **قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض** " قال: يقول عمير بن الحمام الأنصاري ﷺ: يا رسول الله! جنّة عرضها السماوات والأرض؟ قال (نعم) قال: بخ بَخ. فقال رسول الله ﷺ " ما يحملك على قولك بخ بَخ " قال: لا والله يا رسول الله! إلا رجاءة أن أكون من أهلها، قال ﷺ "فإنك من أهلها" فأخرج تمرات من قرنه، فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه، إنها لحياة طويلة، قال: فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتل حتى قتل ﷺ[2] وهذه سبيل من آمن وأبصر وسار في حياته على بينة من أمره فاختار النجاة.

وبلغ من مكانة الشهادة عند الله تعالى أنه إذا أسلم الإنسان ثم باشر القتال بنية صادقة، فاستشهد دون أن يصلي أي ركعة دخل الجنة كما حصل مع " عمرو بن أقيش كان له رِباً في الجاهلية فكره أن يُسلم حتى يأخذه، فجاء يوم أُحد فقال: أين بنو عمي؟ قالوا: بأُحد، قال: أين فلان؟ قالوا: بأحد، قال: فأين فلان؟ قالوا: بأحد، فلبس لأمته وركب فرسه، ثم توجَّه قِبَلهم، فلما رآه المسلمون قالوا: إليك عنا يا عمرو، قال: إني قد آمنت فقاتل حتى جُرح، فحُمِل إلى أهله جريحاً، فجاءه سعد بن معاذ فقال لأخته: سَلِيه حميةً لقومك، أو غضباً لهم، أم غضباً للّه؟ فقال:

---

(١) مسلم: صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب بيان ما أعده الله تعالى للمجاهد في الجنة من الدرجات،ح (١٨٨٤).

(٢) مسلم: صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد،ح (١٩٠١).

بل غضباً للّه ولرسوله، فمات فدخل الجنة، وما صلّى للّه صلاةً"[1] ولما بلغ مقام الشهادة في مفاهيم الحرب في السيرة كل هذا المبلغ السامي، أصبح من يخشى أن يفوته قطار ا لشهداء يلجأ إلى الله تعالى متضرعاً أن لا يحرمه الشهادة في سبيله والدعاء بالشهادة للرجال والنساء. :قال عمر ﷺ: اللهم ارزقني شهادة في بلد رسولك"[2]. ولما ذكر النبي ﷺ الجهاد في البحر وفضل أهله قالت أم حرام بنت ملحان زوجة عبادة بن الصامت ﷺ: "يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم، فدعا لها رسول الله ﷺ ... فركبت البحر في زمان معاوية بن أبي سفيان ﷺ فصرعت عن دابتها حين خرجت من البحر، فهلكت"[3] وذلك في جزيرة قبرص فتحقق لها ما دعا به رسول الله ﷺ [4] فيتبين أن طلب الشهادة في أخلاقيات المجاهدين في عصر الرسالة، يعد أحد المفاهيم الأصيلة التي يبحث عنها المؤمنون بضوابطها العادلة ومقاصدها الرحيمة النبيلة، وواضح أن طلب الشهادة كان يمثل الهدف الأسمى في سير المؤمنين إلى الله تعالى فإن فات أحدهم ذلك لجأ إلى الدعاء أن يرزقه الله الشهادة، كما فعل أمير المؤمنين عمر ﷺ وكما فعلت أمّ حرام رضي الله عنها، وغيرها الكثير ممن سلك طريق الشهادة مختاراً حتى نال ما يتمناه.

ولكن مع كل هذه المكانة العظيمة للشهادة عند الله وعند رسوله ﷺ ومغفرة الله تعالى لكل ذنوب الشهيد التي بينه وبين ربه، إلا أن الشهادة لا تغفر حقوق العباد، مما يؤكد نزاهة أهداف الحرب في عقيدة المسلمين، وأنه لا بد من أداء حقوق العباد صغيرة وكبيرة، لأن من مقاصد الحرب في السيرة النبوية إقامة العدل وإزاحة الظلم ونشر التوحيد وحماية حرية العبادة، وتنظيم العلاقات الاجتماعية بين الناس

---

(١)سنن أبي داوود، باب فيمن يُسْلم ويُقتلُ مكانه في سبيل اللّه عزّ وجل، (٢٥٣٧).

(٢) البخاري: الجامع الصحيح، ، كتاب الجهاد، باب، أفضل الناس مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل ا لله، باب: الدعاء بالجهاد والشهادة للرجال والنساء، ح (١٧٩١).

(٣) البخاري: الجامع الصحيح، ، كتاب الجهاد، باب، أفضل الناس مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل ا لله، باب: الدعاء بالجهاد والشهادة للرجال والنساء، ح (٢٦٣٦).

(٤) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٢/ ٣١٦. ابن حبيش: غزوات ابن حبيش، ١/ ٣٧٦.

وحفظ أمنهم وسلامتهم، فلا عدوان ولا نهب ولا سلب كما يفعل الآخرون الذين يغزون بلاد المسلمين فيفعلون كل ما يستطيعون فعله لا يمنعهم من ذلك دين ولا قانون، وهذا تحاربه شريعة المسلمين وجهادهم، فلا سبيل في عقيدتهم إلى حقوق الناس ما يبحها شرع الله القائم على العدل والإنصاف، فبلغ من مكانة الشهادة عند الله تعالى في مفاهيم الماهدين أنها تكفر جميع الذنوب إلا الدَين وحقوق العباد، ليعلم الناس أن أخلاقيات الحرب في عصر الرسول ﷺ لا تحابي أحداً في ضوابطها.

حقوق العباد في آداب الحرب في عصر الرسالة

إن آداب الحرب في عصر الرسالة مشرقة في كل جنباتها واتصالاتها مع الناس، فعلى الرغم مما أعطاه الإسلام من فضل ومكانة عظيمة للشهيد، لكنه لم يبح له في حال من الأحوال أن يتجاوز العدل الذي يشمل جميع الناس مؤمنين وكافرين وأن يعطي لكل ذي حق حقه، بما في ذلك حماية الحيوان وحقه في الحياة، في مثل قوله ﷺ: " دخلت امرأة النار في قطة حبستها فلا هي أطعمتها ولا تركتها تأكل من خشاش الأرض"[(١)] وكل ذلك يكون مصحوباً بالرحمة والإحساس بمشاعر الآخرين. قال ﷺ: " في كل كبد رطبة أجر"[(٢)] وكذلك حفظ الشجر وكل ما ينفع الناس إلا بحقه كما هو ظاهر في وصايا رسول الله ﷺ لقادة جنده الذين يمثلون في مواقفهم الرائعة أخلاق الحرب في عهده ﷺ وهذه من خصائص آداب الحرب في الإسلام، فلا توجد بهذا الوضوح والشمول وبهذه الصرامة عند غيرهم، وكيف تقرّ أخلاق الحرب في عصر الرسول ﷺ الظلم، وما أُذن للمسلمين في القتال إلا لإزالته. قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (الحج:٣٩) فالظلم الذي حرّمه الله على نفسه لا يبيحه سبحانه وتعالى لأحد من

---

(١) البخاري: كتاب بدء الخلق، باب خمس من الدواب فواسق يقتلن ولو في الحرم، ح (٣١٤٠).

(٢) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب المساقاة، باب فضل سقي الماء، ح (٢٢٣٤).

خلقه " يا عبادي إني حرّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا"[1] وهذا يشمل المسلمين وأهل الذمّة كما اتضح في موضعه، وكذلك مع المحاربين كما ظهر في التعامل مع الأسرى، وهذا ما امتازت به أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية، من شمولية العدل التي تشمل الدم والمال والعرض والفكر والهوية وغير ذلك، فمهما بلغ المسلم من المكانة فإن حقوق العباد تبقى مصانة في أخلاقياته، عن أبي قتادة ﷺ أن رسول الله ﷺ قام فيهم فذكر لهم: " أن الجهاد في سبيل الله والإيمان بالله أفضل الأعمال " فقام رجل فقال: يا رسول الله! أرأيت إن قُتلت في سبيل الله تكفر عني خطاياي؟ فقال له رسول الله ﷺ " نعم، إن قتلت في سبيل الله، وأنت صابر محتسب، مقبل غير مدبر" ثم قال رسول الله ﷺ " كيف قلت؟ " قال: أرأيت إن قتلت في سبيل الله أتكفر عني خطاياي؟ فقال رسول الله ﷺ "نعم. وأنت صابر محتسب، مقبل غير مدبر، إلا الدّين، فإن جبريل عليه السلام، قال لي ذلك"[2] .

فحقوق العباد محفوظة في أخلاق الحرب في عصر الرسول ﷺ، فمن يُقدّم دمه وماله في سبيل الله لا يمكن أن يكون ذلك سبباً لتجاوز حقوق الخلق، قال ﷺ " يُغفر للشهيد كل ذنب إلا الدين"[3] والديَن قد يكون مادي أو معنوي، وقد يكون بحضور صاحبه أو بغيابه، ففي كل تلك الأحوال لا بد من أداء الديَن، وهذا منتهى الإنصاف والرقي الأخلاقي الذي أشرقت به آداب جنود عصر الرسالة على البشرية، فكانت تلك الأخلاقيات هي الرسول بينهم وبين الناس الذين فتحوا لهم قلوبهم قبل أن تفتح لهم الحصون، وهذا ما يجب أن يعلمه كل مؤمن ويتخلق به في

---

(١) مسلم: صحيح مسلم، كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، (٢٥٧٧) الطيالسي: مسند الطيالسي، أحاديث أبي ذر (٤٦٣).

(٢) مسلم: صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب من قتل في سبيل الله كفرت خطاياه، إلا الدين،ح (١٨٨٥). الترمذي: سنن الترمذي، أبواب الجهاد عن رسول الله ﷺ باب ما جاء فيمن يستشهد وعليه دينٌ. (١٧٦٥).

(٣) الحاكم ، المستدرك: كتاب الجهاد، باب الدَين، (٢٥٥٤)

هذا العصر نصرة للعدل والأمن والاستقرار الذي يمثل أهم حاجات البشرية في هذه المرحلة، فضلاً عن أنه من أسمى مقاصد الحرب في الإسلام، فالقتال في الإسلام لا يُشرع إلا بحق لا بد منه، وهذا هو قدر السائرين تحت ظلال رايات الجهاد في سبيل الله، قال ﷺ: " لا تزال طائفةٌ من أمتي يقاتلون على الحقِّ ظاهرين على من ناوأهم حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجال "[1] **فإن ظلمهم الناس لا يجوز لهم أن يواجهوا الظلم بالظلم، ولا الغدر بالغدر، وإنما يواجهون الظلم بالعدل، والغدر بالوفاء**، وأفعال الجبناء بقيم الفروسية وشيم المجاهدين، قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ﴾ (المائدة: من الآية٨).

وكل هذا يشير إلى أنه لا انفكاك من العدل والوفاء وأداء الأمانة ولا رخصة في ذلك، في حالات الغضب والرضا والحرب والسلام، ومن ذلك ما رواه جابر رضي الله عنه قال: " كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة خيبر فخرجت سرية فأخذوا إنساناً معه غنم يرعاها فجاءوا به إلى رسول الله ﷺ فكلمه النبي ﷺ ما شاء الله أن يكلمه. فقال له الرجل: إني آمنت بك وبما جئت به فكيف بالغنم يا رسول الله؟ فإنها أمانة وهي للناس الشاة والشاتان وأكثر من ذلك!! قال ﷺ: أحصب وجوهها ترجع إلى أهلها، فأخذ قبضة من حصباء أو تراب فرمى بها وجوهها فخرجت تشتد حتى دخلت كل شاة إلى أهلها، ثم تقدم إلى الصف فأصابه به سهم فقتله! ولم يصل لله سجدة قط! فقال رسول الله ﷺ أدخلوه الخباء فأدخل خباء رسول الله ﷺ حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ دخل عليه ثم خرج فقال لقد حسن إسلام صاحبكم لقد دخلت عليه وإن عنده لزوجتين له من الحور العين"[2] فالإسلام يصون حقوق الناس من

---

(١) أبو داوود: سنن أبي داوود، باب في دوام الجهاد، (٢٤٨٤).

(٢) الحاكم: المستدرك، كتاب قسم الفيء. (٢٦٠٩) ابن حبان: صحيح ابن حبان، كتاب الطهارة، باب غسل الكافر، (١٢٣٨).

جميع الأجناس والأديان، لا يفرق بين أحد منهم، وأخلاق المسلمين لا تحصر الجهاد فقط في الأعمال الحربية، فهناك كثير من الأعمال في بعض الأوقات تكون أكثر أهمية من القتال بالسيف، ومن ذلك أداء حقوق العباد وحفظ العهود والوفاء بالمواثيق، وهذا لا يوجد بهذا التشريع وبهذه الدقة والصرامة إلا عند المسلمين، مما يؤكد على مزايا التشريع الإسلامي عن غيره من تشريعات يخص فيه المشرعون أقوامهم وأجناسهم على من سواهم من الناس، فيكون تشريعهم ناقص وحقوق الآخرين فيه منقوصة أو مستباحة، ولعل مصداقية هذا قائمة فيما حصل في العراق وأفغانستان والشيشان ومن قبل في فلسطين وغيرها.

وفي المواقف المشرقة المتأصلة في أخلاق الحرب في عصر الرسول ﷺ ما يرد الأباطيل والشبهات التي يبثها بعض المستشرقين ومعهم أعداء الصحابة تزييفاً للحقيقة التاريخية، وتلبيساً على الناس، ولا سيّما في الغرب لتشويه صورة الإسلام ونبي الإسلام ﷺ للحيلولة بينهم وبين معرفة حقيقة أخلاق الحرب في الإسلام، كما فعل "المونسنيور كولي" حين صور الإسلام ونبيه ﷺ بصور مشوهة يتحكم فيها التعصب والتطرف إمعاناً في تضليل أفكار المستشرقين المتطرفين وتلامذتهم، فهو يقول: "لقد وضع محمد ﷺ السيف في أيدي الذين اتبعوه وتساهل في أقدس قوانين الأخلاق ثم سمح لأتباعه بالفجور والسلب"[1] متجاهلاً في بهتانه هذا كل حقائق الفتوح وقيم الكتاب والسنة؛ وما انطوت عليه من قواعد أخلاقية نظّمت كل خطوة يخطوها المسلم في حياته وحتى في أفكاره وخواطره.

فهذه أخلاق الحرب في عصر الرسالة، تُعلم أتباعها كيف يكون أداء حقوق العباد، وأن صاحب الحق لا يحول بينه وبين حقه حائل، فهل توجد مثل هذه النصوص الحاسمة في أداء الحقوق عند أتباع الثقافات المشوشة على أخلاق الحرب في عصر الرسول ﷺ؟ وهل يحكم أصحاب هذا المنهج المتنصل من ضوابط البحث

---

(١) ينظر حمدان: الرسول في كتابات المستشرقين، ١١٠.

الموضوعي، والمسقط للأمانة في إصدار الأحكام على الآخرين، هل يحكم بصدق عمّا هو حاصل في هذا العصر من مصائب ونكبات لكثير من أهل الإسلام، على أيدي القوى التي تسترشد بثقافة المستشرقين؟ التي غالباً ما توجهها الأهواء الشخصية والأطماع الاستعمارية، أو مقاصد الإرساليات التنصيرية، وما رافق ذلك أو تبعه من المناهج التضليلية التي وضعها بعض المستشرقين من أمثال: كرومر وليوتن، ودنلوب، وزويمر، ولورانس، وغيرهم ممن سميت نشاطاتهم لاحقاً بأعمال التغريب[1] وأين نقد هؤلاء لما كان يقوم به المستعمرون في بلاد المسلمين من القتل والتشريد والنهب وتقاسم البلاد؟ ووضع الحدود فيما بينهم؟ وأين مواقف تلامذتهم مما يعانيه كثير من أهل الإسلام في هذا العصر من دمار جيوش وأسلحة من ينتقدون أخلاق الحرب في حياة الرسول ﷺ التي تتقلب ثقافتها بين الرحمة والعفو والعدل والتعايش مع الآخرين؟!.

أهل الأعذار في آداب الحرب في عصر الرسول ﷺ

لما كان العدل هو القاعدة التي بنيت عليها أخلاق الحرب في الإسلام، الذي لا يبيح حتى للشهيد الذي يجود بماله ونفسه في سبيل الله أن يذهب بحقوق الناس، فالإسلام الذي أنصف الناس في حقوقهم، كذلك أنصف أصحاب الأعذار ممن لا يمكنهم المشاركة في الحرب لأعذار شرعية خارجة عن إرادتهم، فعلى الرغم من التشديد الكبير الظاهر في نصوص الكتاب والسنة على خطورة التخلف عن الجهاد، فإن الآيات القرآنية والأحاديث النبوية قد أقرت العذر لمن لا قدرة له على المشاركة. قال البراء ﷺ لما نزلت هذه الآية: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾﴾ (النساء: ٩٥).

---

(١) ينظر حمدان: الرسول ﷺ في كتابات المستشرقين، ١١١.

فأمر رسول الله ﷺ زيد بن ثابت ﷺ فجاء بكتف يكتبها، فشكا إليه عبد الله بن أم مكتوم ضرارته – فقدانه لبصره – فنزلت هذه الآية[1] ومثلما أُعذر أصحاب العاهات المزمنة، كذلك أُعذر من لازمته ظروف قاهرة فحبسته عن المشاركة في القتال مع رسول الله ﷺ ، يتبين ذلك في قول النبي ﷺ حين كان في غزاة فقال: "إن أقواماً بالمدينة خلفنا، ما سلكنا شعباً ولا وادياً إلا وهم معنا فيه، حبسهم العذر"[2] وقال جابر ﷺ كنا مع النبي ﷺ في غزاة، فقال: "إنّ بالمدينة لرجالاً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً، إلا كانوا معكم، حبسهم المرض"[3].

والشاهد في هذه النصوص أن الإسلام حين جعل القتال والدفاع عن العقيدة ذروة سنامه وأعطى على ذلك أعظم الأجر، في مثل قوله ﷺ لمعاذ بن جبل ﷺ: "رأس الأمر وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد"[4] فعندها أحسّ المخلصون من أهل الأعذار بالفارق بينهم وبين من يشارك رسول الله ﷺ في جهاده لنصرة التوحيد ودفع الظلم، فأنزل الله تعالى هذه الآيات التي تبين أنّ أصحاب الأعذار موكولون إلى نواياهم. قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ (الفتح:١٧) معذورون عن المشاركة ولهم الأجر بقدر تفاعلهم مع حال الأمة وعملهم بما يستطيعون من أعمال أخرى وإن كان النّبي ﷺ يتسعين ببعضهم في أعماله كما كان يفعل في تولية عبد الله بن أم مكتوم على المدينة في بعض غزواته ﷺ.

---

(١) مسلم: صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب سقوط فرض الجهاد عن المعذورين،ح (١٨٩٨).

(٢) البخاري: الجامع الصحيح، ، كتاب الجهاد باب: من حبسه العذر عن الغزو. ح (٢٦٨٤) و (٢٦٨٣/ ٢٦٨٤).

(٣) مسلم: صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب ثواب من حبسه عن الغزو مرض أو عذر آخر،ح (١٩١١).

(٤) ابن حنبل: المسند، ح (٢٢٠٦٩). الحاكم: المستدرك، كتاب التفسير، تفسير سورة السجدة، ح (٣٥٤٨).

الفصل الثالث

الموقف من الضعفاء والجواسيس والأسرى

في آداب الحرب في عصر الرسول ﷺ

رَفْعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

المبحث الأول

النساء والأطفال والرقيق في آداب الحرب

في عصر الرسول ﷺ

الموقف من مشاركة المرأة في القتال في عصر الرسالة

المسلمون كالجسد يشد بعضه بعضاً وفي عصر الرسالة كان التعاون قائماً بين جميع أبناء المجتمع على تنفيذ متطلبات بناء دولة الإسلام وحمايتها من عدوان المشركين وكيد المنافقين، والمتابع لأخلاق الحرب في عصر الرسالة، يجد أن المرأة المسلمة كانت حريصة أن تكون إلى جنب الرجل في كل صفحات حياته، تبين ذلك في حال النساء اللاتي صبرن على أذى المشركين في مكة، حتى أعتقهن أبو بكر رضي الله عنه وتأكد في كثير من المواقف الأخرى ومنها إصرار النساء على مبايعة رسول الله ﷺ على الوفاء لما جاء به والعمل بذلك، فكانت بيعة النساء وهجرة النساء إلى المدينة، مما يوضح «أن النساء شقائق الرجال»[(1)] في أخلاق الحرب في عصر الرسالة وتوجهاتها في السعي لتحمل متطلبات قيام الدولة الإسلامية.

قالت الطاهرة عائشة رضي الله عنها: "كانت المؤمنات، إذا هاجرن إلى رسول الله ﷺ يُمتحنّ بقول الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ

---

(1) سنن الترمذي: الطهارة، باب فيمن يستيقظ فيرى بللاً (113) ابن الجارود: المنتقى من السنن المسندة، في الجنابة والتطهر منها (90).

﴿وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة:١٢]. قالت: " فمن أقرّ بهذا من المؤمنات، فقد أقرّ بالمحنة، وكان رسول الله ﷺ إذا أقررن بذلك من قولهن، قال لهن رسول الله ﷺ»انطلقن. فقد بايعتكن« ولا. والله! ما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأة قط، غير أنه يبايعهن بالكلام«[1] .

فآداب ذلك الجيل تقوم على قيم العمل في سبيل الله، وكانت هناك رغبة عند الكثير من النساء بالمشاركة مع النبي ﷺ في الدفاع عن التوحيد ومساندة المقاتلين في سبيله، وكان النّبي ﷺ يخرج ببعض نساءه إلى مواقع القتال على الرغم من المخاطر التي ممن الممكن أن يتعرضن لها، وكان إذا همّ بعمل عسكري يواجه به المشركين يعقد القرعة بين نسائه فمن وقعت لها رافقت رسول الله ﷺ .

قالت أم المؤمنين الطاهرة عائشة رضي الله عنها: "كان النّبي ﷺ إذا أراد أن يخرج أقرع بين نسائه، فأيتهن يخرج سهمها خرج بها النبي ﷺ فأقرع بيننا في غزوة غزاها، فخرج فيها سهمي، فخرجت مع النبي ﷺ بعد ما أنزل الحجاب"[2] وأحياناً يصحب رسول الله في غزواته أكثر من زوجة من زوجاته، قالت أم المؤمنين الطاهرة عائشة: "كان رسول الله ﷺ إذا خرج أقرع بين نسائه، فطارت القرعة على عائشة وحفصة فخرجتا معه جميعاً"[3] وكان دور النساء مساند للرجال في المواجهات التي تمت مع المشركين وغيرهم، ممن عملوا للحيلولة دون انتشار الإسلام في جزيرة العرب، وكان لذلك الدور أثره في المطاولة والثبات في أيام الحصار والأزمات التي تعرض لها المسلمون، ولم يكن دور المؤمنات في إدارة شؤون المنزل وتدبير متطلباته والتعايش مع المتاح والمتوفر، وإعداد الجيل المؤمن بأخلاق عصر الرسالة، إلا وجه من وجوه الإنجازات الكبرى التي أثمرتها تعاليم النبوة وتوجيهاتها بين صفوف النساء، فضلاً عن مشاركاتهن في الغزوات.

---

(١) مسلم: صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب كيفية بيعة النساء، (١٨٦٦).

(٢) البخاري: كتاب الجهاد، باب، حمل الرجل امرأته في الغزو دون بعض نسائه. ح (٢٧٢٣).

(٣) سنن الدارمي: كتاب الجهاد باب في النساء يغزون مع الرجال، (٢٤٢٣).

وعلى الرغم من أن أخلاق الحرب في عصر الرسالة لا تحث النساء على مباشرة القتال؛ فإن نساء النبي ﷺ وغيرهنَّ كنَّ يطالبن بالمشاركة في غزواته طمعاً بالأجر. قالت أم المؤمنين الطاهرة عائشة: "استأذنت النّبي ﷺ في الجهاد، فقال: «**جهادكن الحج**»[1] وحين سألنه نساءه مجتمعات أن يأذن لهنّ في المشاركة في الدفاع عن التوحيد أمام هجمات المشركين. قال ﷺ: « **نِعم الجهاد الحج**»[2] ولم يكن الحرص على المشاركة في الدفاع عن حرية عقيدة المسلمين وحمايتها شأن نساء النّبي ﷺ وإنما كان هذا هو حال عامة نساء المسلمين، قالت أم عطية الأنصارية: "غزوت مع رسول الله ﷺ سبع غزوات، أخلفهم في رحالهم، فأصنع لهم الطعام، وأداوي الجرحى، وأقوم على المرضى"[3] وكان رسول الله ﷺ يغزو بأم سليم ونسوة من الأنصار معه إذا غزا؛ فيسقين الماء ويداوين الجرحى"[4].

وعن أنس ﷺ قال: لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النّبي ﷺ قال: ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر، وأم سليم، وإنهما لمشمرتان، أرى خدم سوقهما، تنقزان القرب. وقال غيره: تنقلان القرب على متونهما، ثم تفرغانه في أفواه القوم، ثم ترجعان فتملآنها، ثم تجيئان فتفرغانها في أفواه القوم"[5] وقد حفظ المسلمون هذه المواقف وكافؤوا من قمنّ به، قال ثعلبة بن أبي مالك: إنّ عمر بن الخطاب ﷺ قسم مروطاً بين نساء من نساء المدينة، فبقي مرط جيد، فقال له بعض من عنده: يا أمير المؤمنين، أعط هذا ابنة رسول الله ﷺ التي عندك، يريدون أم كلثوم بنت علي ﷺ فقال عمر ﷺ: أم سليط أحق، وأم سليط من نساء الأنصار، ممن بايع رسول الله ﷺ قال عمر ﷺ: فإنها كانت تزفر لنا القرب يوم أحد. قال أبو عبد الله: تزفر

---

(١) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب: جهاد النساء. ح (٢٧٢٠/ ٢٧٢١).

(٢) البخاري: صحيح البخاري، كتاب الجهاد، ، باب: جهاد النساء. ح (٢٧٢١).

(٣)صحيح مسلم، كتاب، الجهاد والسير، باب النساء الغازيات يرضخ لهن ولا يسهم، ح (١٨١٢).

(٤) مسلم: صحيح مسلم، كتاب، الجهاد والسير، باب غزوة النساء مع الرجال،ح (١٨١٠).

(٥) البخاري: كتاب الجهاد، باب: غزو النساء وقتالهن مع الرجال. (٢٧٢٤) صحيح مسلم، كتاب، الجهاد والسير، (١٨١١).

تخيط[1] وقالت الرُّبيّع بنت معوذ قالت: كنّا مع النبي ﷺ نسقي ونداوي الجرحى، ونردّ القتلى إلى المدينة[2] وقالت: كنّا نغزو مع النبي ﷺ فنسقي القوم، ونخدمهم، ونردّ الجرحى والقتلى[3] ولعلّ أوسع مشاركات النّساء كانت في غزوة خيبر، وقد يكون من الأسباب التي جعلت النبي ﷺ يأذن لهذا العدد منهنّ على الرغم من بعد العدو؛ توقع حرب طويلة الأمد لمناعة الحصون وتحصن أهل خيبر فيها، فكان يُتوقع كثرة الجرحى، وقد يكون مما شجع على ذلك أيضاً موعود الله للنبي ﷺ بفتح خيبر، قا ل تعالى: ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ [الفتح:٢٠] ولكن لما رأت قوات خيبر جيش المسلمين أسقط في أيديهم، وبعث الله الرعب في قلوبهم، على الرغم من كثرتهم ومناعة قلاعهم وكثرة عتادهم.

قال الواقدي: خرج مع رسول اللّه ﷺ من المدينة عشرون امرأة. ذكر منهن: " أمّ سلمة زوجته ﷺ وصفيّة بنت عبد المطّلب عمته ﷺ وأمّ أيمن وسلمى امرأة أبى رافع مولاّة النّبىّ ﷺ وامرأة عاصم بن عدىّ ولدت سهلة بنت عاصئم بخيبر، وأمّ عُمارة نسيبة بنت كعب وأمّ منيع وهى أمّ شباث، وكعيبة بنت سعد الأسلميّة، وأمّ متاع الأسلميّة، وأمّ سليم بنت ملحان، وأمّ الضّحّاك بنت مسعود الحارثيّة، وهند بنت عمرو بن حزام، وأمّ العلاء الأنصاريّة وأمّ عامر الأشهليّة، وأمّ عطيّة الأنصاريّة، وأمّ سليط رضي الله عنهن. وقال عبد اللّه بن أنيس، قال: خرجت مع النّبىّ ﷺ إلَى خيبر ومعى زوجتي حبلى، فنفست بالطّريق فأخبرت رسول اللّه ﷺ فلمّا فتحنا خيبر أحْذى النّساء، ولم يسهم لهنّ فأحذى زوجتى وولدي الذي ولد[4]

---

(١)البخاري: كتاب الجهاد، باب: حمل النساء القرب إلى الناس في الغزو. (٢٧٢٥).والمرط: ثوب من خز أو صوف يُلتحف أو يؤتزر به.

(٢) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب: مداواة النساء الجرحى في الغزو. ح (٢٧٢٦).

(٣) البخاري: كتاب الجهاد، باب: رد النساء الجرحى والقتلى. ح (٢٧٢٧).

(٤) الواقدي: المغازي، ٢/ ١٤٤.

وقالت أمّ سنان: لمّا فتح النبي ﷺ خيبر رضخ لنا أعطانا من الفيء؛ فأعطاني خرزًا وأوضاحًا من فضّة أصيبت في المغنم، وأعطانى قطيفة فدكيّة وبُرْدًا يَمانيًا، وخَمائل وقدرًا من صفر[1] وكان رجال من أصحابه قد جرحوا فكنت أداويهم بدواء كان عند أهلي فيبرءون فرجعت مع أُمّ سلمة، فقالت لي: حين أردنا ندخل المدينة، وكنت على بعير من إبل النّبى ﷺ منحه لي، فقالت: بعيرك الذي تحتك لك رقبته أعطاكيه رسول اللّه ﷺ قالت: فحمدت اللّه وقدمت بالبعير فبعته بسبعة دنانير. قالت فجعل اللّه في وجهي ذلك خيرًا[2] .

فهذه النصوص تشير إلى أثر المرأة المسلمة في المواقف الحرجة وتبين صبرها وجرأتها وثقتها بقيادتها وعقيدتها، كما توضح العلاقة التي كانت سائدة فيما بين المسلمين ونسائهم، ومكانة المرأة وقدرتها على الاتصال بقيادتها وطرح أفكارها ومقترحاتها وقبول النبي ﷺ لذلك واستقباله مثل تلك الطروحات باحترام وتقدير؛ واستجابته لها وهو ﷺ يواجه حالة من الاستعداد والنفير، لمواجهة عدو يفوقه في العدد والعدة وفي مناعة الحصون والثراء ووسائل التموين والإمداد والحماية، وهذا يشير إلى قيم الحرب في عصر الرسالة، ومنهجها في قيادة الأزمات وتفعيل الترابط والتعاون بين أبناء المجتمع الإسلامي.

واستمرت المرأة المسلمة في عصر الرسالة إلى جانب الرجل تقاسمه همومه وتشاركه آلامه وتقوم بمسؤوليات الأسرة وإعداد جيل الفتوح، ولم تدع المشاركة في ما حصل من تحركات عسكرية يقودها النّبي ﷺ في فتح مكة أو يوم حنين أو في حصار الطائف وغير ذلك، وفي يوم حنين جاء أبو طلحة الأنصاري رضي الله عنه يضحك إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! ألم تر إلى أم سليم معها خنجر، فقال لها رسول الله ﷺ: "يا أم سليم ! ما أردت إليه"؟ قالت: أردت إن دنا إليّ أحد منهم طعنته

---

(١) الواقدي: المغازي، ٢/ ١٤٤.

(٢) الواقدي: المغازي، ٢/ ١٤٥.

به"[1] وقالت: يا رسول الله! اقتل من بعدنا من الطلقاء انهزموا بك. فقال رسول الله ﷺ " يا أم سليم! إن الله قد كفى وأحسن"[2] وهذا يوضح مدى الاستعداد للتضحية عند المرأة المسلمة ومدى أثر آداب العطاء والثبات في تكوين ثقافتها آنذاك، فلم تكن المرأة المسلمة آنذاك تقل طموحاً عن أخيها الرجل، في العمل على نصرة الإسلام وحماية حرية عقيدته، بل كان البعض منهن يطمحن حتى في غزو البحر الذي لم يكن معمولاً به في عصر الرسالة قال أنس ﷺ: "دخل رسول الله ﷺ على ابنة ملحان فاتكأ عندها، ثم ضحك، فقالت: لم تضحك يا رسول الله، فقال: " أناس من أمتي يركبون البحر الأخضر في سبيل الله، مثلهم مثل الملوك على الأسرة ". فقالت: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم. قال: " اللهم اجعلها منهم" ثم عاد فضحك، فقالت له مثل، أو مم ذلك؟ فقال لها مثل ذلك، فقالت: ادع الله أن يجعلني منهم. قال: " أنت من الأولين، ولست من الآخرين " قال أنس: فتزوجتْ عبادة بن الصامت ﷺ فركبت البحر مع بنت قرظة – زوجة معاوية ﷺ- فلما قفلت، ركبت دابتها، فوقصت بها، فسقطت عنها فماتت"[3] فتحققت أمنية هذه المرأة التي كانت تبني قيمها وأمانيها على مفاهيم الشهادة في سبيل الله، فسارت مع قوافل الشهداء الذين أسسوا قواعد الفتح الإسلامي وأسهموا فيه إسهاماً مباشراً بعد صبر واحتساب وتمسك بآداب طلب الشهادة.

تحريم قتل النساء والأطفال والمسالمين في آداب عصر الرسالة

تبين أن أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية لم تكن تشجع المرأة على خوض المعارك ومباشرة القتال، وأن النبي ﷺ كان يصرف الراغبات في ذلك إلى ما هو أيسر عليهن وأقل عناء مثل الحج، ولكنّه يأذن أحياناً لبعضهنّ بالمشاركة في بعض المغازي وأحياناً يأذن لبعض الصبيان، قال أنس: " أن النبي ﷺ قال لأبي طلحة التمس لي

---

(١) ابن أبي شيبة: المصنف، كتاب المغازي، غزوة حنين، ٧/ ٤١٦.

(٢) مسلم: صحيح مسلم، كتاب، الجهاد والسير، باب غزوة النساء مع الرجال،ح (١٨٠٩).

(٣) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب: غزو المرأة في البحر.ح (٢٧٢٢)

غلاماً من غلمانكم يخدمني حتى آتي خيبر فخرج بي أبو طلحة مردفي وأنا غلام راهقت الحلم فكنت أخدم رسول الله ﷺ إذا نزل"[1] فخروج المرأة والصبيان إلى القتال في أخلاقيات السيرة النبوية لم يكن لمباشرة القتال، ولم يكن دائماً، وإنما كان يأذن به النّبي ﷺ بحسب ظروف المعركة والحاجة إلى جهد النساء، أو لإلحاح بعضهن على مساندة المقاتلين وكفايتهم بعض شؤونهم.

ومعلوم أنّ قتل النفس مطلقاً أي نفس كانت، في الإسلام من الكبائر التي توبق صاحبها قال تعالى: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة:٣٢] وقواعد الحرب في السيرة أن الإنسان لا يزال في بحبوحة من أمره ما دام بريئاً من إراقة الدماء الحرام، وحذر النبي ﷺ من ذلك حتى في ساحات القتال وتبين ذلك في كثير من الوقائع، ونهى ﷺ الذين قتلوا بن أبي الحقيق عن قتل النساء والولدان." فكان رجل منهم يقول برّحت بنا امرأة بن أبي الحقيق بالصياح فأرفع السيف عليها ثم أذكر نهي رسول الله ﷺ فأكف ولولا ذلك استرحنا منها"[2] فكان من وصاياه ﷺ لقادة القتال" لا تقتلوا ذرية ولا عسيفاً"[3] و" وجدت امرأة مقتولة في بعض تلك المغازي. **فنهى** رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان"[4] وفي رواية أخرى:" **فأنكر** رسول الله ﷺ قتل النساء والصبيان"[5] وقال

---

(١)ابن حبان: صحيح ابن حبان، كتاب السير، باب الخروج وكيفية الجهاد، (٤٧٢٥).

(٢) مالك: الموطأ برواية يحيى الليثي، باب النهي عن قتل النساء والولدان في الغزو ح (٩٦٣). ٢/ ٤٤٧.

(٣) ابن حبان: صحيح ابن حبان، كتاب السير، باب الخروج وكيفية الجهاد، (٤٧٨٩).

(٤) مسلم: صحيح مسلم، كتاب، الجهاد والسير، باب تحريم قتل النساء والصبيان في الحرب،ح (١٧٤٤).

(٥) صحيح مسلم، كتاب، الجهاد والسير،- باب تحريم قتل النساء والصبيان في الحرب،ح (١٧٤٤). البخاري: كتاب الجهاد، باب: قتل الصبيان في الحرب، ح (٢٨٥١) باب: قتل النساء في الحرب. (٢٨٥٢) الموطأ، باب النهي عن قتل النساء والولدان (٩٦٤).

ﷺ: " ما كانت هذه تقاتل فيمن يقاتل"[1] ولما بَعث أبو بكـر ﷺ وهـو وارث أخـلاق الحرب في عصر الرسالة، يزيد بن أبي سفيان قائداً على أحد الجيوش الأربعـة الـتي تولت فتح الشام أوصاه. فقال ﷺ: "ولا تقتلوا كبيراً هرماً ولا امرأة ولا وليداً"[2] ولما نقضت قريظة العهد مع المسلمين، ثم حكم سعد بن معاذ بقتل المقاتلة. قـال عطيـة القرظي عرضنا على النبي ﷺ يومئذ فمن أنبت شعراً قتل ومن لم ينبت تـرك فكنـت أنا ممن لم ينبت الشعر فلم يقتلوني يعني يوم قريظـة"[3] أي أن مـن لم يبلـغ الحلـم لا يقتل، وهذا ما عمل به المسلمون في بقيادة الرسول ﷺ مع بني قريظة على الرغم من سوء عملهم وعظيم جريرتهم .

وقد نهى النبي ﷺ عن قصد النسـاء والولـدان بالقتـل في الحـرب إلا إذا كانـت تعمل على حرب المسلمين وباشرت العمل فيما يؤذيهم. فلما رأى الـنبي ﷺ امـرأة مقتولة بالطائف قال: " **ألم أنه عن قتل النساء؟ مَن صـاحب هذه المرأة المقتولـة؟** قـال رجل من القوم: أنا يا رسول الله أردفتهـا فـأرادت أن تـصرعني فتقـتلني فـأمر بهـا رسول الله ﷺ أن توارى"[4] أي أن النبي ﷺ لم يعاقب الرجـل لأنـه كـان يـدفع عـن نفسه، لكن النص يوحي بأن هذا العمل لم يعجب النبي ﷺ لعدم توافقـه مـع رحمتـه وشفقته على الضعفاء. وقال ﷺ: ما بال أقوام ذهب بهم القتل حتـى قتلـوا الذريـة **ألا لا تقتلوا ذرية ثلاثا**"[5] .

وجاء هذا النهي عمّن وقع منه القتل في ساحات القتال، الـتي قـد يـضطر فيهـا المقاتل إلى قطع الشجر أو قتل بعض النـساء أو الـصبيان دون قـصد أو اسـتهداف

---

(١) ابن ماجه، سنن ابن ماجه، باب الغارة والبيات وقتل النساء والصبيان، (٢٨٤٢).

(٢) البيهقي: سنن البيهقي الكبرى، كتاب السير، باب قتل من لا قتال فيه، (١٧٩٢٩).

(٣) الدارمي: كتاب السير، باب حد الصبي، (٢٤٦٤) صحيح ابن حبان، كتـاب الـسير، بـاب الخـروج كيفية الجهاد، (٤٧٨٨).

(٤) البيهقي: سنن البيهقي، كتاب السير، باب المرأة تقاتل فتقتل (١٧٨٨٤).

(٥) الدارمي: كتاب السير باب النهي عن قتل النـساء والـصبيان، (٢٤٦٣) صـحيح ابـن حبان،كتـاب السير، باب كيفية الجهاد، (٤٧٩٠).

وهذا يحصل في كل حرب، ولكن أخلاق الحرب في عصر الرسالة، كانت لا تقرّ قتل النساء والأطفال، ولا قطع الأشجار، إلا في حالات الضرورة القصوى، فإن كان الأمر في مثل تلك الحالات الحرجة فقد وقع بعض الحالات النادرة جداً مثلما حصل: "لما حاصر رسول الله ﷺ أهل الطائف أشرفت امرأة فكشفت قُبلها فقالت ها دونكم فارموا، فرماها رجل من المسلمين فما أخطأ ذلك منها، وفي حديث وهيب فما أخطأها أن قتلوها فأمر بها رسول الله ﷺ أن توارى"[1] وفي مثل: "حرق رسول الله ﷺ نخل بني النضير"[2] أي حرق بعض نخلهم كوسيلة من وسائل الضغط عليهم للوصول إلى إنهاء حالة الحرب ومباشرة التفاوض والاتفاق على حل وهذا ما حصل، وفي ذلك نزل قوله تعالى يقر ما أمر به النبي ﷺ: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الحشر:٥][3] فيتبن مما سبق أن قيم الحرب في عصر الرسالة تنهى وتنكر قتل النساء أو الأطفال والضعفاء والمسالمين كافة، وتزجر عن مثل هذا العمل ولا تقره؛ لذلك لم يقع في عصر الرسالة من هذه الحالات إلا النادر القليل وتحت ذرائع معتبرة أو حالات الدفع وكف الشر عن النفس.

وكان الصحابة يحفظون وصايا رسول الله ﷺ في المرأة من العدو فلا يقتلونها كما فعل من قتل ابن أبي الحقيق؛ وكما فعل أبو دجانة سماك بن خرشة الأنصاري ﷺ يوم أحد. قال الزبير بن العوام ﷺ: وجدت في نفسي يوم أحد حين عرض رسول الله ﷺ السيف فسألته إياه، فمنعنيه وأعطاه أبا دجانة، وقلت: أنا ابن صفية عمته ومن قريش، وقد قمت إليه وسألته إياه قبله فأعطاه أبا دجانة وتركني، والله لأنظرنّ ما يصنع. فاتبعته، فخرج ﷺ وهو يقول:

أنا الذي عاهدني خليلي ونحن بالسفح لدى النخيل

---

(١) البيهقي: سنن البيهقي، كتاب السير، باب المرأة تقاتل فتقتل، (١٧٨٨٥).

(٢) مسلم: صحيح مسلم، كتاب، الجهاد والسير، باب جواز قطع أشجار الكفار وتحريقها، (١٧٤٦).

(٣) صحيح مسلم، كتاب، الجهاد والسير، باب جواز قطع أشجار الكفار وتحريقها،ح (١٧٤٦).

أن لا أقوم الدهـر في الكيّول   أضرب بسيف الله والرسول

الكيّول: يعنى مؤخر الصفوف، فجعل لا يلقى أحداً إلا قتلـه، ثـم رأيتـه قـد حمل السيف على مفرق رأس هند بنت عتبة – في معركة أحد - ثـم عـدل السـيف عنها فقلت: الله ورسوله أعلم، وقال أبو دجانة: رأيت إنساناً يحمـس النـاس حمـساً شديداً، فصمدت له، فلما حملت عليه السيف ولـول فـإذا امـرأة، **فأكرمـت سـيف رسول الله ﷺ أن أضرب به امرأة**، فأعطى الـسيف حقـه ﷺ[1] فمـن إكـرام سـيف رسول الله ﷺ أن لا يلوث بدم بريء أو ضعيف أو صـبي أو امـرأة حتـى لـو كانـت مقاتلة مثل ما حصل لأبي دجانة ﷺ يوم أحد، فأين هذا مما يجري لنساء المسلمين وأطفالهم وشيوخهم في كثير مـن بقـاع الأرض علـى أيـدي مـن يزعمـون في هـذا العصر العمل بالقانون ويتغنون بمسألة حقوق الإنسان وحقوق المرأة؟!.

فالمرأة تشارك في القتال أحياناً ولكن ذلك ليس قاعدة ثابتة، وغالباً ما تقتـصر مشاركاتها على نقل الماء إلى المقاتلين، أو مداواة الجرحى ومـداراة المرضـى ونقـل الشهداء وردهم إلى المدينة كما كان يوم أحد، أو القيام على بعض حوائج المقـاتلين في معسكراتهم أو المشاركة في دفن الشهداء وما شابه ذلك من أعمـال، ونـادراً مـا كانت تباشر القتال كما كانت تفعل أم عمارة المازنية الأنصارية رضـي الله عنهـا[2] وأحياناً يشارك بعض الصبيان في الجانب الخدمي كخروج أنس ﷺ في غـزوة خيـبر لخدمة النبي ﷺ وكان النبي ﷺ يكرم النساء بما يتيسر من غنائم الحرب فيرضـخ لهـن أو يحذيهن أي يعطيهن دون أن يصل نصيبهن من الغنائم إلى حـدّ سـهم المقـاتلين. قال ابن عباس: "كان رسول الله ﷺ يغزو بالنساء فيـداوين المرضـى، ويُحـذَين مـن

(١) ابن كثير: السيرة النبوية، ٣/ ٣٢.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية، ٤/ ٣٠. ابن حبيش: غزوات ابن حبيش، ١/ ١٢١. الخليفة: الأنـصار في العصر الراشدي، ٢٢١.

الغنيمة وأما يسهم فلم يضرب لهن بسهم"[1] وكان النبي ﷺ يساوي في القسمة بين النساء فيما يهدى لهنّ أو يقسم بينهن[2].

ولعل في هذه الشواهد ما يوضح الموقف من مشاركة المرأة في الأعمال المساندة للمقاتلين، ومنحها من الغنائم ما يرغبها على العمل في سبيل الله تعالى، واتضح في ما ورد من نصوص ما يؤكد تحريم النبي ﷺ لقتل النساء والصبيان والضعفاء والمسالمين ونهيه واستنكاره لما حصل من ذلك على وجه الشبهة أو الدفاع عن النفس؛ وكل ذلك يبين رحمة الإسلام وشفقته على الضعفاء والنساء في ميادين القتال وحرصه على سلامتهم، مما يبين أهلية أخلاقيات الحرب في عصر الرسالة لان يعم العمل بها جميع بقاع العالم حماية للضعفاء ومن لا يملكون حيلة للدفاع عن أنفسهم، ولا سيما في حروب هذا العصر الذي أصبحت أسلحته لا ترحم ولا تذر، ولا تميز بين مقاتل أو مسالم.

إمضاء أمان المرأة وجوارها في أخلاقيات الحرب في عصر الرسالة

لم تكن آداب الحرب في الإسلام تشجع المرأة على خوض القتال وإن كان يؤذن لها في الأعمال المساندة للمقاتلين، وذلك حرصاً عليها وصيانة لها من أن ينالها الأذى، ولكن في المقابل فإن أخلاق الحرب في عصر الرسالة، خولت المرأة صلاحيات كصلاحيات الرجل في منح الأمان والجوار للأعداء، سواء كان الرجل قائداً أو جندياً وهذا يؤكد المكانة السامية للمرأة في المجتمع المسلم، ويرد على جميع الدعوات التي تثير الشبهات وتبث الشائعات حولها، وتبين أن هذه الميزة وعلى هذا المستوى الأمني الرفيع لا تحضى به المرأة في غير قيم القتال في الإسلام، قالت أم

(١) الترمذي: سنن الترمذي، أبواب السير، باب ما جاء في السرايا. وفي الباب عن أنس وأم عطية، (١٥٩٨).

(٢) الحاكم: المستدرك، كتاب قسم الفيء، باب المساواة في القسمة بين النساء، (٢٦١٠).

المؤمنين الطاهرة عائشة رضي الله عنها: "**إن كانت المرأة لتجير على المؤمنين فيجوز**"[1] جوارها وينفذ عهدها.

قالت أم هانئ بنت أبي طالب رضي الله عنها: "**ذهبت إلى رسول الله ﷺ عام الفتح... فقلت: يا رسول الله، زعم ابن أمي، علي، أنه قاتل رجلاً قد أجرته، فلان بن هبيرة. فقال رسول الله ﷺ: "قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ**"[2] وروي أنه قال ﷺ: "**قد أجرنا من أجرت وأمَّنّا من أمَّنت**"[3] وهذا إنفاذ لأمان امرأة من المسلمين دون علم أحد من رجالهم، وكان علي ﷺ أخو أم هانئ هو الذي كان يريد قتل المشرك الذي لجأ إلى بيت أخته، ولم يكن علي ﷺ ليخص هذا المشرك بالمتابعة والبحث لولا أنّ سابقته كانت سوداء في إيذاء المسلمين والحرب على عقيدتهم، ولكن مع كل ذلك مضى جوار أم هانئ له بإقرار النبي ﷺ ذلك، فإن دلّ هذا على شيء فإنما يدل على سعة رحمة المسلمين وحرصهم على توسيع نطاق الصلح والأمن وإعطاء صلاحية منحه إلى كافة أفراد الأمة لتحقيق أوسع مساحة للصلح، وإعطاء أكبر قدر ممكن لقيم السلم ودفع الشرّ عن الناس.

ومما يشير إل سعة آفاق السلم والحرص على الصلح في قيم الحرب في عصر الرسالة، ما روي عن أم المؤمنين الطاهرة عائشة رضي الله عنها. قالت: "**لما بعث أهل مكة في فداء أساراهم – في بدر – بعثت زينب ابنة رسول الله ﷺ في فداء أبي العاص – زوجها – بمال وبعثت فيه بقلادة كانت خديجة أدخلتها بها على أبي العاص حين بنى عليها، فلما رأى رسول الله ﷺ تلك القلادة رقّ لها رِقة شديدة. وقال ﷺ: "إن رأيتم أن تطلقوا أسيرها و تردوا عليها الذي لها فافعلوا فقالوا: نعم**

---

(1) أبو داوود: سنن أبو داوود، باب في أمان المرأة، (٢٧٦٤).

(2) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب أبواب الجزية والموادعة، باب: أمان النساء وجوارهن. ح (٣٠٠٠).

(3) أبو داوود: سنن أبو داوود، باب في أمان المرأة، (٢٧٦٣).

يا رسول الله فأطلقوه وردوا عليه الذي لها، ولم يزل أبو العاص مقيماً على شركه حتى إذا كان قبيل فتح مكة خرج بتجارة إلى الشام بأموال من أموال قريش أبضعوها معه، فلما فرغ من تجارته و أقبل قافلاً لقيته سرية لرسول الله ﷺ وقيل إن رسول الله ﷺ كان هو الذي وجّه السرية للعير التي فيها أبو العاص قافلة من الشام، وكانوا سبعين ومائة راكب أميرهم زيد بن حارثة ﷺ وذلك في جمادى الأولى في سنة ست من الهجرة فأخذوا ما في تلك العير من الأثقال و أسروا أناساً من العير فأعجزهم أبو العاص هرباً فلما قدمت السرية بما أصابوا أقبل أبو العاص من الليل في طلب ماله حتى دخل على زينب ابنة رسول الله ﷺ **فاستجار بها فأجارته**، فلما خرج رسول الله ﷺ إلى صلاة الصبح فكبر وكبر الناس معه. قال ابن إسحاق: صرخت زينب رضي الله عنها: أيها الناس إني قد أجرت أبا العاص بن الربيع! قال: فلما سلم رسول الله ﷺ من صلاته، أقبل على الناس. فقال: أيها الناس هل سمعتم ما سمعت. قالوا: نعم قال: أما و الذي نفس محمد بيده ما علمت بشيء كان حتى سمعت منه ما سمعتم، **إنه يجير على المسلمين أدناهم** ثم انصرف رسول الله ﷺ فدخل على ابنته زينب فقال: أي بنية أكرمي مثواه ولا يخلص إليك فإنك لا تحلين له[1] فهذا منتهى الحب للصلح والسلم والعفو والتجاوز فأي ثقافة تحمل مثل هذه القيم؟

ومن هذه الآفاق التي تصنع السلم وتنتج الأمن، وتطفئ الأحقاد وتزيل الضغائن وتقيم وشائج المودة، من تلك المفاهيم العالية تظهر مكانة المرأة في المجتمع الإسلامي ويزيد ذلك إشراقاً وفاء رسول الله ﷺ لزوجته الأولى أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها بعد وفاتها، فما إن رأى بعض متاعها حتى ذكر تلك الزوجة الوفية ولم يدع الموقف يمر هكذا حتى علّم المسلمين درساً في الوفاء وحفظ الجميل وحسن الصحبة فكان نتيجة ذلك الموقف الكريم، أن أثمر الوفاء ما هو أجمل في العفو

---

(١) الحاكم: المستدرك، كتاب معرفة الصحابة، مناقب أبي العاص بن الربيع ختن رسول الله، (٥٠٣٨).

والصفح والتجاوز عن الأسير الذي لا حول له ولا قوة وهو بين أيدي المسلمين، ولعل في مثل هذا الموقف ما يرد الشبهات التي تثار حول حال المرأة في المجتمع الإسلامي ويوضح أنها في القمة من المكانة كأم وأخت وزوجة وقريبة تهون من أجل صون كرامتها النفوس، وتلين لتلبية مواقفها القلوب فتشفع وتقرر وتطلق الأسير وتحمي الضعيف وتؤمّن الخائف، ولعل كثير من هذه القيم لا توجد على هذا المستوى وبهذا الشمول في أمة غير أمة المسلمين، وقد يوجد لامرأة في أمة أخرى بعض المكانة والصيانة والنفوذ لكن ذلك دائماً مقرون إما بمكانتها السياسية أو المالية أو بجمالها وعلاقاتها الاجتماعية، أما في أخلاق الحرب في عصر الرسالة، فإن هذه المكانة لعامة نساء المؤمنين لا تمتاز به واحدة عن غيرها، إنه يجير على المسلمين أدناهم، وهذا هو الفارق بين قيم تُكوّن ثقافة مجتمع متعارف عليها وبين مكانة عارضة لامرأة دون أخرى صنعتها المصالح والشهوات وما إلى ذلك.

وبعث النبي ﷺ إلى السرية الذين أصابوا مال أبي العاص وقال لهم: إنّ هذا الرجل منّا حيث قد علمتم و قد أصبتم له مالاً فإن تحسنوا تردوا عليه الذي له فإنّا نحب ذلك، و إن أبيتم ذلك فهو فيء الله الذي أفاءه عليكم فأنتم أحق به. قالوا: يا رسول الله بل نرده عليه قال: فردوا عليه ماله حتى إن الرجل ليأتي بالحبل ويأتي الرجل بالشنة[1] والأداوة حتى أن أحدهم ليأتي بالشطاط، حتى ردوا عليه ماله بأسره لا يفقد منه شيئاً، ثم احتمل إلى مكة فأدى إلى كل ذي مال من قريش ماله ممن كان أبضع منه ثم قال: يا معشر قريش هل بقي لأحد منكم عندي مال لم يأخذه قالوا: لا فجزاك الله خيراً فقد وجدناك وفياً كريماً. قال: فإني أشهد أن لا إله إلا الله و أشهد أن محمدا عبده ورسوله، وما منعني من الإسلام عنده إلا تخوفاً أن تظنوا أني إنما أردت أخذ أموالكم، فلما أداها الله عزّ وجل إليكم وفرغت منها أسلمت ثم خرج حتى قدم على رسول الله ﷺ قال ابن إسحاق: فحدثني داود بن

---

(١) ينظر صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل ابي ذر ﷺ شرح الحديث (٢٤٧٤) والشنة القربة البالية.

الحصين عن عكرمة عن ابن عباس قال: ردّ رسول الله ﷺ زينب بالنكاح الأول لم يحدث شيئاً بعد ست سنين ثم إنّ أبا العاص رجع إلى مكة بعد ما أسلم فلم يشهد مع النبي ﷺ مشهداً ثم قدم المدينة بعد ذلك، فتوفي في ذي الحجة من سنة اثنتي عشر في خلافة أبي بكر ﷺ وأوصى إلى الزبير بن العوام[1].

ومما يؤكد الموقع السامي للمرأة في الدولة الإسلامية الموقف من بعض أسرى بني قريظة على الرغم من سوء صنيعهم وغدرهم وتعاونهم مع المشركين لاستئصال المسلمين، فكانت " سلمى بنت قيس، أمّ المنذر أخت سليط إحدى خالات رسول اللّه ﷺ قد صلّت معه القبلتين وبايعته بيعة النّساء - سألته رفاعة بن سموأل القرظيّ وكان رجلاً قد بلغ فلاذ بها، وكان يعرفهم قبل ذلك فقالت يا نبيّ اللّه بأبي أنت وأمّي، هَبْ لي رِفَاعَةَ، فإنّه قد زعم أنّه سيصلّي ويأكل لحم الجمل قال فوهبه لها فاستحييته[2].

فيتأكد من هذه المواقف المكانة الحقيقية للمرأة المسلمة في شؤون الأمن والحرب فضلاً عن شؤون الأسرة والبيت، فهل هناك ثقافة تمنح المرأة فيها من الحقوق ما تمنحه قيم الحرب في صدر الإسلام من صلاحيات التعامل في مثل هذه الشؤون الحساسة، وتأمين العدو وحفظ ما له وضمان حريته وعلى مرأى ومسمع من المسلمين بما فيهم رسول الله ﷺ دون إذن من أحد أو مشاورة، وإنما تمارس ذلك كحق من حقوقها المشروعة في المجتمع الإسلامي؟! فلا شك أنّ هذه مكانة سامية وموقف متقدم يدحض أباطيل المروجين لمظالم المرأة في الإسلام، ويبين سوء نوايا من يتبسط في الحديث أو الكتابة عن مثل هذه المسائل، بينما الدليل والبيان القاطع في صفحات الحياة التطبيقية في آداب عصر الرسالة السياسية والحربية والاقتصادية وغيرها يثبت عكس تلك التخرصات، وكل ذلك يؤكد بأن الأقاويل التي يروج لها عن حقوق المرأة في الإسلام إنما يراد بها التضليل والتلبيس على الناس لإخراج

---

(١) المستدرك، كتاب معرفة الصحابة، مناقب أبي العاص بن الربيع (٥٠٣٨).

(٢) السهيلي: الروض الأنف، ٤/ ٤٤٩.

المرأة المسلمة من قيمها السامية ومكانتها الشامخة والعمل على تشويه جمالها بحجابها وحشمتها وعفافها، وبالتالي مهاجمة مملكتها الآمنة وتدمير دورها الرائد في الأسرة، لتصبح نساء وبنات المسلمين بلا ملاذ ولا أمن ولا رعاية، تحت ذرائع ومسميات الحرية التي هي في حقيقتها مخالفة الفطرة والتقاطع مع المصالح الحقيقية للمرأة.

تحرير الرقيق في أخلاقيات الحرب في عصر الرسول ﷺ

سبق الإسلام جميع الدعوات الداعية إلى تحرير الرقيق فسنّ وسائل متعددة لخدمة هذه الغاية وشجع على ذلك، وراقب أداء الأفراد في المجتمع الإسلامي وتعاملهم مع مواليهم كما عمل الإسلام على إصلاح الخطاب المهين مع الرقيق ودعا إلى الإحسان إليهم وإخوتهم والتواصل معهم وأصّل ذلك في نصوص الكتاب والسنة فقعّد قواعد تحرير الرقيق في عصور كان أهلها لا يفهمون إلا لغة الاستبداد والاستعباد والتسلط والخيلاء والتفاخر وقهر الضعيف. قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء:٣٦].

ولعل في هذه الآية ما يوضح العمل على تحويل ثقافة الجاهلية من العبد والسيد إلى خطاب ألطف وأقرب إلى التواصل الإنساني في قوله تعالى: " ما ملكت أيمانكم " كما أوصى القرآن الكريم بالاعتراف بمتطلبات الحياة الفطرية عند الرقيق كما هي عند غيرهم. قال تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور:٣٢] وقال ﷻ: ﴿مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [النساء:٢٥] وذلك في معرض الدعوة إلى الزواج ومعالجة ظاهرة غلاء المهور وما شابه ذلك مما يحول بين بعض الناس وبين الزواج.

وعلى الرغم من أن الحروب غالبا ما تكون سبباً في الرق والعبودية، إلا أن من خصائص أخلاق الحرب في عصر الرسالة، العمل على تحرير الرقيق والتشجيع على ذلك بوسائل كثيرة، ولعل الناظر في مكانة بلال بن رباح في الأمة إلى هذا العصر وإخوانه الآخرين أمثال عمار بن ياسر وصهيب الرومي وخباب بن الأرت وعامر بن فهيرة وسلمان الفارسي وغيرهم ﷺ يعلم يقيناً أنه لا يوجد نظام بإمكانه أن يجسد تلك المكانة التي تتوارث محبتها الأجيال كما فعل ذلك الإسلام بدعوته إلى المحبة والأخوة والمساواة، ومصداق ذلك في أحاديث النبي ﷺ الموجه في معانيها إلى أبناء أمته في مثل قوله ﷺ: "**اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة**"[1] إن هذا الحديث من الثوابت الإنسانية التي يدين بها كل مسلم حق، ولعل هذا الحديث وما في معناه يمثل الرد القاطع على أنّ عدل الإسلام ورحمته ونظرته الأخوية لجميع الناس التي تأصلت في أخلاق المسلمين في عصر الرسالة، هي المثل الأعلى للبشرية على مرّ العصور، وهي المنهج الوحيد في العالم الذي تنبع قيمه من عقيدة ربانية يتعبد أهلها الله تعالى بطاعة ولي الأمر المؤمن الصالح؛ حتى لو كان عبداً أسوداً كما جاء وصفه في الحديث، دون أن يترك ذلك في نفس المسلم أي أثر سلبي، أو أن يرى في ذلك انتقاص من حقوقه أو كرامته، فأين توجد هذه المعاني الإنسانية في غير قيم الكتاب والسنة؟ ومن ذلك ما رواه عليّ بن أبي طالب ﷺ قال: "خرج عِبْدَانٌ إلى رسول اللّه ﷺ يعني يوم الحديبية قبل الصلح، فكتب إليه مواليهم. فقالوا: يا محمد، واللّه ما خرجوا إليك رغبة في دينك، وإنما خرجوا هرباً من الرِّق، فقال ناس: صدقوا يا رسول اللّه رُدَّهم إليهم، فغضب رسول اللّه ﷺ وقال: "ما أراكم تنتهون يا معشر قريشٍ حتى يبعث اللّه ﷻ عليكم من يضرب رقابكم على هذا" وأبى أن يردَّهم، وقال ﷺ: "**هم عتقاء اللّه عزّ وجل**"[2] فكان

---

(١) البخاري: كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام، (٦٧٢٣) كتاب الجماعة والإمامة، باب إمامة العبد والمولى (٦٦١).

(٢) أبو داوود: سنن أبو داوود، باب في عبيد المشركين يلحقون بالمسلمين فيُسلِمُون، ح (٢٧٠٠) الحاكم، المستدرك: كتاب الجهاد، باب تحرير الرقيق، ح (٢٥٧٦). البيهقي: سنن البيهقي، كتاب السير: باب من جاء من عبيد أهل الحرب مسلما، ح (١٨٦١٨).

العمل قائماً، على أن العبيد الذين يسلمون ويلحقون بالمسلمين يصبحون جزءاً منهم لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، ويتمتعون بكامل حرياتهم ولهم حق الإمارة والقيادة والعمل الإداري بكل أشكاله، لا فرق بينهم وبين أي مسلم حر آخر، وذلك بحسب كفاءاتهم وقدراتهم، وتتبع المزايا التي حصل عليها الرقيق في عصر السيرة النبوية يحتاج إلى بحث قائم بذاته، ولكن يمكن ضرب أمثلة على ذلك في مثل مكانة زيد ابن حارثة وابنه أسامة بن زيد موالي رسول الله ﷺ وما كان لهم من المكانة السامية عند رسول الله ﷺ وعند المسلمين حتى قيل لأسامة ﷺ إنه "الحِب بن الحِب"[1] وقول أمير المؤمنين عمر الفاروق ﷺ لابنه عبد الله ﷺ حين طالب بمساواته في العطاء بأسامة بن زيد رضي الله عنهما. قال ابن عمر رضي الله عنهما: "فرض عمر لأسامة بن زيد أكثر مما فرض لي. فقلت: إنما هجرتي وهجرة أسامة واحدة قال: إنّ أباه كان أحبّ إلى رسول الله ﷺ من أبيك، وإنه كان أحب إلى رسول الله ﷺ منك، وإنما هاجر بك أبواك"[2] وتأمير رسول الله ﷺ مولاه زيد بن حارثة ﷺ على جيش مؤتة الذي كان فيه جعفر بن أبي طالب ﷺ وفيه عبد الله بن رواحة الأنصاري ﷺ وهما من هما في المكانة عند رسول الله ﷺ وفيه خالد بن الوليد ﷺ وغيره من كبار الصحابة، ليعطي الدليل القاطع على مكانة هذه الطبقة في آداب المسلمين وقيمهم.

وقد ضرب **أبو بكر الصدّيق ﷺ المثل الأعلى في الدفاع عن الرقيق** والكفاح المستمر بالمال واللسان والتعامل والتقريب، وذلك أنه يوالي من يوالي الإسلام ويعمل على نصرته بكل ما أوتي قياماً بحق الأخوة الإيمانية، حتى لو كان هؤلاء الذين ينفق عليهم أمواله من الرقيق الضعفاء من النساء والرجال. فأعتق أبو بكر ﷺ "سبعة كلهم يعذب في الله: أعتق بلالاً، وعامر بن فُهَيْرة، وزِنِّيرَة، والنَّهْدِيَّة، وابنتها، وجارية بني المُؤَمَّل، وأم عُبَيْس"[3] وكان أبو بكر ﷺ يهتم بحال الرقيق اهتماماً شغل

---

(١) المزي: تهذيب الكمال، ٢/ ٣٣٨.

(٢) ابن حبان: صحيح ابن حبان، كتاب التاريخ، باب إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة ﷺ ح (٦٠٤٣).

(٣) الصالحي: سبل الهدى، ١٢/ ٣٤٨. ابن هشام: السيرة النبوية، ١/ ٣٥٤.

عليه باله واستنفذ كثيراً من ماله، ولم يبال بما كان ينفق ولا بما كان يعاني من صلف المشركين وكبرهم، قال سفيان: فأما زِنّيرة فكانت رومية، وكانت لبني عبد الدار، فلما أسلمت عميت، فقالوا: أعمتها اللات والعزى. قالت: فهي كافرة باللات والعزى، فردّ الله إليها بصرها، وأما بلال فاشتراه وهو مدفون في الحجارة فقالوا: لو أبيت إلا أوقية لبعناكه. فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: لو أبيتم إلا مائة أوقية لأخذته، قال: وفي أبي بكر رضي الله عنه نزل: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى﴾ [الليل:١٧] إلى آخر السورة. وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ [الليل:١٨] وقد ثبت أن أبا بكر رضي الله عنه أنفق ماله في سبيل الله وأنّ عامة ذلك المال ذهب لتحرير الرقيق ونصرة الضعفاء، وذلك في بداية الدعوة حيث كان يمارس عليهم أصناف الظلم والحرمان، في عصر لا قيمة فيه إلا للعنصر أواللون أوالمال وغير ذلك، واسم أبو فكيهة أفلح ويقال يسار، وكان عبداً لصفوان بن أمية، فأسلم حين أسلم بلال رضي الله عنه وكان أبو فكيهة يعذب حتى لا يدري ما يقول[1] وكان عامر بن فهيرة للطفيل بن الحارث أخي أم المؤمنين عائشة لأمها أم رومان، قبل أن يدخل رسول الله ﷺ دار الأرقم[2]. وجارية بني المؤمل بن حبيب وهم حي من بني عدي كان يقال لها لبيبة، وزِنّيْرة ومعناها في اللغة الحصاة الصغيرة، ويروى: زِنْبرة الرومية. وأم عُبيس أَمة لبني زُهرة، والنهدية وابنتها كانت مولدة لبني نهد بن زيد فصارت لامرأة من بني عبد الدار[3] وهذا الترابط بين المؤمنين في عصر الرسالة الذي كان يمرّ أهله بمرحلة الاستضعاف والفتنة، كان يمثل رداً عملياً على ما يقوم به المشركون من أذى للمستضعفين من المسلمين، ولما كان أبو بكر رضي الله عنه يعتق كل من يراه من المسلمين واقعاً تحت العذاب

---

(١) ينظر الصالحي: سبل الهدى، ٣ / ٣٦١. ابن الجوزي: صفة الصفوة، ٢/ ٦٠.

(٢) ابن سعد: الطبقات، ٢/ ٥٢. ابن الجوزي: المنتظم، ٣/ ٧٤. ابن عبد البر: الاستيعاب، ١/ ٢٣٠.

(٣) الصالحي: سبل الهدى والرشاد، ٢/ ٣٦٢. ابن هشام: السيرة النبوية،١/ ٣٥٥. الشوكاني: فتح القدير، ٥/ ٦٤٤.

نصرة لله ولرسوله ﷺ دون أن يجني من ذلك مكاسب مادية، أثار موقفه ذلك سخرية المشركين الذين لا يرون الدنيا إلا من خلال الدرهم والدينار، كما أثار بعض المشفقين الذين يحبون لأبي بكر ﷺ النصرة حتى قال أبو قحافة لأبي بكر رضي الله عنهما: يا بني أراك تعتق رقاباً ضعافاً فلو أنك فعلت ما فعلت فأعتقت رجالاً جلداء يمنعونك ويقومون دونك ؟ فقال أبو بكر ﷺ: يا أبت إنما أريد ما أريد الله عز وجل. فأنزل الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾ [الليل:٥] إلى آخر السورة[١]

وروي أن عمار بن ياسر ﷺ قال: يذكر بلالاً وأصحابه الذين أعتقهم أبو بكر ﷺ مما كانوا فيه من البلاء، وكان أحد ألقاب أبي بكر ﷺ عتيقاً:

جزى الله خيراً عن بلال وصحبه ... عتيقاً وأخزى فاكهاً وأبا جهل
عشية همّا في بلال وصحبه ... ولم يحذرا ما يحذر المرء ذو العقل[٢]

فلم يكن ﷺ يبتغي من وراء عمله سوى وجه الله تعالى؛ والعمل على تحرير الرقيق ونصرة الضعيف، ومن هذه المواقف تتبين معاني الأخوة الإنسانية في أخلاق المقاتلين في عصر الرسالة؛ التي تفتقد إليها كثير من النظم العالمية؛ التي غالباً ما يقتصر موقفها على الجانب الإعلامي وبعض الجوانب الشكلية، التي يُروج لها لإضعاف مكانة القيم الإسلامية في نفوس المسلمين، وتمكين الفكر الآخر والقيم المعادية في البلاد الإسلامية[٣].

ولما حاصر رسول الله ﷺ أهل **الطائف** خرج إليه من رقيقهم أبو بكرة وكان عبداً للحارث بن كلدة والمنبعث ويحنس ووردان في رهط من رقيقهم فأسلموا، فلما قدم وفد أهل الطائف على رسول الله ﷺ فأسلموا. قالوا: يا رسول الله ردّ

(١) الطبري: تفسير الطبري، ٢/ ٦١١. القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ١٥/ ٣٥ تفسير الآيات المذكورة. ابن القيم: زاد المعاد، ٣/ ٢٣.

(٢) ابن حنبل: فضائل الصحابة، (٨٨) أبو نعيم: حلية الأولياء، (بلال بن رباح) ١/ ١٤٨. ابن الجوزي: المنتظم، ٤/ ١٢٧.

(٣) فرّوخ: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، ٥٢.

علينا رقيقنا الذين أتوك. فقال: لا أولئك عتقاء الله عز وجل وردّ على كل رجل ولاء عبده فجعله إليه[1] قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن رسول الله ﷺ أعتق من خرج إليه يوم الطائف من عبيد المشركين[2] وقال: إن أربعة أعبد وثبوا إلى النبي ﷺ زمن الطائف فأعتقهم[3] وقال: إن عبدين خرجا من الطائف فأسلما فاعتقهما رسول الله ﷺ أحدهما أبو بكرة[4] وقال ﷺ: "وإن هاجر عبد منهم يعني أهل الحرب أو أمة فهما حرّان ولهما ما للمهاجرين"[5] فهذه النصوص توضح الوجهة الحضارية في أخلاق الحرب عصر الرسالة؛ التي تستقبل الرقيق المشردين وتقبل من خرج منهم من المشركين، وتؤاخيهم حتى تكون حقوقهم وحقوق المهاجرين في مرتبة واحدة.

أما عبيد وإماء المعاهدين إذا أسلموا فإن المسلمين يستقبلونهم أحراراً وإخواناً

لهم وهذا وجه من وجوه تحرير الرقيق يضاف إلى ما سبق من محاسن سياسة الإسلام في تحرير الرقيق، لكنهم يحفظون حقوق المعاهدين وفاء للعهود التي يحفظها الإسلام فيردون لهم أثمان من جاءهم مسلماً من أموالهم الخاصة في سبيل تحرير الرقيق، ويفتحون قلوبهم وبلادهم لمن آمن بالتوحيد، قال ابن عباس رضي الله عنهما: "وإن هاجر عبد أو أمة للمشركين أهل العهد لم يردوا وردت أثمانهم"[6] وفي هذا ما فيه من الإنصاف والوفاء لجميع الأطراف فلا ضرر يلحق بالمعاهدين بفقدان عبيدهم من خلال قبضهم العوض المادي الذي يمكنهم من شراء ما يشاؤون من الرقيق، وفي المقابل يقتنص المسلمون فرصة يشيدون بها لبنة في البناء الإنساني الصحيح والإسهام في توسيع دائرة الحرية، وما في ذلك أيضاً من نصرة الضعفاء

(١) البيهقي: سنن البيهقي، كتاب السير: باب من جاء من عبيد أهل الحرب مسلما، ح (١٨٦٢٠) (١٨٦١٩).

(٢) البيهقي: سنن البيهقي، كتاب السير: باب من جاء من عبيد أهل الحرب مسلما، ح(١٨٦٢١).

(٣) سنن البيهقي، كتاب السير: باب من جاء من عبيد أهل الحرب مسلما، ح (١٨٦٢٢).

(٤) البيهقي: سنن البيهقي، كتاب السير: باب من جاء من عبيد أهل الحرب مسلما، (١٨٦٢٣).

(٥) سنن البيهقي، كتاب السير: باب من جاء من عبيد أهل الهدنة مسلما، (١٨٦١٧).

(٦) البخاري: كتاب الطلاق، باب نكاح من أسلم من المشركات وعدتهن، (٤٩٨٢).

الذين لا ناصر لهم، وهذا ما كان يعمل به أبناء عصر الرسالة تحت ظلال تعاليم الإسلام التي لا يظلم فيها أحد.

التعامل مع الرقيق ووصية النبي ﷺ بهم

إن الجهود النبوية التي بذلت وعمل بها المسلمون في عصر الرسالة لتحرير العبيد والإماء وتحسين أوضاعهم وتقويم نظرة المجتمع إليهم؛ جهود واسعة ومقدرة وهادفة إلى معالجة هذه المشكلة الإنسانية بوسائل حضارية تمثل ثقافة اجتماعية يعمل بها الناس من أجل هذه الغاية التي أخذت حيزاً واسعاً من التطبيق في أخلاق الحرب في عصر الرسالة، واستمر اهتمام رسول الله بالرقيق إلى آخر لحظات حياته في هذه الدنيا، فحرص ﷺ بذوقه الرفيع أن يزيل ما استطاع من حيف يلحق بالرقيق بدءاً من إصلاح الخطاب بين المملوك وسيده. فقال ﷺ: "لا يقل أحدكم عبدي أمتي وليقل فتاي وفتاتي وغلامي"(١) لما في كلمة عبدي من مظاهر الاستعلاء والتسلط والبعد عن الأخوة الإنسانية التي عمل المسلمون في عصر السيرة على ترسيخ معانيها في نفوس الناس، فعمل المسلمون على تهذيب هذه الألفاظ لتأسيس ثقافة المساواة بين أبناء المجتمع الإسلامي. ولم ينس الوصية بهم في آخر ما تكلم به ﷺ قال عليّ ﷺ: "كان آخر كلام رسول الله ﷺ: الصلاة الصلاة، اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم"(٢) فيتضح إلى أي مدى أخذت مسألة تحرير الرقيق والإحسان إليهم من قيم المسلمين في عصر الرسول ﷺ واهتمام النّبي ﷺ بهم حتى وهو يعالج سكرات الموت التي ينسى فيها الإنسان أهم شواغله.

وكانت مفردات السيرة النبوية تعج بالأمثلة الحية على متابعة النبي ﷺ لأحوال الرقيق واستجابة الصحابة لتلك التعاليم الرحيمة الرفيقة بهم، فكان ﷺ يغضب من ضرب العبيد أو إيذائهم قال أبو مسعود البدري ﷺ: كنت أضرب غلاماً لي

---

(١) البخاري: كتاب العتق، باب عتق المشرك، (٢٤١٤).

(٢) سنن أبي داوود: كتاب الأدب، باب في حق المملوك، ح (٥١٥٦).

بالسوط فسمعت صوتاً من خلفي؛ اعلم أبا مسعود، فلم أفهم الصوت من الغضب قال فلما دنا منّي إذ هو رسول الله ﷺ فإذا هو يقول: "اعلم أبا مسعود اعلم أبا مسعود" قال فألقيت السوط من يدي. فقال: "اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام" قال: فقلت: لا أضرب مملوكاً بعده أبداً"[1] وروي: "فالتفتُّ فإذا هو رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله هو حرّ لوجه الله. فقال: "أما لو لم تفعل للفحتك النار أو لمستك النار"[2] وقال أبو هريرة ﷺ: لما قدمت على النبي ﷺ: "أبق مني غلام لي في الطريق قال فلما قدمت على النبي ﷺ بايعته فبينا أنا عنده إذ طلع الغلام فقال لي رسول الله ﷺ "يا أبا هريرة هذا غلامك" فقلت: هو حرّ لوجه الله فأعتقته"[3] وما مواقف أصحاب رسول الله ﷺ هذه من إعتاق الرقيق إلا لما يعلمون من حرص النّبي ﷺ على ذلك ورضاه عمّن يفعله، حتى شكلت تلك المواقف ثقافة يعمل بها المسلمون تمتد إلى جوانب التربية والإحسان إليهم ثم إعتاقهم، أو التواصل معهم في عقد روابط أسرية تزيد من تمازجهم مع المجتمع وتقطع عنهم آثار العبودية. قال رسول الله ﷺ: "من كانت له جارية فعالها فأحسن إليها ثم أعتقها وتزوجها كان له أجران"[4] وقد عمل النبي ﷺ على تواصل الروابط بين العمل الصالح وأربابه في مسألة تحرير الرقيق وتشجيعه لهذه القيم في أي عصر كانت فيه، ومن ذلك أن حكيم بن حزام ﷺ أعتق في الجاهلية مائة رقبة وحمل على مائة بعير فلما أسلم حمل على مائة بعير وأعتق مائة رقبة قال: فسألت رسول الله ﷺ فقلت يا رسول الله أرأيت أشياء كنت أصنعها في الجاهلية، كنت أتحنث بها ؟ يعني أتبرر بها. قال: فقال رسول الله ﷺ: "أسلمت على ما سلف لك من خير"[5].

قال أنس: "كان رسول الله ﷺ من أشد الناس لطفًا! والله ما كان يمتنع في غداة

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الأيمان، باب صحبة المماليك وكفارة من لطم عبده، ح (١٦٥٩).

(٢) صحيح مسلم: كتاب الأيمان، باب صحبة المماليك وكفارة من لطم عبده، ح (١٦٥٩).

(٣) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب العتق، باب عتق المشرك، (٢٣٩٤).

(٤) البخاري: كتاب العتق، باب عتق المشرك، (٢٤٠٦).

(٥) البخاري: كتاب العتق، باب عتق المشرك، (٢٤٠١).

باردة من عبد ولا من أمة ولا صبي أن يأتيه بالماء فيغسل وجهه وذراعيه!! وما سأله سائل قط إلا أصغى إليه أذنه فلم ينصرف حتى يكون هو الذي ينصرف عنه، وما تناول أحد بيده إلا ناوله إياها فلم ينزع حتى يكون هو الذي ينزعها منه"[1] يُعلم أمته قواعد التعامل على أسس من الرفق والرحمة والأخوة، قال المعرور بن سويد: " لقيت أبا ذر ﷺ بالرّبَذة، وعليه حلة وعلى غلامه حلة – مثلها – فسألته عن ذلك. فقال: إني سابيت رجلاً، فعيرته بأمه – قال لعبد: يا ابن السوداء- فقال لي النبي ﷺ: "يا أبا ذر أعيرته بأمه!؟ إنك امرؤ فيك جاهلية! إخوانكم خولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده: فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم"[2] فحرّم السخرية أو الاستهزاء بألوانهم أو أنسابهم، كما حرّم ﷺ إجهاد العبد في الخدمة، وأوجب مساعدته إذا كُلّف بعمل يزيد على طاقته ووقته، والمتأمل في قول النبي ﷺ لمن عيّر العبد بلونه: "إنك امرؤ فيك جاهلية " دلالة على أن صفة الذين يؤذون الرقيق بالقول أو الفعل صفة جاهلية لا صلة لها بالإسلام وقيمه الرائدة.

ومثلما وجه الإسلام الناس إلى العمل في قيم الأخوّة الإنسانية معْ الرقيق كذلك وجهت من كُتب عليه الرق من الناس إلى حسن التعامل مع مواليه لدوام الثقة والتواصل ونزع عوامل الفتن وبوادر السوء. قال ﷺ " أيما عبد أدّى حق الله وحق مواليه فله أجران"[3] وبهذا تتضح الصورة الإنسانية بين المماليك ومواليهم، وتكتمل في فن التعامل القائم على الاحترام والوفاء والتعاون.

ومن الآداب الإسلامية في تحرير الرقيق العمل على تحريك الجهود الشعبية لمكافحة ظاهرة الرق بوسائل متعددة، منها المكاتبة أي أن يدفع المملوك إلى مواليه

---

(١) الهيثمي: بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث، كتاب علامات النبوة، باب في حسن خلقه وتواضعه، ح (٩٥٠).

(٢) البخاري: كتاب الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية ولا يكفر صاحبها، ح (٣٠). كتاب العتق، باب عتق المشرك، (٢٤٠٧).

(٣) البخاري: كتاب العتق، باب عتق المشرك، (٢٤٠٩).

عوضاً عن حريته فأجاز له الإسلام ذلك وأجاز للمكاتب أن يستعين بالمسلمين في أداء تلك المكاتبة، مثلما أشار ﷺ على سلمان ﷺ بأن يكاتب سيده، فكاتبه على ثلاثمائة نخلة يغرسها له وأربعين أوقية من ذهب ففعل؛ فأعانه على ذلك المسلمون حتى تحرر من الرق[1] وكانت أول مشاهده غزوة الأحزاب، وكان ﷺ ممن أشار بفكرة حفر الخندق حول المدينة فأصبح ولاء سلمان لرسول الله ﷺ لذلك قال ﷺ: "سلمان منا أهل البيت"[2] كما هو حال مواليه الآخرين الذين كان ولاءهم لرسول الله ﷺ.

ومن وسائل تحرير الرقيق الأخرى جعل إعتاقهم من الأعمال الصالحة وكفارة لكثير من الذنوب، في مثل دية القتل الخطأ. قال تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾ [النساء:٩٢] وفي كفارة اليمين. قال تعالى: ﴿يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [المائدة:٨٩]. وكفارة الظِهار لمن قال لزوجته هي عليه كظهر أمه. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ [المجادلة:٣] ومن ذلك قاعدة كفارة ضرب العبد عتقه التي سنها رسول الله ﷺ فمنح حق الحرية للعبد إذا ضربه سيده، وقد أعتق ابن عمر مملوكاً له فأخذ من الأرض عوداً أو شيئاً فقال: ما فيه من الأجر ما يسوى هذا، إلا أني سمعت النبي ﷺ يقول: "من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته أن يعتقه"[3].

فارتفع شأن الرقيق في المجتمع الإسلامي وثقافته ومفاهيمه ولم يعد الرق باباً من أبواب الهوان والذل الذي كان سائداً في غير بلاد المسلمين، ولم يعد مزرياً بأهله، إذ أنهم أصبحوا جزءاً من قبائل مواليهم ومن أسرهم، فصار منهم أئمة العلم وأساطينه وقادة الجيوش وغير ذلك؟ فيتبين من ذلك أن القيم الحربية

---

(١) البزار: مسند البزار، مسند سلمان، حديث سلمان، ح (٢٥٠٠).

(٢) الحاكم: المستدرك، كتاب معرفة الصحابة، ذكر سلمان، ح (٦٥٣٩).

(٣) مسلم: صحيح مسلم، كتاب الأيمان، باب صحبة المماليك وكفارة من لطم عبده، (١٦٥٧).

الإسلامية، حفظت كرامة الرقيق وأعلت من شأنهم ومنعت أي حيف يلحق بهم، وكل ذلك كان ينبع من قيم الكتاب والسنة في مثل ما سبق من نصوص فتحت للرقيق أبواب التحرر، وألزمت المجتمع بكسر الحواجز التي بينهم وبين الرقيق بدءا من التسمية وتهذيب مخاطبتهم وبرّ الصالحين منهم وتشجيعهم ومساندة المكاتبين وكفالة المعاقين وضمان حاجاتهم كغيرهم من أبناء المجتمع[1].

ولا يفوت القارئ أن هذه قيم ثابتة في ضمير كل مسلم يعمل بها في حال الحرب والسلم لا ينفك منها، إذ أنها تمثل عنده ثقافة وعقيدة يعاب عند المسلمين من يرغب عنها، ويأثم من يتجاوز حدود الشرع فيها، وقد عمل بها النبي ﷺ ودعا أمته وأوصاها للعمل بها من بعده، قال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: خطبنا رسول الله ﷺ في وسط أيام التشريق، خطبة الوداع. فقال: يا أيها الناس إن ربكم واحد، و إن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، و لا لعجمي على عربي، و لا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ألا هل بلغت؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: فليبلغ الشاهد الغائب[2].

وبهذه المواقف النبيلة فاز المسلمون بشرف العمل على رفع الحيف والاضطهاد والتمييز عن الرقيق، وإسقاط التمايز الطبقي وقيم الاستكبار والتعالي التي كانت تقوم على ثقافاتها عامة مفاهيم الحضارات السابقة؛ فنالوا بذلك قصب السبق في تأصيل قواعد العيش الكريم المشترك للمجتمع الإنساني الفاضل، على قواعد من العدل والحرية والمساواة، التي تحميه وتقوده أخلاق الحرب عصر الرسالة.

---

(١) ينظر الطبراني: المعجم الكبير، باب الزاي، زنباع أبو روح بن زنباع الجذامي، ح (٥٣٠١). الصنعاني: مصنف عبد الرزاق: كتاب العقول، باب ما ينال الرجل من مملوكه، ح (١٧٩٣٢).

(٢) البيهقي: شعب الإيمان، باب في حفظ اللسان، فصل ومما يجب حفظ اللسان منه الفخر بالآباء، ح (٥١٣٧). ابن حنبل: المسند، حديث رجل عن رسول الله ﷺ ح (٢٣٥٣٦).

المبحث الثاني

الموقف من الغنائم والغلول في آداب الحرب في عصر الرسالة

الموقف من الغنائم في آداب الحرب في عصر الرسالة

إن كل ما يروج من أقاويل عن الأهداف المادية لما حصل من حروب في عصر الرسالة إنما هو من باب التشويش على الحقائق وتزييف المقاصد، تدمغه نصوص الكتاب والسنة وتشجيعها على العتق والزهد والإنفاق، ومواقف جند الرسالة من المغانم بل من الدنيا بما فيها، فشتان بين عقيدة تنمي في قلوب أهلها الزهد والإحسان وحب الآخرة تحت ظلال معاني قوله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٦٤] وبين ثقافة تغرس في أفئدة أبنائها مفاهيم الهيمنة على لذائذ الدنيا المادية بأي وسيلة كانت ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية:٢٤] ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم:٧] يؤكد ذلك ما كان عليه النبي ﷺ من الزهد والتقشف وما اقتدى به أصحابه في ذلك، ويتبين في ميراث رسول الله ﷺ وخليفته الصديق ﷺ وعامة أصحابه ﷺ ويتجلى في قائمة حسابية تبين كم كان دخل كل منهم وكم أنفق من ذلك الدخل على نفسه وعياله ومصالحه، وكم أنفق في سبيل الله؟ وعندها ستتهاوى دعاوى المبطلين أمام نور الحقيقة التي تبين للناس أن محمداً ﷺ وأصحابه هم الذين نذروا أنفسهم وممتلكاتهم للإنسانية في سبيل الله بلا جزاء ولا شكورا

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون:٦٠] وها هم في سيرتهم يتمنون الأجر من الله دون المغانم، لأنه عندهم أكبر من كل غنيمة، قال رسول اللّه ﷺ: "ما من غازيةٍ تغزو في سبيل اللّه فيصيبون غنيمةً إلاَّ تعجلوا ثلثي أجرهم من الآخرة، ويبقى لهم الثلث، فإن لم يصيبوا غنيمةً تمَّ لهم أجرهم"[1] هذه المعاني يُعلمها النبي ﷺ لأصحابه وهو الذي أُنزل عليه قوله تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأۡخُذُونَهَا﴾ [الفتح:٢٠] وهو الذي قال ﷺ: "أُحلت لكم الغنائم"[2].

وبلغ من ثقة النبي ﷺ بمستقبل أمته وما ستصل إليه من الثراء والسيادة أنه حين تحدث عن هلاك كسرى وقيصر. قال ﷺ: " والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله "[3] ولم يقل لتغنمنّ كنوزهما تدخرونها وإنما قال تنفقونها، وهذا هو الفرق بين أخلاق الحرب في عصر الرسول ﷺ ونظرتها إلى الغنائم وبين نظرة الآخرين إليها، وبين أمانة مقاتلي السيرة الذين يؤدون ماغنموه من كنوز كسرى وقيصر، وبين من ينهب ثروات البلاد ويقتل العباد أو يسترقهم ويشاركهم في دورهم وقوت عيالهم مع الصلافة والاستعلاء والكِبر، فأين تكون وجوه المقارنة إن فتحت صفحات القيم والأخلاق في حركة رجال السيرة النبوية وبين من لم يتخلق بأخلاقهم ممن امتهن الطعن بهم وبعقيدتهم من المستشرقين والشعوبيين وغيرهم، وأين صفحات الرحمة التي تشبه رحمة عصر السيرة وقيادتها؟ وأين الأمانة والرفق والكرم والإخلاص والنفقة في سبيل الله؟! وهل يوجد في هذا العصر أو قبله من عمل بمثل هذه القيم؟ وهل توجد هذه المعاني بمقاصدها ونقائها عند غير أهل

---

(١) أبو داوود: سنن أبو داوود، الموقف من الغنائم، باب في السرية تخفق، (٢٤٩٧).

(٢) البخاري: كتاب الخمس، باب: قول النبي ﷺ: (أحلت لكم الغنائم) عنوان الباب (٨).

(٣) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الخمس، باب: قول النبي ﷺ: (أحلت لكم الغنائم). (٢٩٥٢) (٢٩٥٣).

السيرة ومن يؤمن ويقتدي بقيمها؟ وإذا وجد مثل هذه القيم عند البعض، فهل هي خالصة لوجه الله؟ أم مقرونة بالشروط التي تفقدها معانيها وتفسد مقاصدها وتقيد وترهق من ينتفع بها؟.

والغنائم أحلت لهذه الأمة خاصة لتضعها في مواضعها وتقف عند حدود حِلها، وتستعين بها على الحق وإقامة العدل فلا تجاوز ولا ظلم. قال رسول الله ﷺ: "فلم تحل الغنائم لأحد من قبلنا"[1] وقال ﷺ: "إن الله فضلني على الأنبياء أو قال أمتي على الأمم وأحل لنا الغنائم"[2] ومن الغنائم التي غنمها المسلمون بعد قتال يوم بدر ما جاء ذكره في القرآن الكريم وكان النبي ﷺ "خرج يوم بدر في ثلاث مائة وخمسة عشر فقال رسول الله ﷺ اللهم إنهم حفاة فاحملهم اللهم إنهم عراة فاكسهم اللهم إنهم جياع فأشبعهم، ففتح الله له يوم بدر فانقلبوا حين انقلبوا وما فيهم رجل إلا وقد رجع بجمل أو جملين فاكتسوا وشبعوا"[3].

فكان من قيم الحرب في عصر الرسالة، الثبات أمام العدو ومواجهة الباطل مهما بلغ من العلو والجبروت، فهاهم قد خرجوا لمواجهة حرّاس وحُماة قافلة من قوافل قريش، ففوجئوا بقوة قريش بجدها وحديدها تواجههم، وهم بذلك العدد القليل والتسليح الضعيف مع شح التموين وبعد الديار، لكنهم لم ينكصوا ولم يترددوا بل أقدموا وتسابقوا في ميادين التضحية والعطاء، فكانت الثمرة الناضجة نصر بدر الذي قلب موازين القوى في جزيرة العرب لصالح المسلمين، قال تعالى: ﴿ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال:٤١]

---

(١) مسلم: صحيح مسلم، كتاب، الجهاد والسير، باب تحليل الغنائم لهذه الأمة خاصة ح (١٧٤٧).

(٢) الترمذي: سنن الترمذي، أبواب السير، باب ما جاء في الغنيمة، (١٥٩٣).

(٣) المستدرك: كتاب قسم الفيء، باب أهل بدر، (٢٥٩٦) هناك خلاف حول عدد أهل بدر ولكنهم ثلاثمائة وبضعة عشر عند الجمهور.

وفي قولـه تعـالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:١].

قال عبادة بن الصامت ﷺ: فينا أصحاب بدر نزلت وذلك أن رسول الله ﷺ حين التقى الناس ببدر نفل كل امرئ ما أصاب وكنا أثلاثاً ثلث يقاتلون العدو ويأسرون، وثلث يجمعون النفل، وثلث قيام دون رسول الله ﷺ يخشون عليه كرة العدو حرساً له، فلما وضعت الحرب قال الذين أصابوا النفل: هو لنا وقد كان رسول الله ﷺ نفل كل امرئ ما أصاب وقال الذين كانوا يقتلون ويأسرون والله ما أنتم بأحق منا لنحن شغلنا عنكم القوم وخلينا بينكم وبين النفل فما أنتم بأحق به منا، وقال الذين كانوا يحرسون رسول الله ﷺ: ما أنتم بأحق به منا لقد رأينا أن نقتل الرجال حين منحونا أكتافهم ونأخذ النفل ليس دونه أحد يمنعه ولكنا خشينا على رسول الله ﷺ كرّة العدو فقمنا دونه فما أنتم بأحق به منا، فلما اختلفنا وساءت أخلاقنا انتزعه الله من أيدينا فجعله إلى رسول الله ﷺ فقسمه على الناس عن بواء فكان في ذلك تقوى الله وطاعته وطاعة رسول الله ﷺ وصلاح ذات البين ...فقسمه على السواء، لم يكن فيه يومئذ خمس[1] ومن آداب قسمة غنيمة الحرب في السيرة، أن النبي ﷺكان يقسم لمن تخلّف من أصحابه بعذر عن المشاركة في القتال[2] ومنها أيضاً يخبئ لمن لم يحضره أو غاب عنه، وحين أهديت إلى النبي ﷺ أقبية من ديباج مزررة بالذهب، فقسمها في ناس من أصحابه، وعزل منها واحداً لمخرمة بن نوفل، فجاء ومعه ابنه المسور بن مخرمة، فقام على الباب. فقال: ادعه لي، فسمع النبي ﷺ فأخذ قباء فتلقاه به، واستقبله بأزراره. فقال: " يا أبا المسور

---

(١) البهقي: السنن، كتاب قسم الفيئ والغنيمة، (١٢٤٩٤). الحاكم ، المستدرك كتاب قسم الفيء، (٢٥٩٤). (٢٦٠٧).

(٢) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الخمس، (٢٩٦٢). البيهقي: سنن البيهقي، كتاب قسم الفيئ والغنيمة، (١٢٤٩٨).

خبأت هذا لك، يا أبا المسور خبأت هذا لك" وكان في خلقه شدة"[1].

ومن أخلاقياتهم الأمانة وحفظ الغنيمة. قال ﷺ: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يركبن دابة من فيء المسلمين حتى إذا أجحفها أو قال أعجفها ردها قال أبو محمد أنا شاك فيه ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يلبس ثوباً من فيء المسلمين حتى إذا أخلقه رده فيه"[2].

ومنها أن لا يتصرف أحد بشيء من الغنيمة قبل قسمتها. قال ﷺ: " ليس منا من انتهب أو سلب أو أشار بالسلب "[3] و " نهى رسول الله ﷺ عن شراء المغانم حتى تقسم"[4] وقال سعد بن أبي وقاص ﷺ: "جئت إلى النبي ﷺ يوم بدر بسيف فقلت يا رسول الله قد شفي صدري اليوم من العدو فهب لي هذا السيف. فقال ﷺ: إنّ هذا السيف ليس لي ولا لك، فذهبت وأنا أقول يعطاه اليوم من لم يبل بلائي فبينا إذ جاءني الرسول فقال أجب فظننت أنه قد نزل فيّ شيء من كلامي فجئت. فقال النبي ﷺ: إنك سألتني هذا السيف وليس هو لي ولا لك، وأنّ الله قد جعله لي فهو لك ثم قرأ: يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول إلى آخر الآية[5] قال رافع: كنا مع النبي ﷺ بذي الحليفة، فأصاب الناس جوع، وأصبنا إبلاً وغنما، وكان النبي ﷺ في أخريات الناس، فعجلوا فنصبوا القدور، فأمر بالقدور فأكفئت، ثم قسم فعدل عشرة من الغنم ببعير"[6] وكان من هديه ﷺ الإسراع في قسمة الغنيمة، قال عوف بن مالك ﷺ: " كان النبي ﷺ إذا جاء الفيء يقسمه من

(١) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الخمس، باب: من قاتل للمغنم، هل ينقص من أجره؟ ح (٢٩٥٩).

(٢) الدارمي: كتاب السير، باب النهي عن ركوب الدابة من المغنم ولبس الثوب منه، (٢٤٨٨).

(٣) الحاكم: المستدرك، كتاب قسم الفيء، باب النفل، (٢٦٠٥).

(٤) الترمذي: سنن الترمذي، أبواب السير، باب ما جاء فيمن قتل قتيلا فله سلبه.(٢٥٩٨).

(٥) الحاكم: المستدرك، كتاب قسم الفيء، باب الأنفال، (٢٥٩٥).

(٦) البخاري: كتاب الجهاد، باب: ما يكره من ذبح الإبل والغنم في المغانم (٢٩١٠) سنن الترمذي، أبواب السير، باب كراهية النهبة، (١٦٤٩).

يومه[1].

أما آدابهم في الأنفال. قال ابن عباس: الأنفال المغانم، كانت لرسول الله ﷺ خالصة ليس لأحد منها شيء ما أصاب سرايا المسلمين أتوا به فمن حبس منه إبرة أو سلكاً فهو غلول فسألوا رسول الله ﷺ أن يعطيهم منها قال الله تبارك وتعالى يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لي جعلتها لرسولي ليس لكم منها شيء فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم إلى قوله إن كنتم مؤمنين، ثم أنزل الله عز وجل واعلموا إنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ثم قسم ذلك الخمس لرسول الله ولذي القربى يعني قرابة النبي ﷺ واليتامى والمساكين والمجاهدين في سبيل الله، وجعل أربعة أخماس الغنيمة بين الناس، الناس فيه سواء للفرس سهمان ولصاحبه سهم وللراجل سهم[2] وكان النبي ﷺ يكره الأنفال ويقول: " ليرد قوي المسلمين على ضعيفهم "[3] وبعث سرية النّبي ﷺ: قِبل نجد. فغنموا إبلا كثيرة. فكانت سهمانهم اثني عشر بعيراً، أو أحد عشر بعيراً، ونفلوا بعيراً بعيراً[4] وكان ﷺ ينفل بعض من يبعث من السرايا، لأنفسهم خاصة، سوى قسم عامة الجيش، والخمس في ذلك، واجب، كله[5] وقال حبيب بن مسلمة الفهري ﷺ: " شهدت رسول الله ﷺ نفل الربع في البدأة والثلث في الرجعة[6] فيتبين أن أداء الأمانة هو الخلق الثابت

---

(١) البيهقي: سنن البيهقي ، كتاب قسم الفيئ والغنيمة، باب الاختيار في التعجيل بقسمة مال الفيء إذا اجتمع، (١٢٨٠٥).

(٢) البيهقي: سنن البيهقي، كتاب قسم الفيئ والغنيمة، (١٢٤٩٨).

(٣) الدارمي: كتاب السير، باب في كراهية الأنفال، وقال ليرده قوي المؤمنين على ضعيفهم، (٢٤٨٦).

(٤) مسلم: صحيح مسلم، كتاب، الجهاد والسير، باب الأنفال، ح (١٧٤٩). البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الخمس، باب: ومن الدليل على أن الخمس لنوائب المسلمين، (٢٩٦٥).

(٥) مسلم: صحيح مسلم، كتاب، الجهاد والسير- باب الأنفال،ح (١٧٥٠).

(٦) الحاكم: المستدرك، كتاب قسم الفيء، باب النفل، (٢٥٩٨). الدارمي: كتاب السير، باب في أن ينفل في البدأة الربع وفي الرجعة الثلث، (٢٤٨٢). الترمذي: سنن الترمذي، أبواب السير، بابٌ في النفل، (١٦٠٦).

في قيم الحرب في عصر الرسالة، وبعد أداء ذلك فإن بإمكان الإمام أن يكافئ أهل الغناء والجد، وقد يكافئ جميع أفراد السرية بأن ينفلهم فوق حظهم فيها.

ومن آدابهم في قسمة الخمس. قال تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الأنفال:٤١]

و "اختلف الناس في هذين السهمين بعد وفاة رسول الله ﷺ فقال قائلون: سهم القربى لقرابة النبي ﷺ وقال قائلون لقرابة الخليفة وقال قائلون سهم النبي ﷺ للخليفة من بعده فاجتمع رأيهم على أن يجعلوا هذين السهمين في الخيل والعدة في سبيل الله، فكانا على ذلك في خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما"[1] قال عمر ﷺ: " كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله ﷺ مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب فكانت لرسول الله ﷺ خالصاً فكان رسول الله ﷺ يعزل نفقة أهله سنة ثم يجعل ما بقي في الكراع والسلاح عدة في سبيل الله"[2] عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ إذا أصاب غنيمة أمر بلالاً فنادى ثلاثاً فيرفع الناس ما أصابوا ثم يأمر به فيخمّس، فأتاه رجل بزمام من شعر وقد قسمت الغنيمة فقال له هل سمعت بلالاً ينادي ثلاثاً قال: نعم قال فما منعك أن تأتي به فاعتذر إليه فقال له كن أنت الذي توافي به يوم القيامة فإني لن أقبله منك[3].

وعلى الرغم من شدة المحاسبة على أي تصرف في الغنائم التي تؤكد عمق خلق الأمانة عند المجاهدين المسلمين، فإن الأكل من طعام الغنيمة في دار الحرب كان مسموحاً به، قال عبد الله بن مغفل ﷺ: " أصبت جِراباً من شحم، يوم خيبر.

---

(١) الحاكم: المستدرك، كتاب قسم الفيء، (٢٥٨٥). سنن البيهقي، قسم الفيء والغنيمة، مصرف أربعة أخماس الفيء، ح (١٢٧٤٦).

(٢) الترمذي: سنن الترمذي، أبواب الجهاد عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في الفيء، (١٧٧٣) سنن البيهقي، كتاب قسم الفيء والغنيمة، باب، مصرف أربعة أخماس الفيء، (١٢٧٤٦).

(٣) الحاكم: المستدرك، كتاب قسم الفيء ، باب القسمة، (٢٦١٧).

قال: فالتزمته. فقلت: لا أعطي اليوم أحداً من هذا شيئاً، قال: فالتفت فإذا رسول الله ﷺ متبسما "[1] أي أنه أقرّه ﷺ ولم يحاسبه على الطعام وقد يكون ذلك لحاجة الناس إلى الطعام في تلك الغزوة، ومن وجوه قسمة الغنيمة مراعاة حق الأسرة والزوجة اعترافاً بها وتشجيعاً على تنمية ثقافة رعاية الأسرة والمسارعة في بناء الأسر الجديدة عن طريق الزواج لمن استطاع الباءة، فكان النبي ﷺ إذا جاءه فيء قسمه من يومه فأعطى الآهل حظين والعزب حظاً[2] وهذا وجه من وجوه رعاية الأسرة وتبجيلها يؤكد ثقافة تكريم المرأة في المجتمع الإسلامي، فعلى الرغم من أن المرأة التي يحسب لها حظاً يقابل حظ المقاتل وهي لم تشهد القتال ولم تواجه مخاطره لكن قسمتها محفوظة بتشريع يرتضيه المسلمون جميعاً ولا يغضب منه الذين شاركوا في القتال وليس لهم زوجات بعد، ولم يعترضوا عليه في موقف أو احتجاج أو شكوى مما يوضح عمق ثقافة رعاية الأسرة وتقدير المرأة عند المسلمين في صدر الإسلام، ولعل في مثل هذه النصوص والمواقف ما يبطل الشبهات التي تثار حول حقوق المرأة في المجتمعات الإسلامية.

ومن وسائل تشجيع وتكريم أهل الإقدام والتضحية في مواطن الخطر ومواجهة الأهوال في آداب المسلمين استحقاق المقاتل المدافع عن عقيدته وأمته سلب القتيل الذي يحارب قيم الكتاب والسنة ويصد حملتهما بالقتال واستخدام السلاح، مثلما قضى ﷺ بسلب أبي جهل يوم بدر لمعاذ بن عمرو بن الجموح رضي الله عنه[3] وكما حكم لسلمة بن الأكوع حين قتل الجاسوس بعد انطلاقه ليخبر الأعداء بحال المسلمين ويطلعهم على عوراتهم. فقال ﷺ: " مَن قتل الرجل؟" قال: ابن الأكوع.

---

(١) مسلم: صحيح مسلم، كتاب، الجهاد والسير، باب جواز الأكل من طعام الغنيمة في دار الحرب،ح (١٧٧٢).

(٢) الحاكم: المستدرك، كتاب الجهاد، باب القسمة، (٢٦٢٢).

(٣) مسلم: صحيح مسلم، كتاب، الجهاد والسير، باب استحقاق القاتل سلب القتيل، ح (١٧٥٢).

قال: " له سلبه أجمع "[1] وكما فعل ﷺ حين منح أبي قتادة الأنصاري ﷺ سلب من قتله من المشركين في حنين[2] والأمثلة التي تبين أن قيم الحرب في الإسلام تحفظ لأهل الجد مكانتهم وتتبنى عملية تنمية ا لطاقات وتوجيه الجهود لسد الثغرات التي قد تهدد الأمة أو العقيدة، وكما اتضح في متابعة الأمراء ومحاسبة المقصرين منهم إن وجدوا، فإنها ترعى حرمة القادة وتقدر اجتهاداتهم وتحاسب من يتطاول عليهم حرصاً على الاستقرار. قال عوف بن مالك: قتل رجل من حمير رجلاً من العدو. فأراد سلبه. فمنعه خالد بن الوليد ﷺ وكان والياً عليهم. فأتى رسول الله ﷺ عوف بن مالك. فأخبره. فقال لخالد: " ما منعك أن تعطيه سلبه؟" قال: استكثرته. يا رسول الله! قال: "ادفعه إليه" فمرّ خالد بعوف فجر بردائه. ثم قال: هل أنجزت لك ما ذكرت لك من رسول الله ﷺ ؟ فسمعه رسول الله ﷺ فاستغضب. فقال: لا تعطه. يا خالد! لا تعطه. يا خالد! هل أنتم تاركون لي أمرائي؟ إنما مثلكم ومثلهم كمثل رجل استرعى إبلاً أو غنماً فرعاها. ثم تحين سقيها. فأوردها حوضاً. فشرعت فيه. فشربت صفوه وتركت كدره. فصفوه لكم وكدره عليهم"[3].

وليس للأعراب الذين هم أهل الصدقة في الفيء نصيب. قال ﷺ في أعراب المسلمين: " ليس لهم من الفيء والغنيمة شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين "[4] قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن

---

(١) صحيح مسلم، كتاب، الجهاد والسير، باب استحقاق القاتل سلب القتيل ح (١٧٥٤).

(٢) مسلم: صحيح مسلم، كتاب، الجهاد والسير، باب استحقاق القاتل سلب القتيل، ح (١٧٥١).

(٣) صحيح مسلم، كتاب، الجهاد والسير، باب استحقاق القاتل سلب القتيل، ح (١٧٥٣).

(٤) البيهقي :سنن البيهقي، كتاب قسم الفيء والغنيمة، باب ليس للأعراب الذين هم أهل الصدقة في الفيء نصيب، (١٢٧٦٥).

شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ﴾ [الأنفال:٧٢]. فلم يكن للأعراب الذين أسلموا ولم يهاجروا إلى المدينة نصيب في ثمار جهاد المسلمين لأنهم لم يشاركوهم في مرارة جني تلك الثمار ولأنهم خارج حدود سلطة المسلمين، قبل امتدادها على سائر أنحاء الجزيرة العربية.

وكان الخمس للإمام وقد قسم النبي ﷺ لبني المطلب وبني هاشم من خمس خيبر. قال عمر بن عبد العزيز: لم يعمهم بذلك، ولم يخص قريباً دون من هو أحوج إليه، وإن كان الذي أعطى لما يشكو إليه من الحاجة، ولما مسهم في جنبه، من قومهم وحلفائهم"[1] وجاء في شرح الحديث، أي لم يعم بني عبد مناف بما قسمه أو قريشاً بما أصابهم بسبب الإسلام ونصرته من أذى قومهم وأعوانهم، وقد حاول بعض بني عبد مناف مطالبة النبي ﷺ بمثل ما أعطى بني المطلب لأن قرابتهم من رسول الله ﷺ كانت واحدة، قال جبير بن مطعم: مشيت أنا وعثمان بن عفان ﷺ إلى رسول الله ﷺ فقلنا: يا رسول الله، أعطيت بني المطلب وتركتنا، ونحن وهم منك بمنزلة واحدة؟ فقال رسول الله ﷺ: " إنما بنو المطلب وبنو هاشم شيء واحد". قال جبير: ولم يقسم النبي ﷺ لبني عبد شمس ولا لبني نوفل. وقال ابن إسحاق: عبد شمس وهاشم والمطلب إخوة لأم، وأمهم عاتكة بنت مرة، وكان نوفل أخاهم لأبيهم"[2] فكان النبي ﷺ يجتهد في مسائل العطاء ويسدد ويقارب بما آتاه الله من الحكمة في الإدارة والمعرفة بأصحابه وما بهم من حاجة، وكان لا يدخر لنفسه في كل ذلك إلا ما يسد حاجاته الضرورية يُعلّم بذلك أصحابه فعل الخير.

- ولم تكن الغنائم هدف الحرب في عصر الرسالة في يوم من الأيام، بل كثيراً

---

(١) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الخمس، باب: ومن الدليل على أن الخمس لنوائب المسلمين. باب (١٧).

(٢) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الخمس، باب ومن الدليل على أن الخمس لنوائب المسلمين. ح (٢٩٧١).(٣٣١١، ٣٩٨٩).

ما أسرع المسلمون إلى إعتاق الرقيق وفك الأسرى ورد السبي بلا جزاء ولا شكوراً، ومصالحة كل من يمد يده للسلم يتضح ذلك في مسار الكثير من نتائج المعارك التي خاضها المسلمون في عصر الرسالة.

ولعل المنّ على سبايا بني المصطلق دون أي مقابل شاهد لا يرد على سبق المسلمين في ميادين تحرير الرقيق وتوسيع دوائر الحرية، والترغيب في العمل من أجلها، والتضحية بغنائم الحروب في سبيل نصرة هذه المعاني، التي هي من أساسيات الثقافة الإسلامية، التي تغمر صدور المسلمين، وكان ذلك في غزوة بني المصطلق الذين كانوا على بئر المريسيع، حين "سبى رسول الله ﷺ النساء والذراري والنعم والشاء ... وكان من جملة السبي جويرية بنت الحارث سيد القوم، وقعت في سهم ثابت بن قيس ﷺ فكاتبها، فأدى عنها رسول الله ﷺ وتزوجها، فأعتق المسلمون بسبب هذا التزويج مائة أهل بيت من بني المصطلق"[1] فمن الذي أجبر المسلمين المنتصرين على التخلي عن غنائمهم سوى قوة ثقافة الحرية التي تمتلئ بها صدور المسلمين؟ إن ذلك الموقف المساند للحرية كان أقوى فعلاً في نفوس بني المصطلق من السيف الذي هزمهم وشرد مقاتليهم، حيث أعلنوا إسلامهم بعد ذلك الموقف الخالد الذي يُعلم دعاة الحرية في كل عصر كيف يكون المنّ على الأسرى والضعفاء من النساء والذرية.

قال رسول الله ﷺ حين جاءه وفد هوازن مسلمين بعد معركة حنين سنة ثمان من الهجرة، فسألوه أن يرد إليهم أموالهم وسبيهم. قال ﷺ: "أحب الحديث إليّ أصدقه، فاختاروا إحدى الطائفتين: إما السبي، وإما المال، وقد كنت استأنيت بهم" وقد كان رسول الله ﷺ انتظر آخرهم بضع عشرة ليلة حين قفل من الطائف، فلما تبين لهم أن رسول الله ﷺ غير راد إليهم إلا إحدى الطائفتين، قالوا: فإنا نختار سبينا، فقام رسول الله ﷺ في المسلمين، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: "أما

---

(١) ابن القيم: زاد المعاد، ٣/ ٢٠٢.

بعد، فإن إخوانكم هؤلاء قد جاؤونا تائبين، وإني قد رأيت أن أرد لهم سبيهم، من أحب أن يطيب فليفعل، ومن أحب منكم أن يكون على حظه، حتى نعطيه إياه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل". فقال الناس: قد طيبنا ذلك يا رسول الله لهم، فقال لهم رسول ﷺ: "إنا لا ندري من أذن منكم في ذلك ممن لم يأذن، فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم" فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم، ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه أنهم قد طيبوا فأذنوا"[1] ولعل في هذا إشارات إلى دقة التنظيم الذي كان عليه الصحابة ﷺ في كل أعمالهم العسكرية والسياسية والمادية وغيرها، فما إن جاء المشركون تائبين حتى ردّ إليهم النبي ﷺ سبيهم، مطيباً خواطرهم مواسياً لجراحهم وما حلّ بهم وقد كانوا بالأمس يقاتلونه ﷺ وبلغ من رحمته بهم أن يخاطبهم بقوله الرقيق اللطيف: إخوانكم هؤلاء؛ ليمد جسور التواصل معهم وينمي مشاعر الأخوة بين من كانوا بالأمس ضده في ميدان القتال واليوم وقد تغيرت الحال فإن المسلمين لم يكونوا انتهازيين ليفرضوا شروطهم ويثبتوا قوتهم بل إنهم يعملون على استلطاف أعدائهم بالأمس ليغسلوا سخائم قلوبهم فيستنبتوا فيها حبّ الإسلام، والعمل من أجله، وهذا ما تمتاز به قيم الحرب في عصر الرسول ﷺ عن غيرها من قيم الحروب في العقائد الأخرى.

ومن تلك القيم والآداب كرمهم وطيب معدنهم وحبهم لإخوانهم الآخرين قال أبو موسى الأشعري ﷺ: بلغنا مخرج النّبي ﷺ ونحن باليمن، فخرجنا مهاجرين إليه، أنا وأخَوَان لي أنا أصغرهم، أحدهما أبو بردة والآخر أبو رهم، إما قال: في بضع، وإما قال: في ثلاثة وخمسين، أو اثنين وخمسين رجلاً من قومي، فركبنا سفينة، فألقتنا سفينتنا إلى النجاشي بالحبشة، ووافقنا جعفر بن أبي طالب وأصحابه عنده، فقال جعفر: إن رسول الله ﷺ بعثنا ها هنا، وأمرنا بالإقامة، فأقيموا معنا، فأقمنا معه

---

(١) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الخمس، باب: ومن الدليل على أن الخمس لنوائب المسلمين. ح (٢٩٦٣)

حتى قدمنا جميعاً، فوافقنا النبي ﷺ حين افتتح خيبر، فأسهم لنا، أو قال: فأعطانا منها، وما قسم لأحد غاب عن فتح خيبر منها شيئاً، إلا لمن شهد معه، إلا أصحاب سفينتنا مع جعفر وأصحابه، قسم لهم معهم"[١] وكان بعض من تخلف عن النّبي ﷺ يوم عمرة القضية أراد أن يلحق برسول الله ﷺ حين توجه إلى خيبر لكن النّبي ﷺ لم يقبل منهم لتخلفهم عنه ولموقفهم الذي أرجف بالمسلمين وأغرى بهم المشركين.

قال تعالى: ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴾ [التوبة:٨٣] ولعل هذا سبب صرفهم عن تلك الوجهة وحرمانهم من ثمار انتصارهم في خيبر، أما من جاءهم من إخوانهم الصادقين فإنهم لم يستأثروا عليهم بشيء مما في أيديهم، والنبي ﷺ كان داعية ومربياً ومعلماً وكانت مواقفه دائماً تهدف إلى السمو بالروح الإنسانية إلى معارج الكمال الأخلاقي والجمال النفسي بقدر الوسع والطاقة. قال ﷺ: " إني أعطي قريشا أتألفهم، لأنهم حديثي عهد بجاهلية "[٢] ولكن بعض الناس فاتهم فهم مقاصد رسول الله ﷺ في وسائل عطائه وحرمانه من متعلقات الدنيا، فصدر عن البعض منهم ما يوحي بأن هناك أهداف أخرى من وراء الطريقة التي أعطى بها النّبي ﷺ فألمح ﷺ بمثل هذا الحديث.

ولما كان يوم حنين، آثر النّبي ﷺ أناساً في القسمة، فأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل، وأعطى عيينة مثل ذلك، وأعطى أناسا من أشراف العرب، فآثرهم يومئذ في القسمة، قال رجل: والله إن هذه القسمة ما عدل فيها، وما أريد بها وجه الله. فأخبر بذلك النبي ﷺ فقال: " فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله، رحم الله

---

(١) البخاري: كتاب الخمس، باب: ومن الدليل على أن الخمس لنوائب المسلمين. ح (٢٩٦٧).

(٢) البخاري: كتاب الخمس، باب: ما كان للنبي ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه، ح (٢٩٧٧، ٢٩٧٨).

موسى، قد أوذي بأكثر من هذا فصبر"[1].

ولما أعطى النّبي ﷺ بعض رجال قريش يوم حنين قالت الأنصار: " يغفر الله لرسول الله ﷺ يعطي قريشاً، ويترك الأنصار، وسيوفنا تقطر من دمائهم. فقال رسول الله ﷺ: " إني لأعطي رجالاً حديث عهدهم بكفر، أما ترضون أن يذهب الناس بالأموال، وترجعوا إلى رحالكم برسول الله ﷺ فوالله ما تنقلبون به خير مما ينقلبون به " قالوا: بلى يا رسول الله رضينا، فقال لهم: " إنكم سترون بعدي أثرة شديدة فاصبروا حتى تلقوا الله تعالى ورسوله ﷺ على الحوض "[2] فقد كانت توجيهات رسول الله ﷺ بلسماً يشفي بها النفوس السوية، فيزيل الريب ويجلو الشك ويزرع الثقة واليقين، ويفتح آفاق التضحية

والقناعة والإيثار والحب والرجاء من الله تعالى، وبما يجعل نفوس أصحابه ﷺ أغنى بتلك القيم ممن ملك الدنيا بما فيها من زينة وتفاخر، وكل هذه المعاني تدمغ ما يروج له المستشرقون من باطل في مثل قول جون هيجل: "كان الإسلام دائماً وسيبقى دائماً دين السيف لأنه لا يمكن العثور على أي فكرة للحب في القرآن"[3] قال عمرو بن تغلب ﷺ: " أعطى رسول الله ﷺ قوماً ومنع آخرين، فكأنهم عتبوا عليه، فقال: ﷺ " إني أعطي قوماً أخاف ظلعهم وجزعهم، وأكِل أقواماً إلى ما جعل الله في قلوبهم من الخير والغناء، منهم عمرو بن تغلب" فقال عمرو بن تغلب: " ما أحب أن لي بكلمة رسول الله ﷺ حمر النعم"[4] ومن موقف عمرو بن تغلب ﷺ هذا

---

(١) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الخمس، باب: ما كان للنبي ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه، ح (٢٩٨١).

(٢)البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الخمس، باب: ما كان للنبي ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه، ح (٢٩٧٨).

(٣) الزيادي: ظاهرة انتشار الإسلام وموقف المستشرقين منها، ١٧١. عن مقال للكاتب paul harvy في صحيفة the daily advertiser عدد الخميس ١٥ يناير سنة ١٩٨١م.

(٤) البخاري: كتاب الخمس، باب: ما كان للنبي ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه، ح (٢٩٧٦).

يتبين لكل منصف مكانة الغنائم المادية في قيم الحرب عند رجال عصر الرسالة، وأن كلمة ثناء من رسول الله ﷺ عندهم خير من الدنيا وما فيها وهذه القيم التي أشربت بها قلوب جند السيرة النبوية هي التي ميزتهم عن بقية القوى العالمية التي مارست التأثير في قيادة العالم، فكانت الرحمة والوفاء والتسامح هي قيم تلك القوة العالمية، بينما يجد المتابع لمشاهد الكثير من الأعمال العسكرية التي قام بها غير المسلمين في الماضي والحاضر أن الأهداف المادية هي المحرك الأول لأكثر ما يقومون به من تحركات عسكرية وغيرها.

وكان النّبي ﷺ **يعطي المؤلفة قلوبهم** وغيرهم من الخمس ونحوه، يستميلهم إلى الإسلام ولا يبالي ﷺ بحجم ما يعطيه ما دام تحت يده فهو كالريح المرسلة في الكرم وهو الذي يعطي عطاء من لا يخشى الفقر ﷺ قال حكيم بن حزام ﷺ: "سألت رسول الله ﷺ فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم قال لي: "يا حكيم، إن هذا المال خضر حلو، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع،،واليد العليا خير من اليد السفلى" قال حكيم: فقلت: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق، لا أرزأ أحداً بعدك شيئاً حتى أفارق الدنيا. فكان أبو بكر ﷺ يدعو حكيماً ليعطيه العطاء فيأبى أن يقبل منه شيئاً، ثم إن عمر ﷺ دعاه ليعطيه فأبى أن يقبل منه، فقال: يا معشر المسلمين، إني أعرض عليه حقه الذي قسم الله له من هذا الفيء فيأبى أن يأخذه. فلم يرزأ حكيم أحداً من الناس شيئاً بعد النّبي ﷺ حتى توفي ﷺ"[1] فهذا الموقف التربوي الرائد وأمثاله، يوضح معالم مقاصد حرب المسلمين وعملها على غرس قيم ومعاني العقيدة الصحيحة في النفوس، وجعل الغنى ينبع من الذات وليس من المال وبهارجه، وهذا ما ظهرت آثاره في قناعة حكيم ﷺ وغنى نفسه بعد ذلك الدرس الذي تلقاه من

---

(١) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الخمس، باب: ما كان للنبي ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه، ح (٢٩٧٤).

النبي ﷺ فأصبحت مواقفه تلك دروساً يستقي منها الناس القناعة وغنى النفوس، وتؤكد أن أخلاق الحرب عند المسلمين تسير نحو سمو الروح وشفافية القلب، والبعد عن المادية التي تُركس أهلها في حب الشهوات وتحول بينهم وبين العمل في سبيل الله ومقاصده التي لا يُرتجى منها جزاء في الدنيا سوى رضا الله تعالى.

قال ابن عباس: "كان رسول الله ﷺ يغزو بالنساء فيداوين المرضى ويحذين من الغنيمة وأما يسهم فلم يضرب لهن بسهم"[1] ولم تكن أهداف النساء اللاتي كن يخرجن مع رسول الله ﷺ برفقة أزواجهن ومحارمهن المكاسب والغنائم، بل كنّ يرجون من الله ما يرجوا منه المجاهدون في سبيل الله، وكان النّبي ﷺ يسهم لرجالهنّ ويزيد على ذلك أن يحذيهن بالهدايا والتحف والعطايا التي تشجع ما يقمن به من مساندة لحركة الجهاد في سبيل الله ويدخل السرور على قلوبهن ويعلمهن برضاء رسول الله ﷺ ومعرفته بمكانهن.قالت الطاهرة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: " أن رسول الله ﷺ أتى بظبية فيها خرز من الغنيمة فقسمها بين الحرة والأمة سواء "[2] وهذه لفتة تؤكد الروح الإنسانية والقيم الأخلاقية التي على المساواة في الحقوق وتجاوز كل ما يؤثر على الأخوة الإنسانية بين جميع الأجناس والألوان البشرية التي يدين بها المسلمون، فمن أقبح القيم وأسوئها تلك المفاهيم التي تنظر إلى الإنسان من خلال بشرته ولونه، أو مكانته وماله؛ لا من خلال أخلاقه وقيمه وآدابه وعلمه وثقافته. قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات:١٣).

الموقف من الغلول في أخلاق الحرب في عصر الرسول ﷺ

جاء التحذير من الغلول صريحاً في كتاب الله. قال تعالى:﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [آل عمران:١٦١] والغلول هو اختلاس شيء من الغنيمة قبل

(١) سنن البيهقي، كتاب قسم الفيء والغنيمة، باب ليس للأعراب الذين هم أهل الصدقة في الفيء نصيب، (١٢٧٦٦).

(٢) الحاكم: المستدرك، كتاب قسم الفيء ، باب المساواة في القسمة بين النساء، (٢٦١٠).

تقسيمها، وقد تكفل الله تعالى بأن يأتي العبد الغال بما غلّ يوم القيامة، فالغلول وجه من وجوه الخيانة الممقوتة عند المسلمين. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [الأنفال:٥٨] وحذّر النّبي ﷺ من ذلك وضرب لأصحابه الأمثلة وقصَّ لهم القصص التي تبين بأن الغلول محرّم في جميع الشرائع السماوية.قال ﷺ: "غزا نبي من الأنبياء فقال لقومه: لا يتبعني رجل ملك بضع امرأة، وهو يريد أن يبني بها، ولمّا يبن، ولا آخر قد بنى بنياناً، ولمّا يرفع سقفها. ولا آخر قد اشترى غنماً أو خلفات، وهو منتظر ولادها، قال: فغزا، فأدنى للقرية حين صلاة العصر، أو قريباً من ذلك. فقال للشمس: أنت مأمورة وأنا مأمور، اللهم! احبسها عليّ شيئاً، فحبست عليه حتى فتح الله عليه. قال: فجمعوا ما غنموا، فأقبلت النار لتأكله. فأبت أن تطعمه، فقال: فيكم غلول فليبايعني من كل قبيلة رجل، فبايعوه، فلصقت يد رجل بيده، فقال: فيكم الغلول. فلتبايعني قبيلتك فبايعته، قال: فلصقت بيد رجلين أو ثلاثة، فقال: فيكم الغلول، أنتم غللتم، قال: فأخرجوا له مثل رأس بقرة من ذهب، قال: فوضعوه في المال وهو بالصعيد، فأقبلت النار فأكلته. **فلم تحل الغنائم لأحد من قبلنا. ذلك بأن الله تبارك وتعالى رأى ضعفنا وعجزنا، فطيبها لنا**"[1].

وكان التوجيه النبوي شديد على من ظهر منه ميل نحو المكاسب والتعلق بأسباب الدنيا في حال كان يرى فيه رسول الله ﷺ وأصحابه وما هم عليه من الزهد وكرم النفس والترفع عن الدنيا بكل ما فيها، فلم يكن هناك عذر لمن يقع في الغلول ولا حجة له، قال ﷺ: "**لا نهب ولا إغلال ولا إسلال ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة.** قال أبو محمد: الإسلال السرقة"[2] وقام النّبي ﷺ يوماً فذكر الغلول فعظمه وعظّم أمره. وحذّر من عاره وفضيحته يوم القيامة، فقال ﷺ: "لا ألفين أحدكم يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء، على رقبته فرس لها حمحمة، يقول: يا رسول الله

---

(١) الترمذي: سنن الترمذي، أبواب السير، باب ما جاء في السرايا. وفي الباب عن أنس وأم عطية، (١٥٩٨).

(٢) الدارمي: كتاب السير باب في الغال إذا جاء بما غل به، (٢٤٩١).

أغثني، فأقول: لا أملك لك من الله شيئا، قد أبلغتك، وعلى رقبته بعير لها رغاء، يقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئا قد أبلغتك، وعلى رقبته صامت فيقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك، أو على رقبته رقاع تخفق، فيقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئا قد بلغتك"[1] وقال ﷺ: "من مات وهو بريءٌ من الكِبر والغلول والدَّين دخل الجنة"[2] وكان ﷺ لا يدع مناسبة إلا وحذر فيها من الغلول لما فيها من ضياع الأمانة وخيانة المسؤولية وموقفه ﷺ من ابن اللتبية كان صارماً حين استعمله على الصدقة، فلما قدم قال: "هذا لكم. وهذا لي، أهدى لي، قال: فقام رسول الله ﷺ على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: "ما بال عامل أبعثه فيقول: هذا لكم وهذا أهدى لي! أفلا قعد في بيت أبيه أو في بيت أمه حتى ينظر أيهدى إليه أم لا"[3].

وفي هذا الموقف درس عظيم لكثير من عمال هذا العصر الذين استباحوا حقوق العباد تحت مسميات شتى من الضرائب والمكوس وغيرها، وقد "قام النبي ﷺ في الناس فقال: أدوا الخياط والمخيط فإن الغلول عار ونار وشنار على أهله يوم القيامة قال ثم تناول من الأرض وبَرة من بعير أو شيئا ثم قال: والذي نفسي بيده مالي مما أفاء الله عليكم ولا مثل هذه إلا الخمس والخمس مردود عليكم"[4] والتحذير لا يشمل الغال وحده بل يشمل من ستر على من غلَّ. قال ﷺ: "من كتم غالاً فإنه مثله"[5].

ومن عقوبة الغالّ أن رسول الله ﷺ لا يقبل استلام شيء بعد تقسيم الغنائم

---

(١) مسلم: صحيح مسلم، كتاب، الجهاد والسير، باب تحليل الغنائم لهذه الأمة خاصة، (١٧٤٧) وباب غلظ تحريم الغلول،ح (١٨٣١).

(٢) الترمذي: سنن الترمذي، أبواب السير، باب ما جاء في الغلول، (١٦٢٠).

(٣) مسلم: صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب: تحريم هدايا العمال،ح (١٨٣٢).

(٤) مالك ،موطأ مالك، باب ما جاء في الغلول، (٩٧٧).

(٥) أبو داوود: سنن أبو داوود،- باب النهي عن الستر على من غلَّ، (٢٧١٦).

ومن تأخر عن ذلك قال له ﷺ " كن أنت تجيء به يوم القيامة فلن أقبله عنك "[1] وقال ﷺ: " من وجدتموه غلّ فاضربوه واحرقوا متاعه "[2] فدقة المسؤولية في أداء الأمانة محكها عند من يمارس الإمارة ويقود الجيوش ويحقق النصر ويجمع الغنائم.
قال عدي بن عميرة الكندي: سمعت رسول الله ﷺ يقول: " من استعملناه منكم على عمل، فكتمنا مخيطاً فما فوقه، كان غلولاً يأتي به يوم القيامة " قال: فقام إليه رجل أسود، من الأنصار. كأني أنظر إليه، فقال: يا رسول الله! اقبل عني عملك. قال ﷺ " ومالك؟" قال: سمعتك تقول كذا وكذا. قال " وأنا أقوله الآن، من استعملناه منكم على عمل فليجيء بقليله وكثيره، فما أوتِيَ منه أخذ، وما نُهِيَ عنه انتهى "[3] فأصبح البعض لا يعمل أميراً خشية أن يقع في الغلول الذي كان يُحذر منه النبي ﷺ وحرّم كثيره وقليله، وأكد النبي ﷺ ذلك عملياً بما أخبر به ﷺ عمّن كان يعمل في خدمته ﷺ فقد "كان على ثقل النّبي ﷺ رجل يقال له كَرْكَرَةُ فمات، فقال ﷺ: " هو في النار " فذهبوا ينظرون إليه فوجدوا عباءة قد غلها "[4].
فإذا كان اليسير من الغلول موجب لدخول النار؛ فإن القيام بـه شـديد في سـاعات النصر الذي تكثر فيه الغنائم، وقد تكون الحاجة قائمة إلى بعضها، لذلك كـان هـذا الأمر من العوامل المنفرة عن تولي الإمـارة خـشية مـن التبعـات الـتي تلحـق بهـا؛ وحرصاً على سلامة الذمة من حقوق العباد، وكل هذه القيم، تؤكد أن الإسـلام لم يكن يهدف في حروبه إلى كسب مادي أو توسع اقتصادي، وأنه لا غايـة لـه سـوى حماية التوحيد ونصرة الحق وإقامة العدل في الأرض، والتمسك بآداب الإسلام وما فيها من القيم السامية التي تؤكد على الوحدة الإسلامية والإخوة البـشرية، وعالميـة الرسالة المحمدية قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ **[الأعراف:١٥٨]**

---

(١) الحاكم: المستدرك، كتاب الجهاد، باب الغلول، (٢٥٨٣). سنن أبي داوود، باب في الغلول إذا كـان يسيراً يتركه الإمام، (٢٧١٢).

(٢) الدارمي: كتاب السير باب في عقوبة الغال، (٢٤٩٠).

(٣) مسلم: صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب: تحريم هدايا العمال،ح (١٨٣٣).

(٤) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب: الغلول.ح (١٣٣٧).

المبحث الثالث

الاحتراس والحذر والموقف من الأسرى في قيم الحرب في عصر الرسول ﷺ

حول قوله ﷺ: "الحرب خدعة"

دعا النبي ﷺ أمته إلى الفطنة والنباهة والحزم والحذر. فقال ﷺ: "المؤمن كيّس فطن حذر"[1] وهذا القول يمثل قاعدة من قواعد آداب الحرب في عصر الرسالة، على أساسه توضع الخطط وتقوم المفاوضات وتكتب المراسلات ويتم التعامل مع الحالات الطارئة. قال عبد الله بن أبي أوفى ﷺ: " كنا مع النبي ﷺ حين اعتمر، فطاف فطفنا معه، وصلىّ فصلينا معه، وسعى بين الصفا والمروة، فكنا نستره من أهل مكة لا يصيبه أحد بشيء "[2] وقال جندب بن مكيث ﷺ: "بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن غالب الليثي في سرية وكنت فيهم، وأمرهم أن يشنوا الغارة على بني الملوح بالكديد فخرجنا حتى إذا كنا بالكديد لقينا الحارث بن البرصاء الليثي فأخذناه، فقال: إنما جئت أريد الإسلام وإنما خرجت إلى رسول الله ﷺ فقلنا إن تكن مسلماً لم يضرك رباطنا يوماً وليلة، وإن تكن غير ذلك نستوثق منك فشددناه وثاقاً"[3] وذلك عملاً بالحذر والحيطة، ولعل أدق وأروع صور الحذر والنباهة جاء مفصلاً في صلاة الخوف، قال تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ

---

(١) القضاعي: مسند الشهاب، الباب (٨٩) ح (١٤٨).

(٢) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب المغازي، غزوة أنمار، ح (٣٩٥٢).

(٣) الحاكم، المستدرك: كتاب الجهاد، باب الحذر، (٢٥٧١). هذا حديث صحيح على شرط مسلم.

وَلۡتَأۡتِ طَآئِفَةٌ أُخۡرَىٰ لَمۡ يُصَلُّواْ فَلۡيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلۡيَأۡخُذُواْ حِذۡرَهُمۡ وَأَسۡلِحَتَهُمۡۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ تَغۡفُلُونَ عَنۡ أَسۡلِحَتِكُمۡ وَأَمۡتِعَتِكُمۡ فَيَمِيلُونَ عَلَيۡكُم مَّيۡلَةً وَٰحِدَةًۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن كَانَ بِكُمۡ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوۡ كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسۡلِحَتَكُمۡۖ وَخُذُواْ حِذۡرَكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ [النساء:١٠٢] فكان النبي ﷺ إذا أحس بقرب العدو عمل بهذه الآية كما فعل ذلك في غزوة ذات الرقاع حين "صلى ﷺ صلاة الخوف: أن طائفة صفّت معه وطائفة وجاه العدو، فصلّى بالتي معه ركعة، ثم ثبت قائما، وأتموا لأنفسهم ثم انصرفوا، فصفوا وجاه العدو، وجاءت الطائفة الأخرى فصلى بهم الركعة التي بقيت من صلاته ثم ثبت جالساً، وأتموا لأنفسهم، ثم سلم بهم"[1]. وهذه الصور تؤكد على نباهة المسلمين وحذرهم من الغدر والمكر الذي يقوم به المشركون ومن يتعاون معهم، كما حصل من انخذال المنافقين يوم أحد، ونقض قريظة يوم الأحزاب، ومن حذرهم حماية رسول الله ﷺ في الطواف والمسعى يوم الفتح، على الرغم من أنهم في مدّة صلح الحديبية، وحذرهم ممن زعم أنه مسلم قبل أن يثقوا من موقفه ويتبين لهم صدق إيمانه، لأن من لا دين له لا أمان له.

وقوله ﷺ: "الحرب خدعة"[2] كان في ساعة من الحرج، بلغ من هولها أن وصفها الله تعالى بقوله: ﴿ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾ [الأحزاب:١٠] ولعل هذه الكلمة نوع من أنواع الحرب النفسية أو الجهاد باللسان التي كان يواجه بها النبي ﷺ خصوم الإسلام المتربصين به شراً ولم تكن هذه العبارة وحيدة في هذا الباب فهناك الكثير من العبارات التي كان يطلقها المسلمون لزرع الرعب في قلوب المعتدين، مثل

---

(١) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب المغازي، باب: غزوة ذات الرقاع، ح (٣٩٠٠).

(٢) مسلم: صحيح مسلم، كتاب، الجهاد والسير، باب جواز الخداع في الحرب،ح (١٧٣٩). البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب: الحرب خدعة.ح (٢٨٦٥) ح (٢٨٦٦).

شعارات الحرب، وصيحات القتال والدعاء، وإشـهار التوحيـد كقـول بـلال وهـو يعذب في مكة: أحدٌ أحد[1] وأحياناً الجهاد باللسان يكون أشد تـأثيراً علـى نفـوس الأعداء من السلاح، فلما دخل المسلمون مكة في عمرة القضاء وعبد الله بن رواحة بين يدي النبي ﷺ ينشد:

خلوا بني الكفار عن سبيله   اليوم نضربكم على تأويله

ضرباً يزيل الهـام عن مقيله   ويذهـل الخـليل عن خليله

قال عمر ﷺ يا بن رواحة في حرم الله وبين يدي رسول الله ﷺ تقول هذا الشعر؟! فقال النبي ﷺ " خلّ عنه **فوالذي نفسي بيده لكلامه أشد عليهم من وقع النبل**"[2] فهذه الحرب التي تتسلح بالكلمة الهادفة فتؤدي دوراً رائداً،لم تنكرها أخلاق الحرب في عصر الرسول ﷺ لأن عامة الجيوش تستعملها وتستفيد من نتائجها، فاستعملها المسلمون كرد على بعض الوسائل التي يستخدمها الأعداء، وإن كان المسلمون يستخدمونها ضمن ضوابطهم التي لا تقرّ الكذب، وتدعو من اضطر إليه إلى استعمال التورية، قال النبي ﷺ: "**وفي المعاذير مندوحة عن الكذب**"[3] فيستفاد منها في تمزيق صفوف الأعداء ونزع ثقتهم ببعضهم البعض كما حصل يوم الأحزاب، أو تخويفهم وإدخال الرعب في نفوسهم وتحييد القوى الأخرى عن القتال مع الأعداء، وحرمان العدو من حلفائه ونزع الثقة بالنصر من قلوبهم.

فمن أخلاق الحرب في الإسلام الحذر والنباهة والتورية؛ من أجل اختصار الطريق في الوصول إلى النصر، أو التوافق على السلام أو إلى فرض السلام وقيمه، وإخراج المشركين من دائرة إثارة الفتن وإيقاد الحروب ومحاربة التوحيد ونصرة

---

(١) سنن ابن ماجة: فضائل سلمان وأبي ذر والمقداد، ح (١٥٠).

(٢) النسائي: سنن النسائي، كتاب مناسك الحج، باب استقبال الحج، (٢٨٩٣). قال الألباني: صحيح.

(٣) البخاري: الأدب المفرد، كتاب الشعر، باب من الشعر حكمة، (٨٥٧). وهو حديث صحيح موقوف.

الجاهلية، فكان من وسائل إفشال مخططات الفتن استعمال التورية والتمويه على العدو" وكان رسول الله ﷺ قلّما يريد غزوة يغزوها إلا ورّى بغيرها، حتى كانت غزوة تبوك، فغزاها رسول الله ﷺ في حرّ شديد، واستقلّ سفراً بعيداً ومفازاً، واستقبل غزو عدو كثير، فجلّى للمسلمين أمرهم، ليتأهبوا أهبة عدوهم، وأخبرهم بوجهه الذي يريد[1] وهذا يعني أن رسول الله ﷺ إذا رأى أن مفاجأة العدو المجاهر بحرب المسلمين، تحول دون سفك الدماء من خلال مباغتة قواته وهروبها من المواجهة أو من خلال فرض الصلح دون الدخول في حرب، فإنه كان يفعله ويحقق به تنظيم اندماج وحدات المجتمع في دولة الإسلام على أسس من الحق والعدل، أما إذا كان العدو من القوة التي لا يمكن أن تحقق المفاجأة هزيمة قواته فإنه يخبر جيشه بما ينوي القيام به ليكون الجميع أمام الواقع فيستعدوا لمواجهته بما يستطيعون.

وفي ظلال مقاصد " إن في المعاريض مندوحة عن الكذب "[2] قال النبي ﷺ للشيخ الأعرابي حين سأله عن موضع المشركين يوم بدر فأجابه؛ ثم سأله الأعرابي من أنت فقال ﷺ: " نحن من ماء "[3] وكان معه أبو بكر الصدّيق ﷺ وأمثال ذلك كثير في السيرة النبوية فقد كان أبو بكر يوم الهجرة إذا سئل عن النبي ﷺ من هذا الذي معك؟ كان يقول: هاد يهديني[4] أو هاد يهديني السبيل، فهو يقصد سبيل وطريق الآخرة والآخرين يظنون أنه دليل الطريق في السفر وما إلى ذلك. وحين قال النبي ﷺ: "من لكعب بن الأشرف، فإنه آذى الله ورسوله" قال محمد بن مسلمة ﷺ: أتحب أن أقتله يا رسول الله؟ قال: (نعم). قال: فأتاه: فقال: إن هذا - يعني النبي ﷺ قد

---

(١) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد،ح (٢٧٨٨).

(٢) البيهقي: شعب الإيمان، باب حفظ اللسان، (٤٧٩٤) قال: موقوف. أبي الشيخ الأصفهاني: الأمثال في الحديث، فوله ﷺ في المعاريض، ١/ ٢٧١، (٢٣٠) ابن القيم: إعلام الموقعين، فصل في الفرق بين الإحداد على الزوجة وكثير معه، ٢/ ١٦٧.

(٣) ابن حبان: الثقات، السنة الثانية من الهجرة، (١/ ١٥٩) الشاطبي: الموافقات، ٤/ ٧١.

(٤) ابن حنبل: المسند، مسند أنس، ح (١٢٢٥٦).

عنانا وسألنا الصدقة، قال - كعب -: وأيضا، والله لتملنّه، قال: فإنا قد اتبعناه فنكره أن ندعه، حتى ننظر إلى ما يصير أمره، قال: فلم يزل يكلمه حتى استمكن منه فقتله[1] فتكلم ابن مسلمة مع ابن الأشرف بالتورية وكان قال لرسول الله ﷺ حين تعهد بقتله: فأذن لي فأقول، قال ﷺ: "قد فعلت"[2] وكان ابن الأشرف قد نقض العهد وجاهر بالعداوة وأعلن الحرب على المسلمين كما اتضح في موضعه من البحث.

وكذلك فعل **عبد الله بن أنيس الجهني** ﷺ حين بعثه النبي ﷺ إلى سفيان بن خالد الهذلي الذي كان يجمع الجموع في وادي عرنة ليغزو المسلمين في المدينة؛ فقتله ابن أنيس ﷺ وعاد إلى المدينة سالماً بعد أن استخدم التورية والإيهام الذي مكنه من الوصول إلى هدفه[3] وهذا ما فعله **عبد الله بن عتيك الأنصاري** ﷺ حين بعثه رسول الله ﷺ إلى أبي رافع اليهودي ومعه سرية من الأنصار فأمّر عليهم عبد الله بن عتيك، وكان أبو رافع يؤذي رسول الله ﷺ ويعين عليه ويحرض على حرب المسلمين وهو في حصن له بأرض الحجاز، فموّه ابن عتيك أمره حتى وصل إلى هدفه وأنجز مهمته[4] .

فكان من آدابهم جواز التورية والحذر، مع من تُخشى معرته وشرّه، قال ابن عمر رضي الله عنهما: " انطلق رسول الله ﷺ ومعه أُبي بن كعب ﷺ قِبل ابن صياد، فحدث به في نخل، فلما دخل عليه ﷺ النخل، طفق يتقي بجذوع النخل، وابن صياد في قطيفة له فيها زمزمة - صوت خفي - فرأت أم ابن صياد رسول الله ﷺ فقالت:

---

(١) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب: الحرب خدعة.ح (٢٨٦٧).

(٢) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب: الفتك بأهل الحرب.ح (٢٨٦٨).

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية، ٦/ ٣٠. الحلبي: السيرة الحلبية وبهامشها السيرة النبوية والآثار المحمدية، دحلان، بلا تاريخ، ٢/ ٦٨.

(٤) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب المغازي، باب قتل عبد الله بن أبي الحقيق، ح (٣٨١٣).

يا صاف هذا محمد، فوثب ابن صياد. فقال رسول الله ﷺ: "لو تركته بين"[1] فكان النبي ﷺ يريد الوصول إلى ابن صياد فجأة ليعلم حاله على حقيقتها وبماذا يحدث نفسه، وهل هو كاهن أو ساحر وذلك بعد أن اشتبه أمره على الناس حتى ظنّ البعض أنه الدجال.

وخلاصة الأمر في هذه المسألة أن أخلاق الحرب في عصر الرسول ﷺ، قائمة على السلم ورفض العدوان، وتدعو إلى التخلق بأسمى القيم الإنسانية وإلى البعد عن كل ما يتنافى مع الخصال الإنسانية الحميدة من الوفاء والصدق والتجاوز، وآداب المسلمين لا تجيز نقض العهود ولا تقبل الغدر ولا التسلط على الضعيف، وتدعو إلى احترام المقدسات ومراعاة مشاعر الآخرين والبعد عن الولوغ في الدماء والقتل؛ إلا أن يكون ذلك دفاعاً عن النفس وحماية للأمن وحفظاً للسلام وحرية العقيدة، ولكن تلك الأخلاق النبيلة لا تنظر إلى الأمور بعين واحدة فقط؛ فمن غدر ونقض وباشر العدوان وعبث بأمن الأمة وهدد سلامتها فإن الله تعالى قال: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ **[الأنفال:٥٨]** وقال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ **[البقرة:١٩٤]**.

فمن نقض وغدر وبدأ العدوان تُرد إليه عهوده ويُعلم بذلك، وللمسلمين الحق برد عدوانه بجميع الوسائل الشرعية، مع مراعاة قيم العفو والصفح والاستعداد الدائم للصلح والسلم والتعايش الإنساني المبني على الاحترام المتبادل للأمم والعقائد، وهذا ما كان يعمل به المسلمون فلم يؤثر أنهم هاجموا عدواً بينهم وبينه ميثاق إلا بعد إعلامه بإلغاء ذلك الميثاق مع بيان الأسباب التي أدت إلى ذلك،

---

(١) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب: ما يجوز من الاحتيال والحذر، مع من تخشى معرته (٢٨٦٩).

وإن كان بينهم وبين عدو حرب معلنة فإنما الحرب خدعة من استطاع أن يصل إلى أهدافه فهذا من مهارة التدريب والقدرة على جمع المعلومات والاستطلاع والرصد والمتابعة وما إلى ذلك

الموقف من الجاسوسية في آداب الحرب في عصر الرسول ﷺ

الجاسوسية فنّ قديم عملت به الدول والقوى على مرّ التاريخ وهو أحد الأسلحة الخطرة التي تستخدم ضد العدو للحصول على الأسرار أو فتح الثغرات في جداره الأمني، وآداب المسلمين تقوم على أسس مكينة من الحصانة والقدرة الوقائية في مواجهة أساليب العدو التجسسية وطرق الحصول على المعلومات والأسرار،كما أثبتت تلك الآداب قدرتها في الحصول على أسرار الأعداء بوسائل لا تخرجها عن قيمها وأخلاقها النبيلة، ولا تبعد وسائلهم في هذا الميدان عن معاني ومقاصد " في المعاريض مندوحة عن الكذب " وغالباً ما كان المسلمون يفاجئون عدوهم قبل أن يتم استعداداته العسكرية، مما يدل على حذرهم وقدرتهم ودقة رصدهم ومتابعتهم لحركات أعدائهم، في حين لم يتمكن فيه أعداؤهم من اختراق صفوفهم ومباغتتهم بناء على معلومات صحيحة دقيقة، وذلك لما تتمتع به آدابهم من قيم تسهم في حصانة أسرار المسلمين حيث أن كلاً منهم يعلم أنه مسؤول عمّا يصدر عنه من قول. قال تعالى: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق:١٨] وقال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنفال:٢٧] وقول النبي ﷺ: " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت "(١) فقيم الأمن جزء من تربية المسلمين، فقد هاجر النبي ﷺ ومعه صاحبه الصدّيق ﷺ ولم تعلم به قريش على الرغم من كثرة عيونها وإغرائها الآخرين بالجوائز الثمينة لمعرفة

---

(١) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره، ح (٥٦٧٢).

وجهته ﷺ ورصدت سرية نخلة بقيادة عبد الله بن جحش حركة المشركين وحققت أهدافها دون أن تكتشف عيون قريش وحلفاؤها حركة المسلمين وعامة حركات الغزوات والسرايا الإسلامية تشهد على قدرة التعامل مع الواقع العسكري دون التأثر بالعوائق التي يقيمها المشركون، واستطاعت سرايا رسول الله ﷺ تحقيق أهدافها داخل حصون الأعداء ولم تحل بينها وبين تحقيق أهدافها القلاع ولا الحراسات ولا العيون كما تبين فيما سبق من قتل ابن الأشرف وابن أبي الحقيق وغيرهما من المحرضين على حرب المسلمين.

وفي المقابل استطاعت عيون المسلمين اكتشاف تحركات جيوش المشركين، وأسهمت في إعداد المسلمين في الأوقات المناسبة لمواجهتها في عامة ما قوموا به من حروب، ففي يوم بدر. قال أنس ﷺ: بعث النبيَّ ﷺ بَسيسة عيناً ينظر ما صنعت عير أبي سفيان[(١)] وذكر الواقدي أن النبي ﷺ أرسل بسبس بن عمرو، وعديّ بن أبى الزّغباء، فوردا على مجدي بن عامر بدراً يتحسّسان الخبر، فلمّا نزلا ماء بدر أناخا راحلتيهما إلى قريب من الماء، ثمّ أخذا أسقيتهُما يستقيان من الماء فسمعا جاريتين من جواري جهينة يقال: لإحداهما برزة، وهي تلزم صاحبتها أي تطالبها في درهم كان لها عليها، وصاحبتها تقول: إنّما العير غدًا أو بعد غد قد نزلت الروحاء، ومجدي بن عمرو يسمعها، فقال: صدقت فلمّا سمع ذلك بَسْبَسُ وعدىّ انطلقا راجعين إلى النّبىّ ﷺ حَتّى لقياه بعرق الظّبية فأخبراه الخبر[(٢)].

وفي سرية القرَدة [(٣)] حين حاولت قريش استبدال طريق المدينة لم يتمكن

(١) سنن أبي داوود، باب في بعث العيون، (٢٦١٨). سنن البيهقي، كتاب السير، باب بعث العيون والطلائع من المسلمين، (١٨٢٢٠).

(٢) ابن سعد: الطبقات، ٢/ ٢٥٥. الواقدي: كتاب المغازي، ١/ ٣٤. المباكفوري: الرحيق المختوم، ٢٠٥.

(٣) القردة موضع من أرض نجد بين الرندة والعمرة ناحية ذات عرق. ابن سعد: الطبقات الكبرى، ٢/ ٣٦.

المشركون من الإفلات من رصد المسلمين لهم وذلك أن نعيم بن مسعود الأشجعي وكان مشركاً قدم المدينة فنزل على كنانة بن أبي الحقيق في بني النضير فذكر أخبار قريش وطريق قافلتهم وكان في المجلس سليط بن النعمان بن أسلم فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فأرسل سرية القردة التي غنمت قافلة قريش بعد أن فرّ قادتها[1] وهذا يبين تنامي قدرات المسلمين العسكرية ودقة رصدهم لما يجري حولهم من أحداث.

وفي حمراء الأسد[2] كان لأرصاد المسلمين دور فاعل في تنبه المسلمين وتحركهم في الوقت المناسب حين أجمعت قوة قريش على العودة إلى المدينة بعد معركة أحد لاستئصال المسلمين، فالتقط هذا الخبر عبد الله بن عمرو بن عوف المزني فقدم إلى المدينة وأخبر النبي ﷺالذي استنفر المسلمين إلى حمراء ا لأسد فعلمت قريش بذلك فتابعوا سيرهم إلى مكة[3] وعدلوا عن مهاجمة المدينة من جديد.

وفي المريسيع[4] حين اجتمع بنو المصطلق لمهاجمة المدينة بعث النبي ﷺ بريدة بن الحصيب الأسلم عيناً له إلى ماء المريسيع فجاء بأخبار القوم فأحبط النبي ﷺ محاولتهم تلك في مهدها[5] بفضل دقة معلومات وأرصاد المسلمين وحسن تفاعلهم مع الأحداث.

وفي الخندق يوم الأحزاب قال رسول الله ﷺ: " من يأتيني بخبر القوم؟ فقال الزبير أنا ثم قال من يأتيني بخبر القوم؟ فقال الزبير أنا ثم قال من يأتيني بخبر القوم؟ فقال

(١) الواقدي: المغازي، ١/ ١٩٧. ابن سعد: الطبقات، ٢/ ٣٦.

(٢) حمراء الأسد: موضع على ثمانية أميال من المدينة. ينظر ياقوت، معجم البلدان، ٢/ ٣٠٠.

(٣) الواقدي: المغازي، ١/ ٣٢٦. المباكفوري، الرحيق المختوم، ٢٨٥.

(٤) المريسيع: ماء في ديار بني المصطلق. ينظر البكري: معجم ما استعجم، ٤/ ١٢٢٠.

(٥) ابن سعد: الطبقات، ١/ ٦٤. الواقدي: المغازي، ١/ ٤٠٥.

الزبير: أنا فقال النبي ﷺ: "إن لكل نبي حوارياً وحواري الزبير"[1] وذهب حذيفة بن اليمان ﷺ وجاء بخبر رحيل قريش وانصرافهم عن حصار المدينة يوم الخندق في ليلة شديدة الخوف والبرد والظلمة[2] وكان أثر نعيم بن مسعود الأشجعي[3] يوم الأحزاب جلياً فلم يكن مجرد عين يجمع المعلومات وإنما أظهر حنكة وقدرة عالية في العمل بقوله ﷺ: "إنما الحرب خدعة" فخذّل تحالف المشركين ونزع الثقة من قلوب الأحزاب وبعث الشك فيما بينهم حتى فرّوا مرعوبين لا يلوون على شيء. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب:٩] وقوله ﷻ: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب:٢٥] [4] ومثلما كان النبي ﷺ يبث العيون؛ فيأتونه بأخبار العدو وأسراره، كذلك كان يهتم بالدلالة والمعرفة التامة بأسرار الطرق وتشعباتها، ففي غزوة الحديبية لم يعلم به المشركون على الرغم من كثرة عيونهم وشدة استعدادهم لرصد تحركاته ﷺ إلا وقد باغتهم متجاوزاً بجيشه أرصادهم وطلائعهم، فلم تغن عنهم أرصادهم وعيونهم شيئاً[5] فثبتت قدرة المسلمين على التحرك العسكري السريع كما ثبتت نباهتهم الأمنية وحرصهم على كتم المعلومات والانضباط في الحركة.

---

(١) سنن البيهقي، كتاب السير، باب بعث العيون والطلائع من المسلمين (١٨٢٢١) ابن حنبل: المسند، مسند جابر، (١٤٩٧٨) المباركفوري: الرحيق المختوم، ٣١٣ .

(٢) ينظر صحيح مسلم: كتاب الجهاد، باب غزوة الأحزاب، (١٧٨٨) صحيح ابن حبان: كتاب الإخبار عن مناقب الصحابة (٧١٢٥).

(٣) ابن عبد البر: الاستيعاب، ٤/ ١٥٠٨.

(٤) الطبري: تاريخ الطبري، ٢/ ٦٠٤. ابن حزم: جوامع السيرة، ١٦١ .

(٥) ابن هشام: السيرة النبوية، ٢/ ٣٠٩. ابن سعد: الطبقات، ١/ ٩٥. الطبري: تاريخ الطبري، ٢/ ٦١٣.

وفي غزوة خيبر لم يشعر يهود خيبر برسول الله ﷺ وجنده إلى وقد صبحوهم وهم خارجين إلى أعمالهم، ولم تكتشف عيون اليهود وأرصادهم حركة المسلمين لأنهم سلكوا طرقاً غير معروفة عند اليهود فحين نزل المسلمون بساحتهم قالوا: محمد والخميس[١] ولم يقلع جيش المسلمين عن خيبر حتى أنجز جميع مهامه، وحين تجمعت قبائل غطفان وأحلافها لمهاجمة المدينة رصدتهم عيون النبي ﷺ فباغت تلك الجموع بسرية بشير بن سعد الأنصاري رضي الله عنه[٢] إلى الجناب فساروا في الليل وكمنوا في النهار حتى فاجؤوا جموع المشركين الذين فروا تاركين نعمهم وسرحهم غنيمة للمسلمين[٣].

وفي ذات السلاسل[٤] تمكن المسلمون من مباغتة جموع قبيلة قضاعة الذين أرادوا غزو المدينة إلا أن عيون المسلمين قد رصدت تحركاتهم، فأرسل إليهم النبي ﷺ عمرو بن العاص رضي الله عنه ثم أمده بأبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه فتمكن المسلمون من تحقيق أهدافهم بناء على معلومات عيونهم وأرصادهم ثم عادوا سالمين غانمين[٥] وفي غزوة حنين كان عين المسلمين عبد الله بن أبي حدرد رضي الله عنه الذي تمكن من رصد تحركات المشركين من هوازن وثقيف وأحلافهم ثم عاد بأخبارهم إلى النبي ﷺ الذي اتخذ الإجراءات المناسبة لما طرأ من مستجدات[٦] فلما أهملت مقدمة المسلمين أمر الاستطلاع والعيون ورصد المشركين دفعت الثمن في الصفحة الأولى من معركة

---

(١) وقالوا عن الجيش الخميس لأنه يقسم إلى خمس فرق، المقدمة والقلب والميمنة والميسرة والساقة. الرازي: مختار الصحاح، ١٤٦.

(٢) ابن عبد البر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ١/ ١٧٢.

(٣) الواقدي: المغازي، ٢/ ٧٢٨. ابن سعد: الطبقات، ٢/ ٣١٠.

(٤) ذات السلاسل: اسم ماء بأرض بني جذام كانت فيها غزوة عمر هذه بأمر النبي ﷺ. ياقوت: معجم البلدان، ٣/ ٢٣٣.

(٥) ابن سعد: الطبقات، ٢/ ١٣٢. الواقدي: المغازي، ٢/ ٧٧٠.

(٦) ابن هشام: السيرة النبوية، ٢/ ٤٣٩. ابن سعد: الطبقات، ٢/ ١٥٠. ابن خياط: تاريخ، ٣/ ٧٣.

حنين[1] مما يؤكد الدور الفاعل لقوى الاستطلاع والرصد في عصر الرسول ﷺ.

ويوم فتح مكة بلغ من أهمية الحفاظ على سرّ رسول الله ﷺ أن الطاهرة أم المؤمنين عائشة لم تخبر أبا بكر ﷺ لماذا كانت تصنع جهاز رسول الله ﷺ أو إلى أي جهة يريد أن يتوجه ﷺ مما يشير إلى حصانة آداب الحرب في عصر الرسالة وأن مجتمع السيرة كان يحس بمسؤولية عالية تجاه أي فعل يقوم به، وأن ذلك المجتمع كان ذا تربية عالية القيم وثقافة سامية المفاهيم لا يمكن التشويش عليها أو اختراقها لما فيها من الثوابت والتعاون والتناصح والإخلاص والغيرة على الأمة والعقيدة[2] وكان حذيفة ابن اليمان ﷺ أمين سرّ رسول الله على المنافقين يعرف أسماءهم ومكرهم[3] مما يشير إلى تكامل القدرات الأمنية، وإغلاق المسلمين للثغرات التي يمكن أن تكون عوناً للأعداء في اختراق حصون الأمة وهذه الشواهد الحية في أخلاق حرب المسلمين تبين أنّ المسلمين بقدر ما كانوا يعملون بقيم العفو والمسامحة وحب السلم والاستقرار، فإنهم كانوا يحتاطون لكل ما يحتمل أن يأتيهم منه خطر فأتقنوا فنّ الرصد والاستطلاع بأقصى ما يمكن أن يصل إليه المختصون في ذلك، كما توافرت لديهم المعلومات الجغرافية المتكاملة عن مسالك الطرق، وأسرار الحركة ومداخل المفازات ومخارج المتاهات، فلما تكاملت لديهم هذه المنظومة الأمنية المبنية على مقاصد قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ ﴾ [النساء:71] وآداب ومعاني قوله ﷻ: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ [النساء:83] وأمثال ذلك، فلما توفرت لهم هذه الثقافة وعمل بها المسلمون تمكنوا من تأمين صفهم الداخلي وتحصين بلادهم ضد أي غزو خارجي؛ سواء كان ثقافي أم عسكري أم اقتصادي، فتمكنوا من إنجاز نشر عقيدتهم وبناء دولتهم وتوحيد أمتهم، ومن ثم قيادة العالم

(1) خطاب: محمود، الرسول القائد، ط ٥، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٤هـ ١٩٧٤م، ٣٨٣.

(2) ابن القيم: زاد المعاد، ٣/ ٣١٦.

(3) ابن القيم: زاد المعاد، ٤٣٤. الخليفة: الأنصار في العصر الراشدي، ٩٧.

في عصرهم قيادة حضارية عادلة أمِن فيها الناس على أنفسهم وأموالهم، فانطلقوا إلى ميادين العمل والعطاء، فتحققت تحت قيادتهم المقاصد الحضارية التي تسموا إليها الأمم والشعوب.

الموقف من الجاسوس المسلم في آداب الحرب في عصر الرسول ﷺ

قال ابن القيم أما هديه ﷺ في من جسّ عليه؛ فقد ثبت أنه قتل جاسوساً من المشركين، وثبت أنه لم يقتل حاطب بن أبي بلتعة وقد جسّ عليه[1] قال علي ﷺ: بعثني رسول اللّه ﷺ أنا والزبير والمقداد فقال: "انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخٍ[2] فإِنَّ بها ظعينةً معها كتاب فخذوه منها، فانطلقنا تتعادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة، فإِذا نحن بالظعينة فقلنا: هلُمِّي الكتاب، فقالت: ما عندي من كتاب، فقلت: لتخرجنَّ الكتاب أو لنلقينَّ الثياب، فأخرجته من عقاصها فأتينا به النبيَّ ﷺ فإِذا هو: من حاطب بن أبي بَلْتَعَةَ إلى ناس من المشركين يخبرهم ببعض أمر رسول اللّه ﷺ فقال: "ما هذا يا حاطب؟" فقال: يا رسول اللّه، لا تعجل عليَّ فإِني كنت امرأً ملصقاً في قريش ولم أكن من أنفسها، وإن قريشاً لهم بها قراباتٍ يحمون بها أهليهم بمكة، فأحببت إذ فاتني ذلك أن أتخذ فيهم يداً يحمون قرابتي بها، واللّه يا رسول اللّه ما كان بي من كفر ولا ارتدادٍ، فقال رسول اللّه ﷺ: "صدقكم" فقال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال رسول اللّه ﷺ: "قد شهد بدراً، وما يدريك لعلَّ اللّه اطلع على أهل بدرٍ فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم"[3] فالنبي ﷺ لم يقتل

---

(١) ابن القيم: زاد المعاد، ٩٣.

(٢) روضة خاخ: موضع بين الحرمين بقرب حمراء الأسد من جهة المدينة. قال الشاعر الأحوص:
ليست لياليك من خاخ بعائدة ..... كما عهدت ولا أيام ذي سلم. ينظر ياقوت: معجم البلدان، ٢/ ٣٣٥.

(٣) سنن أبي داوود، حكم الجاسوس إذا كان مسلماً، (٢٦٥٠) صحيح مسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أهل بدر وقصة حاطب (٢٤٩٤). البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب: الجاسوس. (٢٨٤٥). المباركفوري: الرحيق المختوم، ٣٩٨.

حاطب ولم يأذن لعمر بذلك على الرغم من خطورة ما قام به من عمل على أمن المسلمين من خلال التواصل مع عدوهم في ساعة حرجة كان من الممكن أن تشكل أمام المسلمين عقبة كؤود تؤخر فتح مكة معقل المشركين آنذاك، ولعل الشافع الذي نجا به حاطب من ذلك الفعل الأمني الفريد في عصر السيرة أن أمره رفع إلى رسول الله ﷺ الذي كان يقدم العفو والصفح على العقوبة والمحاسبة ما وجد إلى ذلك سبيلاً، والأمر الآخر أن حاطب كان ممن شهد بدراً تلك الموقعة التي نال أهلها الشرف الأعلى لما لبدر من فضائل ومكانة عند الله وعند رسوله ﷺ والأمر الثالث: أنه كان متأولاً نجاة بعض أهله الذين لا زالوا بين المشركين في مكة ولم يكن متعمداً التجسس على المسلمين، وإلا فالذي يبدو أن عقوبة من يفعل مثل هذا الفعل هي القتل يظهر ذلك من موقف النبي ﷺ من إشارة عمر رضي الله عنه عليه ﷺ حيث أن النبي ﷺ لم يقل بأنّ ذلك لا يجوز وإنما اعتذر له وقبل عذره وأشار ﷺ إلى أنه صدق فيما اعتذر به عن فعلته تلك والله أعلم.

إن كان الجاسوس من أهل الحرب

الجاسوسية عمل خطير يهدف إلى الحصول على الأسرار العسكرية ومعرفة مواطن الضعف التي يمكن أن ينفذ منها العدو إلى قلب الأمة لتحقيق أهدافه بأيسر الخسائر وأقصر الطرق، لذلك كان الموقف منه حاسماً يتوافق مع حجم ما يترتب على أعماله من مخاطر، قال سلمة بن الأكوع رضي الله عنه: غزوت مع رسول اللّه ﷺ هوازن. قال: فبينما نحن نتضحَّى وعامتنا مشاةٌ وفينا ضعفةٌ إذ جاء رجل على جمل أحمر، فانتزع طلقاً من حقو البعير فقيَّد به جمله، ثم جاء يتغدَّى مع القوم، فلما رأى ضعفتهم ورقة ظهرهم خرج يعدو إلى جمله فأطلقه ثم أناخه فقعد عليه، ثم خرج يركضه، واتبعه رجل من أسلم على ناقة ورقاء هي أمثل ظهر القوم. قال: فخرجت أعدو فأدركته ورأس الناقة عند وَرِك الجَمَل، وكنت عند وَرِك الناقة ثم تقدمت حتى كنت عند وَرِك الجمل، ثم تقدمت حتى أخذت بخطام

الجمل فأنخته، فلما وضع ركبته بالأرض اخترطت سيفي فأضرب رأسه فندر، فجئت براحلته وما عليها أقودها، فاستقبلني رسول اللّه ﷺ في الناس مقبلاً فقال: "من قتل الرجل؟" فقالوا: سلمة بن الأكوع، قال ﷺ: "له سلبه أجمع"[1] وقال فرات بن حيان: إن رسول اللّه ﷺ أمر بقتله وكان عَيْناً لأبي سفيان وكان حليفاً لرجل من الأنصار، فمرَّ بحلقة من الأنصار فقال: إني مسلم، فقال رجل من الأنصار: يا رسول اللّه، إنه يقول إني مسلم، فقال رسول اللّه ﷺ: " إن منكم رجالاً نكلهم إلى أيمانهم، منهم فرات بن حيان "[2] ومن خلال التمعن في هذه المواقف يتبين أن الحسم مع الجواسيس والعمل المباشر على قطع دابر شرهم إذا كان أمرهم بيناً جلياً لا لبس فيه، لما يترتب على أفعالهم من أخطار على أمن الأمة وعقيدتها، أما إذا كان في أمر الجاسوس شبهة ظاهرة فإن الأمر يوكل إلى الحاكم المسلم ينظر في مصلحة الأمة وحماية أمنها.

والجاسوس إن كان من أهل الذمة وكان متعمداً ذلك العمل فإن ثبات الجاسوسية عليه يؤدي إلى نقض عهد الذمة، لكن إذا وجد له عذر أو تأويل يستشفع به فإن آداب الحرب في عصر الرسالة تميل إلى التجاوز وفاء لذمة رسول الله ﷺ ووصيته ﷺ بهم، والإسلام بعامة قيمه يدعو إلى برّ أهل الذمة والرأفة بهم وحسن التعامل معهم والوفاء لهم والتجاوز عنهم ما لم يتعمدوا الإساءة.

لكن الذمي إذا ثبت تورطه بالتجسس فإنه قد نقض عهد الذمة ووالى أعـداء الأمـة وأحلّ بدمه بذلك النقض، وإذا كان هذا الأمر قائم على المسلم إذا تجسس للعـدو ولم يشفع له إسلامه، فإنه ينطبق على الذمي كذلك ولن يشفع له عقد الذمـة. قـال

---

(١) سنن أبي داوود، باب في الجاسوس المستأمن، (٢٦٥٤) سنن البيهقي، كتاب السير، باب الجاسوس من أهل الحرب، (١٨٢١٧).

(٢)سنن أبي داوود، باب في الجاسوس الذميِّ، (٢٦٥٢). سنن البيهقي، كتاب السير، بـاب الجاسـوس من أهل الحرب، (١٨٢١٨).

ابن القيم: "أنه سبحانه قد حكم ولا أحسن من حكمه أنه من تولى اليهود والنصارى فهو منهم ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة:٥١] فإذا كان أولياؤهم منهم بنص القرآن كان لهم حكمهم، وهذا عام خصّ منه من يتولاهم ودخل في دينهم بعد التزام الإسلام فإنه لا يقر ولا تقبل منه الجزية، بل إما الإسلام أو السيف، فإنه مرتد بالنص والإجماع"(١) أما جاسوس من أهل الحرب فإنه يدخل ضمن دائرة القتال وهو جزء من المعركة فإذا اطلع على أسرار المسلمين ترتب على ذلك أخطار جسيمة مباشرة لذلك لا يليق معه إلى الشدة وقطع دابر الخطر المترتب على وصول المعلومات إلى العدو، فيتبين أن أخلاق الحرب في عصر الرسول ﷺ مبنية على اليقظة والحذر والحرص على أمن الأمة وعقيدتها وشدة الحسم مع الجواسيس لما يجلبونه على الأمة من أخطار ومتاعب تعرضها للضعف والتمزق أو الاستباحة.

ولما كان الأمر بهذه الخطورة فإنّ حراسات المسلمين كانت دائماً على حال من الاستعداد واليقظة، فإذا حصل لديهم فراغ من الوقت أو الراحة؛ فإنهم يشغلونه بطاعة الله وذكره وبما يرقق القلوب ويصقل شفافيتها ويسمو بها إلى التجافي عن الدنيا وزينتها، قال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة ذات الرقاع فنزل منزلاً فقال: من رجل يكلؤنا ليلتنا هذه؟ فانتدب رجل من المهاجرين؛ ورجل من الأنصار، فقالا: نحن يا رسول الله قال؟ فكونا بفم الشعب فلمّا أن خرجا إلى فم الشعب قال الأنصاري للمهاجري أي الليل أحبّ إليك أن أكفيك أوله أو آخره؟ قال: بل اكفني أوله فاضطجع المهاجري فنام، وقام الأنصاري يصلي(٢) وهذه القيم والمعاني من خصائص الحرب عند المسلمين؛ وورثة تلك القيم، وهذا يمثل لديهم ثقافة الرحمة والنظرة الأخوية إلى

---

(١) ابن القيم: أحكام أهل الذمة، ١/ ١٩٥.

(٢) سنن البيهقي: كتاب السير، باب صلاة الحرس الحرب خدعة، (١٨٢٢٩).

الآخرين وما في ذلك من تقوية للروابط الإنسانية ونشر لقيم الألفة والمودة وتمتين لقيم التواصل بين الشعوب، أما الناظر إلى ما يقضي به الآخرون فراغ أوقاتهم فإنه يرى عكس ما في آدب المسلمين؛ إذ أن عامة أوقات فراغهم تُقضى باللهو والغفلة أو المعاصي وما يُقسّي القلوب ويدعو إلى التشفي من الآخر ويفتح أبواب الفتن والبوائق التي تنشر القلق والاضطراب وتسلب الناس الراحة والإحساس بالطمأنينة والأمن الذي يمثل أحد مقاصد الحرب في عصر الرسول ﷺ.

فيتبين أن قيم الحرب في صدر الإسلام محصنة ضد أعمال الجاسوسية ولديها القدرة على اختراق أعتى حصون الأعداء وقلاعهم وتدابيرهم الأمنية والحصول على ما تريد كما تبين ذلك في سرايا الصحابة التي واجهت صناع الحروب وأئمة الفتن، وأقرت أن الحرب خدعة على مبدأ خذّل عنا ما استطعت أي أنها تكون في حالات الحرب المشروعة جائزة ومشروعة ويستحسن العمل بها لدفع الشر عن الأمة، وهي لا تلتقي مع عامة سياسات غير المسلمين التي تجعل الغاية تبرر الوسيلة، إذ أن المسلم لا يُباح له موافقة الباطل؛ بل هو مطالب أن يدور مع الحق حيث دار، فإذا استخدم نظرية الحرب خدعة ففي حدود ردّ العدوان وحماية السلام وحرية العقيدة، وعلى هذا أصبحت الثقة في النصر لا تتزحزح عند أي جيش تتوفر فيه مبادئ وقيم وآداب الحرب كما هو في عصر الرسالة، ومما يؤكد تلك الثقة أن النبي ﷺ لما استشرف مستقبل العلاقات الدولية في عصر السيرة النبوية. قال: " هلك كسرى، ثم لا يكون كسرى بعده، وقيصر ليهلكنّ ثم لا يكون قيصر بعده، ولتقسمن كنوزهما في سبيل الله "[1] وقد تحقق ذلك كما قال ﷺ حيث كان واثقاً بموعود الله لهذه الأمة ما تمثلت بأخلاق الرحمة والعدل والصدق والتعاون فيما بين أبنائها، وما تماسكت لحمتها كما نظم نسيجها رسول الله ﷺ ووضع لها الضوابط التي تحصنها من الجاسوسية والدعاية والتشويش وثقافة الإفك التي تسعى دائماً إلى تمزيق الصفوف

---

(١) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب: الحرب خدعة.ح (٢٨٦٤/ ٢٨٦٥).

وفتح الثغرات في جدار عقيدة الأمة وإحداث الفتن والبلبلة بين أبنائها.

الموقف من الأسرى في أخلاق الحرب في عصر الرسول ﷺ

أخلاق حرب المسلمين مع الأسرى[1] مبنية على قيم سامية تنطلق من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء:٧٠] وهذا التكريم الرباني شامل ومستمر لا يجوز امتهانه بعمل غير شرعي وعلى هذا فإن للأسرى حقوق تتوافق مع آداب الحرب في عصر الرسالة التي ترفض الظلم وإيذاء الضعيف، وتعذيب الأسير أو النيل من كرامته، فهي تحفظ حقوقهم ومشاعرهم، ومن قواعد التعامل مع الأسرى في أخلاق الحرب في صدر الإسلام أنّ الله تعالى قرنهم مع المساكين واليتامى، ومعلوم مقام المسكين واليتيم وحقوقهما في الأمة الإسلامية وعقيدتها ومكانة من يكرمهما ويرعى شؤونهما. قال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان:٨] وقال ﷺ: "أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا" وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما شيئا[2] .

فرعاية الأسير قربة من القربات التي يؤديها المسلم في حياته، وهي إنفاذ لوصية رسول الله ﷺ في الأسرى حين أوصى ﷺ قال أبو عزيز بن عمير أخي مصعب بن عمير: "كنت في الأسارى يوم بدر فقال رسول الله ﷺ: **استوصوا**

---

(١) **الأسرى**: يقال: أسَرْت الرجلَ أسْرًا وإسارًا، فهو أسير ومأسور، والجمع أسرى وأسارى، وتقول: استَأسِرْ أي كُنْ أسيرًا لي، والأسيرُ: الأَخِيذُ، وأصْله من ذلك. وكلُّ محبوس في قِيدٍ أو سِجْنٍ: أسيرٌ. وقوله تعالى :(وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا) الإنسان:٨. وقال مجاهد: الأسير المسجون، والجمع أُسَراء وأُسارى وأَسارى وأسْرى، قال ثعلب: ليس الأَسْر بعاهة فيجعل أسرى من باب جَرْحى في المعنى، ولكنه لما أُصيب بالأسر صار كالجريح واللديغ، فكُسِّرَ على فَعْلى، كما كُسر الجريح ونحوه. ابن منظور: لسان العرب، حرف الراء. مادة (أسر). الرازي: مختار الصحاح: مادة (أ س ر) والأسرى في الاصطلاح "هم المقاتلون من الكفار إذا ظفر المسلمون بأسرهم أحياءً". الماوردي: الأحكام السلطانية، ١٦٧. دار الكتب العلمية، بيروت، بلا تاريخ.

(٢) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الطلاق، باب اللعان، ح (٤٩٩٨).

بالأسارى خيراً وكنت في نفر من الأنصار وكانوا إذا قدّموا غداءهم وعشاءهم أكلوا التمر وأطعموني الخبز بوصية رسول الله ﷺ إياهم"[1] فمن حق الأسير في أخلاق الحرب عند المسلمين، كفايته من الطعام والشراب واللباس والمأوى، والتحدث معه والرد على أسئلته وتلبية متطلباته المشروعة، واحترام معتقده وعدم إجباره على تغيير دينه، وعدم تعذيبه أو إكراهِه على ما لا يريد القيام به، وعدم التصرف في شأنه إلا بعلم ولي الأمر، فالأسير منذ أن يقع في الأسر يصبح تابعاً لمن أسره وعلى مسؤولية القوة التي وقع في قبضتها، وإذا تم إطلاق سراحه لاحقاً فيجب أن تحفظ له سبل العودة الآمنة إلى دياره.

فأي حضارة أحق بالتبجيل والإجلال، وأولى بالقيادة لأخلاق العالم؟ الحضارة التي تكرم الأسرى بما فيهم المحارب لله ولرسوله ﷺ القاتل للمؤمنين؛ وتقدمه على النفس في الطعام حتى لو كان الطعام قليلاً، وتضمن له جميع حقوقه المشروعة مع حفظ كرامته وإنسانيته في كل أحواله، وتعمل ما في وسعها لتيسير إطلاق سراح الأسرى وإلحاقهم آمنين بأهليهم، أم الحضارة التي تكمم أفواه الأسرى حتى لو كانوا من المسالمين غير المحاربين، وتضع رؤوسهم في أكياس النفايات وتسلط عليهم الكلاب وأسلاك الكهرباء وتحرمهم النوم وتقطعهم عن العالم الخارجي؟! وتحرمهم حتى من حقوق الوقوف أمام القضاء لإصدار الأحكام عليهم، كما شاهد العالم ولا زال كل هذه المشاهد على شاشات الفضائيات العالمية، وهل هناك وجه للمقارنة بين قيم ومقاصد هاتين الحضارتين؟!.

فإذا عُرفت هذه القيم الإنسانية النبيلة، وتبين سموها على قيم الحرب المعاصرة عند كثير من القوى، ولا سيما التي شنت الحروب الأخيرة على بعض بلاد المسلمين، ثم أضيفت هذه المواقف إلى قيم أسلاف أبناء هذه الحضارة في الماضي وقرنت بما كان عليه حال الأسرى الذين يذبحون ويقدمون قرابين للآلهة ثم صاروا يستعبدون

---

(١) الطبراني: المعجم الكبير، مسند من يعرف بالكنى، أبو عزيز بن عمير، ح (٩٧٧).

ويتخذون رقيقاً للبيع والشراء، ثم قورن كل ذلك بقيم الحرب في السيرة النبوية لتبين لكل منصف أن من يغمز بأخلاق الحرب في عصر النبي ﷺ، لا يخرج عن دائرة التضليل والتشويه والعمل على طمس الحقائق الإنسانية عند المسلمين، أو العمل على تنفير الناس من تفهم مقاصد الآيات القرآنية التي تنزلت في هذا الخصوص، في مثل قوله ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنفال:٦٧]

وإسقاط مقاصد الآية التي توضح أن بإمكان المسلمين التعامل مع أسرى المشركين بما هو معروف من تلك العادات في نشوة الظفر والنصر، وعلى مبدأ المعاملة بالمثل التي كانت سائدة آنذاك ولا زال المشركون يعملون بها، ولم تزل أثارها الظالمة سماحة المسلمين في عدم قتل أسرى بدر، حين اختارت أخلاقهم العفو والصفح، وردت ما أراد بعض قادة المسلمين مثل عمر بن الخطاب وعبد الله بن رواحة رضي الله عنهما، في إنزال أكبر العقوبات بأولئك المعتدين من المشركين، واكتفاء النبي ﷺ بأخذ الفداء عن أسرى معركة بدر، ولكن المشركين لم يستوعبوا قيم العفو والصفح التي تعامل بها المسلمون مع أسراهم، فأكد المشركون تمسكهم بأخلاق قتل الأسرى المسلمين من خلال تعاملهم مع أسرى المسلمين يوم الرجيع وغدرهم بمن استأسر لهم وقتله بعد الأسر، وبيع الآخرين إلى قريش، ومن ثم قتل قريش للأسير خُبيب بن عدي الأنصاري ﷺ في مكة[1] دون أن يأخذ غدر المشركين هذا التنبيه أو التحذير في أداء كثير من الكتاب، بينما التشهير والتزييف ينصب منهم على مقاصد الآية الكريمة التي تشرح حالة كانت سائدة آنذاك وأنّه كان على المسلمين أن يعملوا بها حتى يكسروا طاغوت الشرك وعدوانه، مما يوحي بجهل كل من يلمز بقيم

---

(١) ينظر البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب هل يستأسر الرجل، (٢٨٨٠). سنن أبي داوود، باب في الرجل يستأسر، (٢٦٦٠).

الحرب في صدر الإسلام؛ أو بسوء نواياهم وإصرارهم على الإثم، ولما مال المسلمون إلى العفو والتسامح مع من آذاهم وأخرجهم من ديارهم، أقرهم القرآن على ذلك ومدح أخلاق المسامحة والرحمة والعفو عند المسلمين، فبعد أن كان حال الأسير كما تبين تغير إلى ما يناسب إنسانية الأسير وأصبح الحال في التعامل مع الأسرى مبني على قواعد من قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمد:٤]

فلا ينبغي والحال هذه أن يستدل بمدلول قوله تعال: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ﴾ [الأنفال:٦٧]

على أنها هي التي ابتدعت الدعوة لشدة التعامل مع أسرى المحاربين لله ولرسوله ﷺ أو هي الفهم الوحيد للتعامل مع الأسرى لأن هذه الآية تتضمن تقرير ما يجب أن يعامل به الأسرى بحسب العرف القائم بين الأمم آنذاك، ثم أصبح التعامل مع الأسير قائم على قواعد دقيقة عادلة رحيمة، أخذ القانون الدولي يحاكي فيها رحمة الإسلام وإنسانيته، فنظم معاملة الأسرى في لائحة لاهاي للحرب البرية / ١٩٠٧ واتفاقية جنيف الثانية عام ١٩٢٩ وعام / ١٩٤٩م[1].

فأصبحت أخلاق الحرب في عصر الرسالة ترعى الأسير منذ وقوعه في الأسر، وتعمل على تأمين مستلزماته من طعام وشراب وكسوةً ومأوى وعلاج ومعاملة عادلة؛ حتى يعود إلى قومه ويتسلمه أهله، وهذه القيم لم تكن عارضة عند المسلمين؛ وإنما هي ثوابت يعمل بها المسلم استجابة لمتطلبات عقيدته وعملاً بقيم ثقافته والأمثلة على ذلك كثيرة في عصر الرسالة وغيره. وهذه ميزة تمتاز بها قيم الحرب في السيرة النبوية، عن بقية قوانين التعامل مع الأسرى في العالم، حيث أن المسلم الآسر لأعدائه يتعامل معهم من منطلقات شرعية تكوّن ثوابت في ثقافته الإنسانية لا يمكن تجاوزها، بعكس ما عليه غير

(١) ينظر الزحيلي: أثار الحرب في الفقه الإسلامي، ٣٨٠.

المسلمين الذين غالباً ما يسومون أسراهم ألوان العذاب والعنت والإهانة إلا إذا كانت هناك قوانين رادعة ومع ذلك إذا طبقت تلك القوانين على الدول والقوى الصغرى فمن يحمي الأسير ممن لا رقابة على القوانين فوق رقابته، كما هو حاصل ومشاهد لأسرى المسلمين في البلاد التي تعاني من الاحتلال والغزو، وكل هذا يبين أن آداب الحرب في عصر الرسول ﷺ هي المؤهلة حضارياً أكثر من غيرها لحماية حقوق الأسرى وتحقيق المقاصد الإنسانية المرجوة من ذلك.

فداء الأسرى في آداب الحرب في عصر الرسالة

لما أخذ النبي ﷺ الفداء من الأسرى تنزل القرآن يلوم المسلمين على شفقتهم على المشركين لما لهؤلاء المشركين من سطوة وقوة في محاربة الإسلام وصد عن سبيل الله، ولما كان يوم بدر استشار النبي ﷺ أصحابه في شأن الأسرى فكان بعضهم يرى أن الشدة مع المشركين أجدى من التسامح، فحين قال ﷺ لأصحابه، ما تقولون في هؤلاء الأسرى؟ قال عبد الله بن رواحة ﷺ إيت في واد كثير الحطب فأضرم ناراً ثم ألقهم فيها، وقال عمر ﷺ قادتهم ورؤساؤهم قاتلوك وكذبوك فاضرب أعناقهم، فقال أبو بكر ﷺ عشيرتك وقومك[١] فأخذ النبي ﷺ بالعفو والسماحة تأكيداً على الرحمة التي بنيت عليها أخلاق الحرب عند المسلمين ، قال عمر ﷺ: لما كان يوم بدر وأخذ النبيَّ ﷺ الفداء أنزل اللّه عزَّ وجلَّ: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ ﴾ [الأنفال:٦٧][٢] ثم أقرّ القرآن الكريم الفداء بقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمد:٤] قال علي ﷺ: " قال: النبي ﷺ في الأسارى

---

(١) المستدرك، كتاب المغازي والسير، باب الأسرى، (٤٣٠٤) صحيح مسلم، كتاب، الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة، وإباحة الغنائم ح (١٧٦٣) سنن البيهقي: كتاب قسم الفيء والغنيمة، باب ما جاء في مفاداة الرجال منهم بمن أسر منا أسرى، (١٢٦٢٢).

(٢) سنن أبي داوود: باب في فداء الأسير بالمال، (٢٦٩٠).

يوم بدر إن شئتم قتلتموهم وإن شئتم فاديتموهم واستمتعتم بالفداء واستشهد منكم بعدتهم فكان آخر السبعين ثابت بن قيس ﷺ استشهد باليمامة "[1] فاختار المسلمون الفداء ليتقووا به على حرب المشركين ولعلّ الله تعالى أن يهدي هؤلاء المشركين فيسلموا، وكذلك طمعوا في أن يسوق الله لهم الشهادة. لذلك أقرّ النبي ﷺ خيارهم هذا. قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ﴾ [الأنفال:٦٧] وذلك يوم بدر والمسلمون يومئذ قليل فلما كثروا واشتد سلطانهم أنزل الله تعالى هذا في الأسارى: ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمد:٤] فجعل الله النبي ﷺ والمؤمنين بالخيار في أمر الأسارى، إن شاءوا قتلوهم وإن شاءوا استعبدوهم وإن شاءوا فادوهم"[2] فكان يختارون أيسر تلك الوسائل في التعامل مع الأسرى ومنها.

المنّ على الأسير بغير فداء

أخلاق الحرب عند المسلمين تحفظ الجميل وتشجع كل موقف كريم وفاء ونبلاً، قال النبيّ ﷺ لأسارى بدر: " لو كان مطعم بن عدِيّ حياً ثمَّ كلَّمني في هؤلاء النَّتنى لأطلقتهم له"[3] منوهاً ﷺ بموقف المطعم بن عدي حين أجار رسول الله ﷺ بعد عودته من رحلة الطائف حين آذاه سفهاؤها ولم يكتموا عليه هدفه من تلك الرحلة. ولعل هذا النص يوحي أن النبي ﷺ كان يبحث عن موقف كريم لهؤلاء الأسرى المشركين لكي يرد لهم بما هو أفضل، لكنه ﷺلم يجد لهم معه ومع أصحابه سوى الأذى والتكذيب والكِبر، ولو أطلقهم ﷺ لما غيروا ما كانوا عليه من تلك

---

(١) الحاكم: المستدرك: كتاب الجهاد، باب الأسرى، (٢٦١٩). سنن البيهقي: كتاب قسم الفيء والغنيمة، باب ما جاء في مفاداة الرجال منهم بمن أسر منا أسرى، (١٢٦٢٤).

(٢)سنن البيهقي: كتاب قسم الفيء والغنيمة، باب ما جاء في استعباد الأسير، (١٢٦٣٦).

(٣) أبو داوود: سنن أبو داوود، باب في المنّ على الأسير بغير فداء، (٢٦٨٩).

الأخلاق، ولعل في موقف القرآن وما نزل من العتاب للمسلمين على قبول الفداء ما يوضح ذلك.

وقد أثبت المسلمون حسن نواياهم تجاه من يحاربهم وأكدوا اهتمامهم بالسلم والصلح عملياً في يوم الحديبية. قال أنس ﷺ: "أن ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على النبيِّ ﷺ وأصحابه من جبال التنعيم عند صلاة الفجر ليقتلوهم، فأخذهم رسول اللّه ﷺ سَلَماً، فأعتقهم رسول اللّه ﷺ فأنزل اللّه عزَّ وجلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الفتح:٢٤] [(١)] وثبت أن المسلمين كانوا يمنّون على الأسرى دون مقابل مادي أو معنوي وإنما حباً للحرية وفتحاً لأبواب المودة والتعامل السلمي بين الناس، وأكدوا ذلك حين أطلقوا سبي بني المصطلق فكان من أثر ذلك الموقف أن أسلم بنو المصطلق، وتبين ذلك في موقف النبي ﷺ حين جاءه وفد هوزان مسلمين، فردّ إليهم سبيهم دون فداء[(٢)] ومن ذلك إطلاق سراح ثمامة بن أثال[(٣)] وسفّانة بنت حاتم الطائي[(٤)] كما سيأتي تفصيل ذلك فهذه المواقف تمثل رداً على الساعين لتزييف مقاصد الحرب عند المسلمين، وتبين أنها لم تكن لمطامع مادية أو مكاسب توسعية، وأن همها تنظيم التعامل على أسس حضارية مبنية على عقيدة التوحيد، وأنه لم يكن من بين تلك المقاصد ما هو غير شرعي إذ أن الصحابة ﷺ كانت تأتيهم الدنيا وهم يدفعونها بالنفقة والصدقة ومواساة المساكين والضعفاء، ولم يكونوا ممن يجمعون المال أو يتنعمون به.

---

(١) سنن أبي داوود، باب في المنِّ على الأسير بغير فداء، (٢٦٨٨).

(٢) أبو داوود: سنن أبو داوود، باب في فداء الأسير بالمال، (٢٦٩٣).

(٣) مسلم: صحيح مسلم، كتاب، الجهاد والسير، باب ربط الأسير وحبسه، وجواز المن عليه. ح (١٧٦٤).

(٤) ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، ٨/ ١٨٠.

ولم يغير المسلمون ما كان متعارفاً عليه في الجاهلية من قيمة الفداء وذلك: " أن النبيَّ ﷺ جعل فداء أهل الجاهلية يوم بدر أربعمائة "[1] ولم يكن فداء الأسرى في المال فقط، قال سلمة بن الأكوع ﷺ: "غزونا مع أبي بكر ﷺ هوازن، على عهد رسول الله ﷺ فنفلني جارية من بني فزارة، من أجمل العرب ... فوهبتها له ﷺ فبعث بها. ففادى بها أسارى من أسارى المسلمين، كانوا بمكة "[2] إن ثقافة الإحساس بالأسرى وبما يقع عليهم من أعباء نفسية ووجدانية وما يحيق بجرياتهم من التقييد والهضم جعلت المسلمين يعطون مسألة خلاصهم جلّ اهتماماتهم، وتأصل ذلك في مشاعرهم حتى قال عمر ﷺ: "لأن أستنقذ رجلاً من المسلمين من أيدي الكفار أحب إلى من جزيرة العرب "[3] ومثلما كان المسلمون يعملون على الوفاء بحقوق أسراهم عليهم، كانوا يراعون حقوق الأسرى الآخرين ويعملون على التعاون معهم على أطلاق سراحهم وجمع شملهم مع أسره ومن الوسائل الحضارية الإنسانية التي عمل بها المسلمون لتيسير فداء الأسرى أنه " كان ناس من الأسارى يوم بدر ليس لهم فداء فجعل رسول الله ﷺ فداءهم أن يعلّموا أولاد الأنصار الكتابة[4] ولعل في هذه اللفتة مسحة حضارية وذوق رفيع وإدراك لأهمية تعلم الكتابة والقراءة على أنها إحدى وسائل رقي المجتمع وتقدمه في عصر كان لا يقيم وزناً للقراءة والكتابة، كما يظهر فيها قيمة العلم والتعلم عند المسلمين وتقديرهم لأهل العلم واكتفاءهم منهم بهذه الجهد اليسير لينقذوا أنفسهم من الحبس أو الرق

---

(١) سنن أبي داوود، باب في فداء الأسير بالمال، (٢٦٩١). الحاكم: المستدرك، كتاب الجهاد، باب الأسرى، (٢٦٢٠). سنن البيهقي: كتاب السير، باب ما يفعله بالرجال البالغين منهم، (١٧٨٢٠).

(٢) سنن ابن ماجه، باب فداء الأسرى، (٢٨٤٦) صحيح مسلم، كتاب، الجهاد والسير، باب التنفيل وفداء المسلمين، (١٧٥٥).

(٣) ابن أبي شيبة: المصنف، كتاب السير، باب الفداء، (٣٣٢٥٣). المتقي الهندي: كتاب الجهاد، باب الأسارى، (١١٦٠٦).

(٤) الحاكم: المستدرك، كتاب الجهاد، (٢٦٢١).

أو القتل فيما لو كانوا عند غير المسلمين، ويدل موقف المسلمين هذا على سماحة أخلاقيات الحرب في السيرة وتيسير أمر فداء الأسرى، مما يؤكد استعداد المسلمين على التعايش السلمي تحت ظلال قيم التسامح والتيسير والرحمة ولم يعفُ النبي ﷺ في فداء الأسرى عن أقاربه من مشركي قريش فكان الموقف منهم واحداً!.

قال أنس ﷺ: " أنّ رجالاً من الأنصار استأذنوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، ائذن فلنترك لابن أختنا عباس فدائه. فقال ﷺ: "لا تدعون منها درهما"[1] فدفع العباس ﷺ فداءه وفداء ابن أخيه عقيل بن أبي طالب. " وكان أكثر الأسارى يوم بدر فداء العباس بن عبد المطلب وذلك لأنه كان رجلاً موسراً فافتدى نفسه بمائة أوقية ذهب[2] فلما أسلم وهاجر فيما بعد كان يطالب بما دفعه من فداء ويُذكّر النبي ﷺ بذلك فلما أتى النبي ﷺ مال من البحرين، جاءه العباس فقال: " يا رسول الله، أعطني، فإني فاديت نفسي وفاديت عقيلاً، فقال ﷺ: " خذ ". فأعطاه في ثوبه "[3] أي أعطاه مالاً كثيراً دون أن يعده له، ولعل في ذلك ما يبين أن أخلاق الحرب في الإسلام لم تكن في يوم من الأيام ذات حسابات مادية، على الرغم مما يشيعه بعض المستشرقين عن أسباب حروب عصر الرسالة[4].

وقد دعا النبي ﷺ المسلمين إلى التسامح في فداء أبي العاص بن الربيع زوج زينب بنت رسول الله ﷺ ولعل في ذلك حق أخوة الإسلام الذي لزينب رضي الله عنها على المسلمين آنذاك. فقال ﷺ: " إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها الذي لها وكان رسول الله ﷺ قد أخذ عليه ووعد رسول الله ﷺ أن يخلي زينب إليه[5] وهكذا فعل فما إن وصل مكة حتى أرسل زينب إلى النبي ﷺ في المدينة بعد

---

(١) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب: فداء المشركين ح (٢٨٨٣).

(٢) سنن البيهقي: كتاب السير، باب ما يفعله بالرجال البالغين منهم، (١٧٨٢١).

(٣) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب: فداء المشركين، ح (٢٨٨٤).

(٤) حمدان: الرسول ﷺ في كتابات المستشرقين، ١٠٣ فما بعدها.

(٥) الحاكم: المستدرك، كتاب المغازي والسير، (٤٣٠٦).

أن " بعث رسول اللّه ﷺ زيد بن حارثة ورجلاً من الأنصار فقال: كونا ببطن يأجج حتَّى تمرَّ بكما زينب فتصحباها حتى تأتيا بها"[1].

ولعل تسامح المسلمين معه في فدائه يوم بدر جاء كتشجيع له على حفظ حقوق زينب وهجرتها إلى المدينة وضمانة إلحاقها بالمسلمين فوفى أبو العاص بما وعد به رسول الله ﷺ "وكان في الأسارى أبو وداعة السهمي فقدم ابنه المطلب المدينة فأخذ أباه بأربعة آلاف درهم فانطلق به ثم بعث قريش في فداء الأسارى فقدم مكرز بن حفص في فداء سهيل بن عمرو فقال اجعلوا رجلي مكان رجله وخلوا سبيله حتى يبعث إليك بفدائه فخلوا سبيل سهيل وحبسوا مكرزاً قال ففدى كل قوم أسيرهم بما رضوا"[2].

وظاهر في هذا الموقف أن المسلمين كانوا يميلون إلى تشجيع إطلاق الأسرى وتيسير أمر الفداء، والعمل على قبول ما يساعد على إذابة عوامل الاحتقان وما يعود على الناس بلم الشمل والتمتع بالحرية، وكل ذلك يُثبت أن أخلاق الحرب عند المسلمين قائمة على التسامح والتصالح وحفظ حقوق الأسرى والعمل على نزع أسباب العداوة من النفوس؛ وتيسير عوامل السلم والصلح ومساعدة الضعيف والعمل على نشر قيم الحرية والتعاون. قال ﷺ: " فكوا العاني، يعني: الأسير، وأطعموا الجائع، وعودوا المريض"[3] وكل تلك المعاني التي تغذي تلاحم أبناء المجتمع؛ كان المسلمون يشيعون العمل بها ويروجونها بين الناس في عصر كان لا يعرف إلا المصالح المادية وقيم القوة وتجاهل حقوق الضعيف.

ومن أخلاق الحرب في عصر الرسول ﷺ **إقرار مبدأ تبادل الأسرى بالأسرى.** قال عمران بن حصين ﷺ: " أسر أصحاب النبي ﷺ رجلاً من بني عقيل فأوثقوه

---

(١) سنن أبي داوود، باب في فداء الأسير بالمال، (٢٦٩٢).

(٢) سنن البيهقي: كتاب السير، باب ما يفعله بالرجال البالغين منهم، (١٧٨٢١).

(٣) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب: فكاك الأسير، ح (٢٨٨١).

فطرحوه في الحرة فمر به رسول الله ﷺ ونحن معه أو قال أتى عليه على حمار وتحته قطيفة فناداه: يا محمد يا محمد فأتاه فقال ﷺ "ما شأنك" قال فيما أُخذت؟ قال ﷺ " أخذت بجريرة حلفائك ثقيف وكانت ثقيف قد أسرت رجلين من أصحاب النبي ﷺ. فقال: يا محمد يا محمد. قال ﷺ: " ما شأنك ؟" قال إني مسلم. قال ﷺ: "لو قلتها وأنت تملك أمرك أفلحت كل الفلاح". قال وتركه ومضى. قال: فناداه يا محمد يا محمد فرجع فقال ما شأنك؟ فقال إني جائع فأشبعني، وحسبه قال: إني عطشان فاسقني. قال ﷺ "هذه حاجتك" ففداه رسول الله ﷺ بالرجلين اللذين أسرتهما ثقيف[1].

ومن هذا النص تتضح بعض حقوق الأسير، ومنها سؤال الأسير عن أسباب أسره، ومنها الإعلام ببعض شؤونه وطلب الطعام والشراب، وعرض قضيته على أعلى سلطة عند المسلمين المتمثلة برسول الله ﷺ الذي كان يرد عليه ويبين له ما يسأل عنه دون أن يأمر ﷺ بإسكاته أو منعه من الحديث والسؤال والمطالبة وهذا شاهد على سماحة المسلمين مع الأسرى ورحمتها بهم وعطفها على ما هم فيه. قال أبو حاتم: " قول الأسير إني مسلم وترك النّبي ﷺ ذلك منه كان لأنه ﷺ علم منه بإعلام الله جلّ وعزّ إياه أنه كاذب في قوله فلم يقبل ذلك منه في أسره، كما كان يقبل مثله من مثله إذا لم يكن أسيراً فأما اليوم فقد انقطع الوحي فإذا قال الحربي: إني مسلم قبل ذلك منه ورفع عنه السيف سواء كان أسيرا أو محاربا"[2] ومن صور الرحمة الأخرى عدم التفريق بين الأسرى رعاية لمشاعر الأمومة وذوي القرابة والأرحام، فأخلاق الحرب عند المسلمين تنهى عن التفريق بين الأم وولدها أو الأخ وأخوه. قال علي رضي الله عنه: " أمرني رسول الله ﷺ أن أبيع أخوين من السبي فبعتهما

---

(١) سنن البيهقي: ك. قسم الفيء والغنيمة، باب مفاداة الأسرى، (١٢٦٢١). الدارمي: كتاب السير، باب في فداء الأسارى (٢٤٦٦).

(٢) ابن حبان: صحيح ابن حبان، كتاب السير، باب الخروج وكيفية الجهاد، (٤٨٥٩).

ثم أتيت رسول الله ﷺ فأخبرته ببيعهما فقال ﷺ: فرقت بينهما قلت: نعم. قال: فارتجعهما ثم بعهما ولا تفرق بينهما"[1] وقال ﷺ " أنه فرق بين جارية وولدها فنهاه النبي ﷺ عن ذلك وردّ البيع "[2] وهذه النصوص تشير إلى عمق المشاعر الإنسانية وقوة روابط الرحمة والحنان في قلوب المسلمين، التي بلغت من رسول الله ﷺ أن يتابع حال الأسرى من المشركين وصلات الرحم فيما بينهم، لذلك أبطل ﷺ البيع الذي فرّق بين الأخ وأخيه، أو بين الجارية وولدها، مما يبين حفظ المسلمين للقيم الفطرية وتشجيعهم على العمل بما يحفظها، وإبطال ما يخالفها، وإسقاط المكاسب المادية المترتبة عليها.

ومن القيم الإنسانية التي شملت الأسرى، **حفظ أجداث المشركين**، والبعد عن المثلة بهم ومواراتهم إن لم يفعل العدو ما يتوجب عليه من حقوق دفنهم. قال يعلى بن مرّة: " سافرت مع النبي ﷺ غير مرة فما رأيته مرّ بجيفة إنسان إلا أمر بدفنه لا يسأل أمسلم هو أم كافر"[3] وإعادة أجداث من يقع تحت أيدي المسلمين من قتلى المشركين. وقد روي أن المسلمين كانوا لا يفادون أجساد قتلى المشركين. قال ابن عباس: " إن المشركين أرادوا أن يشتروا جسد رجل من المشركين فأبى النبي ﷺ أن يبيعهم"[4] وردّ عليهم قتيلهم دون مقابل، وقال: " قتل المسلمون يوم الخندق رجلاً من المشركين فأعطوا بجيفته مالاً فقال رسول الله ﷺ: " ادفعوا إليهم جيفتهم فإنه خبيث الجيفة خبيث الدية فلم يقبل منهم شيئا "[5].

ومن آدب المسلمين رعاية الأسير إطعامًا وإسقاء وكسوةً ومأوىً؛ حتى يعود

---

(١) الحاكم: المستدرك، كتاب الجهاد، باب عدم التفريق بين الأسرى، (٢٥٧٤).

(٢) الحاكم: المستدرك، كتاب الجهاد، باب عدم التفريق بين الأسرى، (٢٥٧٥).

(٣) الحاكم: المستدرك، كتاب الجنائز، (١٣٧٤) الدارقطني: سنن الدار قطني، كتاب السير، ح (٤١).

(٤) الترمذي: سنن الترمذي، أبواب الجهاد عن رسول الله ﷺ باب ما جاء لا تفادى جيفة الأسير (١٧٦٨) وقال: هذا حديث غريب.

(٥) ابن حنبل: المسند، مسند عبد الله بن العباس، ح (٢٢٣٠). قال شعيب الأرنؤوط ضعيف.

إلى قومه ويتسلمه أهله، مثلما حصل لسفانة ابنة حاتم الطائي، حين سباها المسلمون مع سبايا قومها، فجعلت ابنة حاتم في حظيرة بباب المسجد كانت السبايا يحبسن بها، فمر بها رسول الله ﷺ فقامت إليه، وكانت امرأةً جزلةً، فقالت: يا رسول الله هلك الوالد، وغاب الوافد، فامنن عليَّ منَّ الله عليك، قال: ومَن وافِدُك؟ قالت: عدي بن حاتم. قال: الفارّ من الله ورسوله... ثم قال ﷺ: قد فعلت، فلا تعجلي بخروج حتى تجدي من قومك من يكون لك ثقة حتى يبلغك إلى بلادك، قالت: فكساني رسول الله ﷺ وحملني، وأعطاني نفقةً، حتى إذا كانت رفقة صالحة خرجَت معهم حتى قدمت الشام على أخيها عدي هناك[1] وبهذا سنَّ رسول الله ﷺ رعاية الأسير بعد المنّ عليه بإطلاق سراحه من غير فداء، بتأمين الطريق وتزويده بالنفقة والكسوة والرفقة الآمنة له حتى يصل إلى قومه سالمًا؛ في عصر كان لا يأمن فيه كثير من الناس على أنفسهم من قطاع الطرق واللصوص، فهذه قيم صالحة لأن تعم معانيها في هذا العصر المملوء بالفتن، إسهاماً في تثبيت عوامل السلم والاستقرار العالمي.

أسباب قتل بعض أسرى المشركين

أما ما يستدل به البعض على الزعم بقسوة ا لتعامل في الإسلام مع الأسرى من خلال عرض بعض الوقائع المفردة والترويج لها على أنها قيم ثابتة في أخلاق الحرب عند المسلمين، مع الإصرار على طمس جرائم وأخطار أولئك القتلى الذين لا يتجاوز عددهم في كل الأحوال أصابع اليد، وتجاهل الأسباب الحقيقية وراء أمر النبي ﷺ بقتل من قتل ولا سيما بعد معركة بدر أو بعدّ فتح مكة، والتشبث بمثل هذه الحجج الواهية ما هو إلا دليل على تعمد الإساءة لقيم السيرة النبوية التي شملت برحمتها حتى الحيوانات والنباتات، قال بن إسحاق: " وكان في الأسارى

(١) الطبري: تاريخ، ٢/ ١٨٧.

عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث، فلما كان رسول الله ﷺ بالصفراء[1] قتل النضر بن الحارث، قتله علي بن أبي طالب ﷺ كما خبرت ثم مضى فلما كان بعرق الظبية[2] قتل عقبة بن أبي معيط فقال عقبة حين أمر به رسول الله ﷺ أن يقتل من للصبية فقال ﷺ النار، وقتله عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح"[3] ومن يقرأ ما فعله هذين برسول الله من الأذى والسخرية ومحاولة قتله ﷺ وإصرارهم على الكفر لا يعجب من أمر رسول الله بقتلهما، ولكنه قد يعجب من صبره ﷺ عليهما، ومن عدم أمره بتعذيبهما قصاصاً بما كانا يفعلانه به ﷺ وبالمسلمين.

ومن أخلاق الحرب عند المسلمين الإحسان في كل شيء حتى في القتل فعلى الرغم من كل ما قام به من قتلهم رسول الله من الأسرى من أعمال عدوانية جلبت على المسلمين ألواناً من الشر والعناء والقتل فإن التعامل كان معهم على أتم درجات احترام إنسانيتهم وحفظ كرامتهم وهذا خلق ثابت في قيم السيرة النبوية كان النبي ﷺ يعلمه لأصحابه ﷺ قال شداد بن أوس ﷺ: " ثنتان حفظتهما عن رسول الله ﷺ قال: " إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح"[4] فالعدل مع الأسرى خلق من أخلاق الحرب التي لا يمكن تجاوزها، جاء في المغازي لما رأى النبي ﷺ نبّاش بن قيس، أحد بني قريظة بعد غدرهم بالمسلمين، وقد جابذ الذي جاء به حتّى قاتله فأرعفه، فقال رسول اللّه ﷺ للذي جاء به: "لم صنعت به هذا؟ أما كان في السّيْف كفاية "؟ فقال: يا رسول اللّه جابذني لأَن يهرب، فقال: رسول اللّه ﷺ: " **أحسنوا إسارهم وقيلوهم واسقوهم ...**

---

(١) الصفراء: واد بين الحرمين الشّريفين وراء بدر مما يلي المدينة المشرّفة ذو نخل كثير. تاج العروس، مادة صفر، ١/ ٣٠٦٦.

(٢) عرق الظبية اسم موضع في الصفراء. البكري: معجم ما استعجم، ٣/ ٩٠٣.

(٣) سنن البيهقي: كتاب قسم الفيء والغنيمة،، باب ما جاء في قتل من رأى الإمام منهم أسرى، (١٢٦٣٤).

(٤) سنن البيهقي: كتاب السير، باب قتل المشركين بعد الإسار بضرب الأعناق دون المثلة، (١٧٨٢٣).

فقيلوهم وأسقوهم وأطعموهم"[1] فكرامة الأسير محفوظة عند المسلمين ولا سيما في عصر الرسول ﷺ حتى لو بلغ من إجرامه أنه لم يعد يُؤمَن جانبه ولا يُرجى صلاحه وحُكم عليه بالقتل.

فمن يقرأ السيرة ويعلم ما فعل الذين أمر النبي ﷺ بقتلهم؛ من إيذاء للمسلمين ولرسول الله ﷺ وإصرار على المشاركة في غزو المسلمين أو نقض العهود معهم، وذلك يؤكد ضرورة قتلهم وصواب ما كان يأمر به النبي ﷺ فحين أخرج حُيي بن أخطب للقتل، قال له رسول الله ﷺ: "هل أخزاك الله ؟ فقال: قد ظهرتَ عليّ وما ألوم نفسي فيك"[2] فلو عفا عنه النبي ﷺ لسعى في إقامة تحالفات ضد المسلمين وأوقد حرباً جديدة، يؤكد ذلك إصراره على عداوة النبي ﷺ إلى آخر لحظة في حياته، لذلك " قتل رسول الله ﷺ حيي بن أخطب صبراً"[3] فتبين أن قتل عتاة الشرك كان مصلحة للأمن والسلم، وإنهاء لنشاط دعاة الحرب وتجار التحالفات التي كانت تعقد لمحاربة المسلمين وهذا حق من حقوق الدفاع عن النفس والأمة لا يعيبه إلا صاحب هوى، أو جاهل بجرائم وأخطار من قُتل منهم بعد الأسر.

وعلى الرغم من أن قيم الحرب في السيرة النبوية تشجع على العمل بقيم الصفح والرحمة والتسامح في كل شؤونها، فإنها كانت تكافئ من يقاتل المعتدين ببسالة وقوة في الميدان، قال ﷺ: " من أقام البيّنة على أسير فله سلبه"[4] فمن تمكن من أسر المقاتلين من الأعداء فله سلاحهم وعتادهم دون أن تخضع لأحكام الغنيمة والخمس، فساعات القتال لها قيمها من الثبات والشدة على المقاتلين، وساعات

(١) الواقدي: المغازي، ٢/ ١٤.

(٢) الطبراني: المعجم الكبير، باب السين، سعد بن معاذ (٥٣٢٧).

(٣) سنن البيهقي: كتاب قسم الفيء والغنيمة، باب ما جاء في قتل من رأى الإمام منهم أسرى، (١٢٦٣٥).

(٤) البيهقي: سنن البيهقي، كتاب قسم الفيء والغنيمة، باب ما جاء في سلب الأسير، (١٢٦٣٧). (١٢٦٣٧).

السلم والصلح والندى لها قيمها وأخلاقياتها في الرحمة والتجاوز، وإذا كان المسلمون في عصر الرسالة يستعملون صلاحياتهم في الشدة تحوطاً من هروب الأسرى أو غدر البعض منهم عملاً بقوله تعالى: ﴿فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ [محمد:٤] فإن ذلك لم يأخذ بهم شططاً بل إن بعض من أوثقه المسلمون، كان ذلك سبباً في إسلامه حين رأى سمت المسلمين وتواضعهم وإنصافهم، وأدبهم مع الأسير، ومن ذلك حين "بعث رسول الله ﷺ خيلاً قِبل نجد، فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له ثمامة بن أثال سيد أهل اليمامة، فربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه رسول الله ﷺ فقال: "ماذا عندك؟ يا ثمامة!" فقال: عندي، يا محمد! خير، إن تَقتل تقتل ذا دم وإن تُنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت. فتركه رسول الله ﷺ حتى كان بعد الغد، فقال"ما عندك؟ يا ثمامة!" قال: ما قلت لك، إن تُنعم تنعم على شاكر، وإن تَقتل تقتل ذا دم، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت، فتركه رسول الله ﷺ حتى كان من الغد، فقال: "ما عندك؟ يا ثمامة!" فقال: عندي ما قلت لك، إن تُنعم تنعم على شاكر وإن تَقتل تقتل ذا دم، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت، فقال رسول الله ﷺ (أطلقوا ثمامة) فانطلق إلى نخل قريب من المسجد، فاغتسل، ثم دخل المسجد فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، يا محمد! والله! ما كان على الأرض وجه أبغض إلي من وجهك، فقد أصبح وجهك أحبّ الوجوه كلها إليّ، والله! ما كان من دين أبغض إليّ من دينك، فأصبح دينك أحبّ الدين كله إلي، والله! ما كان من بلد أبغض إليّ من بلدك. فأصبح بلدك أحب البلاد كلها إليّ. وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة. فماذا ترى؟ فبشره رسول الله ﷺ وأمره أن يعتمر، فلما قدم مكة قال له قائل: أصبوت؟ فقال: لا، ولكني أسلمت مع رسول الله ﷺ ولا والله! لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ"[1] فقد

---

(١) مسلم: صحيح مسلم، كتاب، الجهاد والسير، باب ربط الأسير وحبسه، وجواز المن عليه. ح

استعملوا صلاحيتهم بشد وثاق الأسير لكن ذلك كان ضمن زمام وخطام لا يزيد عن مقاصد النظام وضبط التعامل مع الأسير ولا سبيل إلى كرامته أو حقوقه المشروعة.

فتوثيق الأسير يأتي تحوطاً وحذراً ولم يسجل التاريخ على المسلمين إلا الوفاء للأسرى وغيرهم، إلا إذا كان هناك أمر فيه شبهة والتباس، وهذا يحصل في كل عصر، في مثل ما رواه ابن عمر ﷺ قال: "بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جذيمة، فدعاهم إلى الإسلام، فلم يحسنوا أن يقولوا: أسلمنا، فجعلوا يقولون: صبأنا صبأنا، فجعل خالد يقتل منهم ويأسر، ودفع إلى كل رجل منا أسيره، حتى إذا كان يوم أمر خالد أن يقتل كل رجل منا أسيره، فقلت: والله لا أقتل أسيري، ولا يقتل رجل من أصحابي أسيره، حتى قدمنا على النبي ﷺ فذكرناه، فرفع النبي ﷺ يديه فقال: " اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد " مرتين[1] بينما سجل التاريخ على المشركين مواقف كثيرة مبنية على الغدر الصريح بالمسلمين، كما فعلت هذيل بمن كان مع عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح ﷺ حين أقسموا لهم الأيمان على الوفاء لهم " ونزل إليهم ثلاثة نفر على العهد والميثاق"[2] لكنهم غدروا بهم فقتلوا بعضهم وباعوا بعضهم إلى قريش بعد أسرهم، لكن ذلك الغدر لم يكن مسوغاً للتعامل مع المشركين بالمِثل، إذ أن أخلاق الحرب عند المسلمين كانت دائماً تقوم على أسس شرعية واضحة إما لرد عدوان المشركين ودفع أذاهم، أو لضمان حرية الدعوة وحماية العقيدة، فلم تكن آدابهم تسمح لهم بالغدر، ولم تكن تبيح لأتباعها إكراه الناس على الدين، قال ابن عباس ﷺ: كانت المرأة تكون مقلاتاً، فتجعل على

.(١٧٦٤)

(١) البخاري: كتاب المغازي، باب: بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جذيمة، (٤٠٨٤). سنن البيهقي، كتاب السير، باب المشركين يسلمون قبل الأسر وما على الإمام وغيره من التثبت إذا تكلموا بما يشبه الإقرار بالإسلام ويشبه غيره، (١٨٠٤٤).

(٢) سنن أبي داوود، باب في الرجل يستأسر، (٢٦٦٠).

نفسها إن عاش لها ولدٌ أن تُهَوِّدَهُ، فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا: لا ندع أبناءنا، فأنزل اللّه عزّوجلّ: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة:٢٦٥] قال أبو داود: المقلاة التي لا يعيش لها ولد[1].

ـ فآداب الحرب عند المسلمين تضمن حقوق الأسير وتحمي كرامته، ومخاطبته بالحسنى وتحبيب الإسلام إليه. قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الأنفال:٧٠]

أي أن من يسلم منهم فإن الله سيعوضه خيراً مما أخذ منه لكي لا يبقى في نفوسهم حسرة ولا يكون ما دفعوه سبباً في إعراضهم عن الإسلام. ومن تلك الأخلاق حماية الأسير وأن لا يكره على تغيير دينه، والإحسان إليه وإكرامه، لعل ذلك الإحسان يكون سبباً في هدايته، كما كان الأمر في شأن ثُمامة ﷺ والإسلام يضمن للأسير حق الكسوة الساترة، روي: " لما كان يوم بدر، أُتي بالأسارى، وأُتي بالعباس، ولم يكن عليه ثوب، فنظر النبي ﷺ له قميصاً، فوجدوا قميص عبد الله بن أُبي يقدر عليه، فكساه النبي ﷺ إياه، فلذلك نزع النبي ﷺ قميصه الذي ألبسه، قال ابن عيينة: كانت له عند النبي ﷺ يد، فأحب أن يكافئه"[2] أي يكافئ ابن أُبي فنزع له قميصه ﷺ حين جاءه ابنه عبد الله يطلبه، وكذلك المأوى والمسكن وربما حُجز الأسير في المسجد كما حصل لثمامة بن أثال، وربما وزّع الأسرى على المسلمين في بيوتهم، كما حصل لأسرى بدر.

ولا يفرق في الأسرى بين والدة وولدها أو بين ولد ووالده، قال ﷺ: " من فرّق

---

(١) سنن أبي داوود: باب في الأسير يكره على الإسلام، (٢٦٨٢).

(٢) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب: كسوة للأسارى، (٢٨٤٦).

بين والدة وولدها فرق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة "[1] ولا يجوز تعذيبهم بغير حق أو لأنهم قاتلوا المسلمين، قيل لمالك: " أيعذب الأسير إن رُجي أن يدل على عورة العدو؟! فقال: ما سمعت بذلك"[2] فآداب الحرب في عصر الرسالة توفر للأسرى العلاج والمعاملة الحسنة وأن لا يظلم أحد منهم في نفس أو أهل أو مال، ويُتحدث معهم ويرد على أسئلتهم، وأسير الحرب يُعتبر أسير الدولة المسلمة، وليس أسيرًا للشخص الذي أسره، ولذلك فالرأي الفصل فيه لولي الأمر، وآداب الحرب وضعت معالم حضارية عادلة هادية لمعاملة الأسرى، قبل أن تكون هناك معاهدات دولية واتفاقات عالمية، مما يوجب على كل منصف أن يقف أمامها متأملاً مفكراً، ليرى ما للإسلام من تعاليم إنسانية كريمة وقيم عالمية شمولية ذات فضل في انتشار معاني الرحمة والسمو الإنساني؛ أرسيت قواعدها على معاني القيم الإسلامية في مثل قوله ﷺ "استوصوا بالأسارى خيراً " ومن أخلاق الحرب عند المسلمين التي تكاد أن تكون من خصائصهم، أنها لا تجيز إكراه الأسير للحصول على المعلومات، مما يؤكد الرحمة والإنسانية، وذلك ضمن ضوابط وقيم تُكوّن منظومة ثقافية متكاملة لا تمتلكها أمة أخرى في ثقافاتها فضلاً عن أن تطبقها في ساحات الحرب وميادين القتال، يضاف إلى ذلك أنّ مسألة الرقابة في هذه القيم عند المسلمين ذاتية تنبع من العقيدة التي يحملها كل مسلم في ضميره، وبعد ذلك رقابة الحاكم أو القاضي المسلم الذي يمثل حارساً لقيم الحرب في صدر الإسلام، لا يسمح بتجاوزها أو تشويه صورتها الناصعة نقاء وصفاء في جبين الإنسانية.

---

(١) سنن الترمذي: كتاب السير، باب كراهية التفريق بين السبي، ح (١٥٦٦). وقال: حسن غريب والعمل على هذا عند أهل العلم.

(٢) العبدري الشيهر بالمواق: التاج والإكليل لمختصر خليل، ٣/ ٣٥٣.

الفصل الرابع

التواصل السلمي مع المشركين وأهل الكتاب

رَفْعُ

عبد الرَّحمن النَّجْديّ

أسكنه الله الفردوس

المبحث الأول

الرسل والكتب والدعاء في قيم وآداب الحرب

في عصر الرسول ﷺ

الرسل في أخلاقيات الحرب في عصر الرسالة

لعلّ من أهم الأسباب التي حدت برسول الله ﷺ أن يبعث الرسل ويكتب الكتب إلى الملوك والرؤساء في داخل الجزيرة العربية وخارجها هو أنه مكلف بتبليغ الرسالة إلى الناس كافة. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ (المائدة: من الآية٦٧) ورسالة الإسلام موجهة إلى جميع الناس فهي رسالة عالمية. قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (سبأ:٢٨) وهذه النصوص فيها الردّ على من يقول بأن الإسلام دعوة محلية جاءت إلى العرب خاصة، وإنما لبست ثوب العالمية بعد أن نجحت في السيطرة على الوضع المحلي في الجزيرة العربية فطمحت إلى توسيع نطاقها فاتخذت الصفة العالمية، ومما يبطل هذه الشبهة أن النص على عالمية الرسالة كان معروفاً منذ الأيام الأولى للدعوة حينما كان النبي ﷺ مطارد ومضيق عليه في مكة وهو يقول: " إن الله قد أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين وأنتم الأقربون من قريش وإني لا أملك لكم من الله حظاً ولا من الآخرة نصيباً إلا أن تقولوا لا اله إلا الله فأشهد بها لكم عند ربكم وتدين لكم بها العرب وتذل لكم

بها العجم"[1] وقال ﷺ لقريش: " هل لكم في كلمة تدين لكم بها العرب وتؤدي العجم إليكم بها الجزية. قالوا: ما هي ؟ قال: " لا إله إلا الله"[2] فرسالة النبي ﷺ رسالة عالمية يبين ذلك نصوص الكتاب والسنة وسيرة النبي ﷺ لذلك لم يكن هناك بديل عن إرسال الرسل وكتابة الكتب لتبليغ الرسالة والتعريف بها بوسائل سلمية تحاورية تهدف إلى التعاون والتفاهم.

وثقافة الحوار والتواصل بين الأمم بإرسال الرسل، ثقافة أصيلة في الفكر الإسلامي تحدث عنها القرآن الكريم وأخبر عن رسل الله بقوله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ (الأنعام: من الآية ٤٨) وبين الموقف منهم. قال تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾ (الفرقان:من الآية ٣٧) والرسل مؤتمنون ومسؤولون بين يدي الله تعالى عمّا أرسلوا به قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ (المائدة:من الآية١٠٩) وتعامل الأنبياء عليهم السلام بإرسال الرسل، وذكر القرآن الكريم رسالة نبي الله سليمان عليه السلام إلى ملكة سبأ. فقال ﷻ: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ (النمل: ٢٩، ٣٠).

وفي أخلاق المسلمين والموقف من رسل الله ورسل العباد، واحترامهم في السلم والحرب، ما يبين رقي قيم المسلمين ورفيع ذوقهم، فأما الموقف من رسل الله ومما جاؤوا به من كتب فإنه من موجبات الإيمان بالله تعالى، وإيمان المؤمن لا يكون صحيحاً إلا إذا آمن بجميع الأنبياء السابقين، وآمن بما أنزل الله تعالى عليهم من الكتب السماوية الصحيحة، قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ

---

(١) ابن سعد: الطبقات، ١/ ٧٤.

(٢) ابن القيم: زاد المعاد، ٣/ ١٣٩.

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ (البقرة: من الآية٢٨٥) ومادام على كل مسلم أن يؤمن بجميع الرسل السابقين وبجميع الكتب السماوية، فلن يكون لديه تعصب ولا كراهية لدين آخر، ولا كراهية ولا حقد على أحد من أتباع الأديان الأخرى، وهذا من ميزات الثقافة الإسلامية ومن مكونات حضارتها العالمية، بعكس ما عند بعض أبناء الديانات الأخرى الذين لا يؤمنون بمحمد ﷺ ولا يكتفون بذلك بل إنهم يشنون حملات التشويه المصنوعة لتزييف ما جاء به ﷺ كما حصل في بعض وسائل الإعلام الدنمركية وغيرها مؤخراً[١] وكما هو الموقف من تكريم سلمان رشدي الذي أساء إلى النبي ﷺ وأهل بيته الأطهار وإلى المسلمين عموماً في روايته التي تضمنت أوهام وتخيلات باسم آيات شيطانية[٢] ومواقف احترام الآخرين وعقائدهم قائمة على أسس وضوابط وضعها القرآن الكريم لأتباعه، مبنية على ما قضاه الله تعالى منذ الأزل، من اختلاف النّاس في عقائدهم وأجناسهم. قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةًۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (هود:١١٨) وقال ﷻ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًاۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً﴾ (المائدة: من الآية٤٨).

وتماشياً مع أخلاق الحرب في عصر الرسالة التي كانت تعطي الأولوية للتفاهم والتواصل والتعامل، بوسائل الحوار والمراسلة وبيان وجهات النظر وما إلى ذلك

---

(١) في يوم الثلاثاء ٢٦/٨/١٤٢٦، ٣٠/ ٩/ ٢٠٠٥م نشرت صحيفة يولاندز بوسطن الدنمركية (١٢) رسماً كاريكاتيرياً ساخراً من رسول الله ﷺ في صور آثمةً أبعد ما تكون عن أخلاق وقيم رسول الله ﷺ في رحمته وعدله وتواضعه وعفافه واحترامه للآخرين. وينظر محمد البهي: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، ٢٢٥ فما بعدها.

(٢) منحت ملكة بريطانيا إليزابيث الثانية لقب فارس لسلمان رشدي دون مراعاة لمشاعر المسلمين الغاضبين من إساءاته الاستفزازية لدينهم ولنبيهم ﷺ. ينظر الجزيرة نت. و B.B.C.ARABC.COM يوم: ١٦/٦/٢٠٠٧م.

من قيم حضارية تزخر فيها السيرة النبوية فقد استعمل النبي ﷺ الرسل لتجنب القتال ومواقف العداوة، فمنهم من نجح في تبليغ رسالة النبي ﷺ وعاد سالماً كما حصل لمحمد بن مسلمة ﷺ حين بلّغ بني النضير رسالة النبي ﷺ[1] وعثمان بن عفان ﷺ رسول رسول الله ﷺ إلى أهل مكة يوم الحديبية[2] ومنهم من أدى الرسالة وقُتل وهو يبلغها كما حصل لحرام بن ملحان ﷺ يوم بئر معونة[3] وغيرهم من الرسل الذين مشوا بين المسلمين والمشركين.

وفي موقف عالمي حضاري رائد في مبادرته وفي لغته ومنهج الحوار فيه، بعد أن اشتد ساعد دولة المسلمين وترامت أطرافها، أرسل ﷺ عدداً من أصحابه الكرام ﷺ برسائل إلى الملوك يدعوهم فيها إلى الإسلام: فبعث دِحية بن خليفة الكلبي إلى قيصر ملك الروم، وبعث عبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى ملك فارس، وبعث عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ملك الحبشة، وبعث حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس ملك الإسكندرية، وبعث عمرو بن العاص السهمي إلى جيفر وعباد ابني الجلندي الأزديين ملكي عُمان، وبعث سليط بن عمرو إلى ثمامة بن أثال وهوذة بن علي الحنفيين ملكي اليمامة، وبعث العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى العبدي ملك البحرين، وبعث شجاع بن وهب الأسدي، إلى الحارث بن أبي شمر الغساني ملك تخوم الشام[4].

وعلى الرغم من أن تفاصيل مواقف الآخرين المشركين والمجوس والصليبيين من رسل المسلمين مختلفة بين من استقبلهم وأكرمهم ولاطفهم وبين من ردهم رداً قبيحاً أو اعتدى عليهم، إلا أن التاريخ لم يسجل على المسلمين خروجاً على آداب

---

(١) الواقدي: المغازي، ١/ ٣٦٧.

(٢) ابن سيد الناس: عيون الأثر، ٢/ ١١٩.

(٣) ابن سيد الناس: عيون الأثر، ٢/ ١٨.

(٤) السهيلي: الروض الأنف، ٤/ ٣٨٦ فما بعدها. ابن القيم: زاد المعاد، ١/ ١١٦.

حسن استقبال الرسل وتوديعهم وتزويدهم بالهدايا فلم يُقتل أي رسول قدم إلى المسلمين لا في الحرب ولا في السلم، مما يبين مكانة الرسل في أخلاق الحرب عند المسلمين، ونبل ورحمة وإنسانية مقاصد المسلمين في تعاملهم ورؤيتهم للآخرين، ولعل الموقف من رسل قريش في صلح الحديبية كاف للتدليل على مكانة الرسل في الثقافة والتعامل الإسلامي في ساعات المواجهة والخلاف.

ومن آداب الحرب في السيرة أنّ النبي ﷺ لم يكن يستخدم القوة أو القطيعة أو الدعاء وهو يرجو أن يكون هناك باب للتفاهم والتعاون والتلاقي، إلا إذا علم يقيناً أنه لا أمل يرجى منهم بعد استفراغ وسائل الدعوة والصبر والصفح والتحمل، فإذا علم ذلك استعمل ما لديه من وسائل أخرى مع استعداد دائم للتلاقي وفتح أبواب الحوار وصولاً إلى السلامة والعافية.

فلما قدم الطفيل بن عمرو الدوسي وأصحابه، على النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله، إنّ دوساً عصت وأبت، فادع الله عليها، فقيل: هلكت دوس، قال ﷺ: "اللهم أهد دوساً وأت بهم"[1] فعندما أحس النّبي ﷺ أنّ دوساً لم تغلق أبوابها، أمام دعوة الإسلام على الرغم من أنّ رسله إليها من أبنائها قد سأموا موقفها المعاند فطلبوا من النبي ﷺ أن يدعوا عليها؛ لم يقبل ﷺ أن يعلن على تلك القبيلة حرب الدعاء وإنما طرق أبوابهم يدعوهم إلى اللحاق بركب المؤمنين مرة أخرى ولجأ في ذلك إلى الدعاء لعل الله يمن عليهم بالهداية؛ فإذا بهم ينقادون إلى الإسلام معلنين التحاقهم بالأمة لطيب دعوة النبي ﷺ وجميل أخلاقه ولطف وسائله. فالمسلم مطالب أن يرشد المشركين أو أهل الكتاب ويعلمهم ويحذرهم من مخاطر الإصرار على الذنوب والتمسك بالباطل قبل أن يتخذ أي موقف منهم، وأن يستعين على ذلك بالعلم والحلم والصبر وأن لا يجعل من ذلك منّة على من يدعوه، فرسول الله ﷺ لما كتب

---

(١) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب: الدعاء للمشركين بالهدى ليتألفهم، ح (٢٧٧٩).

إلى قيصر نصحه وبين له وقال: "فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين"[1] وكان النّبي ﷺ إذا أشير عليه بأمر من الممكن أن يقوي وشائج الدعوة، ويجعل لها القبول عند الآخرين، حرص على الأخذ به والعمل به لتصل الدعوة إلى الآخرين من أوسع أبوابها، فلما أراد ﷺ أن يكتب إلى الروم، قيل له: إنهم لا يقرؤون كتاباً إلا أن يكون مختوماً. قال أنس: فاتخذ ﷺ خاتماً من فضة، فكأني أنظر إلى بياضه في يده، ونقش فيه محمد رسول الله"[2] ولما بعث رسول الله ﷺ كتابه إلى كسرى، دفعه إلى عظيم البحرين ليوصله إلى كسرى، فلما وصل وقرأه كسرى حرقه، فذكر أن النبي ﷺ دعا عليهم: "أن يمزقوا كل ممزق"[3] وما دعاء النّبي ﷺ عليهم إلا لأنهم قد أغلقوا أبواب الحوار وتكبروا عن سماع الحق وخرجوا عن اللياقة.

ومن قيم المسلمين احترام الرسل وحمايتهم وسماع رسالتهم مهما كانت مخالفة لما عند المسلمين، وأنهم لا يقتلون على جميع الأحوال قال ﷺ: " حين جاءه رسولا مسيلمة الكذاب بكتابه ورسول الله ﷺ يقول لهما وأنتما تقولان مثلما يقول؟ فقالا: نعم فقال أما والله لولا أنّ الرسل لا تُقتل لضربت أعناقكما"[4] وأحد رسولي مسيلمة الذين قال لهما النّبي ﷺ لولا أنّ الرسل لا تقتل لقتلتكما اسمه عبد الله بن النوّاحة، فكان مصيره فيما بعد فيما قال حارثة بن مضرب لعبد الله بن مسعود ﷺ أمير الكوفة: " ما بيني وبين أحد من العرب إحنة وإني مررت بمسجد لبني حنيفة فإذا هم يؤمنون بمسيلمة فأرسل إليهم عبد الله فجيء بهم فاستتابهم غير ابن

---

(١) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب: هل يرشد المسلم أهل الكتاب أو يعلمهم الكتاب، ح (٢٧٧٨). والمراد بالأريسيين الأتباع من أهل مملكته وهي في الأصل جمع أريسي وهو الحراث والفلاح.كتاب الوحي، باب كيف كان بدء الوحي ح (٧).

(٢) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب: دعوة اليهود والنصارى ح (٢٧٨٠).

(٣) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب: دعوة اليهود والنصارى، ح (٢٧٨١).

(٤) البيهقي: سنن البيهقي، كتاب السير: باب السنة أن لا يقتل الرسل، (١٨٥٥٦) ابن حبان: كتاب السير، باب الهجرة، (٤٨٧٨).

النواحة. وقال له سمعت رسول الله ﷺ يقول لولا أنك رسول لضربت عنقك، وأنت اليوم لست برسول فأمر قرظة بن كعب فضرب عنقه في السوق. ثم قال: من أراد أن ينظر إلى ابن النواحة فلينظر إليه قتيلاً في السوق[1] وروي فبعث إليهم ابن مسعود ﷺ: " الشرط فأخذوهم فجيء بهم فتاب القوم فرجعوا عن قولهم فخلى سبيلهم وقدم رجلاً منهم يقال له عبد الله بن النّوّاحة فضرب عنقه فقالوا له تركت القوم وقتلت هذا ، فقال إني كنت عند رسول الله ﷺ جالساً إذ دخل هذا ورجل وافدين من عند مسيلمة، فقال لهما رسول الله ﷺ أتشهدان أني رسول فقالا له نشهد أن مسيلمة رسول الله، فقال آمنت بالله ورسله لو كنت قاتلاً وفداً لقتلتكما فلذلك قتلته وأمر بمسجدهم فهدم[2] وكأن ابن مسعود ﷺ حكم عليه بحكم النبي ﷺ السابق الذي شفع له من التنفيذ آنذاك أنه كان رسولاً والرسل عند المسلمين لا يقتلون، وفي متابعة رسل النبي ﷺ وكتبه إلى الناس تبين أنه كان يختار لغة الحوار وكتابة المعاهدات في الدعوة قبل أي شيء آخر.

المعاهدات مع بعض القبائل العربية

ومن وسائل التواصل السلمي في نشر الدعوة عقد المعاهدات مع بعض القبائل العربية بقصد تفكيك تكتلات المشركين وتحييد بعض القبائل عن الصراع الذي كان بين المسلمين وقريش وحلفائها، وتقريب الناس من الإسلام ليتعلموا دعوته دون مؤثرات خارجية، ومن تلك المعاهدات: معاهدة مع بني ضمرة بن بكر في السنة الثانية من الهجرة تشتمل على المسالمة والتناصر فيما بينهما[3].

ومعاهدة أخرى مع بني غفار تم التعاقد فيها على التناصر وأن المسلمين لا

(١) صحيح ابن حبان، كتاب السير، باب الهجرة (٤٨٧٩). الحاكم: المستدرك، كتاب الجهاد، باب الرسل لا تقتل، (٢٦٣٢).

(٢) الدارمي: كتاب السير، باب في النهي عن قتل الرسل، (٢٥٠٣).

(٣) ابن هشام / السيرة النبوية، ٢/ ٥٩١ ابن سعد : الطبقات، ٢/ ٨ .

ينصرون بني غفار إلا على من بدأهم بظلم[1] ومعاهدة مع بني أسلم وهم من خزاعة وخزاعة كانت حلفاً مع المسلمين ضد قريش تبين ذلك جهاراً بعد صلح الحديبية وكانت التحرك لنصرة خزاعة أحد أسباب فتح مكة عام ثمان من الهجرة[2] وذُكر أن النبي ﷺ كتب لبني جعيل من قبيلة بلي كتاباً وادعهم فيه[3] وكتب لبني زرعة وبني الربعة وبني الجرمز بن ربيعة وبني الحرقة وجميعهم من جهينة[4] وهذه المعاهدات نظمت العلاقة فيما بين المسلمين وهذه القبائل. فتمكنت القبائل التي أقامت مثل هذه العلاقة مع المسلمين أن تحيا في بلادها حياة آمنة مستقرة لا يتعرض لها رسول الله ﷺ بغزواته ولا سراياه ماحفظ هؤلاء القوم العهود التي أقرهم عليها رسول الله ﷺ وقد كانت هذه الوثائق تفتح الباب لمن شاء أن ينضم إليها من القبائل أو البطون المجاورة، فكانت بذلك تمثل جانباً من جوانب الدعوة السلمية الناجحة إلى الإسلام.

ومثلما استطاعت كثير من القبائل الحجازية تنظيم العلاقة والاتصال بالرسولﷺ ودولة المسلمين تمكنت تلك القبائل من الحصول على كتب أو معاهدات أو إقامة تحالفات جنبتهم خطر هجمات جيوش المسلمين التي كانت تلاحق المعتدين من المشركين في كثير من بقاع شبه الجزيرة العربية في تلك المرحلة. واستطاع أيضاً كثير من زعماء قبائل: أسلم وأشجع وجهينة وسليم ومزينة، إقامة علاقات مع المسلمين، وحصلوا على كتب بأسمائهم فيها أمان لهم على أموالهم وأنفسهم، أو فيها إقطاع لهم من أرض أو معدن، أو إقرارهم على ما في أيديهم من أملاك، مقابل تعهدهم بعدم الاعتداء أو مناصرة المعتدين على المسلمين، وقد نظمت هذه الكتب اتصال هؤلاء بدولة الإسلام، وكانت سبباً في دخول الكثير من

---

(١) ابن سعد : الطبقات، ١/ ٢٧٤. حميد الله : الوثائق السياسية، ص ٢٢١.

(٢) الواقدي المغازي، ٢/ ٧٨٢. حميد الله: الوثائق السياسية، ٢٢٤ .

(٣) ابن سعد : الطبقات، ٢/ ٢٧١. حميد الله: الوثائق السياسية، ١٠٥ .

(٤) ابن سعد : الطبقات،١/ ٢٧٠. حميد الله: الوثائق السياسية، ٦/ ٢ .

أبناء هذه القبائل في الإسلام دون عنف[1] فكان في ذلك كسب للمسلمين تحقق فيه التطبيق العملي لمنهجهم السلمي في نشر الدعوة، وحرم قريش من حلفاء وأنصار مهمين عامتهم حول المدينة.

كتب النبي ﷺ إلى الملوك والزعماء

كتب النبي ﷺ إلى عظماء الناس وزعمائهم في عصره من العرب وغيرهم يدعوهم إلى الله تعالى والإجابة إلى الإيمان برسالة الإسلام، فأرسل بعض أصحابه في مهام سلمية أو استطلاعية أو دعوية يحملون فيها رسائل النّبي ﷺ مكتوبة أو شفوية إلى القبائل العربية[2] وأرسل آخرين بكتب مختومة إلى الملوك:

- كتابه ﷺ إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين:

بعث النبي ﷺ العلاء بن الحضرمي ﷺ بكتاب إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين يدعوه فيه إلى الإسلام، فكتب المنذر إلى رسول الله ﷺ: أما بعد يا رسول الله، فإني قرأت كتابك على أهل البحرين، فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه، ودخل فيه، ومنهم من كرهه وبأرضي مجوس ويهود، فأحدث إليّ في ذلك أمرك، فكتب إليه رسو الله ﷺ: " بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أما بعد فإني أذكرك الله عز وجل، فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه، وإنه من يطع رسلي ويتبع أمرهم فقد أطاعني، ومن نصح لهم فقد نصح لي، وإن رسلي قد أثنوا عليك خيراً وإني قد شفعتك في قومك، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه، وعفوت عن أهل الذنوب، فاقبل منهم، وإنك مهما تصلح فلم نعزلك عن عملك ومن أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية "[3] وهذا يشير إلى أن ملك

---

(١) ينظر الخليفة: مهاجرة الحجاز تكوينهم وأثرهم في بناء الدولة في عصر الرسول ﷺ، ١٠٢.

(٢) الخليفة: مهاجرة الحجاز تكوينهم وأثرهم في بناء الدولة في عهد الرسول ﷺ، ١٢٠، ١٢١.

(٣) ابن القيم: زاد المعاد، ٣/ ٥٦٢. ابن سيد الناس: عيون الأثر، ٢/ ٣٥٢. المباركفوري: الرحيق المختوم، ٣٥٨.

البحرين قد أجاب النبي ﷺ إلى الإسلام فحافظ على ملكه ولم يزدد قومه إلا خيراً ولم يلزم النبي ﷺ أهل مملكته دخول الإسلام فمن رغب عن الإسلام فإنه سيكون من أهل الذمة وما عليه سوى الجزية، التي تنتظم من خلالها علاقته بالدولة الإسلامية.

- الكتاب إلى هوذة بن علي صاحب اليمامة :

وكتب النبي ﷺ إلى هوذة بن علي صاحب اليمامةكتاباً، وأرسل به مع سليط بن عمرو العماري. جاء فيه: " بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هوذة بن علي ، سلام على من اتبع الهدى، واعلم أنّ ديني سيظهر إلى منتهى الخف والحافر، فأسلم تسلم، وأجعل لك ما تحت يديك " فلما قدم سليط على هوذة بهذا الكتاب مختوماً أنزله، وحياه ، وقرأ عليه الكتاب، فرد عليه رداً دون رد، وكتب إلى النبي ﷺ : ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله، والعرب تهاب مكاني، فاجعل لي بعض الأمر أتبعك، وأجاز سليطاً بجائزة، وكساه أثواباً من نسج هجر ، فقدم بذلك كله على النبي ﷺ فأخبره ، وقرأ النبي ﷺ كتابه فقال: لو سألني قطعة من الأرض، ما فعلت، باد، وباد ما في يديه"[1] وروي أنه توفي بعد الفتح فحذّر النبي ﷺ من كذاب يتنبأ بعده في اليمامة وبشر ﷺ أنه سيقتل[2] فكان ذلك على ما ذكر رسول الله ﷺ حين تنبأ مسيلمة الكذاب ثم قتل في خلافة أبي بكر الصديق ﷺ.

- الكتاب إلى الحارث بن أبي شمر الغساني صاحب دمشق :

وكتب النبي ﷺ إلى الحارث الغساني وكان بغوطة دمشق: " بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول اله إلى الحارث بن أبي شمر، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله وصدّق، وإني أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له، يبقي لك ملكك"[3] وأرسل به مع شجاع بن وهب من بني أسد بن خزيمة، ولما أبلغه الكتاب

---

(١) ابن القيم: زاد المعاد، ٣/ ٥٦٢. المباركفوري: الرحيق المختوم،٣٥٨.

(٢) ابن القيم: زاد المعاد، ٣/ ٥٦٢.

(٣) ابن القيم: زاد المعاد، ٣/ ٥٦٦. المباركفوري: الرحيق المختوم،٣٥٩.

قال: من ينزع ملكي مني؟ أنا سائر إليه، ولم يسلم"[1].

- الكتاب إلى ملك عُمان:

وكتب النبي ﷺ كتابا إلى ملك عُمان جيفر وأخيه عبد ابني الجلندي، ونصه: " بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن عبد الله إلى جيفر وعبد اني الجلندي، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوكما بدعاية الإسلام، أسلما تسلما فإني رسول الله إلى الناس كافة، لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين، فإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما، وإن أبيتما أن تقرا بالإسلام، فإن ملككما زائل، وخيلي تحل بساحتكما، وتظهر نبوتي على ملككما"[2] وأرسل به مع عمرو بن العاص ﷺ وبعد حوار وتأن وتفكر ومشارورات أجاب جيفر إلى الإسلام هو وأخوه جميعاً. قال عمرو ﷺ "وصدّقا النبي ﷺ وخليا بيني وبين الصدقة، وبين الحكم فيما بينهم، وكانا لي عوناً على من خالفني"[3] وكتب النبي ﷺ إلى آخرين منهم الحارث بن عبد كلال الحميري ملك اليمن، وأرسل كتابه مع المهاجر بن أبي أمية المخزومي[4] وهذه أشهرها وبها أبلغ النبي ﷺ دعوته إلى أكثر ملوك وزعماء جزيرة العرب، ومن خلالها تأكد أن أخلاق المسلمين لم تكن تختار الحرب أو الإكراه على دخول الإسلام، وإنما كان يُرغب الناس في الإسلام، فمن يأبى فإن أداب الحرب تعمل على تنظيم العلاقة فيما بينهما على أسس واضحة؛ إما بالذمة أو بالجزية، وأن تقوم تلك العلاقات على الاحترام المتبادل وحفظ العقود والعهود، والتعاون على نشر الأمن والسلم بين الناس، مما يوضح أن الترويج لشبهة نشر الإسلام بالعنف غير صحيحة تردها النصوص والوقائع التي كانت سبباً لكثير من الأحداث

---

(١) ابن القيم: زاد المعاد، ٣/ ٥٦٣. ابن سيد الناس: عيون الأثر، ٢/ ٣٥٢. المباركفوري: الرحيق المختوم،٣٥٩.

(٢) ابن القيم: زاد المعاد، ٣/ ٥٦٣. المباركفوري: الرحيق المختوم،٣٥٩.

(٣) ابن القيم: زاد المعاد، ٣/ ٥٦٣. ابن سيد الناس: عيون الأثر، ٢/ ٣٥٢.

(٤) ابن سيد الناس: عيون الأثر، ٢/ ٣٤٤. ابن هشام: السيرة النبوية، ٦/ ٣٤٤.

التي حصلت في عصر الرسالة.

دعوة النبي لأهل الكتاب وموقفهم منه ومعرفتهم بصدق نبوته ﷺ.

ودعا النبي ﷺ أهل الكتاب إلى الإسلام، وأن لا يتخذ بعضهم بعضا أرباباً من دون الله. قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ (آل عمران:٧٩) قال عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما: إن رسول الله ﷺ كتب إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام، وبعث بكتابه إليه مع دِحية بن خليفة الكلبي، وأمره رسول الله ﷺ أن يدفعه إلى عظيم بصرى ليدفعه إلى قيصر، وكان قيصر في الشام فلما جاءه كتاب رسول الله ﷺ قال حين قرأه: التمسوا لي ها هنا أحداً من قومه، لأسألهم عن رسول الله ﷺ فكان هناك أبو سفيان بن حرب وهو لا زال مشركاً فسأله قيصر عن حال رسول الله وسيرته وصفاته وما يدعو إليه. حتى قال لابي سفيان: وسألتك بماذا يأمركم، فزعمت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، وينهاكم عما كان يعبد آباؤكم، ويأمركم بالصلاة، والصدق والعفاف، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، قال: وهذه صفة النبي ﷺ قد كنت أعلم أنه خارج، ولكن لم أظن أنه منكم، وإن يك ما قلت حقاً، فيوشك أن يملك موضع قدمي هاتين، ولو أرجو أن أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت قدميه، قال أبو سفيان: ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ فقرئ فإذا فيه: " بسم الله الرحمن الرحيم، من مُحمدٍ عبد الله ورسوله، إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فعليك إثم الأريسيين. و: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (آل

عمران:٦٤) قال أبو سفيان: فلما أن قضى مقالته علت أصوات الذين من حوله من عظماء الروم، وكثر لغطهم، فلا أدري ما قالوا، وأمر بنا فأخرجنا، فلما أن خرجت مع أصحابي وخلوت بهم، قلت لهم: لقد أمِر أمر ابن أبي كبشة، - أي النبي ﷺ ونسبه إلى زوج حليمة السعدية التي أرضعته ﷺ- هذا ملك بني الأصفر يخافه، قال أبو سفيان ﷺ: والله ما زلت ذليلاً مستيقناً بأن أمره ﷺ سيظهر، حتى أدخل الله قلبي الإسلام وأنا كاره[1].

فيتضح من هذا النص أن النّبي ﷺ كان حريصاً على هداية أهل الكتاب من خلال الحوار والتفكر والتشاور، وأنه كان يدعو إلى التوحيد وعبادة الله الذي يؤمن به جميع الأنبياء ويدعو إلى الأخوة الإنسانية والمساواة وأن لا يستعلي أحد من الناس على أحد، وأن يسهم الجميع في صناعة الأمن والسلام على هذه الأرض، فإن أصرّ أهل الكتاب على مواقفهم فإن النبي ﷺ يعلن أنه مسلم لله رب العالمين متمسك بأمره وأنه بلّغ الرسالة ونصح للناس أجمعين، ومما يستفاد منه أيضاً أن أهل الكتاب كانوا يعلمون مواصفات النّبي ﷺ وعلماؤهم يعرفون أنّ هذا الذي يدعو إليه هو ما بشر به أنبياؤهم وأوصوا باتباعه ولعلّ في موقف هِرَقْل المتعاطف مع رسالة النبي ﷺ خير شاهد على ذلك. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (الصف:٦) وظاهر في هذا الكتاب أيضاً الأدب النبوي الجم والذوق الخطابي الرفيع، وتبجيل المخاطب ومعرفة حقه ومكانته في قومه ومخاطبته بما يستجلب المودة ويوصل هدف الرسالة، ومَن أولى بذلك من رسول

---

(١) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب: دعاء النبي ﷺ إلى الإسلام والنبوة، وأن لا يتخذ بعضهم بعضا أرباباً. ح (٢٧٨٢).

كتاب التفسير، تفسير سورة آل عمران، (٤٢٧٨) صحيح مسلم: كتاب الجهاد، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل، (١٧٧٣).

الله ﷺ معلم الناس الخير ﷺ وبغض النظر عن نتائج الرسالة المباشرة وأنها أقامت الحجة على قيصر وإن لم يسلم، فإنها عرّفت بالإسلام وقيمه الراقية لدى أعلى هرم في سلطات الروم، واتضح أثرها في نفسية هرقل أيام الفتوح، حيث بقي بعيداً عن ميدان الصراع وكأنه على يقين بظهور المسلمين وأنه كان يعتقد بأنهم على حق؛ وأنه لا جدوى من مقاومتهم على الرغم مما كان يحشده من الجيوش آنذاك، وما ذلك إلا من آثار كتاب رسول الله ﷺ الذي زلزل أعماقه بصدق معتقده وصحة توجهه وقوة حجته.

وكتب ﷺ إلى المقوقس عظيم القبط في مصر

"بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد بن عبد الله إلى المقوقِس عظيم القبط سلام على من اتبع الهدى أما بعد: فإني أدعوك بداعية الإسلام أسلم تسلم و أسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإن عليك إثم القبط: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ (آل عمران: من الآية٦٤). وختم الكتاب فخرج به حاطب حتى قدم عليه الإسكندرية، فأوصل إليه كتاب رسول الله ﷺ وقال حاطب للمقوقس: إنه قد كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى فأخذه الله نكال الآخرة و الأولى فانتقم به ثم انتقم منه فاعتبر بغيرك ولا يُعتبر بك، قال: هات قال: إن لنا دينا لن ندعه إلا لما هو خير منه وهو الإسلام الكافي به الله فقد ما سواه إن هذا النبي ﷺ دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش، وأعداهم له يهود وأقربهم منه النصارى، ولعمري ما بشارة موسى بعيسى بن مريم إلا كبشارة عيسى بمحمد ﷺ وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل، وكل نبي أدرك قوماً فهم من أمته فالحق عليهم أن يطيعوه، فأنت ممن أدرك هذا النبي ولسنا ننهاك عن دين المسيح ولكنا نأمرك به فقال المقوقس: إني قد نظرت في أمر هذا النبي فوجدته لا يأمر بمزهود فيه ولا ينهى إلا

عن مرغوب عنه ولم أجده بالساحر الضال ولا الكاهن الكاذب ووجدت معه آلة النبوة بإخراج الخبء والإخبار بالنجوى وسأنظر وأخذ كتاب النبي ﷺ فجعله في حق من عاج وختم عليه ودفعه إلى جارية له ثم دعا كاتباً له يكتب بالعربية فكتب إليه ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط سلام عليك أما بعد: فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو إليه وقد علمت أنّ نبياً بقي وكنت أظن أنه يخرج بالشام و قد أكرمت رسولك وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم وبكسوة وأهديت إليك بغلة لتركبها والسلام عليك ولم يزد على هذا ولم يسلم"[1] وذكر أن اسمه جريج بن ميناء ملك الإسكندرية عظيم القبط فقال خيراً وقارب الأمر ولم يُسلم وأهدى للنبي ﷺ مارية وأختيها سيرين وقيسرى، فتسرى ﷺ مارية ووهب سيرين لحسان بن ثابت وأهدى له جارية أخرى، وألف مثقال ذهباً وعشرين ثوباً من قباطي مصر، وبغلة شهباء وهي دلدل، وحماراً أشهب وهو عفير، وغلاماً خصياً يقال له مأبور. وقيل هو ابن عم مارية، وفرساً وهو اللزاز، وقدحاً من زجاج وعسلاً. فقال النبي ﷺ: "ضن الخبيث بملكه ولا بقاء لملكه"[2] وقال أنس ﷺ: إن النبي ﷺ كتب إلى كسرى، وإلى قيصر، وإلى النجاشي، وإلى كل جبار، يدعوهم إلى الله تعالى[3] أي أن النبي ﷺ كتب إلى أكثر ملوك الأرض المعروفين آنذاك مبتدئا معهم التواصل بلغة الحوار والترغيب والدعوة بالكلمة الطيبة إلى الله تعالى والتعاون على أداء الرسالة مع غاية التبجيل والرقة والاحترام في الخطاب وعرض الإسلام، فرد عامتهم بالرد الطيب والثناء الحسن، أما كسرى فردّ بالرد القبيح حيث مزق كتاب النّبي ﷺ قبل أن يسمع ما فيه فأزال الله ملكه على أيدي الصحابة والتابعين ﷺ .

---

(١) ابن سيد الناس : عيون الأثر، ٢/ ٣٥٠. ابن القيم: زاد المعاد، ٣/ ٥٦١.

(٢) ابن سيد الناس: عيونالأثر، ٢/ ٣٥٠. وينظر الاقدي: ١/ ١١٨.

(٣) مسلم: صحيح مسلم، كتاب، الجهاد والسير، باب كتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى ملوك الكفار يدعوهم إلى الله ﷻ (١٧٧٤).

كتاب النبي ﷺ إلى كسرى

وكتب النبي ﷺ إلى كسرى: " بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله، إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من ابتع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، أدعوك بدعاية الله أسلم تسلم، فإن أبيت فعليك إثم المجوس" فلما قُرئ عليه الكتاب مزقه " فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: " مزق الله ملكه "[1].

كتاب النبي ﷺ إلى نجاشي الحبشة

وكتب النبي ﷺ إلى نجاشي الحبشة: " بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله ﷺ إلى النجاشي ملك الحبشة، أسلم أنت، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى فخلقه الله من روحه ونفخه، كما خلق آدم بيده، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك، والموالاة على طاعته، وأن تتبعني، وتؤمن بالذي جاءني، فإني رسول الله، وإني ادعوك وجنودك إلى الله ﷻ وقد بلغت ونصحت، فأقبلوا نصيحتي، والسلام على من اتبع الهدى"[2] وذكر ابن سيد الناس أن هذا الكتاب إلى أصحمة النجاشي الذي أسلم حين هاجر إليه الصحابة، قال ابن القيم:لم يميز بين النجاشي الذي صلّى عليه النّبي ﷺ وهو الذي آمن وأكرم الصحابة، وبين النجاشي الذي كتب إليه يدعوه، فهما اثنان وقدجاء ذلك مبيناً في صحيح مسلم أنّ رسول الله ﷺ كتب إلى النجاشي

---

(١) ابن سيد الناس: عيون الأثر، ٢/ ٣٤٧. ابن كثير: البداية النهاية، ٦/ ١٩٤. ابـن القيـم: زاد المعـاد، ٣/ ٥٥٩. ينظر صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب كتب النبي ﷺ إلى ملـوك الكفـار يـدعوهم إلى الله، ح (١٧٧٤).

(٢) زاد المعاد، ٥٥٩. ابن سيد الناس: عيون الأثر، ٢/ ٣٥٠. وفيه زيادة وهِم بها ابن سـيد النـاس نبـه إليها ابن القيم في زاد المعاد.

وليس بالذي صلّى عليه[1]. فهذه كتب النبي ﷺ ليس فيها سوى الدعوة إلى التوحيد والأخوة والمساواة ونبذ الكبر والتعالي والدعوة إلى التناصح والتعاون، فأين العنف الذي يُروَج له زوراً في مقاصد الحرب عند المسلمين؟!

معرفة اليهود بصدق نبوة رسول الله ﷺ

ومثلما أن الكثير من علماء النصارى يعلمون أن رسالة النبي ﷺ حق وصدق كما اتضح ذلك من موقف هرقل عظيم الروم من رسالة النبي ﷺ وسؤاله عن الكثير من دقيق أمره؛ كذلك اليهود الذين حاربوه كانوا يعلمون أنه هو النبي المرتقب ذاته ولكنهم حاربوه حسداً وبغياً، ولقد علمت يهود أنه هو النبي وأقروا بذلك منذ يوم بدر فحين شاهدوا أسرى المشركين موثقين "**قالت اليهود** فيما بينها: **هو الّذى نجده منعوتًا، واللّه لا تُرفع له رايةٌ بعد اليوم إلاّ ظهرت**"[2] **ويوم تآمرت بنو النضير على قتله وقام** ﷺ **قال** كنانة بن صويراء: " هل تدرون لم قام مُحَمّدٌ؟ قَالوا: لا واللّه ما ندرى وما تدرى أنت، قال: بلى والتّوراة، إني لأدرى، قد أخبر مُحَمّد ما هممتم به من الْغَدْرِ فَلا تَخْدَعُوا أَنفُسَكُمْ وَاَللّهِ إِنّهُ لَرَسُولُ اللّهِ، وما قام إلاّ أنّه أخبر بما هممتم به، وإنّه لآخر الأَنْبِيَاءِ كنتم تطمعون أن يكون من بني هارون فجعله اللّه حيث شاء، وإنّ كتبنا والذي دَرَسْنَا في التَّوْرَاةِ التي لَمْ تُغَيّر، ولم تبدّل أنّ مولده بمكّة، ودار هجرته يثرب، وصفته بعينها ما تخالف حرفاً ممّا في كتابنا"[3] وقال سلاّم بن مشكم لحيي بن أخطب: " فو اللّهِ إنّك لتعلم، ونعلم معك أنّه لرسول اللّه وأنّ صفته عندنا ... ثم نصحه لكن حُييّ قال: تأبى نفسي إلاّ عداوة مُحمّدٍ وإلاّ

(١) مسلم: صحيح مسلم، كتاب، الجهاد والسير، باب كتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى ملوك الكفار يدعوهم إلى الله ﷻ (١٧٧٤).

(٢) الواقدي: المغازي، ١/ ٨٩.

(٣) الواقدي: المغازي، ١/ ٢٦٥. البغوي: تفسير البغوي، معالم التنزيل، تفسير سورة الحشر، تفسير الآية (١).

قتاله "[1] وقال كعب بن أسد سيد بني قريظة: " يا معشر بنى قريظة، واللّه إنّكم لتعلمون أنّ مُحَمّدًا نبي اللّه، وما منعنا من الدّخُول معه إلاّ الحسد للعرب حيث لم يكن نبيّا من بنى إسرائيل، فهو حيث جعله اللّه ... أتذكرون ما قال لكم ابن خِرَاش حين قدم عليكم، فقال: تركت الخَمر والخَمير وَالتّأْمِيرَ وجئت إلى السّقاء والتّمْر والشّعير؟ قَالُوا: وَمَا ذَلِكَ؟ قَالَ: يَخْرُج مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ نَبِىّ، فَإِنْ خَرَجَ وَأَنَا حَيّ اتّبَعْتُه ونصرته، وإن خرج بعدى فإيّاكم أن تخدعوا عنه فاتّبعوه وكونوا أنصاره وأولياءه وقد آمنتم بالكتابين كليهما الأوّل والآخر، قال كعب: فتعالوا فلنتابعه ولنصدّقه ولنؤمن به فنأمن على دمائنا وأبنائنا ونسائنا وأموالنا، فَنكون بمنزلة من معه، قالوا: لا نكون تبعًا لغيرنا، ولا نفارق التّوراة"[2] فقال ثَعْلَبَةُ وأُسَيْدُ ابْنَا سَعِيّةَ، وَأَسَدُ بْنُ عُبَيْدٍ عَمّهم: يا معشر بني قُرَيْظَة، واللّه إنّكُمْ لتعلمون أنّهُ رَسُولُ اللّهِ وَأَنّ صِفَتَهُ عِنْدَنَا ... فلمّا رأى هؤلاء النّفرُ إباءهم نزلوا في اللّيلة الّتي في صبحها نزلت قُرَيْظَة – حين حكم عليهم سعد بن معاذ ﷺ – فأسلموا فأمنوا على أنفسهم وأهلهم وأموالهم"[3] وهذا يوضح أن الأمر كان جلياً عند اليهود في المدينة وأنهم كانوا بنقضهم للعهود وتحالفهم مع المشركين يتعمدون محاربة النبي ﷺ ويجتهدون في العمل عل إفشال مهمته في تبليغ الرسالة وهم على علم بصدقه وأمانته وتوفر كل علامات النبوة التي بشر بها الأنبياء من قبله، ومصداق ذلك هذه النصوص التي تزيل كل لبس حول صفات النبي ﷺ وهذا ما أكده موقف المنصفين من اليهود، حين يأسوا من إنصاف قومهم لرسول الله ﷺ ومن هؤلاء المنصفين أيضاً الذين أنّبتهم ضمائرهم وحملتهم أمانتهم على أداء ما في أعناقهم تجاه رسول الله ﷺ

---

(١) الواقدي: المغازي، ٢/ ٦.

(٢) الواقدي: المغازي، ١/ ٢٦٧.

(٣) ابن سعد: الطبقات،١/ ١٦١. ابن حجر: العجاب في بيان الأسباب، ٢/ ٧٣٥. الواقدي: المغازي، ٢/ ٧.

مُخيريق أحد علماء اليهود" وكان مُخيريقٌ من أحبار اليهود، فقال: يوم السّبت ورسول اللّه ﷺ بِأُحُدٍ: يا معشر اليهود، واللّه إنّكم لتعلمون أنّ مُحَمّدًا نبي، وأنّ نصره عليكم لحقّ، قالوا: إنّ اليوم يوم السّبت، قال: لا سبت، ثمّ أخذ سلاحه، ثمّ حضر مع النّبىّ فأصابه القتل، فقال رسول اللّه ﷺ: "مُخَيْرِيقٌ خير يهود، وقد كان مُخَيْرِيقٌ حين خرج إلى أُحُد، قال: إن أصبت فأموالي لُمحَمّدٍ ﷺ يضعها حيث أراه اللّهُ فهي عامّة صدقات النّبىّ ﷺ[1] وحين بلّغ ابن مسلمة ﷺ بني النضير رسالة النبي ﷺ قال لهم: أنشدكم بالتّوراة التي أنزل اللّه على موسى ﷺ هل تعلمون أنّى جئتكم قبل أن يبعث مُحَمّدٌ ﷺ وبينكم التّوراة، فقلتم لي في مجلسكم هذا: كأنّك تريد الحنيفيّة التي سمعت بها، أتاكم صاحبها الضّحوك القتّال فى عينيه حُمرة يأتي من قبل اليمن، يركب البعير ويلبس الشّملة ويجتزئ بالكسرة سيفه على عاتقه ليست معه آية هو ينطق بالحكمة، كأنّه وشيجتكم هذه واللّه ليكوننّ بقريتكم هذه سلب وقتل ومثل قالوا: اللّهمّ نعم قد قلناه لك ولكن ليس به! "[2] وهذا الموقف ألزم يهود بني النضير، وأجبرهم على الإفصاح بالصدق وإظهارهم لحقيقة ما يعلمونه عن هذا النبي ﷺ ولكنهم لجأوا إلى التمويه والتحايل والأعذار، وأكدوا ذلك في خيبر أيضاً مرة أخرى! قال الحارث: قلت لسَلاّم بن مشكم: "يملك الأرض جميعًا؟ قال: نعم، والتّوراة الّتي أنزلت على موسى، وما أحبّ أن تعلم اليهود بقولي فيه"[3].

ولكن عامة علماء اليهود إلا من أسلم منهم لم يكفهم جحود رسالة النبي ﷺ وعدم نصرته حتى شهدوا عليه بالزور والبهتان إمعاناً في حربه وتضليل الناس عنه

---

(١) ينظر مسلم: صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب قزل النبي لا نورث ما تركناه صدقة، ح (١٧٥٣).

(٢) الواقدي: المغازي، ١/ ٢٦٦.

(٣) الواقدي: المغازي، ٢/ ١٣٨. ينظر السيوطي: الدر المنثور، تفسير سورة الإسراء، الآية (١١١).

فلما ذهب وفد اليهود إلى مكة يدعو أهلها لحرب النبي ﷺ قالت قريش بعضها لبعض: قد جاءكم أهل العلم والكتاب الأول فسلوهم عمّا نحن عليه ومُحَمّدٌ أيّنا أهدى؟ قالت قريش: يا معشر اليهود، أنتم أهل الكتاب الأول، والعلم، أخبرونا عمّا أصبحنا نحن فيه ومُحَمّدٌ ديننا خير أم دينُ مُحَمّدٍ؟ فقالوا: اللّهمّ أنْتم أولى بالحقّ منه إنّكم لتعظّمون هذا البيت وتقومون على السّقاية وتنحرون البدن وتعبدون ما كان عليه آباؤكم، فأنتم أولى بالحقّ منه، فأنزل اللّه تعالى في ذلك:﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴾ فاتّعدوا لوقت وقّتوه [1] وكانوا يرسلون إلى قومه المشركين من قريش ليسألوه ﷺ عن مسائل ويقولون: إن أخبركم بهن فهو نبي مرسل وإلا فهو متقول ويقولون: سلوه عن مسائل لا يعلمها إلا نبي، وهم يعلمون أنّ من أهل الكتاب من يعلم هذه المسائل وبذلك يعرف هل يجيب فيها بما قالته الأنبياء أو بخلاف ذلك، فلما أجابهم بالحق جحدوه ولم يؤمنوا به[2] بل كانوا شهود زور ضللوا قومهم وأسهموا في تضليل المشركين. وهذه النصوص تؤكد أن الحرب في السيرة النبوية كانت آخر ما يفكر به المسلمون مضطرين إما لدفع العدوان عن أنفسهم أو لنصرة عقيدتهم وما إلى ذلك من أسباب مشروعة يقاتل من أجلها المؤمنون لعدالتها ورحمتها

والشاهد في كل هذا أن ما يثار من شبهات عن نشر الإسلام بالقوة والسيف إنما هو استمرار لشهادة الزور التي شهدها بعض زعماء يهود للمشركين من قبل، وأيضاً فإن في هذه الفرية إخفاء لحقيقة ظاهرة تؤكد لكل منصف أن الإسلام هو

---

(١) الواقدي: المغازي، ١/ ٢٢٥. وينظر: الطبري: جامع البيان عن تأويل آي ا لقرآن، تفسير سورة الكهف، الآية (٢)

(٢) ابن تيمية: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ٥/ ٤٠٣. القرطبي: الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، ١/ ٣٤٤.

الذي أعلنت عليه الحرب بالسيف وبالكبت والحصار والتشويه ونقض العهود وإقامة التحالفات، أما حروب النّبي ﷺ فإنها جميعاً لم تخرج عن مبادئ الدفاع عن النفس، أو رد المظالم وتأديب ناقضي العهود، من الغادرين والناكثين، أو نصرة الضعفاء المستباحين، أو حماية حرية الدعوة وتبليغ الرسالة، فما هي إلا رحمة وتأصيل لبناء الحق والعدل على هذه الأرض التي لا زال أهل الزور والجشع والطغيان يصنعون فيها الحروب وينشرون القتل والدمار وهذا ما كان ولا زال يحاربه الإسلام، ولعل تكرار اليهود لنقض العهود والمواثيق مع رسول الله ﷺ دون أي مسوغ مع كل ما قام به من الوفاء لها والحرص على المحافظة عليها، ومن خلال تعامل النبي ﷺ معهم بالوفاء والحسنى، وإصرارهم على النقض، ومما قام به النبي ﷺ من حملات التأديب للناقضين والناكثين منهم، علم ﷺ يقيناً أنهم لا يؤتمن جوارهم، ولا يوثق بعهودهم، يؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿أَوَكُلَّمَا عَـٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (البقرة:١٠٠) وقوله ﷻ:﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ (البقرة: من الآية٨٧). فكان أمرهم يشغل رسول الله ﷺ حتى في أحلك حالات مرضه قبيل وفاته لذلك أوصى ﷺ بوجوب إخراجهم من أرض الحجاز وجزيرة العرب قال أبو عبيدة بن الجراح ﷺ آخر ما تكلم به رسول الله ﷺ قال: "أخرجوا يهود الحجاز وأهل نجران من جزيرة العرب واعلموا أن شرّ الناس الذين اتخذوا قبورهم مساجد"[1] فلما كانت خلافة عمر ﷺ أخرج يهود خيبر وفدك ولم يخرج أهل تيماء

---

(١) سنن البيهقي، كتاب السير: باب لا يسكن أرض الحجاز مشرك، ح (١٨٥٢٩). وينظر الدارمي: كتاب السير باب إخراج المشركين من جزيرة العرب، ح (٢٤٩٨) سنن الترمذي، أبواب السير، باب ما جاء في إخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب، (١٦٥٦). البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب جوائز الوفد، (٢٨٨٨) كتاب الخمس، باب إخراج اليهود من جزيرة العرب، (٢٩٩٧).

ووادي القرى لأنهما داخلتان في أرض الشام"[1] ولم يُخرج أمير المؤمنين عمر ﷺ يهود خيبر قبل أن ينقضوا عهودهم، كما فعلوا بعبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال ابن عمر: " لما فُدعت[2] بخيبر قام عمر ﷺ خطيباً في الناس فقال: إن رسول الله ﷺ عامل يهود خيبر على أموالها، وقال ﷺ: **نقركم ما أقركم الله وإن عبد الله بن عمر خرج إلى ماله هناك فعُدي عليه في الليل، ففدعت يداه وليس لنا عدو هناك غيرهم وهم تهمتنا، وقد رأيت إجلاءهم، فلما أجمع على ذلك أتاه أحد بني أبي الحقيق فقال: يا أمير المؤمنين تخرجنا وقد أقرّنا محمد وعاملنا على الأموال وشرط ذلك لنا فقال عمر ﷺ أظننت أني نسيت قول رسول الله ﷺ: كيف بك إذا أخرجت من خيبر تعدو بك قلوصك ليلة بعد ليلة؟! فأجلاهم وأعطاهم قيمة مالهم من الثمر مالاً وإبلاً وعروضاً من أقتاب وحبال وغير ذلك[3] وأخرج عمر ﷺ " **يهود نجران وفدك**"[4].

وهذه المسائل ليست من صلب البحث ولكن لا يمكن تجاوزها لما يترتب على الموقف منها إظهار أخلاق الحرب في عصر الرسالة وما فيها من وفاء المسلمين المطلق لعهودهم؛ حيث لم يسجل التاريخ عليها نقضاً لعهد أو غدراً بحليف، بينما

---

(١) البيهقي: سنن البيهقي، كتاب السير: باب ما جاء في تفسير أرض الحجاز وجزيرة العرب، ح (١٨٥٤٠)

(٢) من الفدع وهو ميل المفاصل وزوالها عن بعضها، وفي اليخاري فدعت يدي ابن عمر ورجليه. ينظر البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الشروط، باب إذا اشترط في المزارعة إذا شئت أخرجتك، ح (٢٥٨٠) وشرحه.

(٣) مالك: الموطأ، كتاب الجامع، باب، ما جاء في إجلاء اليهود من المدينة، ح (١٥٨٤). اليخاري: الجامع الصحيح، كتاب الشروط، باب إذا اشترط في المزارعة إذا شئت أخرجتك، (٢٥٨٠) سنن البيهقي، كتاب السير: باب لا يسكن أرض الحجاز مشرك، (١٨٥٢٥).

(٤) البيهقي: سنن البيهقي، كتاب السير: باب لا يسكن أرض الحجاز مشرك، (١٨٥٣١) وروي أن عمر بن الخطاب ﷺ " ضرب لليهود والنصارى والمجوس بالمدينة إقامة ثلاثة أيام يتسوقون بها ويقضون حوائجهم ولا يقيم أحد منهم فوق ثلاث ليال" البيهقي: سنن البيهقي، كتاب السير: باب الذمي يمر بالحجاز ماراً لا يقيم ببلد منها أكثر من ثلاث لبال، ح (١٨٥٤٢) و (٥٢٣٩).

سجل التاريخ على كثير من اليهود والمشركين، النقض والغدر في كثير من المواقف والمواضع والأزمنة، كل ذلك أدى إلى أن يوصي رسول الله بالبعد عن جوار أهل الغدر ووجوب الحذر منهم على أمته وعقيدتها لكي لا يعبثوا فيها غدراً وتزييفاً، وهناك ممن لا يعلم قيم الحرب عند غير المسلمين، فيشارك في بلبلة أمن بلاده والتشويش على عقيدة أهلها، لذلك يمكن القول أن من أخلاق الحرب في صدر الإسلام التحوط ممن لا وفاء له ولا أمانة، ولعل هذا هو السبب الأساس وراء إخراج اليهود من أرض الحجاز؛ والحجاز مكة والمدينة واليمامة ومخاليفها كلها. قال الشافعي ولم أعلم أحداً أجلي من أهل الذمة من اليمن وقد كانت بها ذمة وليست اليمن بحجاز فلا يجليهم أحد من اليمن[1] وإن كان هناك خلاف حول إخراج اليهود من بقية جزيرة العرب[2] وخلاف بين الفقهاء حول حدود جزيرة العرب[3] فإنّ هذا شأن آخر ليس هذا موضعه، فالذي يخص هذا البحث ما اتضح في آداب الحرب في عصر الرسالة من وفاء المسلمين لعهودهم ومواثيقهم مع أهل الكتاب وغيرهم في كل أحوالهم، والتنبيه إلى أهمية معرفة وفهم وصأيا رسول الله ﷺ في الاحتراس والحذر والتحذير ممن لا عهد له ولا ميثاق.

(١) لبيهقي: سنن البيهقي، كتاب السير: باب ما جاء في تسفير أرض الحجاز وجزيرة العرب، (١٨٥٣٩).

(٢) قال سعيد بن عبد العزيز: جزيرة العرب ما بين وادي القرى إلى أقصى اليمن إلى تخوم العراق إلى البحر. سنن البيهقي، كتاب السير: باب ما جاء في تفسير أرض الحجاز وجزيرة العرب، (١٨٥٣٥). وينظر مسلم، كتاب الوصية، باب، ترك الوصية لمن له شيء، (١٦٣٧)

(٣) قال الأصمعي: جزيرة العرب من أقصى عدن أبين إلى ريف العراق في الطول وأما العرض فمن جدة وما والاها من ساحل البحر إلى أطراف الشام. سنن البيهقي، كتاب السير: باب ما جاء في تفسير أرض الحجاز وجزيرة العرب،ح (١٨٥٣٦) وينظر، (١٨٥٣٧).

المبحث الثاني

الموقف من الصلح في قيم وآداب الحرب في عصر الرسول ﷺ

أصول ثقافة الصلح في أخلاق الحرب في عصر الرسالة

نظراً لخلاف طبائع البشر واختلاف أذواقهم وأعرافهم وثقافاتهم وأديانهم ولغاتهم وأوطانهم، وقوة رغبة الإنسان في الحفاظ على الحقوق واستيفائها، وما في ذلك من أبواب المنافسة ومحبة الغلبة والانتصار وغير ذلك من أهواء وشهوات تكوّن في مجموعها أسباباً أولية للخلاف والخصومات التي وجدت مع وجود الإنسان على هذه الأرض. قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ (البقرة: من الآية٣٦) وقال سبحانه: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ (البقرة: من الآية٣٠) وقال ﷻ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (هود:١١٨) فأصبحت الحاجة إلى نزع أسباب العداوة ونشر ثقافة الصلح ومفاهيمه وفوائده ملحة، فلذا عُني الإسلام بعلاج أسباب الخلاف وأمر بالصلح ورغّب فيه. قال تعالى: ﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ (النساء: من الآية١٢٨) ودعا إلى الصلح وأكد عليه فقال ﷻ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾ وقال ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الحجرات: من الآية١٠) وقال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ (النساء: من الآية١١٤) وفي شؤون

الأسرة. قال تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ﴾ (النساء: من الآية٣٥) وقال رسول الله ﷺ: " ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ قالوا بلى، قال: إصلاح ذات البين فإن فساد ذات البين هي الحالقة"[١] وفي رواية " لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين"[٢] وقال ﷺ: " يعدل بين الناس صدقة "[٣].

فهذه المعاني والقيم الحضارية وأمثالها في السيرة، تنبع من صميم العقيدة الإسلامية وتأخذ مساحة واسعة في عقيدة المسلم وثقافته، وقد ظهرت معانيها بشكل جلي في مواقف المسلمين في عصر الرسالة وتقديم الصلح على ما سواه من وسائل فض المنازعات، حتى أصبح المسلم يتسمى باسم صلح وصلاح ومصلح ومشتقاتها، فتحول إلى داعية صلح في أمته ووطنه وأسرته ومن يتصل به من غيرهم، يئد الفتن ويطفئ الشر، وينشر الأمن ويزرع الأمل، فلا خصومات ولا منازعات في المجتمعات الإسلامية الأصيلة إلا فيما لا بد منه، وذلك لمعرفة كل مسلم بما له وما عليه، ولتحفز دعاة الصلح واستعدادهم لردم كل فجوة تطرأ على العلاقات في ميادين الحياة داخل الصف وخارجه ومع الجوار وما حوله، فالمسلم معني بالصلح ونشره لأن دينه دين الصلاح والسلام، وهو معني به اقتداء بالنبي ﷺ الذي كان يحبه ويفعله فما إن يسمع بخصام بين قوم حتى يكون موقفه ﷺ: " اذهبوا بنا نصلح بينهم "[٤] وما يدعى إلى صلح ﷺ في الحروب التي حصلت في السيرة النبوية إلا والصلح عنده مقدم على الحرب، فالمسلم دائماً مشارك في هذه الحياة

---

(١) سنن أبي داوود: كتاب الأدب، باب في إصلاح ذات البين، (٤٩١٩).

(٢) الترمذي: سنن الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب ٥٦، ح (٢٥٠٩).

(٣) سنن أبي داوود: كتاب الأدب، باب في إصلاح ذات البين، (٤٩١٩).

(٤) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الصلح، باب قول الإمام لأصحابه: إذهبوا بنا نصلح بينهم، (٢٥٤٧).

بنفع أبناء جيله، مسابقاً في ميادين الإصلاح والعمل المثمر، مسارعاً إلى إزالة الضغائن وتطهير القلوب وبث ما يؤلفها ويسمو بالأرواح ويوحد الأمة ويورث الذكر الجميل.

ومعاني الصلح راسخة في قيم المسلمين، وهي من اهتمامات المجتمع الإسلامي بكل طبقاته، ومن مسؤوليات رأس الدولة وأركان المجتمع ونخبة الأمة، والصلح جائز بين الغرماء وأصحاب الميراث؛ ومع جميع الناس من المسلمين والمشركين، ومن سنن النبي ﷺ أنه كان يقود عمليات الصلح بنفسه ويدعو أصحابه للمشاركة في إنجازها، ويقر من يفعل ذلك ويخوله من الصلاحيات أن يقول ما يراه متوافقاً مع إتمام الصلح وتحقيق منافعه، ومن صلاحياته أن جعل حكمه نافذاً لا يرد كما فعل ﷺ مع حكم سعد بن معاذ ﷺ على بني قريظة، وكان يقوم بذلك بنفسه ﷺ ولا سيّما إذا تعلق الأمر بأسر الشهداء ومن كان ضعيف الموقف، كما فعل مع جابر بن عبد الله في مسألة سداد ديون أبيه ﷺ ومصالحة غرمائه، ومن أجل الصلح أجاز ﷺ التنازل عن الألقاب والمسميات الحقة، وعن كثير من حقوقه وحقوق أصحابه كما فعل يوم الحديبية، وأجاز ﷺ ردّ شرط الصلح الجائر كما فعل في عدم ردّ المؤمنات المهاجرات المتفق عليه في شروط صلح الحديبية، وذلك اتباعاً لكتاب الله ولثبات إجحافه بحق النساء المؤمنات، وأجاز ﷺ قبول الهدنة وتنازل عن بعض المنافع من أجل إتمامها وما ذلك إلا لأنها مقدمة للصلح، ومن علامات الحرص على الصلح وتنمية ثقافته بين المسلمين، رضاه ﷺ على من يتبنى ذلك ويتخلق به وينفذه؛ وتنويه النبي ﷺ بما سيفعله حفيده **الحسن بن علي رضي الله عنهما حين قال ﷺ: "إنّ ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين"**[1].

---

(١) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الصلح، باب قول النبي ﷺ للحسن بن علي رضي الله عنهما (٢٥٥٧).

وذلك من دلائل النبوة التي تبين مصداقيتها بالدليل الملموس، حيث وقع الصلح بين الحسن ومعاوية رضي الله عنهما، ولعل في الكثير من مواقف الحسن ومعاوية رضي الله عنهما ما يعبر عن تشربهما لثقافة الصلح وحب الجماعة، ولعل ما قاما به من المهادنة والنظر للمسلمين ثم المصالحة وتوحيد الأمّة يعد نموذجاً سامياً ودعوة لأبناء الأمة لتفعيل ثقافة المصالحة والانقياد للجماعة، وتحقيق مقاصد كثير من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية التي تبين حب المسلمين للصلح وأصالة هذا الخلق النبيل في عقيدتهم وفكرهم وهويتهم، والحضارة الإسلامية قدمت الصلح على النصر وأسمته باسم النصر تيمناً ودعوة إلى السلم الذي هو النصر في مفهوم الفكر الإسلامي بل إن من أهم مقاصد المسلمين في الحرب هو نشر السلم القائم على العدل والمساواة، وهذا ما يؤكده الموقف من صلح الحديبية حيث سمّاه القرآن الكريم فتحاً مبيناً، ولعل في هذا ما يرد كل فرية يحاول المغرضون إلصاقها بالمسلمين تحت مسميات العنف والتطرف وما إلى ذلك من مسميات، ومن تمام ثقافة الصلح والسلام في السيرة النبوية الوفاء التام بما يُتفق عليه، فإذا وقع الصلح بين المسلمين وأهل الحرب فإنه لا يحل نقضه أو الإخلال بأي من شروطه ما دام الآخر يحفظ ذلك ويرعاه وهذا ما عرف عن المسلمين على مر العصور.

أهمية الصلح في قيم الحرب في عصر الرسول ﷺ

قال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ١١٤). فالصلح يأتي في إطار حب السلام وأعمال الخير والمعروف والصدقة والصلاح الذي ينبع من الضمائر وأحاديث النجوى الصالحة فيورث الرضا والأجر الكريم، فكان النبي ﷺ يباشره بنفسه وبمشاركة أصحابه. فقد علم النبي ﷺ يوماً " أن أناساً من بني عمرو بن عوف، كان بينهم شيء، فخرج إليهم

النبيﷺ في أناس من أصحابه يصلح بينهم "[1] قال سهل بن سعد ﷺ: " إن أهل قباء اقتتلوا حتى تراموا بالحجارة، فأخبر رسول الله ﷺ بذلك، فقال: " اذهبوا بنا نصلح بينهم "[2] وقال ﷺ: " ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيراً أو نمى خيراً "[3] فهذه النصوص وغيرها الكثير في مفاهيم السيرة النبوية توضح مكانة الصلح في نفس النبي ﷺ وحرصه ألا يفوته وأصحابه أجر المشاركة فيه، وعمله ﷺ على تعميم ذلك في أعراف المجتمع ومفاهيمه، إقراراً بفضله وتشجيعاً على قطف ثمار نتائجه.

وفي أخلاق الحرب في عصر الرسالة دعوة أصيلة إلى تبني الصلح أولاً، حتى لو كان ذلك دون استيفاء الحق تاماً، إذ أنّ التنازل عن بعض المتاع فيما سوى الثوابت؛ مقابل الصلح لا يعد هزيمة ولا غفلة، إذ أنّ ما يحققه الصلح سيكون أسمى من أي متاع يتم تجاوز بعضه في سبيل نصرة السلام والأمن والمحبة بين الناس. قالت أم المؤمنين الطاهرة عائشة رضي الله عنها: " سمع رسول الله ﷺ صوت خصوم بالباب، عالية أصواتهما، وإذا أحدهما يستوضع الآخر ويسترفقه في شيء، وهو يقول: والله لا أفعل، فخرج عليهما رسول الله ﷺ فقال: " أين المتألي على الله لا يفعل المعروف " فقال: أنا يا رسول الله، وله أي ذلك أحب "[4] استجابة لتعاليم الصلح لما يعلم من حرص النبي ﷺ على تنمية وشائجه وتأصيل قواعده، فسارع ذلك الصحابي إلى تلبية رغبة النبي ﷺ قبل أن يطلب منه ذلك، وهذا دليل على قوة تأثر الناس في عصر الرسالة بثقافة الصلح وحرصهم على العمل بها. قال كعب بن مالك ﷺ: " أنه كان له على عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي ﷺ مال،

---

(١) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الصلح، باب: ما جاء في الإصلاح بين الناس. ح (٢٥٤٤)

(٢) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الصلح، باب: قول الإمام لأصحابه: اذهبوا بنا نصلح. (٢٥٤٧).

(٣) ابن راهوية: مسند اسحاق بن راهوية، ما يروي عن عمه خبيب وأم كلثوم، ٥/ ٢٠٥، ح (٧) القضاعي: مسند الشهاب، باب ليس بكذاب من أصلح بين اثنين، ح (١٢٠٤).

(٤) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب: هل يشير الإمام بالصلح.ح (٢٥٥٨)

فلقيه فلزمه، حتى ارتفعت أصواتهما، فمر بهما النبي ﷺ فقال: يا كعب. فأشار بيده، كأنه يقول النصف، فأخذ نصف ما عليه وترك نصفاً"[1] وبلغ من أهمية حب المسلمين للصلح، أنه إذا أشار الإمام بالصلح فأبى المشار عليه بالقبول، حكم عليه بالحكم البين، أي أن من يرفض الصلح الذي غالباً ما يكون توفيقي بين الأطراف فإنّ على الحاكم أن يستوفي الحق لصاحبه كاملاً دون أي تنازل ما دام الصلح لم يأخذ مجراه[2] ومن خصوصيات داعية الصلح في السيرة النبوية أنه يجوز له التحدث بما يراه يحقق الصلح العادل دون قيود على قوله ما دام يهدف إلى صفاء النفوس وإقرار الأمن وتعزيز فرص الاستقرار، قالت أم كلثوم بنت عقبة: سمعت رسول ﷺ يقول:" ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس، فينمي خيرا أو يقول خيراً"[3] وعلى الرغم من الحرص الهائل على إنجاح فرص الصلح المثمر للسلام في مواقف المسلمين، فإن إحقاق الحق يبقى هو الهدف الأسمى في تلك المواقف؛ على أن لا يحل ذلك الصلح حراماً ولا يحرم حلالاً، وإنما يطفئ الفتن ويدفع الشر وينمي مشاعر المودة بين المسلمين أو بينهم بين غيرهم من الأمم.

ومن قيم المسلمين ردّ الصلح الجائر

فلما كان إحقاق الحق هو العامل الأكبر في نشر السلام واستمراره؛ فإن الحرص على تنفيذ مطالبه وتثبيت أركانه، كان يمثل الهدف الأول، وعلى الرغم من أن الصلح يقدم على الحرب في أخلاق المسلمين، ما لم تنتهك الحقوق والحرمات، لكن لم يكن من مواقفهم قبول التوافق بضياع الحق، لأن ذلك لن يكون عامل استقرار إذ إن أصحاب الحقوق ستبقى في ضمائرهم عوامل الاستعداد للعمل

---

(١) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الصلح، باب: هل يشير الإمام بالصلح.ح (٢٥٥٩).

(٢) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الصلح، باب: إذا أشار الإمام بالصلح فأبى، حكم عليه بالحكم البين.ح (٢٥٦١).

(٣) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الصلح، باب: ليس الكاذب الذي يصلح بين الناس. ح (٢٥٤٦)

والبحث عن حقوقهم، فإن لم يصلوا إليها بالوسائل المشروعة، فإن البعض منهم قد يركب المخاطر لتحقيق أهدافه، مما يولد عوامل هدم الاستقرار وفقدان الأمن، فكان من آداب الحرب في عصر الرسالة ردّ الصلح الجائر، وتقويم اعوجاجه، والعمل بما يقر الحق ويثبت الصلح بين الناس " جاء أعرابي فقال: يا رسول الله، اقض بيننا بكتاب الله، فقام خصمه. فقال: صدق، اقض بيننا بكتاب الله، فقال الأعرابي: إن ابني كان عسيفاً - أجيراً - على هذا، فزنى بامرأته، فقالوا لي: على ابنك الرجم، ففديت ابني منه بمائة من الغنم ووليدة، ثم سألت أهل العلم. فقالوا: إنما على ابنك جلد مائة وتغريب عام، فقال النبي ﷺ: " لأقضين بينكما بكتاب الله، أما الوليدة والغنم فردّ عليك، وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام، وأما أنت يا أنيس - رجل، وربما هو أخو أبو ذر الغفاري- فاغد على امرأة هذا فارجمها". فغدا عليها أنيس فرجمها[1] وما ذلك إلا لما في إنجاز الحقوق من الفوائد التي تثمر ديمومة الأحكام التي تطهر المذنب وتردع من في قلبه مرض من التطاول على الحق، فيظهر في هذا النص أن النبي ﷺ ردّ الصلح الذي خالف الحق بمخالفته شرع الله تعالى، فهذا صلح أقرّ الحرام وأبطل الحدّ لذلك رده النبي ﷺ وقال لأقضين بينكما بكتاب الله، ففعل النبي ﷺ ما يتوافق مع الحق البيّن في كتاب الله تعالى.

ومن الصلح الجائر الذي ردّه رسول الله ﷺ ما يتعلق بحقوق المرأة المهاجرة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ (الممتحنة: من الآية١٠) وذلك حين صالح رسول الله المشركين يوم الحديبية وشرط لهم أنه من أتاه بغير إذن وليه ردّه عليهم، فلما هاجر المسلمات إلى رسول الله ﷺ أمره الله تعالى بامتحانهن فإن كنّ جئن رغبة في الإسلام لم يردّهن عليهم قال ﷻ: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ (الممتحنة: من الآية١٠) فحبس رسول الله ﷺ النساء

---

(١) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الصلح، باب: إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود. ح (٢٥٤٩)

وردّ الرجال[1] وهاجرت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي مُعيط إلى رسول الله ﷺ عام الحديبية فجاء أخواها الوليد وفلان ابنا عقبة إلى رسول الله ﷺ يطلبانها فأبى أن يردّها عليهما.

وروي في صلح الحديبية قول سهيل: على أن لا يأتيك منّا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا؛ وفي ذلك دلالة على أن النساء لم يدخلن في هذا الشرط[2] ومن هذه النصوص يتبين أن المسلمين كانوا أوفياء لشروطهم وأن مقاصدهم من كل ذلك إقامة العدل والحق والإنصاف فإن تحولت الشروط التي يتم الصلح عليها إلى وسائل للظلم وهضم حقوق الآخرين فإنه من الممكن إعادة النظر فيها لإقامة الحق ورفع الظلم، دون أن يبيح الإسلام ظلم المشركين أو انتقاص حقوقهم. قال تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟﴾ (الممتحنة: من الآية١٠) أي ردوا للمشركين حقوقهم التي أنفقوها على أزواجهم المؤمنات قبل أن يهاجرن، وبهذه النظرة الشمولية للأحداث يتبين إنصاف النظام الإسلامي للناس جميعاً بما فيهم المشركين المحاربين؛ إذ أن الحق أحق أن يتبع في قيم وأخلاق الحرب في عصر الرسالة.

تحبيب الصلح والحرص عليه

ومن أخلاق الحرب في عصر الرسالة، تحبيب الصلح ومقاصده إلى النفوس، وتغذية أسبابه وبيان وسائله، وتأصيل ثقافته بين المسلمين، ومن ذلك ما بوبه البخاري في الجامع الصحيح في كتاب الصلح، باب: كيف يكتب – وثيقة الصلح -: هذا ما صالح فلان بن فلان، وفلان بن فلان، وإن لم ينسبه إلى قبيلته أو نسبه[3] ومن

---

(١) البيهقي: سنن البيهقي، كتاب السير: باب نقض الصلح فيما لا يجوز وهو ترك رد النساء إن كن دخلن في الصلح، ح (١٨٦١٥).

(٢) سنن البيهقي، كتاب السير: باب نقض الصلح فيما لا يجوز وهو ترك رد النساء إن كن دخلن في الصلح، (١٨٦١٦).

(٣) البخاري: الجامع الصحيح ، كتاب الصلح، باب: إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود. (٦) ٩٥٩/٢.

وسائل تحبيب الصلح بين الناس، أن رسول الله ﷺ جعل ذلك باباً من أبواب الطاعة التي يتقرب فيها المؤمن إلى مولاه ﷻ فقال ﷺ: "كل سلامي من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس، يعدل بين الناس صدقة "[1] ومن الترغيب في الصلح والحث على خوض ميادينه ما توسمه النبي ﷺ في الحسن ﵁ حين صعد إليه وهو على منبره الشريف ﷺ فخاطب المسلمين وهو يشير إلى الحسن ﵁ فقال ﷺ: " إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين"[2] ومرّت الأيام وحصل ما حصل من فتن بعد وفاة النبي ﷺ مثل فتنة الردة وفتنة استشهاد الخليفة الراشدي عثمان ﵁ وما ترتب على ذلك من أحداث، فكان من ثمار ثقافة حب الصلح والإصلاح التي استقاها المسلمون في عصر الرسول ﷺ، أن قطفت الأمة جميعاً أينع ثمارها فيما أقدم عليه الحسن ﵁ بعد استشهاد أمير المؤمنين علي ﵁ من تنازل عن حظه في الخلافة مقابل الإصلاح بين المسلمين، والعمل على توحيد صفهم وصيانة وحدتهم وحقن دمائهم، فكان في موقفه ذلك درس عميق لكل من يتصدى لقيادة المسلمين ويعمل على توجيه ثقاتهم، بأن الأمة أولاً والصلح خير.

قال الحسن البصري: استقبل والله الحسن بن علي معاوية رضي الله عنهم بكتائب أمثال الجبال، فقال عمرو بن العاص ﵁: إني لأرى كتائب لا تولي حتى تقتل أقرانها، فقال له معاوية ﵁: وكان والله خير الرجلين، أي عمرو، إن قتل هؤلاء هؤلاء، وهؤلاء هؤلاء، من لي بأمور الناس؟! من لي بنسائهم؟! من لي بضيعتهم؟! فبعث إليه رجلين من قريش، من بني عبد شمس، عبد الرحمن بن سمرة وعبد الله بن عامر بن كريز، فقال: اذهبا إلى هذا الرجل، فاعرضا عليه،

---

(١) البخاري: الجامع الصحيح ، كتاب الصلح، باب: فضل الإصلاح بين الناس والعدل بينهم، ح (٢٥٦٠)

(٢) البخاري: الجامع الصحيح ، كتاب الصلح، باب قول النبي ﷺ للحسن بن علي رضي الله عنهما، (٢٥٥٧).

وقولا له، واطلبا إليه. فأتياه فدخلا عليه، فتكلما وقالا له، فطلبا إليه، فقال لهما الحسن بن علي رضي الله عنهما: إنا بنو عبد المطلب، قد أصبنا من هذا المال، وإن هذه الأمة قد عاثت في دمائها. قالا: فإنه يعرض عليك كذا وكذا، ويطلب إليك ويسألك، قال: فمن لي بهذا؟ قالا: نحن لك به، فما سألهما شيئاً إلا قالا: نحن لك به، فصالحه. فقال الحسن: ولقد سمعت أبا بكرة ﷺ يقول: رأيت رسول الله ﷺ على المنبر، والحسن بن علي إلى جنبه، وهو يقبل على الناس مرة وعليه أخرى، ويقول ﷺ: " إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين "[1] فكان كما قال ﷺ فجنت الأمة أطيب ثمار الصلح حيث انتهت الحروب والفتن الداخلية التي كانت مشتعلة في داخلها بعد ذلك الصلح، وكأنما كانت تلك الحروب جمرة فانطفأت، واستعادت الأمة عافيتها ووحدة صفها وبناء قوتها على الصعد كافة، وعادت إلى ممارسة دورها الريادي في نشر السلام والأمن الذي ترعاه شريعة الله التي تعترف بحقوق الجميع وتحميها، لا فرق فيها بين عربي وعجمي إلا بالتقوى.

الصلح مع المشركين في أخلاق عصر الرسالة

كما حرص الإسلام على تأصيل مفاهيم الصلح وسمو قيمه في بناء هوية الأمة، وتثبيت قواعد بنيانها على المودة والطاعة وحب الجماعة، كذلك أصّلت هذه المقاصد النبيلة مع من يخالفها في الدين والعقيدة حتى لو كان من ألد أعدائها كما اتضح ذلك في مواقف رسول الله يوم الحديبية وسعيه الحثيث للوصول إلى روح الصلح مع من هم أقل من المسلمين قوة وتنظيماً آنذاك، وعلى الرغم من مواقف أصحابه الذين لم يكونوا راغبين بالتنازل للمشركين عن أي بند يزيد في قوتهم أو يطيل من عمر بغيهم وشركهم، ولكن بصيرة النبوة كانت تنظر إلى الأحداث

---

(١) البخاري: كتاب الصلح، باب: قول النبي ﷺ للحسن: (ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين) ح (٢٥٥٧).

وتستشرف مستقبل الأمة بغير ما ينظر إليه الآخرون، فتمسّك النبي ﷺ بخيار الصلح في ذلك اليوم العصيب بعد أن دفع له ﷺ ثمناً مؤلماً؛ تمثل بعضه في خيبة أمل أصحابه آنذاك لحرمانهم من أداء العمرة وإرغام ذلك العدو الذي طالما أوقع بالمؤمنين ووقف يصدهم عن منهج الله ورسوله ﷺ ولكن من تجاوز ذلك الألم تبين له أن الخير كان في الصلح وفيما اختاره رسول الله ﷺ وقد تبين ذلك فيما بعد، حين اتهم الجميع نظرهم ورأيهم الذي كان لا يرغب في مهادنة المشركين، وذلك لِما رأوا من بركات الصلح وثمار العافية على الأمة والعقيدة، ولا سيّما بعد أن نعت القرآن الكريم ذلك الصلح بالفتح وسماه **فتحاً مبيناً**، فأصبح ذلك الموقف درساً عميقاً للمسلمين يستقون منه العبر في بيان أهمية الصلح وواجب الحرص عليه، وقد استشهد المسلمون بالموقف من صلح الحديبية يوم صفين يظهرون به صواب من قدم الصلح على الحرب ويردون به أباطيل دعاة الفتنة يوم صفين. قال أبو وائل شقيق بن سلمة: قام سهل بن حُنيف يوم صفين فقال: " أيها الناس! اتهموا أنفسكم. لقد كنّا مع رسول الله ﷺ يوم الحديبية. ولو نرى قتالاً لقاتلنا. وذلك في الصلح الذي كان بين رسول الله ﷺ وبين المشركين. فجاء عمر ابن الخطاب ﷺ. فأتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! ألسنا على حق وهم على باطل؟ قال: (بلى) قال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال (بلى) قال: ففيم نعطي الدنية في ديننا، ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم؟ فقال "يا ابن الخطاب! إني رسول الله. ولن يضيعني الله أبداً" قال: فانطلق عمر فلم يصبر متغيظا. فأتى أبا بكر ﷺ فقال: يا أبا بكر! ألسنا على حق وهم على باطل؟! قال: بلى. قال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: بلى. قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا، ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم؟ فقال: يا ابن الخطاب! إنه رسول الله ولن يضيعه الله أبداً. قال: فنزل القرآن على رسول الله ﷺ بالفتح. فأرسل إلى عمر فأقرأه إياه. فقال: يا رسول الله! **أو فتح هو؟! قال (نعم)** فطابت نفسه ورجع ﷺ"[1]

(١) مسلم: صحيح مسلم، كتاب، الجهاد والسير باب صلح الحديبية في الحديبية، ح (١٧٨٥).

فقد سمّى القرآن الكريم ذلك الصلح فتحاً على الرغم من عدم رضا عامة الصحابة على كثير من بنوده التي كان المشركون ينتقصون بها من النبي ﷺ ومن حقوق أصحابه ولكن النبي ﷺ تجاوز كل ذلك وأكد خيار الصلح على جميع الخيارات المتاحة أمامه ﷺ مما يؤكد ثوابت حب المسلمين للسلم والتواصل مع الآخرين، ولولا ذلك الحب وإيمان المسلمين بأن نتائج الصلح والسلام خير من نتائج الحرب والدمار لما تحملوا عتو المشركين وبغيهم واستفزازهم الشديد في ذلك اليوم. ومما يؤكد خيار الصلح على ما سواه في أخلاق الحرب في عصر الرسالة النصوص الآتية:

ـ قول النبي ﷺ موجهاً خطابه لقريش: " **والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها** "[1] وكان ﷺ يؤكد ذلك وقريش تجمع قوى الشرك وتنمي وسائل المواجهة بأقصى درجات الاستفزاز، وكل ذلك يبين أخلاق السلم في السيرة النبوية عند المسلمين، ومواقف تخريب الأمن وتغذية الحرب في سياسة المشركين التي لا زالت تنتهجها الكثير من القوى التي أسقطت من حساباتها الله والدار الآخرة، ولا زالت تمارس العدوان ضد بلاد المسلمين وعقيدتهم.

ـ وقوله ﷺ لبديل بن ورقاء الخزاعي: " **إنا لم نجيء لقتال أحد لكنّا جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم فإن شاؤوا مادتهم مدة ويخلّوا بيني وبين الناس؛ فإن أظهر فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جمّوا، وإن أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي أو لينفذن الله أمره** "[2].

ـ و " لمّا صالح رسول الله ﷺ أهل الحديبية، كتب علي ﷺ بينهم كتاباً، فكتب: محمد رسول ﷺ فقال المشركون: لا تكتب محمد رسول الله، لو كنت رسولاً لم

---

(١) البيهقي: سنن البيهقي، كتاب السير: باب المهادنة على النظر للمسلمين، ح (١٨٥٨٧)

(٢) البيهقي: سنن البيهقي، كتاب السير: باب المهادنة على النظر للمسلمين، ح (١٨٥٨٧)

نقاتلك، فقال ﷺ لعلي: "امحه". فقال علي ﷺ: ما أنا بالذي أمحاه، فمحاه رسول الله ﷺ بيده، وصالحهم على أن يدخل هو وأصحابه ثلاثة أيام، ولا يدخلوها إلا بجلبان السلاح، فسألوه ما جلبان السلاح؟ فقال: القراب بما فيه"[1].

ـ وقبل ﷺ الصلح من "أهل مكة على أن يدخلها فيقيم بها ثلاثاً. ولا يدخلها إلا بجلبان السلاح. السيف وقرابه. ولا يخرج بأحد معه من أهلها. ولا يمنع أحداً يمكث بها ممن كان معه وكتب ابن عبد الله - بدلاً من رسول الله - فأقام بها ثلاثة أيام. فلما أن كان يوم الثالث قالوا لعلي ﷺ: هذا آخر يوم من شرط صاحبك. فأمره فليخرج. فأخبره بذلك. فقال "نعم" فخرج ﷺ[2] وفاء وانضباطاً.

ـ وقول النبي ﷺ يوم الحديبية: " أنا رسول الله، وأنا محمد بن عبد الله" ثم قال ﷺ لعلي ﷺ: "امح: رسول الله". قال: لا والله لا أمحوك أبداً، فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب، فكتب: " هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله، لا يدخل مكة سلاح إلا في القراب، وأن لا يخرج من أهلها بأحد إن أراد أن يتبعه، وأن لا يمنع أحداً من أصحابه أراد أن يقيم بها "[3] فيظهر من هذه النصوص أن النبي ﷺ صالح المشركين يوم الحديبية على ثلاثة أشياء تصب في مصلحتهم؛ كما هو ظاهر في بنودها التي تنص على أنّ: " من أتاه ﷺ من المشركين مسلماً رده إليهم، ومن أتاهم من المسلمين لم يردوه، وعلى أن يدخلها ﷺ من قابل، ويقيم فيها ثلاثة أيام، ولا يدخلها ﷺ إلا بجلبان السلاح: السيف والقوس ونحوه. فجاء أبو جندل يحجل في قيوده، فرده إليهم"[4] ولعل ثبات المسلمين على الصلح يوم الحديبية على الرغم مما قام به سفير

---

(١) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الصلح، باب: إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود. ح (٢٥٥١/ ٢٥٥٢)

(٢) مسلم: صحيح مسلم، كتاب، الجهاد والسير باب صلح الحديبية في الحديبية، ح (١٧٨٣).

(٣) البخاري: كتاب الصلح، باب: إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود. ح (٢٥٥٢) البخاري: صحيح البخاري، كتاب الصلح، باب: الصلح مع المشركين ح (٢٥٥٤).

(٤) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب: الصلح مع المشركين. ح (٢٥٥٣)

قريش سهيل بن عمرو من إسقاط للشيم التي كان يتخلق بها الكثير من أهل الجاهلية، ومن استفزاز وخروج عن اللياقة وتحد سافر لمعاني الأخوة التي تربط بين المسلمين، وخدش لمشاعر الوفاء وأخلاق الفروسية التي تتشبع بها قيمهم، وعنفوان الإيمان واستعداد أهله للتضحية في سبيله، فضلاً عن صلف تعامله مع رسول الله ﷺ الذي كان يتعامل معه بمنتهى اللطف والرفق؛ وما في ذلك من خطورة على حياة ذلك السفير الذي يبدو أنه استغل حلم النبي ﷺ ومعرفته بطاعة المسلمين له ﷺ تلك القيم الإسلامية التي جعلته يتمادى بتصرفاته إلى حد الانتهازية والابتزاز واستغلال المفاوضات لتسجيل موقف قوة للمشركين حتى لو كان إعلامياً وعلى حساب المسلمين، وإلا فإن سهيل لم يكن أحمقاً ليقوم بمثل تلك الأعمال فيقابل صبر النبي ﷺ وأدبه الجم بتلك السفاهة والتجرد من الحياء والشهامة، ولا أدلّ على أنه من حكماء المشركين من قول النبي ﷺ لأصحابه لما رآه: "قد سهل لكم أمركم"[1] فذلك يؤكد أن المسلمين سجّلوا بقيادة رسول الله ﷺ أعلى درجات التحكم بالمشاعر والنظام والانضباط الذي يستعلي على الجراح والرغبات وحب النصر؛ خدمة للسلام والأمن والوحدة، وإسهاماً في بث روح الجماعة وبناء جسور المودة وإزالة أسباب العداوة بين الناس، كل ذلك عمل به الصحابة وتحملوا آثاره النفسية ونتائجه الإعلامية، تأصيلاً لقيم الرحمة والإنسانية، بما لم تصل إليه قيم حضارة أخرى، وهم على أتم حالات الاستعداد لمواجهة قريش وهزيمتها عسكرياً، لكن رسول الله ﷺ استطاع أن يهزمهم أخلاقياً وحضارياً فيثبت زيف كثير من أخلاق الجاهلية وطيشها وهشاشة الالتزام بها، ويظهر أصالة قيم الحرب في السيرة النبوية وصدق توجهاتها وشدة حرصها على الصلح والسلام.

المسلمون يُسمّون الصلح مع المشركين أعظم الفتح.

لم تكن تضحيات المسلمين التي قاموا بها يوم الحديبية إعلامية أو تهدف إلى

(١) البيهقي: سنن البيهقي، كتاب السير: باب المهادنة على النظر للمسلمين، ح (١٨٥٨٧)

غير نشر السلام والأمن، بل هي قيم أصيلة ثابتة في منهاج المسلم في عصر الرسالة، اتضح ذلك في إزالة رسول الله ﷺ لكل لبس وقع في نفوس أصحابه ﷺ وذلك في ردوده على التساؤلات التي أثيرت حول بنود الصلح ونتائجه المباشرة، وهم في طريق العودة إلى المدينة، فلما قفل رسول الله ﷺ راجعاً قال رجال من أصحابه ﷺ:

- ما هذا بفتح، لقد صددنا عن البيت وصُدّ هدينا!.

- وردّ رسول الله ﷺ رجلين من المؤمنين كانا خرجا إليه - إشارة إلى أبي جندل وأبي بصير- فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: " بئس الكلام، **بل هو أعظم الفتح**:

- قد رضي المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم.

- ويسألوكم القضية، ويرغبون إليكم في الأمان.

- ولقد رأوا منكم ما كرهوا.

- وأظفركم الله تعالى عليهم وردكم سالمين مأجورين فهو " **أعظم الفتح** ".

- أنسيتم يوم أحد؟ إذ تُصعدون ولا تلوون على أحد، وأنا أدعوكم في أخراكم!.

- أنسيتم يوم الأحزاب ؟﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ (الأحزاب:١٠).

- فقال المسلمون: صدق الله ورسوله، **فهو أعظم الفتوح** !.

- والله يا نبي الله ما فكرنا فيما فكرت فيه، ولأنت أعلم بالله وبالأمور منا[1]

وقد جاء القرآن الكريم يؤيد كل ما قاله ﷺ ويقرّه ويبشر النبي ﷺ والمؤمنين بالفتح المبين. فأنزل الله سورة الفتح " نزلت في الحديبية وأصاب ﷺ في تلك الغزوة ما لم

---

(١) الصالحي: سبل الهدى والرشاد، ٥/ ٥٩. البيهقي: دلائل النبوة، جماع أبواب عمرة الحديبية، ٤/ ١٦٠.

يصب في غزوة، أصاب أن بويع بيعة الرضوان فتح الحديبية وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وبايعوا بيعة الرضوان وأُطعموا نخيل خيبر وبلغ الهدي محله، وظهرت الروم على فارس وفرح المؤمنون بتصديق كتاب الله وظهور أهل الكتاب على المجوس ... فلما أمن الناس وتفاوضوا لم يكلم أحد بالإسلام إلا دخل فيه، فلقد دخل في تلك السنين في الإسلام أكثر مما كان فيه قبل ذلك، **فكان صلح الحديبية فتحا عظيماً**[(١)] بكل نتائجه وثماره، وعاد بالخير والسلم على المسلمين والمشركين.

ـ قال أنس: لما رجعنا من "الحديبية" قال ﷺ "أنزلت عليّ ضحى آية **هي أحب إليّ من الدنيا جميعاً** ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ (الفتح: ١) وقوله تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (الفتح: ٥) "[(٢)].

ـ وقال البراء ﷺ: " **تعدون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحاً، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية** "[(٣)] فأصبح في مفاهيم المسلمين الصلح الذي يحقق الأمن ويحفظ الحقوق ويزيل الظلم ويفتح أبواب حرية الدعوة؛ فتحاً مبيناً ونصراً مؤزراً، وهذا فهم أصيل في الثقافة الإسلامية حرمت منه الكثير من ثقافات الأمم والحضارات، مما أسهم في نشر الحروب والدمار والظلم في كثير من أرجاء المعمورة، وما الحربين العالميتين الأولى ولثانية بين أهل الغرب وما رافق أحداثهما من مآسي ودمار وقتل إلا مصداق على ذلك، وهذا يوجب على أجيال هذه الأمة إحياء قيم حب الصلح والعمل بأخلاقيته، خدمة للعقيدة الإسلامية

---

(١) السيوطي: الدر المنثور، تفسير سورة الفتح الآية (٢) ٧/ ٥٠٩.

(٢) البخاري بشرح فتح الباري: كتاب: المغازي، باب، غزوة الحديبية، ح (٤١٧٢) المستدرك، تفسير سورة الفتح، ح (٣٧١٣).

(٣) البخاري بشرح فتح الباري: كتاب المغازي، باب، باب غزوة الحديبية، ح (٤١٥٠).

ورحمة بالإنسانية، التي أصبحت تهددها أخطار النزاعات وبؤر الفتن وتطور الأسلحة ووسائل القتل والدمار التي يرعاها أصحاب الأهواء والأطماع في هذا العصر.

ومن أسباب عدم ارتياح الصحابة للصلح يوم الحديبية

إن من أهم ما أثار المسلمين يوم الحديبية هو شعورهم بأنهم لم يحصلوا على كامل حقوقهم في ذلك الصلح، وكذلك منهجية سفير قريش الاستفزازية، ومنها قول سهيل للنبي ﷺ: **على أن لا يأتيك منّا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا** فقال المسلمون سبحان الله كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟ فبينا هم كذلك إذ جاء أبو جندل بن سهيل ابن عمرو يرسف في قيوده قد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين ظهور المسلمين، فقام إليه المسلمون يرحبون به ويهنئونه، فلما رآه أبوه سهيل بن عمرو سفير المشركين يوم الحديبية:

- قام إليه فضرب وجهه بغصن شوك وأخذ بتلابيبه. ثم قال:"يا محمد هذا أول ما أقاضيك عليه أن ترده

ـ فقال رسول الله ﷺ " إنّا لم نقض الكتاب بعد" قال فوالله إذاً لا أصالحك على شيء أبداً.

ـ قال ﷺ " **فأجزه لي** " قال: ما أنا **بمجيزه لك**. قال: " بلى فافعل ". قال: ما أنا بفاعل...

ـ فقال أبو جندل يا معشر المسلمين أُردّ إلى المشركين وقد جئت مسلماً ألا ترون ما لقيت وكان قد عذب في الله عذاباً شديداً، فرفع رسول الله ﷺ صوته وقال: يا أبا جندل، اصبر واحتسب فان الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا قد عقدنا مع القوم صلحاً وأعطيناهم وأعطونا على ذلك عهداً " **وإنّا لا نغدر** " ومشى عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى جنب أبي جندل، وقال له: اصبر واحتسب فإنما هم المشركون وإنما دم أحدهم دم كلب، وجعل عمر يدني قائم

السيف منه. قال عمر: رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه. قال فضنّ الرجل بأبيه[1] ولعلّ في تصرف عمر ﷺ ما يعتقده البعض خارج عن إطار الانضباط القائم بين المسلمين وشدة حبهم للنظام والطاعة المطلقة لرسول الله ﷺ ولكن ما فعله عمر ﷺ كان محاولة لإنقاذ أخيه المؤمن من جور الكافرين وفتنتهم، ولولا التمسك بالطاعة وشروط الصلح لكان بإمكان عمر ﷺ أو غيره من الصحابة ﷺ أن يُسكت ذلك المشرك المتعجرف آنذاك، فاتضح أن عمر ﷺ على الرغم مما كان فيه من الألم على ما فات المسلمين من إرغام المشركين بموقف يرد بغيهم، كان متمسكاً بحرفية تنفيذ كل ما يشير إليه رسول الله ﷺ بل إن أبا جندل ﷺ كان هو الآخر متمسكاً بكل ما يقرّه النبي ﷺ على الرغم مما كان فيه من العذاب والفتنة التي يتعرض لها لرده عن دينه، فيستخلص من ذلك أن الصحابة ﷺ كانوا يمثلون أمة الحضارة والنظام وضبط المشاعر والتمسك بالشرع بكل تفاصيله وأشدها دقة وفي كل أحوالهم ﷺ وما موقفهم المنضبط أمام ما فعله سفير المشركين بأخيهم المسلم، وبكل غلظة تنبي عن بعد أهل الجاهلية وفي كل العصور عن حب الصلح المجرد؛ مالم يكن في ذلك مصالحهم المقرونة بالسمعة والرياء.

- وكانت مدة الهدنة بين النبي ﷺ وبين المشركين عشر سنين[2].

والناظر المتمعن في موقف سفير المشركين سهيل بن عمرو وما قام به من أفعال استفزازية خطيرة خارجة عن لياقة السفراء وكياسة الوجهاء، ولا سيّما ضربه لأبي جندل أمام المسلمين في ساعة كانت المشاعر فيها متوجسة ملتهبة متوثبة، لو حصل مثل ذلك عند غير المسلمين لما استطاع سهيل أن يقوم بشيء من

---

(١) ابن حنبل: المسند، حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم، ح (١٨٩٣٠) الصالحي: سبل الهدى، ٥/٥٦. ينظر: البخاري بشرح فتح الباري: كتاب: المغازي، باب، غزوة الحديبية، ح (٤١٨١).

(٢) البيهقي: سنن البيهقي، كتاب السير: باب ما جاء في مدة الهدنة، ح (١٨٥٨٩)

هذا الصلف الجاهلي، الذي إن رأى القوة وعومل بالشدة، انضبطت مواقفه وأفعاله وإن رأى الحلم والصبر انتهز ذلك للتبجح والتعالي والكِبر، وقد ظهر ذلك في رده غير اللائق على رجاء رسول الله ﷺ في أن يهب له أبا جندل، ولا سيّما أن الصلح لم يتم، ولعل قراءة ذلك الموقف كافية لإظهار لياقة الأخلاق التفاوضية وشدة التمسك بالحوار والوقوف عند حدود ما يسمى في هذا العصر بالأعراف الدبلوماسية في أخلاق الحرب في عصر الرسالة؛ فكل ذلك الانضباط والنظام الذي عمل به المسلمون يوم الحديبية، جاء وهم في أشد حالات الحماس والاستعداد لمواجهة ظلم المشركين، ولم يمنعهم من ذلك سوى الحرص التام على إنفاذ الصلح وتحقيق السلم وتهيئة الأجواء لتأمين حرية الدعوة ونشر الإسلام سلمياً؛ إذ أن السلم وحرية الدعوة هما الغاية في أهداف الحرب في عصر الرسالة.

وقد تحدث أبو بكر الصديق ﷺ فيما بعد عن هذا الفتح العظيم الذي تم في الحديبية. فقال ﷺ: ما كان فتح أعظم في الإسلام من فتح الحديبية ولكن الناس يومئذ قصر رأيهم عما كان بين محمد ﷺ وربه، والعباد يعجلون، والله لا يعجل كعجلة العباد حتى يبلغ الأمور ما أراد، لقد نظرت إلى سهيل بن عمرو في حجة الوداع قائماً عند المنحر يقرب إلى رسول الله بدنة، ورسول الله ﷺ ينحرها بيده ودعا الحلاق فحلق رأسه ﷺ وأنظر إلى سهيل يلتقط من شعره ﷺ وأراه يضعه على عينه وأذكر إباءه أن يقر يوم الحديبية بأن يكتب: "بسم الله الرحمن الرحيم" ويأبى أن يكتب: محمد رسول الله فحمدت الله أن هداه للإسلام[1] فسبحان مغير الأحوال ومديل الدول ومزيل الأمم والحضارات وناصر المستضعفين.

ولعل في موقف المسلمين من الصلح يوم الحديبية وحرص النبي ﷺ عليه وإقرار القرآن لذلك وتنويهه به، وتعاليهم على مشاعرهم وآمالهم وعواطفهم، وحلمهم وتجاوزهم عن جلافة المشركين وصلفهم المتمثل بمنطق سفيرهم سهيل بن

---

(١) الصالحي: سبل الهدى والرشاد، ٥/ ٦٤.

عمرو والد أبي جندل، يبين أن من ثوابت هذه الأمة النابعة من عقيدتها حبّ الصلح والسلم والاستعداد لدفع الثمن الموصل إلى الصلح الذي يجلب الأمن ويمهد للوحدة ويحقن الدماء ويحمي حقوق الأمة، وفي ذلك الموقف الحليم الرفيق الرحيم يتجسد الرد الملجم لكل مغرض يعمل على تشويه القيم الحضارية السامية للأمة المسلمة، ويعمل على رمي منابعها الفكرية والثقافية بالتزمت أو العنف؛ كما يمارسه الآخرون في عدوانهم على هذه الأمة وعقيدتها، فلو بحث الباحثون في أدبيات الشعوب وثوابتها لما وجدوا أمة تترسخ في ثقافتها وعقيدتها قيم الصلح والرحمة ونبذ العنف والتطرف كما هو مترسخ في ثقافة الأمة الإسلامية وعقيدتها السمحة الغراء، التي طبقت كل ذلك عملياً في مواقفها في عصر الرسول ﷺ وإذا كانت ثقافة الصلح والسلم المنبثقة من العقيدة الإسلامية تشمل جميع القوى الخارجية بما فيها الأعداء المحاربين، فإن تأصيل هذه القيم داخل الصف الإسلامي من باب أولى وبما يشمل حقوق الجوار والعلاقات الأسرية والاجتماعية والديات والديون وغير ذلك داخل المجتمع الإسلامي الذي يؤسس قيمه على هدي الكتاب والسنّة وتمتين قيم التواصل والتصافي ونبذ أسباب الخلاف والفتن.

من ثمار الصلح الفرج والمخرج للمستضعفين

لما كان الخلاف لا يأتي إلا بالشر؛ كان الصلح كله خير فمن ثماره العامة المباشرة أنه يدرأ الفتن ويحقن الدماء ويقارب القلوب ويدني الوحدة، وينزع عوامل التناحر والتمزق، وينمي دوافع المودة والألفة، ويحول أمام انتشار ثقافة البغض والكراهية التي تهدد أمن واستقرار المجتمع.

وعلى الرغم من أن سفير قريش حقق كثيراً مما يريده حين استعلى بصلفه وامتنع عن تلبية رغبة رسول الله ﷺ الصادقة في الإفراج عن أبي جندل وابتداء الصلح بمواقف العفو والمسامحة، ولكن كِبر الجاهلية قاده إلى الاعتقاد بأنه قادر على فرض كل ما يريده على المسلمين، متناسياً أن كل ما كان يقوم به لا يعدو فقاعات

تخدم التوجه الإعلامي الذي كانت ترسل به قريش إلى القبائل العربية لكي لا تزول هيبتها بين تلك القبائل، بينما اتضح أن النبي ﷺ كان يستشرف ثمار ما يقوم به وأن مجرد قبول قريش التفاوض مع المسلمين يُعد نصراً، ولا سيّما أن المشركين طالما أعلنوا أنهم لا يعترفون بالمسلمين وأن محمد ﷺ وأصحابه ﷺ لا يزيدون عن جماعة من الصابئة الخارجين عن قيم الشرك ومعتقداته، وكان موقف سهيل بن عمرو حين رفض كتابة رسول الله أو الرحمن الرحيم في وثيقة الصلح، دليل ظاهر على تلك العقلية الجاهلية المتحجرة التي لا تعترف بحقوق الآخرين.

وبعد أن أحرج أبو جندل ﷺ إخوانه المؤمنين وآلمهم الحال الذي شاهدوه فيها، وأصيب هو فيما حصل له من أبيه المشرك، سرعان ما تحقق ما تنبأ به النبي ﷺ حين خاطبه في تلك المحنة: بأن الله جاعل لك ولمن معك فرجاً ومخرجا. فجاء إلى النبي ﷺ أبو بصير وهو رجل مسلم من قريش، فأرسلوا في طلبه رجلين. وقالوا: العهد الذي جعلت لنا؛ فدفعه ﷺ إلى الرجلين، فخرجا حتى بلغا به ذا الحليفة[١] فتمكن أبو بصير من قتل أحدهما، وفرّ الآخر حتى أتى المدينة فدخل المسجد يعدو فقال رسول الله ﷺ لقد رأى هذا ذعراً فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال قتل والله صاحبي وإني لمقتول، فجاء أبو بصير ﷺ فقال: يا نبي الله قد والله أوفى الله ذمتك قد رددتني إليهم ثم أنجاني الله منهم. فقال النبي ﷺ: "ويل أمّه لو كان معه أحد" فلما سمع بذلك عرف أنه سيرده إليهم مرة أخرى، فخرج حتى أتى سِيف البحر، ثم تفلت أبو جندل بن سهيل بن عمرو من المشركين فلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل أسلم إلا لحق بأبي بصير حتى اجتمعت منهم جماعة. لا يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها فقتلوهم وأخذوا أموالهم فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده الله والرحم لما أرسل إليهم ممن أتاه فهو آمن فأرسل النبي ﷺ إليهم[٢] يأذن لهم بالعودة إلى المدينة.

---

(١) قرية بينها وبين المدينة ستة أميال أوسبعة، عندها ميقات أهل الميدسنة، وهي موضع في تهامة أيضا. ياقوت: معجم البلدان، ٣/ ١٧٧.

(٢) ابن حبان، صحيح ابن حبان: كتاب السير، باب الهجرة، ح (٤٨٧٢)

فتبين من هذا أن دوافع الصلح في عقيدة المسلمين أقوى من دوافع الحرب، وأنهم كانوا يحققون بالسلم مثلما يحققون في الحرب ولم يُدعَ المسلمون إلى صلح إلا أجابوا إليه ما لم يكن مخالف لعقيدتهم، وتبين في موقف أبي بصير أنّ المسلم عليه أن يتفكر ويعمل على تحليل الأحداث والاستفادة من تغير الظروف والسياسات وتحول المصالح والمواقف؛ وتسخير ذلك لما يخدم أمته ويحمي عقيدته وهذا ما فعله أبو بصير وأبو جندل ومن معهم ﷺ حتى تحول موقفهم من مجموعة من المطاردين إلى جماعة ترعب سطوتهم قريش وحلفاءها المشركين؛ الذين اضطروا في النهاية إلى الاستغاثة برسول الله ﷺ لحماية تجارتهم ممن كانوا هم السبب في تشردهم، وهذا يؤكد أن المشركين لم يكونوا يتفكرون في أسباب عداوتهم للإسلام، ولو تفكروا لما وجدوا لذلك سبباً، وكذلك في إصرارهم على فرض بعض بنود الصلح جعلهم يقفون في النهاية عاجزين يطلبون النجدة ممن كانوا يواجهونه بكل صلفهم وجبروتهم، بينما واجههم رسول الله بسماحة الإسلام وعفوه وتحقيق ما طلبوه، وقبول أبي بصير ﷺ وإخوانه الذين كانوا معه ﷺ فاتضح البون الشاسع بين أخلاق الحرب عند المسلمين وأخلاقياتها عند المشركين.

قيم الصلح بين المسلمين في عصر الرسالة

مفاهيم الإصلاح بين المسلمين مستمدة من كتاب الله في قوله تعالى: ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ﴾ (النساء: من الآية١٢٨) وقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ﴾ (لأنفال: من الآية١) ومن أحاديث رسول الله ﷺ في مثل قوله ﷺ: "الصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحلّ حراماً أو حرم حلالاً "[1] وقوله ﷺ: "ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والقيام قالوا بلى يا رسول الله قال: إصلاح ذات البين"[2] ومن ذلك إصلاح النبي ﷺ ما وقع من إشكال بين بعض أصحابه من أهل

(١) ابن حبان، صحيح ابن حبان: كتاب الصلح، الخبر عن جواز الصلح بين المسلمين، ح (٥٠٩١)

(٢) ابن حبان، صحيح ابن حبان: ابن حبان كتاب الصلح،الإخبار عن لزوم إصلاح ذات البين، ح (٥٠٩٢).

بيته ﷺ حين خرج ﷺ من مكة بعد عمرة الحديبية، فتبعتهم ابنة حمزة ﷺ تنادي: يا عم يا عم، فتناولها علي ﷺ فأخذها بيدها، وقال لفاطمة رضي الله عنها: دونك ابنة عمك احمليها، فاختصم فيها علي وزيد وجعفر، فقال علي ﷺ: أنا أحق بها، وهي ابنة عمي، وقال جعفر ﷺ: ابنة عمّي وخالتها تحتي، وقال زيد ﷺ: ابنة أخي، فقضى بها النبي ﷺ لخالتها. وقال ﷺ: " الخالة بمنزلة الأم " وقال لعلي ﷺ: "أنت مني وأنا منك" وقال لجعفر ﷺ: " أشبهت خَلقي وخُلقي " وقال ﷺ لزيد بن حارثة ﷺ: "أنت أخونا ومولانا"[1] فحكم النبي ﷺ بالحق دون أية محاباة، وفي الوقت ذاته أرضى ﷺ الجميع وأزال ما في قلوبهم من لبس، في مسألة عائلية دقيقة متقاربة المداخل والمخارج يكاد من يسمع حجج أطرافها أن لا يميز بين تلك الحجج حتى أظهر النبي ﷺ تلك المنزلة والخصوصية للخالة، وذلك بأداء نبوي حبيب لبيب عجيب، يزرع في نفوس المؤمنين حب الصلح وصفاء الأخوة ودوام المودة.

ـ وفي الديات والحدود لا رخصة للإمام في التصرف بحقوق الآخرين، إلا إذا تنازل أصحاب الحق عن حقهم، وفي هذا الميدان فقد تبين أن ثقافة الصلح في السيرة النبوية قد بلغت مجالات واسعة حساسة وعميقة تؤكد على أصالة هذه الثقافة؛ وانتشارها بقوة بين أفراد المجتمع الإسلامي، ومن ذلك ما حصل لوالد حذيفة بن اليمان حُسيل الذي قُتل خطأ في معركة أُحد على أيدي المسلمين، فما كان من ولده حذيفة ﷺ إلا أن غفر ذلك الخطأ وتجاوز عن حقوقه فيه، وكان الْيَمَانُ واسمه حسيل بن جابر، ورفاعة بن وقش الأنصاري شيخين كبيرينِ قد رُفعا في الحصون مع النساء فقال أحدُهما لصاحبه: " لا أبا لك، ما نستبْقى من أنفسنا، فواللّه ما نحن إلا هامة اليوم أو غدًا، فما بقي من أجلنا قَدْرُ ظمأ دابّة، فلو أخذنا أسيافنا فلحقنا برسول اللّه ﷺ لعلّ اللّه يرزقنا الشّهادة. قال: فلحقا برسول اللّه ﷺ

---

(١) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الصلح، باب: إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود. ح (٢٥٥٢).

بأُحُد من النّهار، فأمّا رفاعة فقتله المشركون، وأمّا حُسَيْلُ بن جابر فالتقت عليه سيوف المسلمين وَهُمْ لا يَعْرِفُونَهُ حِينَ اخْتَلَطُوا؛ وَحُذَيْفَةُ يَقُولُ: أَبِي أَبِي، حَتّى قُتِلَ، فَقَالَ حُذَيْفَةُ: يَغْفِرُ اللّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرّاحِمِينَ، مَا صَنَعْتُمْ، فزادته عند رسول اللّه ﷺ خيراً، وأمر رسول اللّه ﷺ بديته أنْ تخرج، فتصدّق حذيفة بن اليمان بدمه على المسلمين"[1].

وقال أنس ﷺ: "إن الرُبيّع، وهي ابنة النضر، كسرت ثنية جارية، فطلبوا الأرش وطلبوا العفو فأبوا، فأتوا النبي ﷺ فأمرهم بالقصاص، فقال أنس ابن النضر ﷺ: أتكسر ثنية الرُبيّع يا رسول الله؟ لا والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنيتها، فقال ﷺ: " يا أنس، كتاب الله القصاص" فرضي القوم وعفوا، فقال النبي ﷺ: " إن من عباد الله، من لو أقسم على الله لأبره " فرضي القوم وقبلوا الأرش"[2] ولعلّ في إصرار القوم في البداية على القصاص ورفضهم العفو أو العوض كان في حال الغضب والانفعال، ثم رجوعهم إلى قبول العوض بما هو متعارف عليه من أرش آنذاك ورضاهم بذلك ما يؤكد أثر ثقافة التصالح والعفو وتقديمها على ثقافة القصاص.

وقال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: توفي أبي وعليه دين، فعرضت على غرمائه أن يأخذوا التمر بما عليه فأبوا، ولم يروا أن فيه وفاء، فأتيت النبي ﷺ فذكرت ذلك له، فقال: "إذا جددته فوضعته في المربد آذنت رسول ﷺ" فجاء ومعه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما فجلس عليه ودعا بالبركة، ثم قال ﷺ: "ادع غرمائك فأوفهم". فما تركت أحداً له على أبي دين إلا قضيته، وفضل ثلاثة عشر وسقاً، سبعة عجوة وستة لون، أو ستة عجوة وسبعة لون، فوافيت مع رسول الله ﷺ المغرب، فذكرت ذلك له فضحك، فقال ﷺ: " ائت أبا بكر وعمر فأخبرهما " فقالا:

---

(١) المستدرك، كتاب معرفة الصحابة، مناقب حذيفة (٥٦٢٣) الواقدي: المغازي، ١/ ١٧٣. الموطأ: أبواب الصلاة، باب الوضوء، (٢٢).

(٢) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الصلح، الصلح في الدية، ح (٢٥٥٦)

لقد علمنا إذ صنع رسول الله ﷺ ما صنع أن سيكون ذلك[1].

وروى كعب بن مالك: أنه تقاضى ابن أبي حدرد الأسلمي ديناً كان له عليه في عهد رسول الله ﷺ في المسجد، فارتفعت أصواتهما حتى سمعها رسول الله ﷺ وهو في بيت، فخرج رسول الله ﷺ إليهما، حتى كشف سجف حجرته، فنادى كعب بن مالك، فقال: يا كعب فقال: لبيك يا رسول الله، فأشار بيده: أن ضع الشطر، فقال كعب: قد فعلت يا رسول الله، فقال رسول الله: " قم فاقضه "[2] فانتهى ذلك الإشكال كما قال ﷺ بناء على تبني مفهوم التصالح الذي لا بد أن يكون فيه بعض التنازلات من الأطراف المعنية لتسوية الفوارق وردم الهوة التي تسبب الخلاف، وهذه الاستجابة السريعة من المتخاصمين وسرعة موافقتهم على ما أشار به النبي ﷺ تشهد على انتشار وعمق ثقافة الصلح في المجتمع الإسلامي، وحب المسلمين للسلم، واستعدادهم الدائم للإسهام في تثبيت عوامل الاستقرار وضوابط الأمن؛ ولو بالتنازل عن بعض مصالحهم الخاصة، وهذا ما هو ثابت ظاهر في صفحات وأخلاق الحرب في عصر الرسالة، ما تجاوز ذلك ثوابت العقيدة وحقوق العباد.

---

(١) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الصلح، باب: الصلح بين الغرماء وأصحاب الميراث والمجازفة في ذلك. ح (٢٥٦٢).

(٢) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الصلح، باب: الصلح بالدين والعين. ح (٢٥٦٣).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

المبحث الثالث

أهل الذمة والجزية في آداب الحرب

في عصر الرسالة

أخلاق وآداب الحرب في عصر الرسالة مع أهل الذمة

الذمة: هي العهد. والإل: القرابة[1] قال تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (التوبة:٨) هذه أخلاق أعداء الإسلام في حال انتصارهم على المسلمين، فهم لا يرعون عهداً ولا يحفظون قرابة، أما المسلمون فإذا انتصروا فإنهم مقيدون بضوابط شريعتهم التي تتربع على عرش القيم الإنسانية في تشريعاتها ووقائع أحداثها، ولا يجد المتابع لمضامين أخلاق وثقافة التعامل مع أهل الذمة، سوى كرم الأخلاق وعفاف النفس والرحمة والتكريم، وما في وصايا رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين من التحذير والتخويف من التطاول على أهل الذمة بأي وجه من الوجوه المؤدية إلى استلاب أي حق من حقوقهم، وما في تلك الوصايا من الإرشاد إلى العفو والتسامح معهم، وحماية أملاكهم وديارهم ومعابدهم وثمارهم وزروعهم والوفاء لهم، والقتال عنهم وحمايتهم، وحسن التعامل ولين القول لهم، وعيادتهم والرفق بهم، لا يمكن لمن يعلم كل هذه القيم النبيلة الكامنة في صفحات الثقافة الإسلامية إلا أن يأخذه الإعجاب والإكبار لما في الحضارة الإسلامية من المعاني الإنسانية وسمو المقاصد وعدالة الرؤية والإصرار على حفظ كرامة أبناء البشرية في كل أحوالهم، فضلاً عن سعة أفاق تلك القيم وقوة سلطانها إذ أن لأي

---

(١) ينظر البخاري: الجامع الصحيح، كتاب أبواب الجزية والموادعة، باب: الوصايا بأهل ذمة رسول الله ﷺ، ح (٢٩٩١).

مسلم أن يجير أو يمنح الأمان والذمة لمن استجار به أو هزم على يديه، ومن حقه على المسلمين عامة أن يحفظوا جواره ويصونوا ذمته حقاً لازماً لكل مسلم. قال ابن حزم: "إن من كان في الذمة وجاء أهل الحرب إلى بلادنا يقصدونه وجب علينا أن نخرج لقتالهم بالكراع والسلاح ونموت دون ذلك...فإن تسليمه إهمال لعقد الذمة وكل هذا من أنواع الجهاد بالدفاع الذي نعتقده ونؤمن بصحته"[1].

وهذه المعاني بهذا العمق والتمكن في أخلاق المسلمين، وفي الثقافة الإسلامية في الحرب والسلم؛ لا يمكن أن توجد في ثقافة أمة أخرى، إذ أن عامة ما ينسج من اتفاقيات لحفظ حقوق المستضعفين من الناس ولا سيما في هذا العصر، لا تكاد تتجاوز الجانب النظري، لاقترانها بمصالح من شرّعها ورؤيته للأحداث وفلسفة عقيدته في هذا الكون، ومن ثم تغير تلك الرؤية والفلسفة بتغير الأحداث والأنظمة السياسية والتفسيرات الاقتصادية وما إلى ذلك من عوائق تحول دون تنفيذ الكثير من تلك القوانين، أما في الشريعة الإسلامية فإن القوانين الإنسانية جزء من عقيدة المسلم وثقافته نابعة من فهمه ورؤيته وتفسيره للأحداث من حوله، ومصداق ذلك مفردات الوقائع في تاريخ الحرب في السيرة النبوية وما كان يتمتع به المغلوبون في بلاد المسلمين من حقوق وكرامة وحرية، وما نشاهده في هذا العصر من الذل والاستباحة والهوان للمغلوبين عسكرياً وسياسياً واقتصادياً، ومن خلال المقارنة بين ما يشاهده الناس في أخلاق الحروب المعاصرة، وبين أخلاق الحرب في عصر الرسالة؛ يتضح الفارق الكبير بين حروب الأنبياء الطاهرة وبين حروب التجار والغزاة والطامعين، ولعل هذه النصوص الصحيحة التي تتناول هذه الجزئية لأخلاق الحرب عند المسلمين تبين مصداق ما تقدم وتوضحه.

فمن آداب الحرب في التعامل مع أهل الذمة، إنهاء الحرب بعقد معاهدة سلم دائمة على أساس عقد الذمة، لأن غاية القتال في الإسلام الوصول إلى قبول المعاهدة مع المسلمين وإعلان الولاء وإنهاء حالة الحرب والاشتراك في مصالح

---

(١) ينظر آل محمود: الجهاد المشروع في الإسلام، ١٣٨. عن ابن حزم من مراتب الإجماع.

الدولة مع المسلمين مقابل حماية أنفسهم وأموالهم بعقد الذمة فقال سبحانه: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ (التوبة: من الآية٢٩) والمراد من إعطاء الجزية هو القبول والالتزام[١] أي إعلان الخضوع والانقياد والانضباط بقوانين دولة المسلمين، فإذا صالح القائد المسلم زعيم قوم أو إقليم فإنّ العهد المتفق عليه يكون لعامة أهل ذلك البلد؟ قال أبو حميد الساعدي ﷺ: " غزونا مع النبي ﷺ تبوك، وأهدى ملك أيلة[٢] للنبي ﷺ بغلة بيضاء، وكساه برداً، وكتب له ببحرهم"[٣] وقال ﷺ: " إنكم لعلكم تقاتلون قوما وتظهرون عليهم فيفادونكم بأموالهم دون أنفسهم وأبنائهم وتصالحونهم على صلح فلا تصيبوا منهم فوق ذلك فإنه لا يحل لكم "[٤] وذمة المسلمين واحدة، فإذا صدرت عن أي فرد من أفراد المسلمين أميراً كان أم جندياً فإن ذمته محفوظة يلزم جميع المسلمين تنفيذها وحمايتها، وهذا من خصوصيات أخلاق الحرب في عصر الرسالة وسعي النبي ﷺ الدائم لتوسيع دائرة السلم والأمن. قال ﷺ: " المدينة حرم ما بين عير إلى كذا، فمن أحدث فيها حدثاً أو آوى فيها محدثاً، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يُقبل منه صرف ولا عدل، ومن تولى غير مواليه فعليه مثل ذلك، وذمة المسلمين واحدة، فمن أخفر

---

(١) ينظر الزحيلي: آثار الحرب في الفقه الإسلامي، ٦٦٨، وهامش (١) في الصفحة المذكورة. وعن تفسير قوله تعالى: ﴿ عن يد وهم صاغرون ﴾ ينظر ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، التوبة، تفسير الآية (٢٩) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ٤/ ٣٤٣. التوبة الآية (٢٩)

(٢) أيلة: على ساحل البحر الأحمر على طريق الحاج الذاهب من مصر إلى مكة. البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الأنبياء، باب (٣٧).

(٣) البخاري، كتاب أبواب الجزية والموادعة، باب: إذا وادع الإمام ملك القرية، هل يكون ذلك لبقيتهم؟ ح (٢٩٩٠).

(٤) البيهقي: سنن البيهقي، كتاب السير، باب لا يأخذ المسلمون من ثمار أهل الذمة ولا أموالهم شيئا بغير أمرهم إذا أعطوا ما عليهم، ح. (١٨٥٠٩) (١٨٥١٠). سنن سعيد بن منصور: كتاب ا لوصايا، باب الإشارة إلى المشركين والوفاء بالعهد، ح (٢٦٠٣).

مسلماً فعليه مثل ذلك"[1].

ومن آداب الحرب عند المسلمين الحرص على سلامة الناس وحفظ كرامتهم وحقن دمائهم حتى لو كانوا محاربين، وذلك من خلال توسيع فرص الصلح وإعطاء صلاحيات عقده لكل أبناء المجتمع الإسلامي رجالاً ونساء مقاتلين ومدنيين، متى ما سنحت فرصة للخروج من الحرب، حتى لو كان ذلك في ميدان المعركة، وهذه من مناقب صناعة السلام التي انفرد بها المسلمون عن عامة الأمم التي لا تمنح السلم إلا بثمن باهظ من فقدان الكرامة والتسلط والابتزاز ونهب الثروات وفرض الشروط المذلة والمهينة أحياناً، حتى تتعكر حياة من يقبل السلم وتفسد حريته مما يجعل السلم مهدداً بالانهيار لفقدان العدالة والإنصاف في مكوناته، أما أخلاق الحرب في عصر الرسالة، فإنها خالية من المغالاة والإرهاق، وتمنح الصلح إلى الآخرين بكامل الثقة مع مراعاة مشاعر الناس ولهجاتهم ولغاتهم، فإذا اشتبك المسلمون مع قوم ورأى القوم الخروج من الحرب؛ ولكنهم لم يكونوا يتقنون طريقة الإعلان بالإسلام وأعلنوا بضد ذلك ونيتهم قبول الإسلام، فإن على القائد المسلم أن يقبل منهم ذلك ويؤمنهم، فلما قال بنو جذيمة لجيش خالد ﵁ صبأنا يعنون بها أسلمنا ولم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا. قال ابن عمر: فجعل خالد ﵁ يقتل فلما أخبرنا النبي ﷺ قال: " اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد "[2] وقال عمر ﵁: إذا قال – المسلم للمشرك – مترس فقد أمنه، إن الله يعلم الألسنة كلها. وقال: لا بأس[3] أي وإذا قيل للمشرك لا بأس، وقد قال عمر ﵁

---

(١) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب أبواب الجزية والموادعة، باب: ذمة المسلمين وجوارهم واحدة يسعى بها أدناهم.ح (٣٠٠١).

(٢) ابن القيم: زاد المعاد، ٣/ ٣٣٠.

(٣) البخاري: الجامع الصحيح ، كتاب أبواب الجزية والموادعة. باب: إذا قالوا صبأنا ولم يحسنوا أسلمنا.ح (٤٠٨٤).

ذلك للهرمزان بعد أسره فكان له تأميناً، وكلمة مترس[1] تعني الأمان أي لا تخف فإذا قالها مسلم لكافر فهذا يعني أنه أمنه فلا يحق له النيل منه إذا استسلم له، وعليه أن يرعى كرامته ودمه وماله وعرضه، ولا يُسمعه إلا الطيب من القول، كما اتضح ذلك في مبحث الأمان والوفاء بالعهد.

أما إذا بدا لهذا المستأمن أن يدخل في الإسلام فإنّ له كامل حقوق المسلمين من الحرية والتملك والبيع والشراء وما يتمتع به المسلمون من حقوق، يؤكد هذا أن النبي ﷺ كان يقول في أهل الذمة: " لهم ما أسلموا عليه من أموالهم وعبيدهم وديارهم وأرضهم وماشيتهم ليس عليهم فيه إلا الصدقة "[2] أي كما هو الحال مع عامة المسلمين في ممتلكاتهم، وإذا أسلم أحد قبل أن ينتصر المسلمون على قومه وخرج منهم إلى المسلمين؛ فإن له كامل أمواله. قال الشافعي: " أسلم ابنا سعية القرظيان ورسول الله ﷺ محاصر بني قريظة فأحرز لهما إسلامهما أنفسهما وأموالهما من النخل والأرض وغيرهما[3] ".

ولم تدع قيم الحرب في عصر الرسالة أمور أهل الذمة عند هذا الحد فقط حتى حذرت المسلمين من عواقب إساءة التعامل مع أهل الذمة، لما لذلك من نتائج على سير العدل والرحمة في أخلاق الأمة، والآثار السلبية على عامة المسلمين إذا لم يلتزموا بالضوابط الشرعية في التعامل معهم، قال أبو هريرة ﷺ: "كيف أنتم إذا لم تجتبوا ديناراً ولا درهماً؟ فقيل له: وكيف ترى ذلك كائناً يا أبا هريرة؟ قال: إي والذي نفس أبي هريرة بيده، عن قول الصادق المصدوق، قالوا: عن ذاك؟ قال:

---

(١) البخاري: أبواب الجزية والموادعة، باب إذا قالوا صبأنا ولم يحسنوا أسلمنا، شرح الحديث (٢٩٨٩). وتعني مجوب عليه يحمية بنفسه كما فعل أبو طلحة ﷺ يوم أحد يحمي رسـول الله ﷺ ينظـر صـحيح مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب غزو النساء مع الرجال، (١٨١١).

(٢) البيهقي: سنن البيهقي، كتاب السير، باب من أسلم على شيء فهو له، ح (١٨٠٤٠).

(٣) البيهقي: سنن البيهقي، كتاب السير، باب الحربي يدخل بأمان وله مال في دار الحرب ثـم يـسلم أو يسلم في دار الحرب أهل الذمة، (٩٥). الشافعي: الأم، كتاب سير الأوزاعي، في المسلم يـدخل دار الحرب بأمان فيشتري داراً أو غيرها، ٧/ ٥٩٣.

تنتهك ذمة الله وذمة رسوله ﷺ فيشد الله عز وجل قلوب أهل الذمة، فيمنعون ما في أيديهم"[1] فالإسلام ربط هذه الأخلاق بالعقيدة لكي لا يتمرد عليها مسلم، وأكد أن حفظ الذمة باب من أبواب حفظ النصر، وضياعها ضياع لهيبة المسلمين وسيادتهم. فلما طلب المسلمون من عمر رضي الله عنه الوصية أكد على حقوق أهل الذمة. فقال رضي الله عنه: أوصيكم بذمة الله، فإنه ذمة نبيكم، ورزق عيالكم[2] أن يوفى لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، ولا يكلفوا إلا طاقتهم.

ـ وحرمة أهل الذمة في قيم الحرب في عصر الرسالة تظهر في الزجر الشديد والتحذير من إيذائهم فيما بينه رسول الله ﷺ من إثم مَن قتل معاهداً بغير جرم. قال ﷺ: " من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاماً"[3] وبلغ من شدة رعاية رسول الله ﷺ لأهل الذمة أن تولى أمر الدفاع عمن ظُلم منهم بنفسه ﷺ أياً كان ذلك الظلم، فقال ﷺ " ألا من ظلم معاهداً وانتقصه وكلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس منه فأنا حجيجه يوم القيامة وأشار رسول الله ﷺ بأصبعه إلى صدره؛ ألا ومن قتل معاهداً له ذمة الله وذمة رسوله ﷺ حرّم الله عليه ريح الجنة، وإن ريحها لتوجد من مسيرة سبعين خريفاً "[4]

---

(١) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب أبواب الجزية والموادعة، باب: إثم من عاهد ثم غدر، ح (٣٠٠٩

(٢) البخاري: كتاب أبواب الجزية والموادعة، باب: الوصايا بأهل ذمة رسول الله ﷺ، ح (٢٩٩١) وقال: الذمة: العهد، والإل: القرابة.

(٣) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب أبواب الجزية والموادعة، باب: إثم من قتل معاهدا بغير جرم.ح (٢٩٩٥) (٦٥١٦).

(٤) البيهقي: سنن البيهقي، كتاب السير: السير: باب لا يأخذ المسلمون من ثمار أهل الذمة ولا أموالهم شيئا بغير أمرهم إذا أعطوا ما عليهم، ح (١٨٥١١). الحاكم، المستدرك: كتاب الجهاد، باب الغلول، ح (٢٥٧٩) (٢٥٨١). قال أبو حاتم: هذه الأخبار كلها معناها لا يدخل الجنة يريد جنة دون جنة القصد منه الجنة التي هي أعلى وأرفع يريد من فعل هذه الخصال أو ارتكب شيئا منها حرم الله عليه الجنة أو لا يدخل الجنة التي هي أرفع التي يدخلها من لم يرتكب تلك الخصال لأن الدرجات في

فكان النّبي ﷺ يحامي عن أهل الذمة وعن حقوقهم بقوة ويغار على الذمة غيرة شديدة لما لها من صلة وثيقة بقيم الوفاء والعدل ونصرة الضعيف، قال العرباض بن سارية السلمي رضي الله عنه: " نزلنا مع النبي ﷺ خيبر ومعه من معه من أصحابه وكان صاحب خيبر رجلاً مارداً منكراً فأقبل إلى النبي ﷺ فقال يا محمد ألكم أن تذبحوا حمرنا وتأكلوا ثمارنا وتضربوا نساءنا؟ فغضب النبي ﷺ وقال يا بن عوف اركب فرسك ثم ناد إن الجنّة لا تحل إلا لمؤمن وأن اجتمعوا للصلاة. قال: فاجتمعوا ثم صلّى بهم النبي ﷺ ثم قام فقال: أيحسب أحدكم متكئاً على أريكته قد يظن أن الله عز وجل لم يحرم شيئاً إلا ما في هذا القرآن؟ **ألا** وإني والله قد أمرت ووعظت ونهيت عن أشياء إنها لمثل القرآن أو أكثر، **وإن الله عز وجل لم يحل لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب إلا بإذن، ولا ضرب نسائهم، ولا أكل ثمارهم، إذا أعطوكم الذي عليهم**"[1] ولم تكن حماية أهل الذمة من خصائص عصر النبوة فقط وإنما هو خُلق ومكوّن من مكونات ثقافة المسلمين على مرّ العصور، على أن يمتثل أهل الذمة ما بينهم وبين المسلمين من عهود ومواثيق صلح، قال سويد بن غفلة: كنا مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو أمير المؤمنين بالشام فأتاه نبطي مضروب مشجج مستعدي، فغضب غضباً شديداً. فقال لصهيب: انظر من صاحب هذا؟ فانطلق صهيب رضي الله عنه فإذا هو عوف بن مالك رضي الله عنه فقال له: إن أمير المؤمنين قد غضب غضباً شديداً فلو أتيت معاذ بن جبل رضي الله عنه فمشى معك إلى أمير المؤمنين فإني أخاف عليك بادرته، فجاء معه معاذ رضي الله عنه فلما انصرف عمر رضي الله عنه من الصلاة قال أين صهيب؟ فقال: أنا هذا يا أمير المؤمنين قال أجئت بالرجل الذي ضربه؟ قال: نعم فقام إليه

الجنان ينالها المرء بالطاعات، وحطه عنها يكون بالمعاصي التي ارتكبها. ابن حبان، صحيح ابن حبان: كتاب السير، باب الذمي والجزية، ح (٤٨٨٢).

(١) سنن البيهقي، كتاب السير: باب لا يأخذ المسلمون من ثمار أهل الذمة ولا أموالهم شيئا بغير أمرهم إذا أعطوا ما عليهم، ح (١٨٥٠٨).

معاذ بن جبل فقال يا أمير المؤمنين إنه عوف بن مالك فاسمع منه ولا تعجل عليه.

فقال له عمر ﷺ - لعوف - ما لك ولهذا؟ قال: يا أمير المؤمنين رأيته يسوق بامرأة مسلمة فنخس الحمار ليصرعها فلم تصرع ثم دفعها فخرت عن الحمار ثم تغشاها، ففعلت ما ترى قال ائتني بالمرأة لتصدقك، فأتى عوف المرأة فذكر الذي قال له عمر ﷺ قال أبوها وزوجها ما أردت بصاحبتنا؟ فضحتها! فقالت المرأة: والله لأذهبن معه إلى أمير المؤمنين، فلما أجمعت على ذلك قال أبوها وزوجها: نحن نبلغ عنك أمير المؤمنين، فأتيا فصدقا عوف بن مالك ﷺ بما قال. قال: فقال عمر لليهودي: والله ما على هذا عاهدناكم فأمر به فصلب ثم قال يا أيها الناس فوا بذمة محمد ﷺ فمن فعل منهم هذا فلا ذمة له قال سويد بن غفلة وإنه لأول مصلوب رأيته[1] وهذا النص وإن كان ليس في عصر السيرة النبوية ولكنه إحدى ثمارها في عصر الراشدين، وفيه كثير من الشواهد التي يمكن استنباطها لتؤكد لأبناء هذه الجيل آثار أخلاق الحرب النبوية في نفوس المؤمنين، وما فيها من غيرة شديدة على ذمة رسول الله ﷺ والغضب من أجل حمايتها والعمل المباشر على القصاص ممن تطاول عليها بقول أو فعل، ويتبين في هذا النص أيضاً المكانة السامية لعلماء المسلمين بين أبناء الأمة وقادتها وتبجيل الخلفاء لهم، فما إن حضر معاذ ﷺ مجلس أمير المؤمنين ﷺ حتى ذهب عنه الغيظ والغضب، وباشر التدقيق في الشكوى التي رفعها إليه الذمي، وبلغت الأمانة بالقضاء الإسلامي أنه لم يكتف بقول المسلم الوجيه الثقة ﷺ على الذمي اليهودي حتى طلب الشهود ليتأكد من ذلك عملياً.

وفيه أيضاً البيان الواضح لحرية المرأة المسلمة في عصر الرسالة والعصر الراشدي وقدرتها عل التعبير عن رأيها في مثل هذه المسائل الحساسة أمام والدها وأمام زوجها مما يوحي بثقافة ذلك المجتمع وتقيده بضوابط الشرع وخضوع الجميع لتلك الضوابط، وفيه أيضاً شاهد على حسن العلاقة وقرب الصلة بين الحاكم

---

(١) البيهقي: سنن البيهقي، كتاب السير: مؤامرتهم لقتل رسول الله، (١٨٤٩٢).

والمحكوم في المجتمع الإسلامي، وقدرة المرأة على الوصول إلى أعلى سلطة في الدولة دون خوف أو وجل، ومن غير أن يثير ذلك أي تبعات اجتماعية أو سياسية أو غيرها، مما ينفي الكثير عمّا يقال عن ذلك المجتمع المتراحم المتعاون، ويبين أنه كان مجتمع القيم النبيلة والأخلاق الكريمة، وأن جميع أبناء ذلك المجتمع كانوا يبجلون الحق ويخضعون له دون أنفة أو كِبر أو تثاقل، لأن المقاصد كانت نبيلة والوسائل التي يعمل بها المسلمون عادلة تحفظ الحقوق وتدفع الظلم.

وكل هذا كان يفعله النبي ﷺ وخلفاؤه امتثالاً لقيم العقيدة الإسلامية وما فيها من المواقف النبيلة والقيم السامية المجردة، وإلا فإنّ أهل الكتاب من أهل الذمة نادراً ما يفون له ﷺ بعهد أو يحفظون له ميثاق، فها هم في خيبر بعد أن صالحوه ﷺ سرعان ما نقضوا عهدهم حين دبروا مؤامرتهم بعد تشاور زعمائهم وإقرارهم لها وتوكيلهم أمر تنفيذ تلك الجريمة الهادفة إلى اغتيال النبي ﷺ إلى امرأة حاقدة منهم حين جاءت بالشاة المشوية وقدمتها على أنها هدية لرسول الله ﷺ بعد أن أكثرت فيها من السمّ لقتل رسول الله ﷺ. وما يبين البون الشاسع بين أخلاق الحرب عند المسلمين، وأخلاقياتها عند اليهود هو ذلك الوفاء ا لمطلق عند رسول الله ﷺ الذي لم يقابله إلا الغدر والخداع وصناعة الشر، إلا عند نفر قليل من اليهود أعلنوا إسلامهم وبراءتهم مما يقوم به قومهم، ولعل ما يؤكد هذه المفارقة الكبيرة أن النّبي ﷺ لم يقتل تلك المرأة حتى مات بعض أصحابه بالسمّ الذي وضعته لهم بيدها وباعترافها كما اتضح ذلك في موضعه من الفصل الخامس، وهذا الحكم قصاص حق لا يماري فيه أحد من النّاس، وليس انتقام إذ أنّ النّبي ﷺ بلغ من كرم النفس ونبل الأخلاق أنّه لا ينتقم لنفسه الطاهرة، ومما يزيد ذلك وضوحاً أنّ النّبي ﷺ لم يقتل من شارك تلك المرأة وأمَرها وساندها في جريمتها وهو في عنفوان انتصاره، وهذا ما يشير إلى أن قيادة الأنبياء في السلم والحرب ما هي إلى رحمة للبشرية، وأنها أبعد ما تكون عن الشبهات، وأنّ كل من يُعرِض عن طاعتهم فضلاً عن أن يرتكس في محاربتهم إنما هو فاقد للإنصاف ومجانب للصواب لا يبالي إن ساد العالم السلام

أو الفتنة والآلام.

وهذه المواقف وغيرها توضح أن قيم الحرب في عصر الرسالة تنبع من أسمى قيم الوفاء والبر والعمل الدائم على تثبيت الأمن والسلام في الأرض، بينما البعض من أهل الذمة سرعان ما يغدرون حين تلوح لهم فرصة في آفاق الحرب على الإسلام وأهله، لا يحجزهم عهد ولا ميثاق ولا يبحثون عن مسوغ للنكث وإثارة الهواجس والشكوك والريبة، وكل ذلك يُنبي عن أثر الثقافات التي يحملها من يدين بالوفاء، ومن لا يبالي بآثار النقض على الأخوّة البشرية والسلام العالمي، الذي لا زال ينادي به المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها، بينما يعبث به كثير ممن لا يقيم وزناً لشرع ولا لقانون دولي أو خُلق إنساني ممن غرتهم قوة السلاح أو كثرة العدد، حتى أصبحوا خطراً على البشرية جمعاء؛ لما يثيرون من حروب أو ينشرون من سياسات عدوانية تعمل على انعدام الثقة بين الأمم والشعوب.

ومن أخلاق الحرب في عصر الرسالة أن لا تهدم لهم كنيسة ولا بيعة: قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ (الحج: من الآية ٤٠) فاتضح أن المسلمين على أعلى درجات الوفاء بالعهود والعمل على حفظ الأمن وصيانة السلام في الأرض، وأنهم على استعداد للدفاع عن أهل الذمة وحماية بيعهم وكنائسهم إذا تعرضت لخطر يهدد أمنها أو أمن مرتاديها، في حين يلاحظ الناس في هذا العصر كيف تهدم كثير من مساجد المسلمين ويقتل المصلون، على أيدي غزاة بلاد المسلمين من الصليبيين وحلفائهم الطبيعيين من أعداء الصحابة، دون أن يثير ذلك مشاعر النصرة، لهم عند من يزعمون أنهم أنصار حقوق الإنسان وحرية العبادة، في حين أن الإسلام يضع القوانين الصارمة على أبنائه لحماية أهل الأديان الأخرى وصيانة حرياتهم، وربما أنّ كثيراً من الأمن الذي يستقر ويستمر في بلاد المسلمين يأتي من خلال أخلاق التجاوز عن المخالفات التي يقوم بها بعض أهل الذمة دون مراعاة للعهود والمواثيق.

ولو ألقينا نظرة خاطفة على تاريخ الحروب التي قام بها المسلمون في الأندلس لا تضح لكل منصف رحمة الإسلام ووفاء المسلمين وحبهم للعيش المشترك مع جميع أبناء الأديان السماوية، حيث عاش هناك اليهود في أمن وسلام في الوقت الذي كانوا يُطاردون فيه في أوربا ويضيق عليهم، وحين عادت الجولة لأهل الغرب في الأندلس لم يرقبوا في المسلمين إلاً ولا ذمة وسرعان ما نقضوا العهود والمواثيق الموثقة وساموا المغلوبين من المسلمين قتلاً وأسرا وتنصيراً، ومن ثم تحويل مساجدهم المنصوص على حرمتها في اتفاقيات التسليم إلى كنائس تدق فيها الأجراس بدلاً من نداء الله أكبر[1] وارتكبوا من الموبقات ما لا يأتي عليه وصف حتى أحرقوا العلماء كما فعلوا بالقاضي أبي المطرف أحمد بن جحّاف حيث أحرقوه وهو يرسف بقيوده أمام الناس وأهله وبناته[2] وذلك أنه طاول حصارهم ولم يستسلم لهم، وأحرقوا المدن كما فعلوا بمدينة بلنسية التي ندبها شاعرها أبو إسحاق بن خفاجة في قوله:

عاثت بساحتك الظبا يا دار ... ومحـــا محاسنك البلى والنار

فإذا تردد في جنابك ناظـــر ... طـال اعتبار فيك واستعبار[3]

والبحث في هذه المسائل أمر يطول، وليس أفعال الصليبيين الوحشية فيمن احتمى بالحرم القدسي من العباد والشيوخ والنساء والأطفال المسلمين، وما صنعه الإسبان ومن معهم من أهل الغرب في محاكم التفتيش سيئة الصيت إلا أمثلة على أخلاق من رفض قيم عصر الرسالة وما جاء به محمد ﷺ من نظام متكامل للحياة يتآخى فيها البشر ويأمن بعضهم بعضاً، ولا حاجة للتدليل على كثير مما يقوم به

---

(١) ينظر السامرائي: علاقات المرابطين بالممالك الاسبانية بالأندلس وبالدول الإسلامية، ٩٧.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، ٤/ ٣٧. الخليفة: يوسف بن تاشفين موحد المغرب وقائد المرابطين، ٣٩٦.

(٣) الحجي: التاريخ الأندلسي، ٣٨٤و ٣٧٤.

أهل الغرب ضد المسلمين لأنه ظاهر للعيان؛ لكل من قرأ أيام الناس وآثار الحروب في العلاقات الدولية، فضلاً عمّا يجري على أيدي كثير منهم وأيدي حلفائهم في كثير من بلاد المسلمين في هذا العصر، وفي كل ذلك تبقى حقيقة واحدة هي أن آداب الحرب في عصر الرسالة تمثل أساساً للقيم البشرية المبنية على العدل والرحمة وأداء الأمانة وحفظ الحقوق، لا يباري أخلاقياتها ولا يجاريها؛ أخلاق أخرى لا في الماضي ولا في الحاضر، ولعل فيما فعله صلاح الدين من تسامح وعفو مع نبل وكرم عامل به الصليبيين بعد أن دخل القدس يعد من الأمثلة الحية على آثار تلك الأخلاق في نفوس المؤمنين[1].

أخلاق الحرب في عصر الرسالة مع المخالفين من أهل الذمة

مثلما أنّ الإسلام صارم في حماية أهل الذمة ورعايتهم، كذلك هو عادل مع من يصرّ على نقض العهود والعبث بالأمن ومخالفة القيم والعمل بالمحرمات والمجاهرة بالربا والمعاصي والخمور ومضاهاة دين المسلمين واستثارة أبناء الأمة، فحينها يختلف الأمر عمّا هو عليه من قبل، فيحاسب المخطئ منهم ويعاقب المسيء، لا لأنه لم يلتزم بمواثيق الذمة وضوابطها فقط؛ ولكن يعاقب حفاظاً على استمرار السلم والاستقرار والأمن بين الناس.

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: " صالح رسول الله ﷺ أهل نجران ... على أن لا تهدم لهم بيعة ولا يخرج لهم قس ولا يفتنون عن دينهم ما لم يحدثوا حدثاً أو يأكلوا الربا"[2] أي إذا هم فعلوا ذلك فإنما يعني هذا تعمدهم نقض العهد، لذلك كان من مقاصد القوانين الإسلامية التي سُنت إبعاد أي احتكاك بين المسلمين وأهل الذمة، فوضعت ضوابط تحول بين ذلك الاحتكاك الذي يستفز أبناء الديانات بعضهم على بعض، ومن تلك الضوابط أن: " أيما مصر أعده العرب؛ فليس للعجم

(١) ينظر السباعي: من روائع حضارتنا، ١٠٣ فما بعدها.

(٢) البيهقي: سنن البيهقي، كتاب السير: باب لا تهدم لهم كنيسة ولا بيعة، (١٨٤٩٥).

أن يبنوا فيه بيعة أو قال كنيسة ولا يضربوا فيه ناقوساً، ولا يدخلوا فيه خمراً ولا خنزيراً، وأيما مصر اتخذه العجم؛ فعلى العرب أن يفوا لهم بعهدهم فيه، ولا يكلفوهم ما لا طاقة لهم به "[1] وهذا يؤكد الحرص على تأصيل ثوابت السلم وتغذية وسائل بقائه وديمومته، كما يؤكد على جميل نوايا المسلمين في سعيهم إلى حفظ الحقوق وإنصاف المستضعفين في الأرض.

ومن ذلك أيضاً عمل المسلمين على مراعاة أهل الذمة في حال تطبيق أحكام شريعتهم، والتعامل معهم على هدي ضوابط الصلح وبنوده التي تم الاتفاق عليها، وأنهم في بعض الحالات يعفون عن الذمي في وقائع توجب القتل على المسلم ومن ذلك. ما أجاب به ابن شهاب الزهري حين سُئل: " أعلى من سَحر من أهل العهد قتل؟ قال: بلغنا أنّ رسول الله ﷺ قد صنع له ذلك فلم يقتل من صنعه، وكان من أهل الكتاب"[2] بينما حكم من يثبت عليه تعاطي السحر من المسلمين ويصر على ذلك هو القتل قال ﷺ: " حد الساحر ضربة بالسيف "[3] لما للساحر من دور خطير على أمن الأُسر المسلمة وأسرار الناس وقيم المجتمع وثوابت الأمة، ولما تحمله ثقافة السحرة من ألوان الردة ومخالفة العقيدة، وتشجيع الخروج عن عبادة الله إلى عبادة الشياطين.

ومن ثقافة المسلمين تجاه أهل الذمة إباحة قضاء حقوقهم والقيام بأداء ما ينفعهم ولا سيما إذا كانوا مجاورين، فيكون لهم على المسلم حقوق حسن الجوار وحق الذمة، ولعل من مقاصد هذا الاهتمام الفائق بأهل الذمة عدا ما توجبه قيم

---

(١) البيهقي: سنن البيهقي، كتاب السير: باب لا تهدم لهم كنيسة ولا بيعة، ح (١٨٤٩٦).

(٢) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب أبواب الجزية والموادعة باب: هل يعفى عن الذمي إذا سحر. لا يوجد رقم وهذا النص ليس بحديث عن رسول الله ﷺ وإنما هو نص للزهري يوضح مقاصد الباب المذكور.

(٣) الحاكم: المستدرك، كتاب، الحدود، باب حد الساحر، (٨٠٧٣). الدار قطني: كتاب الحدود والديات، باب حد الساحر، (١١٢).

المسلمين تجاه جيرانهم، هو تحبيب الإسلام إليهم والعمل على إنقاذهم من تكذيب الأنبياء والخروج عن طاعتهم، وهذا ما كان يفعله رسول الله ﷺ مع أهل الكتاب في المدينة. قال أنس ﷺ: "عاد النبي ﷺ يهوديا"[1] أي مريضاً وهذا ما يوحي بترابط مجتمع المدينة في عصر الرسالة، إذ كان النبي ﷺ يتولى رعاية الجيران وتفقد المرضى حتى لو كانوا من أهل الكتاب الذين كذبوه ﷺ وحاربوه ونكثوا عهودهم معه ﷺ مع يقين أكثر علمائهم بصدق رسالته وصحة نبوته.

وقال أنس ﷺ: "أن غلاماً يهودياً كان يخدم النبي ﷺ فمرض فأتاه النبي ﷺ يعوده فقال له ﷺ: أسلم فنظر إلى أبيه وهو جالس عند رأسه!! فقال له: أطع أبا القاسم. قال: فأسلم. قال: فخرج النبي ﷺ من عنده وهو يقول الحمد لله الذي أنقذه من النار[2] فهذه النصوص تبين أن أخلاق الجهاد في عصر الرسالة تعمل على صناعة المشترك الإنساني وقيام مجتمع التعددية المنضبط بالقيم السامية والأخلاق الكريمة، وما يتبع ذلك من الوفاء وحسن الجوار والنصح وتمني النجاح لأبناء ذلك المجتمع، ومن جانب آخر تبين هذه الأخلاق السامية النبيلة التي يعمل بها رسول الله ﷺ وأصحابه ﷺ تجاه أهل الذمة على عالمية رسالة الإسلام وشعورهم بالمسؤولية تجاه جميع بني البشر مصداقاً للعمل بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧).

أخلاق الحرب في عصر الرسالة مع أهل الجزية

قال تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩﴾ (التوبة:٢٩) فهذا النص القرآني يبين مشروعية

---

(١) ابن حبان، صحيح ابن حبان: كتاب السير، باب الذمي والجزية، ح (٤٨٨٣).

(٢) ابن حبان، صحيح ابن حبان: كتاب السير، باب الذمي والجزية، ح (٤٨٨٤).

أخذ الجزية ممن يعلن الكفر بالله ويستحل محارمه، ولا يدين بالحق من أهل الكتاب، والجزية ضريبة على الأشخاص غير المسلمين القاطنين في الأقاليم الإسلامية، وتؤخذ الجزية نظير حمايتهم والمحافظة عليهم، وبدل عدم قيامهم بواجب الدفاع عن كيان الدولة[1] ويعين مقدارها الحاكم المسلم، بغير ظلم ولا إضرار، إعلاناً لدخولهم تحت حُكْم الإسلام، وتجب في السنة مَرّة، ولا تؤخذ من الأطفال ولا النساء ولا الفقراء، ولا تؤخذ من كبار السن، ولا المرضى الذين لا يُرجى شفاؤهم، ولا العمي ولا العاجزون، ولا تؤخذ من الرهبان المنقطعين للعبادة، ولا تؤخذ من الذين لا يُقاتلون، ودفع الجزية إعلان بقبول حكم الله تعالى، فالجزية ليست لوناً من ألوان العقاب على الكفر، أو عدم الإيمان بالإسلام كما يزعم المستشرقون[2] والجزية ليست من مبتدعات الإسلام، وإنما كانت مقررة عند مختلف الأمم التي سبقته كبني إسرائيل واليونان والرومان والبيزنطيين والفرس[3] فالحالة العامة بين الأمم كانت تألف نظام الجزية والإسلام أقر ذلك فقط[4] بغير ظلم ولا إضرار، إعلاناً لدخولهم تحت حُكْم الإسلام. وقد شرعت الجزية في الإسلام في السنة الثامنة، وقيل التاسعة من الهجرة. وصالح النبي ﷺ أهل نجران على الجزية وهم أهل كتاب من النصارى[5] ثم أعطاها أهل أيلة وأذرح[6] وأهل أذرعات في غزوة تبوك[7] وأعطاها ملك دومة الجندل أكيدر بن عبد الملك الكندي وكان

---

(١) الزحيلي: آثار الحرب في الفقه الإسلامي، ٦٦٨.

(٢) الزحيلي: آثار الحرب في الفقه الإسلامي، ٦٦٨، عن مجيد خدوري، الحرب والسلام، ١٩٦.

(٣) ينظر الزحيلي: آثار الحرب في الفقه الإسلامي، ٦٦٨.

(٤) الزحيلي: آثار الحرب، ٦٧٠.

(٥) ابن القيم: زاد المعاد، ٣/ ١٣٢.

(٦) أذرح: قريتان وقيل موضعان بالشام. البخاري: كتاب الرقاق، باب في الحوض، (٦٢٠٦). صحيح مسلم: كتاب الفضائل، باب إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته، (٢٢٩٩) وقال: هي في طرف الشام في طرف الشراة الشمالي، بينها وبين تبوك نحو أربع مراحل.

(٧) الزحيلي: آثار الحرب، ٦٧١.

نصرانياً[1] بعد أن أسرته إحدى سرايا المسلمين فصالح النبي ﷺ عن نفسه وبلده على دَفْع الجزية. وتسقط الجزية عن الذمي متى أسلم، لقول النبي ﷺ: "ليس على مسلم جزية"[2] وقوله ﷺ: "من أسلم فلا جزية عليه"[3] فالذمي إذا أسلم تسقط عنه الجزية ويدفع الزكاة مثله مثل بقية المسلمين.

ومن النهي عن التشديد في جباية الجزية أن هشام بن حكيم ﷺ حين "وجد رجلاً وهو على حمص يشمس ناساً من القبط – أي يعاقبهم بالوقوف بالشمس – في أداء الجزية فقال ما هذا إني سمعت رسول الله ﷺ يقول **إن الله يعذب الذين يعذبون الناس في الدني**"[4] ولا شك أن الإسلام يرفض العنف مع الناس كافة في غير حد أو تعزير يراه الحاكم المسلم، لذلك ما إن رأى هذا الصحابي ﷺ العامل يعاقب من يحتال عليه أو يماطل في أداء حقوق الذمة؛ حتى أنكر عليه الأمر وأمره بالرحمة والرأفة التي تنسجم مع أخلاق المسلمين التي تربى عليها الصحابة ﷺ وقد امتدت هذه الأخلاق في العصر الراشدي فهذا أمير المؤمنين علي ﷺ يقول: لأحد عماله: "لا تضربن رجلاً سوطاً في جباية درهم، ولا تبيعن لهم رزقاً، ولا كسوة شتاء ولا صيفا، ولا دابة يعتملون عليها، ولا تقم رجلاً قائماً في طلب درهم. قال: قلت يا أمير المؤمنين: إذاً أرجع إليك كما ذهبت من عندك؟! قال ﷺ: وإن رجعت

(١) ابن القيم: زاد المعاد، ٣/ ٤٢٨، ٣/ ١٣٢. ابن هشام: السيرة النبوية، ٢/ ٥٢٦. ابن سعد: الطبقات، ٢/ ١٦٦.

(٢) أبو داوود: كتاب الخراج، باب في الذمي يسلم، ح (٣٠٥٣) قال الألباني: ضعيف. ابن حنبل: المسند، مسند ابن عباس، ح (٢٥٧٧) قال شعيب الأرنؤوط: ضعيف. الدارقطني: سنن الدارقطني، كتاب الوصايا، باب خبر الواحد يوجب العمل، ح (٧).

(٣) أبو داوود: سنن أبي داوود، كتاب الخراج، باب في الذمي يسلم، ح (٣٠٥٣) قال الألباني: ضعيف. ابن حنبل: المسند، مسند ابن عباس، ح (٢٥٧٧) قال شعيب الأرنؤوط: ضعيف. الدارقطني: سنن الدارقطني، كتاب الوصايا، باب خبر الواحد يوجب العمل، (٧).

(٤) البيهقي: سنن البيهقي، كتاب السير: باب النهي عن التشديد في جباية الجزية، ح (١٨٥١٥)

كما ذهبت ويحك إنما أمرنا أن نأخذ منهم العفو يعني الفضل[1] وروي مثله عن ابن عباس رضي الله عنهما[2] قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (البقرة: من الآية٢١٩) والعفو هو الفائض والفضل من المال الذي لا يرهق دافعه لزيادته عن حاجته، وهذا وجه مشرق من أخلاق الحرب في عصر الرسالة؛ تتساقط أمامه الكثير من القوانين الحربية التي تفرض الضرائب على المغلوبين وتأخذ الامتيازات من أرضهم وأجوائهم وثرواتهم، مع التعسف في كثير من ذلك، دون مراعاة مشاعر الضعفاء والمحتاجين والعجزة وغيرهم، وما يعود به ذلك عليهم بالوبال ونكد العيش الذي يودي بهم إلى التسول أو السرقة وما إلى ذلك من وسائل غير شرعية يرفض الإسلام تعاطيها أو العمل بها تحت أي ظرف كان، حيث إن مقاصد تشريعات الإسلام الاقتصادية وغيرها تهدف إلى حماية كرامة الإنسان ونشر الرفاه والغنى بين جميع طبقات المجتمع دون احتكار أو قهر مع ممارسة وسائل الرفق والرحمة في الجباية والمحاسبة على الحقوق المتعارف عليها، وكل هذه المعاني المنبثقة من قيم المسلمين في عصر الرسالة، تؤكد على روح التسامح الديني في العقيدة الإسلامية الذي لا تعرف مثله عقيدة أخرى قامت على وجه الأرض.

وهذه من خصائص حضارتنا وميزاتها التي كانت محل إعجاب العالم ومهوى أفئدة الأحرار والأذكياء من كل جنس ودين، يوم كانت قوية تحكم وتوجه وتهذب وتعلم، فلما انهارت وقامت من بعدها حضارة أخرى؛ اختلفت الأنظار في تقدير قيمة حضارتنا، فمن مزرٍ بها ومن معجب ومن متحدث عن فضائلها ومن مبالغ في الانتقاص منها، وهكذا تختلف أنظار الباحثين الغربيين اليوم في حضارتنا، وما كانوا ليفعلوا ذلك لولا أنهم الأقوياء، ولعله موقف القوي من الضعيف يزري به

---

(١) سنن البيهقي، كتاب السير: باب النهي عن التشديد في جباية الجزية، ح (١٨٥١٦).

(٢) البيهقي: سنن البيهقي، كتاب السير: باب النهي عن التشديد في جباية الجزية، (١٨٥١٧)

وينتقص من قدره، وكذلك فعل الأقوياء في كل عصور التاريخ، إلا نحن المسلمين يوم كنا أقوياء فقد أنصفنا الناس قويهم وضعيفهم، وعرفنا الفضل لأهله شرقيهم وغربيهم، ومن مثلنا في التاريخ عدالة حكم ونزاهة قصد واستقامة ضمير[1] وكل ذلك مرجعه إلى الأخلاق الكريمة والقيم النبيلة التي يستقيها المؤمنون من قيم الكتاب والسنة، تلك القيم التي جسدها النبي ﷺ واقعاً ملموساً في قيم الحرب التي قادها ﷺ في عصر الرسالة المباركة.

الموقف من أهل الغدر في آداب الحرب في عصر الرسالة

لم يكن النّبي ﷺ ينتصر لنفسه الشريفة حتى مع من حاول اغتياله وشهر عليه السلاح كما حصل له ﷺ حين حاولت قريش قتله في بيته يوم الهجرة، وكما فعل مع سراقة بن مالك الذي لحق به يريد قتله أو أسره وقطع الطريق عليه، وكما همّ فضالة بن عبيد بن الملوح أن يقتله ﷺ وهو يطوف في البيت يوم الفتح فعفى عنه النبي ﷺ ودعا له[2] وكذلك حين سمّته المرأة اليهودية يوم خيبر، وكما فعل مع الأعرابي الذي اخترط عليه سيفه وهو نائم يريد قتله، فلم يقابلهم النبي ﷺ إلا بالعفو والمسامحة، لكن المتابع يجد أن النبي ﷺ واجه مؤامرات اليهود في المدينة بحزم شديد، ولعل السرّ في ذلك موقفه ﷺ من الغدر وبغضه للغادرين والخائنين، فهؤلاء الذين حاولوا اغتياله ﷺ لم يكن بينه وبينهم عهد ولا صلح وإنما هي حرب معلنة أو علاقات مفتوحة، فلم يعف النبي ﷺ عمّن نقض العهد لأن ذلك تم عن سبق إصرار وترصد ومباشرة العمل على استئصال المسلمين وعقيدتهم، فمن هنا جاء ذلك الحزم والشدة على الغادرين، أما في ما سوى ذلك فإن العفو والمسامحة والرحمة هي صفات أخلاقه ﷺ كما في هذا الموقف: قال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أنّه غزا مع النبي ﷺ فأدركتهم القائلة في واد كثير العضاه، فتفرق الناس في

---

(١) السباعي: من روائع حضارتنا، ٤٩.

(٢) ابن القيم: زاد المعاد، ٣٢٦.

العضاه يستظلون بالشجر، فنزل النبي ﷺ تحت شجرة فعلق بها سيفه، ثم نام، فاستيقظ وعنده رجل وهو لا يشعر به، فقال النبي ﷺ: "إن هذا اخترط سيفي، فقال: من يمنعك؟ قلت: الله، فشام السيف، فها هو ذا جالس" ثم لم يعاقبه"[1] فالنبي ﷺ تجاوز بعفوه ورحمته عن هذه الجريمة التي لو جرى مثلها على بعض قادة هذا العصر لأبيدت خضراء من قام بها، ولحرم كل من له صلة معرفة أو قرابة به من أبسط حقوقهم المشروعة، سواء كان لهم علم بذلك أم لم يكن، وما عفو رسول الله ﷺ هذا إلا إحدى خصائل آداب الحرب في السيرة التي رسمها رسول الله ﷺ لأمته لكي تقتدي به في العفو والصفح والمسامحة، وتعمل بأمثال هذه المعاني التي تكوّن ثقافة القيادة العالمية للبشرية على الأقل في الجانب الحضاري والأخلاقي الذي تشتد إليه الحاجة في هذا العصر كلما ازداد خطر اكتشافات التسلح والقوة العسكرية المجردة من القيم الإنسانية التي تضبط زمام استخدامها وتوجيهها، أما أهل الغدر فإنّ أخلاق الحرب عند المسلمين لا تتهاون معهم لأن مخاطرهم تتجاوز الحدود الشخصية إلى الأمة والعقيدة والمباشرة في الأعمال الهدامة التي تزيل هيبة المسلمين وتدعوا إلى الجرأة عليهم، فضلاً عن أن الغدر يرعى ثقافة الفتن والتشاحن ويغذي البغضاء والكراهية في النفوس.

ومن غدر المشركين بالمسلمين في أيام السيرة ما رواه أنس ﷺ قال: "بعث النبي ﷺ أقواماً من بني سليم إلى بني عامر في سبعين، فلما قدموا: قال لهم خالي: أتقدمكم، فإن أمنوني حتى أبلغهم عن رسول الله ﷺ وإلا كنتم مني قريباً، فتقدم فأمنوه، فبينما يحدثهم عن النبي ﷺ إذ أومؤوا إلى رجل منهم فطعنه فأنفذه، فقال: الله أكبر، فزت ورب الكعبة، ثم مالوا على بقية أصحابه فقتلوهم إلا رجلاً أعرج صعد الجبل. قال همام: فأراه آخر معه، فأخبر جبريل عليه السلام النبي ﷺ أنهم قد لقوا ربهم، فرضي عنهم وأرضاهم، فكنا نقرأ: أن بلغوا قومنا، أن لقينا ربنا،

---

(١) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب: تفرق الناس عن الإمام عند القائلة، والاستظلال بالشجر، (٢٧٥٦).

فرضي عنا وأرضانا، ثم نسخ بعد، فدعا عليهم أربعين صباحاً، على رِعل، وذكوان، وبني لحيان، وبني عصيّة، الذين عصوا الله تعالى ورسوله ﷺ[1].

فلما لم يتمكن النبي ﷺ من القصاص ممن غدر بأصحابه لجأ ﷺ إلى الدعاء ومعلوم أن دعاء النبي ﷺ أشدّ على الظالمين من وقع السيف، مما يوحي بموقف الإسلام الحاسم من أهل الغدر والخيانة الذين لا يرعون حرمة ولا يحفظون عهداً، وقد جاء موقف القرآن الكريم واضحاً من هذا الصنف المفسد في الأرض حاسماً، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ (المائدة: من الآية٣٣) فقام النبي ﷺ بتنفيذ مقاصد هذه الآية مع من تجاوز على الآمنين واعتدى على المسالمين دون أن يرقب فيهم عهداً ولا جواراً ولم يرحم ضعفهم أو يكافئ إحسانهم.

قال أنس ﷺ: قدم رهط من عكل على النبي ﷺ كانوا في الصُّفَّة، فاجتووا المدينة، فقالوا: يا رسول الله، أبغنا رِسْلاً، فقال: " ما أجد لكم إلا أن تلحقوا بإبل رسول الله ﷺ " فأتوها، فشربوا من ألبانها وأبوالها، حتى صحُّوا وسمنوا وقتلوا الراعي واستاقوا الذود، فأتى النبي ﷺ الصريخ، فبعث الطلب في آثارهم، فما ترجَّل النهار حتى أُتي بهم، فأمر بمسامير فأحميت، فكحلهم، وقطع أيديهم وأرجلهم وما حسمهم، ثم أُلقوا في الحرة، يستسقون فما سقوا حتى ماتوا. قال أبو قلابة: سرقوا وقتلوا وحاربوا الله ورسوله[2] قال أنس: " **إنما سمل النبي ﷺ أعين**

---

(١) البخاري: الجامع الصحيح، ، كتاب الجهاد، باب: من ينكب في سبيل الله، ح (٢٦٤٧). (٢٦٥٩، ٣٨٦٠،٢٨٩٩، ٣٨٦٥).

(٢) البخاري: كتاب المحاربين من أهل الكفر والردة، باب:لم يسق المرتدون المحاربون حتى ماتوا. (٦٤١٩). (٦٤١٧). (٦٤٢٠). صحيح مسلم، كتاب، القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب

أولئك، **لأنهم سملوا أعين الرعاء**"[1] ومن هذه الشواهد يتبين أن قيم الحرب في عصر الرسالة تولي مسألة الثقة والمحافظة على العهود وأمن المجتمع أولوية كبرى لما يترتب على رعاية العهود من حفظ الأمن واستقرار الناس وانطلاقهم إلى الإنتاج والعمل دون تردد، مما يثمر التعاون ويبعث دواعي المودة والألفة وينزع من النفوس أسباب التشنج والاضطراب، وينبت الاستقرار السياسي والازدهار الاقتصادي فيحصل الرفاه وتسود الطمأنينة فتتحقق أهداف الحرب في السيرة النبوية التي تحرم الغدر وتحاربه عقدياً وثقافياً وفكرياً وعسكرياً وبكل الوسائل.

قال النبي ﷺ "إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة، يُرفع لكل غادر لواء، فقيل: هذه غدرة فلان بن فلان"[2] وقال رسول الله ﷺ: "ألا ولا غادر أعظم غدراً من أمير عامة"[3] فالغادر مفضوح في الدنيا والآخرة، وأعظم الناس غدراً من تسلط على الضعفاء والمساكين فامتص أموالهم بالرشوة والاغتصاب والمكوس، أو بالعمل على تغيير دينهم وعقيدتهم، فقتل وسجن وشرد دون أن يراعي حق الله في حفظ أمانة المسؤولية، والغادر لا مكانة له في قيم الحرب في عصر الرسالة وهو محل التهمة والريب، الفاقد للأمانة الخارج عن الجماعة، المؤهل لكل عقوبة ومهانة، ما لم يبادر بالتوبة والتمسك بقيم العافية والسلامة، والعدل ركن من أركان آداب الحرب في عصر النبي ﷺ، وأهله محل التبجيل والقيادة والريادة، وأساس ذلك العمل بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا

حكم المحاربين والمرتدين، (١٦٧١). وزاد: وعنده شباب من الأنصار قريب من عشرين. فأرسلهم إليهم. وبعث معهم قائفاً يقتص أثرهم.

(١) مسلم: صحيح مسلم، كتاب، القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب حكم المحاربين والمرتدين ح(١٦٧١)

(٢) صحيح مسلم، كتاب، الجهاد والسير، باب تحريم الغدر، ح (١٧٣٥). (١٧٣٦). (١٧٣٧).

(٣) مسلم: صحيح مسلم، كتاب، الجهاد والسير، باب تحريم الغدر، (١٧٣٨).

يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (المائدة:٨).

من آداب الحرب في عصر الرسالة صيانة الدماء وحفظها

لعل أشد ألوان العدوان وأخطرها على الناس الجرأة على الدماء. قال تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ (النساء:٩٣). وقال رسول الله ﷺ: " لا يزال المؤمن في فسحة من دينه، ما لم يصب دماً حراماً "[1] وقال النبي ﷺ: " أول ما يُقضى بين الناس في الدماء "[2] إن الدماء البريئة مصانة في آداب الحرب في عصر الرسالة، ومن يجترئ على شيء منها متعمداً لا رخصة له ولا شافع إلا بالقصاص أو عفو صاحب الحق، وتحت رعاية هذه القيم الصارمة أمام العدوان،لم يشهد التاريخ من المسلمين سوى صيانة الدماء وحفظ العهود ورعاية الأمن والقصاص من المارقين على العقيدة وأمن الأمة ومصالح الناس.

قال المقداد بن عمرو الكندي ﷺ: يا رسول الله، إن لقيت كافراً فاقتتلنا، فضرب يدي بالسيف فقطعها، ثم لاذ بشجرة وقال: أسلمت لله، **أقتله بعد أن قالها؟ قال** رسول الله ﷺ: " لا تقتله " قال: يا رسول الله، فإنه طرح إحدى يدي، ثم قال ذلك بعدما قطعها، أقتله؟ قال ﷺ: " لا تقتله، فإن قتلته فإنه بمنزلتك قبل أن

---

(١) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الديات، باب: قوله تعالى:﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾ (النساء:من الآية٩٣) (٦٤٦٩)

(٢) البخاري: كتاب الديات، باب: قوله تعالى:{ومن يقتل مؤمناً متعمِّداً فجزاؤه جهنم} النساء: ٩٣، ح (٦٤٧٠).

تقتله، وأنت بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قال "[1] وبهذا النص يتبين أن العمل والتمسك بتلك القيم يقود إلى الاستقامة والعدالة المؤهلة لقيادة البشرية؛ برقابة ذاتية تنبع من قلوب حملتها لا يمكن اختراقها ولا مخالفتها وهذا هو النظام العالمي الذي تنشده البشرية، لا النظام الذي يحمل وجهة نظر أمة من الأمم فتعمل بكل ما أوتيت من جبروت القوة على بسط نفوذها وبما يتوافق مع مصالحها، وعلى مبدأ من لم يكن مع مصالحنا فهو ضدنا، وهذا هو الفارق الجوهري بين قيادة الآداب الإسلامية الحقيقية للعالم الذي تنظر إلى أبنائه بعين واحدة، أساسها العدل ورائدها المساواة وحرية المعتقد، وشعارها ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ (المائدة: من الآية٣٢) وبين قيادة تسيّرها الأهواء والمصالح والتحالفات العنصرية أو الاقتصادية أو غيرها، شعارها ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ (غافر: من الآية٢٩) فيتأكد من موقف النبي ﷺ الحازم أمام أحد فرسان جيشه ﷺ بأن من يعلن بلا إله إلا الله لا يجوز قتله حتى لو كان قد فعل ما افترضه المقداد، وهذا يبين ويؤكد دقة نظام العدل في آداب الحرب في عصر الرسالة، وأن الإسلام يجبّ ما قبله وأنّه لا حقد ولا ضغينة في قلوب أهل عصر الرسالة، وهذه القيم وغيرها هي المؤهلة للنظام العالمي القادر على نشر الأمن والسلم على وجه الأرض، لأنه هو الذي يرعى القيم الإنسانية على مرّ التاريخ ويزيد عليها الإخلاص في القول والعمل، بينما النظام العالمي الذي يريد أن يسخر الآخرين لخدمة مصالحه، فهو الذي يبوء بإثم كل عدوان يشنه بقواته أو يسنه بقوانينه، كما هو حال ابن آدم الذي قتل أخيه تحت ذرائع واهية من أجل تلبية

- (١) البخاري: كتاب الديات، باب: قوله تعالى:{ومن يقتل مؤمناً متعمّداً فجزاؤه جهنم} النساء: ٩٣، ح (٦٤٧١).

أهوائه، قال ﷺ: " لا تقتل نفس إلا كان على ابن آدم الأول كفل منها"[1] أي وزر وإثم لأنه هو الذي سنّ القتل وباشر العمل به من أجل أهوائه ومنافعه.

وهذا موقف آخر يبين سمو أخلاق الحرب النبوية ويؤصل لحماية الدماء في ساحات القتال وفي أحرج المواقف وأشدها صعوبة في السيطرة على المشاعر في حالة فوران الدم والاستعداد للقتل، ومع كل تلك المشاعر فإن التشريع الإسلامي يطالب المسلم بالتحكم بمشاعره وابتلاع آلامه وهي في أوج قوتها، والحفاظ على حياة الآخرين متى ما كانوا مستعدين لذلك، حتى لو جرحوا وقتلوا وفعلوا الأفاعيل؛ التي لو قاموا بها تحت هيمنة قوة أخرى لما أبقوا من أهلها أحداً، ولو تعلقوا بأستار الكعبة أو بأي مقدس آخر؛ لعدم وجود الإحساس الذي يعمل داخل قلب المسلم ويوقظ فيه الرحمة؛ وحب العفو واحتساب الآلام والحقوق لوجه الله تعالى، وكيف يفعل الآخرون ما يفعله المسلمون، وهم لا يملكون عقيدة مبنية على مثل قوله تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ (النور: من الآية٢٢) فهم لا يرجون من الله تعالى ما يرجوه المسلمون! قال أسامة بن زيد بن حارثة رضي الله عنهما: بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحرقة من جهينة، فصبَّحنا القوم فهزمناهم، قال: ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلاً منهم، قال: فلما غشيناه قال: لا إله إلا الله، قال: فكف عنه الأنصاري، فطعنته برمحي حتى قتلته، قال: فلما قدمنا بلغ ذلك النبي ﷺ قال: فقال لي: " يا أسامة، أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله" قال: قلت: يا رسول الله، إنما كان متعوذاً، قال: " أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله"

---

(١) البخاري: كتاب الديات، باب: وقوله تعالى: {ومن يقتل مؤمناً متعمِّداً فجزاؤه جهنم} النساء: ٩٣، (٦٤٧٢). قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾ (المائدة: من الآية٣٢).ح (٦٤٧٣).

قال: فما زال يكررها عليّ، حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم"[1].

فدماء الخلق جميعاً مصانة، ومتى ما أظهر العدو أي استعداد لقبول السلم وما ذلك إلا لأن أخلاقيات الحرب في عصر الرسالة مهيأة لصناعة السلم وحمايته من العابثين بأمن البشرية ممن لا يرون إلا مصالحهم ومشاريعهم، ولعل المقلب في صفحات التاريخ في الماضي والحاضر والناظر في تاريخ الحروب لا يجد مثيلاً لأخلاق المسلمين في سموها وانقيادها الدائم للسلام.

لقد أكد النبي ﷺ على حرمة الدماء في سيرته وفي خطبه وأحاديثه حتى جعل حرمة الدماء أصلاً من أصول ثقافة الحرب في السيرة النبوية. قال ﷺ في حجة الوداع: " إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا. في شهركم هذا. في بلدكم هذا. فليبلغ الشاهد الغائب"[2] وذم النبي ﷺ من طلب دم امرئ بغير حق وحذر الناس من الوقوع بمثله. فقال ﷺ: " أبغض الناس إلى الله ثلاثة: ملحد في الحرم، ومبتغٍ في الإسلام سنة الجاهلية، ومطَّلب دم امرئ بغير حق ليهريق دمه"[3] وأخلاقيات الحرب عند المسلمين مبنية على عقيدة القصاص التي تشيع العدل والأمن والطمأنينة ولا تحابي جنساً ولا لوناً على حساب الحق، وهذه أيضاً من خصائص آداب الحرب في عصر الرسالة. قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ

---

(١) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الديات، باب: قوله تعالى: {ومن أحياها} المائدة: ٣٢،ح (٦٤٧٨).

(٢) مسلم: صحيح مسلم، كتاب، القسامة والمحاربين والقصاص والديات باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال، ح(١٦٧٩).

(٣) البخاري: كتاب الديات، باب: قوله: ﴿أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن ... (٦٤٨٨).

﴿بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ (المائدة:٤٥).

فهذه العقيدة تعمل بالقصاص على جميع طبقات المجتمع، ولا تجيز دم المسلم إلا بإحدى ثلاث؛ جميعها تمس المجتمع والعقيدة وتهدد الأمن والاستقرار. قال ﷺ: "لا يحل دم امرئ مسلم، يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والمفارق لدينه التارك للجماعة"[١] وأبقى الإسلام باب العفو والتسامح مفتوحاً لنشر ثقافة الصلح والتواصل بين الناس. قال ابن عباس: "كانت في بني إسرائيل قصاص ولم تكن فيهم الدية، فقال الله لهذه الأمة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَـٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (البقرة:١٧٨). قال ابن عباس: فالعفو أن يقبل الدية في العمد " فاتباع بالمعروف" أن يطلب بمعروف ويؤدي بإحسان "[٢] ومن مواقف المطالبة بالقصاص والعفو واتباع المعروف ما رواه أنس ﷺ: "أن أخت الرُبيّع، أم حارثة، جرحت إنسانا. فاختصموا إلى النبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ "القصاص. القصاص" فقالت أم الرُبيّع: يا رسول الله! أيُقتص من فلانة؟ والله! لا يقتص منها. فقال النبي ﷺ "سبحان الله! يا أم الرُبيّع! القصاص كتاب الله" قالت: لا. والله! لا يقتص منها أبداً. قال: فما زالت حتى قبلوا الدية. فقال رسول

---

(١) البخاري: كتاب الديات، باب: قوله تعالى: ﴿أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن... ح (٦٤٨٤).

(٢) البخاري: كتاب الديات، باب: قول الله تعالى: ﴿أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن ... ح (٦٤٨٧).

الله ﷺ "إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره"[1].

فبلغ من تمكن ثقافة القصاص وعميق إيمان الصحابة بعقيدتهم أن الحق كان هو الذي يسود المجتمع وأن لا أحد فوق القصاص فكان إذا ارتكب أحدهم عملاً يوجب القصاص فإن صاحب الحق يمكن من حقه لا يعارضه أحد، يؤكد ذلك هذا الحديث الصحيح الذي لو كان فاعل الجريمة في هذا العصر لرأيناه قد غاب عن الأنظار متلبساً بجريمته لا يبالي بقصاص ولا حق، أما المسلم فكان ينقاد للقصاص على أساس عقيدة جعلت من القصاص تطهيراً من الآثام وأداء للحقوق وإسهاماً في كف المجرمين عن ارتكاب جرائمهم، وضماناً للأمن في المجتمع والاستقرار الذي يشيع المودة والألفة وينبت أخلاق التوافق الحضاري والتسامح الإنساني.

قال علقمة بن وائل: " أن أباه حدثه: إني لقاعد مع النبي ﷺ إذ جاء رجل يقود آخر بنسعة. فقال: يا رسول الله! هذا قتل أخي. فقال رسول الله ﷺ "أقتلته؟" فقال: إنه لم يعترف أقمت عليه البينة. قال: نعم قتلته. قال: "كيف قتلته؟" قال: كنت أنا وهو نختبط من شجرة فسبني فأغضبني. فضربته بالفأس على قرنه فقتلته. فقال له النبي ﷺ: " هل لك من شيء تؤديه عن نفسك؟" قال: ما لي مال إلا كسائي وفأسي. قال: "فترى قومك يشترونك؟" قال: أنا أهون على قومي من ذاك. فرمى إليه بنسعته. وقال "دونك صاحبك". فانطلق به الرجل. فلما ولّى قال رسول الله ﷺ: "إن قتله فهو مثله" فرجع. فقال: يا رسول الله! إنه بلغني أنك قلت: "إن قتله فهو مثله" وأخذته بأمرك. فقال رسول الله ﷺ: "أما تريد أن يبوء بإثمك وإثم صاحبك؟" قال: يا نبي

---

(١) مسلم: صحيح مسلم، كتاب، القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب الصائل على نفس الإنسان أو عضوه،ح (١٦٧٥).

الله! "لعله قال" بلى. قال: "فإن ذاك كذاك". قال: فرمى بنسعته وخلّى سبيله[1] فمن الذي جعل هذا القاتل ينقاد للحق ويعترف به بين يدي رسول الله ﷺ بعد أن ألقى بفأسه ووضع الحبل في عنقه ليذهب إلى حيث الموت؟ ثم من الذي جعل أخو القاتل يعفو عن قاتل أخيه لولا قيم الرحمة والعفو المغروسة في قلوب ونفوس السلف الذين تتعلم الأمم من مواقفهم ونظامهم قيم الإنسانية وقواعد الأخوة.

إن أخلاق المسلمين بنيت على قواعد الكتاب والسنة وما فيهما من تعاليم محكمة وقيم سامية، جعلت من أهل ذلك الجيل أئمة الهدى والتقى والعدل والرحمة، ينقادون للحق ويعملون به ويتألمون لزوال تطبيقه، فلما اغتيل أمير المؤمنين عثمان ﷺ واختفى القاتل ولم يقم القصاص كان ذلك من الخرق الهائل لأخلاق الحرب في عصر الرسالة، ودليل على أن ذلك العمل الرهيب من آثار مكر أخلاق وقيم غريبة عن قيم المجتمع الإسلامي، قال سعيد بن زيد ﷺ واصفاً تلك الجريمة التي ارتكبت بحق أمير المؤمنين الشهيد عثمان ﷺ: "لو انقضَّ أحد مما فعلتم بعثمان كان محقوقاً أن ينقضَّ"[2] لأن ذلك الفعل كان أشد من زلزال ينهار فيه جبل أحد، بحق قيم العدل والقصاص وثوابت الأخوة والمودة التي كانت تملأ قلوب أبناء جيل عصر الرسالة ﷺ الذين كان عصرهم عصر الأمن والسلم. فيه "يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله، والذئب على غنمه"[3] لاستتباب الأمن وانعدام الظلم وانقياد الناس لثوابته وضوابطه العادلة.

---

(١) صحيح مسلم، كتاب، القسامة، باب الإقرار بالقتل وتمكين ولي القتيل من القصاص، واستحباب طلب العفو منه،ح (١٦٨٠).

(٢) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الإكراه، باب: من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر، (٦٥٤٣).

(٣) البخاري: كتاب الإكراه، باب: من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر ح (٦٥٤٤).

الفصل الخامس

آداب الحرب مع المنافقين واليهود في عصر الرسول ﷺ

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

المبحث الأول

آداب الحرب في عصر الرسالة مع المنافقين

بعض صفات المنافقين وصبر المسلمين عليهم

تحدث القرآن الكريم عن المنافقين[1] في عصر السيرة النبوية بما يفضح سرائرهم ويوضح علانيتهم فلم يعد أمرهم خاف على كثير من المسلمين آنذاك، وقد بين القرآن صفاتهم الحسية. قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (المنافقون:٤) فهم ذوو هيئات جميلة وألسنة عذبة ينخدع بهم من لا يعرفهم، ولكن كل ذلك قشور لا مصداقية فيها، وهم يتظاهرون أنهم من المسلمين وحقيقتهم أنهم من أعدائهم. قال ﷺ: " مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين عيرة إلى هذه مرة وإلى هذه مرة ولا تدري أيها تتبع "[2] وهذا ما أكده القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ (التوبة:٥٦). ومن صفاتهم السخرية من المسلمين ونبيهم ﷺ قال

---

(١) النفاق لغة: مصدر من نافق لها عدة معان ومن معانيها نافق اليربوع نفاقاً ومنافقة، دخل في نفقائه، ونافق فلان: أي أظهر خلاف ما يبطن، ومنه جاء المعنى الاصطلاحي: نافق في الدين: ستر كفره وأظهر إيمانه، والمنافق من يخفي الكفر ويظهر الإيمان، ومن يضمر العداوة ويظهر الصداقة، ومن يظهر خلاف ما يبطن. ابن منظور: لسان العرب، مادة 'نفق'. الفيروز آبادي، القاموس المحيط، مادة 'نفق'.

(٢) مسلم: صحيح مسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، (٢٧٨٤) سنن النسائي: كتاب الإيمان، باب مثل المنافق، (٥٠٣٧).

تعالى: ﴿ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (التوبة: من الآية٦٥). وقولهم عن المسلمين: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ (الأنفال: من الآية٤٩) ومنها مصانعة الأعداء ومظاهرتهم على المسلمين. قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ ﴾ (النساء: من الآية ١٣٩). وتحدث القرآن الكريم عن انتشارهم الجغرافي وأنهم لم يقتصروا على المدينة وحدها. قال تعالى: ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ (التوبة:١٠١) والآيات والأحاديث التي تشرح صفات المنافقين وتحذر منهم كثيرة[١] تبين أن المسلمين كانوا على معرفة بعامة أفعالهم ومواقفهم ولكن مع كل ذلك لم يقم النبي ﷺ بإعلان الحرب عليهم وتطهير المجتمع المسلم من بوائقهم، وعلى الرغم من الأحوال المشجعة لقبول الإسلام في المدينة، وتحمس الأوس والخزرج لحماية رسول الله ﷺ ونصرته بعد الهجرة، إلا أنّ هذا لا يعني أن أهل المدينة دخلوا في الإسلام جميعاً دفعة واحدة، فقد تأخر إسلام بعض العشائر ومنهم خطمة وواقف ووائل وأمية، وتلك أوس الله، وهم حي من الأوس، فإنهم أقاموا على شركهم حتى مضت بدر وأحد والخندق[٢] ومرجع موقفهم ذلك يعود إلى وجود زعماء فيهم أصروا على شركهم مثل أبي قيس صيفي بن الأسلت، وكان شاعراً وقائداً يسمعون له ويطيعونه فوقف بهم عن الإسلام، وقد فرّ ابن الأسلتَ إلى قريش وحارب المسلمين[٣] ومنهم أبو

---

(١) ينظر الحامي، المنافقون وشعب النفاق، ٤٧ فما بعدها.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية، ٣ / ٢٨. العلي: الدولة في عهد الرسول ﷺ ١/ ١٤٨. الخليفة: الأنصار في العصر الراشدي، ٨٥.

(٣) ابن عبد البر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ٤/ ١٧٣٤. العلي: الدولة في عهد الرسول ﷺ ١/ ١٤٩.

عامر الراهب عبد عمرو بن صيفي من بني ضُبيعة من الأوس، سمّاه النبي ﷺ أبو عامر الفاسق لإعلانه الحرب على المسلمين وموالاته المشركين وقتاله معهم يوم أحد[1] وعاد مع المشركين إلى مكة وبعد فتح مكة انتقل إلى الطائف، ولما دخل المسلمون الطائف، هرب إلى الشام مع عدد من أتباعه فمات هناك[2] ولعل من أسباب تفشي النفاق في بعض بطون بني عمرو بن عوف من الأوس؛ وجود رجال منهم يعتنقون المسيحية أو اليهودية مما أدى إلى تلبيس هؤلاء على بعض الجهلة الأمر الذي أدى إلى وجود النفاق، حيث اجتمع هؤلاء إلى بعض أحبار اليهود يسمعون منهم وفي الوقت ذاته يزعمون أنهم من المسلمين[3].

فكان من دواعي الصبر على أذى المنافقين حرص النبي ﷺ على أن لا تكون هناك عقبة أمام الناس ودخول الإسلام، حتى لو كان ذلك بتجاوزه عن بعض حقوقه أو حقوق أصحابه ﷺ لذلك مدّ للمنافقين كل حبال الصبر لعله ينقذهم من درك النفاق ولكي لا يحدث تصدعاً في الصف الإسلامي في بداية الدعوة، حيث كان عامة المنافقين من قبائل الأنصار ولهم قرابات ومصاهرات وصلات في قبائلهم، ولم يكن كل أهل المدينة يعلم حقيقة المنافقين إذ أنهم في ظاهرهم يوافقون المسلمين وفي باطنهم يعملون على هدم الإسلام، ولذلك لم يكن أمام النبي ﷺ سوى التسلح بالصبر وتوصية أصحابه بذلك. قال أسامة بن زيد ﷺ: أن النبي ﷺ ركب حماراً، عليه إكاف، تحته قطيفة فدكية، وأردف وراءه أسامة، وهو يعود سعد بن عبادة في بني الحارث بن الخزرج، وذاك قبل وقعة بدر، حتى مرّ بمجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان، واليهود، فيهم عبد الله بن أبي، وفي المجلس عبد الله بن رواحة ﷺ فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة، خمّر عبد الله بن

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ٢/ ٢٧٠. العلي: الدولة في عهد الرسول ﷺ ١/ ١٥٠.

(٢) السهيلي: الروض الأنف، ٣/ ١٩.

(٣) السهيلي: الروض الأنف، ٢/ ٣٧٧.

أبي أنفه بردائه، ثم قال: لا تغبروا علينا. فسلم عليهم النبي ﷺ ثم وقف فنزل، فدعاهم إلى الله وقرأ عليهم القرآن، فقال عبد الله بن أبي: أيها المرء! لا أحسن من هذا، إن كان ما تقول حقاً، فلا تؤذنا في مجالسنا، وارجع إلى رحلك، فمن جاءك منا فاقصص عليه، فقال عبد الله بن رواحة ﷺ: اغشنا في مجالسنا، فإنا نحب ذلك، قال: فاستبّ المسلمون والمشركون واليهود، حتى همّوا أن يتواثبوا، فلم يزل النبي ﷺ يخفضهم، ثم ركب دابته حتى دخل على سعد بن عبادة، فقال: " أي سعد! ألم تسمع إلى ما قال أبو حُباب؟ يريد عبد الله بن أبي قال كذا وكذا" قال: اعف عنه. يا رسول الله! واصفح. فوالله! لقد أعطاك الله الذي أعطاك، ولقد اصطلح أهل البحيرة أن يتوجوه، فيعصبوه بالعصابة. فلما رد الله ذلك بالحق الذي أعطاكه شرق بذلك. فذلك فعل به ما رأيت. فعفا عنه النبي ﷺ[1] وهذا النص يبين حلم النبي ﷺ على المنافقين وصفحه عنهم وحرصه الشديد على السلم والأمن في المدينة واستمرار العمل في المدينة بمعاني قوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا﴾ (المزمل:١٠) وقوله ﷻ: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ (لأعراف:١٩٩) وأمثال ذلك من الآيات الكريمة، واستمر المسلمون يغضون الطرف عن مكائد المنافقين ومكرهم، ومن ذلك موقفهم بعد معركة بدر حين جاء البشير بأخبار النصر " فقال رجل من المنافقين لأسامة بن زيد: قُتل صاحبكم ومن معه، وقال رجل من المنافقين لأبى لبابة بن عبد المنذر: قد تفرّق أصحابكم تفرّقًا لا يجتمِعون منه أبدًا، وقد قتل علية أصحابه، وقتل مُحمّد؛ هذه ناقته نعرفها، وهذا زيد لا يدرى، ما يقول من الرّعب وجاء فلاّ، قال أبو لبابة: يكذّب اللّه قولك[2] ومع كل هذه المواقف الاستفزازية المبنية على الإفك فإنّ النبي ﷺ وأصحابه ﷺلم

---

(١) مسلم: صحيح مسلم، كتاب، الجهاد والسير، باب في دعاء النبي ﷺ وصبره على أذى المنافقين، ح (١٧٩٨).(١٧٩٩)

(٢) ينظر الواقدي: المغازي، ١/ ٨٤، ٨٥.

يتعرضوا لأحد من المنافقين! بل قبلوا إعلانهم للإسلام بعد بدر على علاته وعاملوهم على ظاهرهم ووكلوا سرائرهم إلى الله تعالى، مما يشير إلى الآفاق العالية التي كانت تمثل أخلاق الحرب في عصر الرسالة، وأنها لم تأخذ يوماً بردود الأفعال ضد خصومها ولم يُغرها النصر بالانتقام أو العدوان على أحد.

الموقف من خذلان المنافقين للمسلمين يوم أحد

ولما سار رسول الله ﷺ وأصحابه إلى أحد، ظهرت مواقف المنافقين الخطرة التي لا تنسجم مع المصلحة العامة للأمة. وعلى الرغم من أن المنافقين كانوا أفراداً لا تربطهم رابطة جامعة سواء كانت دينية أو قبلية أو غيرها، إلا أنهم كانوا يجتمعون على سلوك ومواقف متشابهة من الإسلام والمسلمين، فيكونون صنفاً قائماً بذاته يمتازون عن المشركين وعن أهل الكتاب من اليهود رغم اتفاقهم معهم في كثير من المواقف، ومما زاد من خطورتهم فقدانهم لمنهج واضح أو اتجاه محدد يمكن بحثه ودراسته وتقرير موقف منه[1] واللافت في موقف النبي ﷺ أنه لم يحاسب زعيم المنافقين ابن سلول ولا أحد ممن انخذل معه، على الرغم من مخالفة موقفهم ذلك للمصلحة العامة المتمثلة في حماية المدينة من الأخطار الخارجية ومناقضته لما تم الاتفاق عليه في الوثيقة من وجوب العمل سوية على رد أي عدوان خارجي، فضلاً عن مخالفة أمر النبي ﷺ وإجماع المسلمين، وما في ذلك من تعاون غير مباشر مع العدو وخذلان متعمد للمسلمين، ومع ذلك تعامل النبي ﷺ معهم بالتجاوز والصفح مما يبين الحرص الشديد على وحدة الصف الداخلي، وبعدها عن الانتقام وإثارة الأحقاد، حتى لو كان ذلك على حساب دماء شهداء أحد والحرمان من النصر على أخطر الأعداء المتربصين بالمدينة ومن فيها، وكل ذلك يعمل به المسلمون على أمل صلاح حال من يجهل أهداف المنافقين ووسائل عملهم ضد المسلمين وعقيدتهم.

---

(١) العلي: الدولة في عهد الرسول، ١/ ١٥٨. الخليفة: الأنصار في العصر الراشدي، ٨٧.

ولما نجحت مساعي اليهود في تأليب القوى من حول المدينة والقيام بإعداد حملة الأحزاب التي مثلت أكبر حشد في جزيرة العرب يهاجم المسلمين، وعلى الرغم من أن غزوة الأحزاب لم يحصل فيها قتال شامل بين الطرفين، لكنها كانت حرب أعصاب ومصابرة متواصلة في الليل والنهار، وكان الأمر فيها مهولاً لشدة التضييق على المسلمين وكثرة القوى المشاركة في الهجوم. قال تعالى: ﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ (الأحزاب:١١) لكن كل ذلك كشف عن الثبات والقدرة على الصبر والتحمل في قيم الحرب في عصر الرسالة، فازداد فيها أهل الإيمان إيماناً. قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾ (الأحزاب:٢٢) ولكن مع كل هذا الإيمان والتسليم والصبر كان الموقف مزلزلاً، وزاد الأمر صعوبة عندما نقض يهود بني قريظة العهد مع المسلمين وأعلنوا انضمامهم إلى المشركين. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴾ (لأنفال:٥٦) فموقعة الخندق زادت صلابة أهل الإيمان إيماناً، وزلزلت أهل النفاق وكشفت نياتهم وأظهرت وهنهم وريبهم، وكشفت زورهم إذ أخذوا يتندرون بأحاديث الفتح وقالوا عن رسول الله ﷺ: "يخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى، وأنتم تحفرون الخندق لا تستطيعون أن تبرزوا"[1] قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ (الأحزاب:١٢).

وكان من أبرز ما عبر به المنافقون عن مواقفهم المتخاذلة، سوى السخرية والتندر، عدم المشاركة بحفر الخندق، وعدم انضباطهم، وكثرة ترددهم إلى بيوتهم بهدف تفتيت

---

(١) السيوطي: لباب النقول في أسباب النزول، سورة الأحزاب الآية (٤) ١/ ١٧١. الغزالي: فقه السيرة، ٣٣٩.

الصف وخذلان المجاهدين الصابرين. قال تعالى: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الأحزاب:١٨) وذلك كان حال المنافقين والذين في قلوبهم مرض والمرجفين[1] فالمنافقون يدعون إخوانهم إلى القعود وأن لا يشاركوا في الدفاع عن بلادهم وأهليهم وهم جميعاً صنف واحد، وجدوا في النفاق فرصة للكشف عن خبايا نفوسهم والعمل على نشر الوهن والخذلان والشك والريب في النفوس وتكذيب وعد الله ورسوله ﷺ بالفتح. قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ﴾ (الأحزاب: من الآية١٣) فهم يحرضون أهل المدينة على ترك الصفوف والعودة إلى بيوتهم بحجة أن إقامتهم أمام الخندق مرابطين لا موضع لها ولا محل وبيوتهم معرضة للخطر من ورائهم، وهذه بلا شك دعوة خبيثة ماكرة تأتي النفوس من الثغرة الضعيفة فيها، ثغرة الخوف على النساء والذراري. قال تعالى: ﴿ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ (الأحزاب: من الآية١٣) فالقرآن يكذب دعواهم ويظهرهم متلبسين بالاحتيال والجبن والفرار من الزحف. قال تعالى: ﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الأحزاب:١٦). فكانت محنة المسلمين مع أحزاب المشركين والأعراب واليهود والمنافقين محنة قاسية لطول الحصار وضيق الحال وقلة الإمداد والأنصار، لكنها كانت كيراً أظهر خبث المنافقين وزيف مواقفهم، فعرفهم المسلمون وحذروا من مكرهم وكيدهم، ثم زلزل الله الأحزاب وأرسل عليهم ريحاً وجنوداً فانسحبوا خائبين. قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ (الأحزاب:٩) وفاز المؤمنون بالنصر وانفضّ جمع المشركين، ولم يبدل المسلمون منهجهم في الصبر على بوائق المنافقين والتغافل عما

---

(١) ينظر سيد قطب: في ظلال القرآن، ٥/ ٢٨٤٠.

يقومون به من أعمال تهدد أمن وسلامة المدينة وأهلها، حفاظاً على الوحدة وتعالياً عن السقوط فيما ينصبه لهم اليهود والمشركون من مكائد يعمل المنافقون على تنفيذها، من حيث يشعرون أو لا يشعرون.

الموقف من المنافقين بعد الفراغ من غزوة بني المصطلق

كان المنافقون يتحينون أي حدث عارض ليصنعوا منه مشكلاً يشغلون به المسلمين عن مهامهم فحان لهم موقف من ذلك على ماء المريسيع، حين وردت واردة المسلمين فازدحم جهجاه بن مسعود الغفاري أجير عمر بن الخطاب ﷺ وسنان بن وبر الجهني حليف بني عوف بن الخزرج على الماء فاقتتلا فصرخ الجهني: يا معشر الأنصار، وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين، فاغتنمها عبد الله بن أبي بن سلول وعنده رهط من قومه فيهم زيد بن أرقم الأنصاري غلام حدث، فقال عبد الله بن أُبي: أوقد فعلوها ؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا والله ما أعدنا وجلابيب قريش إلا كما قال القائل: سمن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لوا أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم، فسمع ذلك زيد بن أرقم فمشى به إلى رسول الله فأخبره الخبر فقال من حضر من الأنصار من أصحابه: يا رسول الله عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل؛ حدباً على ابن أبي بن سلول ودفعاً عنه[1] فأمر رسول الله ﷺ بالمسير، فلقيه أسيد بن حضير، فقال: يا نبي الله، والله لقد رحت في ساعة منكرة، ما كنت تروح في مثلها، فأعلمه النبي ﷺ بقول ابن أُبي. فقال أسيد: والله يا رسول الله أنت العزيز وهو الذليل، فأنت يا رسول الله تخرجه إن شئت، وقال عبد الله بن عبد الله بن أُبي: يا رسول الله إنه بلغني أنك تريد قتل ابن أُبي فيما بلغك عنه، فإن كنت لا بد فاعلاً فمرني

---

(١) السهيلي: الروض الأنف، ٤/ ١٤. الواقدي: المغازي، ٢/ ٤١٥، ابن هشام : السيرة النبوية، ٤/ ٢٥٢.

به، فأنا أحمل إليك رأسه فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبرّ بوالده منّي، فقال له رسول الله ﷺ: "**بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا**"[1] ولما قال: "عبد الله بن أبي أقد تداعوا علينا؟ لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. قال عمر ﷺ ألا نقتل يا رسول الله هذا الخبيث؟ لعبد الله بن أبي فقال النبي ﷺ: "**لا يتحدث الناس أنه كان يقتل أصحابه**"[2] وقال زيد بن أرقم: فأتيت النبي ﷺ فأخبرته بذلك. فأرسل إلى عبد الله بن أبي فسأله فاجتهد يمينه ما فعل. فقال: كذب زيد رسول الله ﷺ قال فوقع في نفسي مما قالوه شدة، حتى أنزل الله تصديقي في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ (المنافقون:١) قال ثم دعاهم النبي ﷺ ليستغفر لهم، قال: فلوّوا رؤوسهم. وقوله: كأنهم خشب مسندة، قال: كانوا رجالاً أجمل شيء[3] وذلك في تفسير تتمة الآيات.

وهكذا تظهر آداب الحرب في عصر الرسالة وسياستها القائمة على التسلح بالصبر ومدّ الحبال لأهل النفاق حتى يكتشف الناس مقاصدهم وتسقط جميع حججهم التي يتسترون بها، فيحذرونهم بعد أن عرفوا وسائلهم التي يكيدون بها وحدة المجتمع وأمنه واستقراره، وكلما ازدادوا مكراً ازدادت قيم المسلمين حلماً فكأنما تقاومهم بالحلم الذي تكفل بإسقاطهم من عيون الناس وبالتالي إحباط تدابيرهم ومكرهم بوحدة المسلمين، وهذه لطيفة من لطائف العمل السياسي الإسلامي الواثق المتبصر، الذي يصل إلى ما يريد على بساط من الحرير بدلاً من مدارج الحديد والنار.

---

(١) ينظر ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، سورة المنافقون، تفسير الآية، (٥).

(٢)مسلم: صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب نصر الأخ ظالما أو مظلوما، ح(٢٥٨٤).

وفي الشرح: فكسع: من الكسع وهو ضرب دبر غيرة بيده أو رجله وقيل هو ضرب العجز بالقدم.

(٣) مسلم: صحيح مسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، (٢٧٧٢).

ولعل هذا الموقف يوضح بعض وسائل التعامل مع المخالفين سلمياً، فيظهر عميق قيم أخلاق المسلمين السامية، وسعة آفاقها الهادية، وشديد حرصها على السلامة، ووحدة الصف، وقدرتها على التعامل مع أقسى وسائل إثارة الفتن وتسعير العداوات؛ دون الانجرار إلى مكائد المنافقين، وإطفاء تلك الفتن من خلال التمسك بسبل التجاوز والرفق والإحسان، تلك القيم التي تستهوي القلوب وتنشر الود والألفة بين الناس، ويتضح في ذلك الموقف أيضاً ولاء المسلمين المطلق لله ولرسوله ﷺ والمفاصلة التامة لكل ما يتعارض مع هذا الولاء، وموقف عبد الله بن عبد الله بن أبي بعد نزول قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (المنافقون:٨) يظهر مدى الاستعداد للتضحية في سبيل الله وتقديم ذلك على الأبناء والآباء.

الموقف من المنافقين في غزوة تبوك

في السنة التاسعة من الهجرة، خرج المسلمون في غزوة تبوك الرجلان والثلاثة على بعير واحد، في حرّ شديد وحين طابت الظلال وأينعت الثمار، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ (التوبة: من الآية١١٧) وأمام هذا الامتحان الشديد تساقط كثير من المنافقين والتمسوا الأعذار الواهية لتسويغ تخلفهم، وقد لا يكون في هذا غرابة، إنما الغرابة في المنافقين الذين لم يتخلفوا عن هذه الغزوة! فمن أعذار المنافقين الذين تخلفوا عن تبوك ما قاله الجد بن قيس وهو أحد بني سلمة لرسول الله ﷺ في جهازه إلى تبوك، حين قال له: "هل لك العام في جلاد بن الأصفر؟" فقال: يا رسول الله، أو تأذن لي ولا تفتني؟ فو الله لقد عرف قومي أنه ما من رجل بأشد عجباً بالنساء مني وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا

أصبر! فأعرض عنه رسول الله ﷺ[1] قال ابن إسحاق ففي الجد نزلت هذه الآية: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (التوبة:٤٩) ومنهم من اعتذر بشدة الحر وبعد المسافة. قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِي ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ﴾ (التوبة: من الآية٨١) وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ (التوبة: من الآية٤٢) وتجاوز بعض المنافقين حدّ الاعتذار الذي يزيل عنه الحرج في تخلفه، وأخذ يبث الشائعات التي تروج للروم وتثبط عن نصرة المسلمين، فكان عبد الله بن أبي زعيم المنافقين يقول: يغزو محمد بني الأصفر مع جهد الحال والبعد البعيد إلى مالا طاقة له به، يحسب أن قتال بني الأصفر معه اللعب والله لكأني أنظر إلى أصحابه مقرنين في الحبال إرجافا برسول الله وبأصحابه[2].

ومن إرجافهم بالمسلمين أيام غزوة تبوك أن ناساً من المنافقين كانوا يجتمعون في بيت سويلم اليهودي وكان بيته عند جاسوم[3] يثبطون الناس عن المشاركة في غزوة تبوك، فأرسل إليهم النبي ﷺ طلحة بن عبيد الله في نفر وأمره أن يحرق عليهم بيت سويلم ففعل ذلك فاقتحم الضحاك بن خليفة من ظهر البيت فانكسرت رجله واقتحم أصحابه فأفلتوا، فقال الضحاك في ذلك:

كادت وبيت الله نـار محمد ... يصلى بها الضحـاك وابن أبيرق

---

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، سورة التوبة، الآية، (٤٩).

(٢) الصالحي: سبل الهدى والرشاد، ٥/ ٦٣٩.

(٣) جاسوم: بئر في راتج لأبي الهيثم بن التيهان في مساكن بني زاعوراء. ينظر السمهودي: وفـاء الوفـا، ٣/ ٨٦٠.

سلام عليكم لا أعود لمثلها   أخاف ومن تشمل به النار يحرق[1].

ومن اللافت للنظر اجتماع المنافقين إلى اليهود مما يشير إلى أثر اليهود في نشوء حركة النفاق وتغذية الحركات المعادية للصحابة ﷺ وقد يكون لاتصالات ابن أبي وتحالفه معهم أثر في ذلك.

ومن وسائلهم الهدامة أيام غزوة تبوك " أن رجالاً من المنافقين ... تخلفوا عنه ﷺ وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ فإذا قدم رسول الله ﷺ اعتذروا إليه وحلفوا وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا فنزلت فيهم: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (آل عمران:١٨٨)... قال الشافعي رحمه الله فأظهر الله عز وجل لرسول الله ﷺ أسرارهم وخبر السمّاعين لهم وأتباعهم أن يفتنوا من معه بالكذب والإرجاف والتخذيل لهم فأخبر أنه كره انبعاثهم إذا كانوا على هذه النية فكان فيها ما دل على أن الله جلّ ثناؤه أمر أن يمنع من عرف بما عرفوا به من أن يغزوا مع المسمين لأنه لا ضرر عليهم ثم زاد في تأكيد بيان ذلك بقوله ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴾ (التوبة:٨١) قرأ إلى قوله ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴾ (التوبة:٨٣)"[2] وفي سورة التوبة علم الناس حقيقة المنافقين ووسائل مكرهم، فبان زيفهم وانكشف مكرهم، واتضحت معالم التعامل الحاسم معهم، وجاء ذلك موافقاً لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ ﴾ (التوبة: من الآية٧٣) فأمره الله تعالى بجهاد

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، ٥/ ١٩٧. الصالحي: سبل الهدى والرشاد، ٥/ ٦٣٢.

(٢) البيهقي: سنن البيهقي، كتاب السير، باب من ليس للإمام أن يغزو به بحال، (١٧٦٥٠).

الكفار بالسيف والمنافقين باللسان وأذهب الرفق عنهم[1] وكان ذلك بعد أن تمادوا بالكيد والمكر والمجاهرة في العدوانية أيام تبوك، وتجاهلهم لسياسة المسامحة والعفو التي عمل بها المسلمون معهم في عصر الرسالة.

محاولة المنافقين الفتك برسول الله ﷺ في طريق العودة من تبوك

فلما أقبل رسول الله ﷺ من غزوة تبوك عائداً إلى المدينة، مكر به أناس من المنافقين وائتمروا أن يطرحوه من عقبة في الطريق، فلما بلغ رسولُ الله ﷺ تلك العقبة أخبر خبرهم فبينما كان حذيفة بن اليمان يقود ناقة رسول الله ﷺ وعمّار بن ياسر يسوقها، إذ أقبل رهط متلثمون على الرواحل حتى غشوا عمّاراً فأقبل ﷺ يضرب وجوه الرواحل وهبط رسول الله ﷺ وحذيفة يقود ناقته، فعرف عمّار عامة الرواحل التي كان عليها المنافقون وكان يقدر عددهم بأربعة عشر رجلاً، فلما علم أُسيد بن حُضير بمكيدة المنافقين، قال: يا رسول الله مُرّ كل بطن أن يقتل الرجل الذي همّ بهذا فيكون الرجل من عشيرته هو الذي يقتله، وإن أحببت والذي بعثك بالحق فنبئني بهم لا تبرح حتى آتيك برءوسهم؛ حتى متى نداهنهم؟ فقال ﷺ لأُسيد: "إني أكره أن يقول الناس: إن محمداً لما انقضت الحرب بينه وبين المشركين، وضع يده في قتل أصحابه"[2] وعن حذيفة ﷺ أنهم كانوا أربع عشر أو خمسة عشر، وأن عذر ثلاثة منهم قالوا: ما علمنا ما أراد القوم وقد كانوا يريدون أن يُنفّروا ناقة رسول الله ﷺ فيطرحوه منها[3] وقد تكون هذه المحاولة من أخطر ما قام به لمنافقون في أعمالهم العدوانية ضد المسلمين، إلا أن رسول الله ﷺ لم يغير معاملته لهم ولم يُشهّر بهم ولم يعاقبهم وترك أمرهم إلى الله تعالى، فسياسة التسامح هذه كانت ثابتة

---

(١) البيهقي: سنن البيهقي، كتاب السير،، باب ما جاء في نسخ العفو عن المشركين، (١٧٥٢٠).

(٢) الواقدي: المغازي، ٣/ ١٠٤٣. الصالحي: سبل الهدى والرشاد، ٥/ ٦٦٩.

(٣) ابن حنبل: المسند، حديث حذيفة بن اليمان عن النبي ﷺ (٢٣٣٦٩) صحيح مسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، (٢٧٧٩).

منذ أن انخذل ابن أبي بالمنافقين في غزوة أُحد، وبقي رسول الله ﷺ يحرص على توبته حتى مرض مرض الموت، فكان رسول الله ﷺ يعوده على الرغم من سيرته السوداء ومواقفه الخبيثة، فدخل ﷺ عليه وهو يجود بنفسه. فقال ﷺ: "قد نهيتك عن حب يهود" فقال: قد أبغضهم أسعد بن زرارة فما نفعه، ثم قال: يا رسول الله ليس هذا بحين عتاب هو الموت فإن متّ .. صلّ علي واستغفر لي[1] فصلّى عليه رسول الله ﷺ ثم نزل قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ (التوبة:٨٤). وبلغ من شفقة رسول الله ﷺ وحرصه على وحدة الصف، ونقاء القلوب وجمال الألفة وثمار التعاون، وغسل سخائم القلوب، ونسيان الماضي الأليم والعفو عن المسيء، أنه ﷺ تجاوز عن زعيم النفاق والمكر الذي طالما آذاه وخذله. قال ابن عمر: "لما توفي عبد الله بن أبي، جاء ابنه، عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه، فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه، فقام عمر رضي الله عنه فأخذ بثوب رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! أتصلي عليه وقد نهاك الله أن تصلي عليه؟ فقال رسول الله ﷺ "إنما خيرني الله فقال: استغفر لهم أو لا تستغفر لهم. إن تستغفر لهم سبعين مرة. وسأزيده على سبعين". قال: إنه منافق. فصلّى عليه رسول الله ﷺ فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ (التوبة:٨٤). [2] فكان من ثمرة مواقف التسامح والتصالح والعفو التي جسدها رسول الله ﷺ؛ كسب قوم ابن أبي وأنصاره إلى صف المسلمين، وتوليهم محاسبته وتوبيخه على كثير مما كان يقوم به

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ٥/ ٣٥.

(٢) مسلم: صحيح مسلم، كتاب، صفات المنافقين وأحكامهم، (٢٧٧٤).

من مكائد، وانفضاض كثير ممن حوله ، وبالتالي ترسيخ وحدة الصف وحماية المجتمع الإسلامي من نشاطات العابثين وبوائق المنافقين.

الموقف من بناء المنافقين مسجد الضرار

ومن أفعالهم الهدامة بناء مسجد الضرار كقاعدة لهم يلتقون فيها فيتدارسون أمورهم ويرسمون مخططاتهم. قيل لعاصم بن عدي: " لماذا أرادوا بناءه؟ قال: كانوا يجتمعون في مسجدنا فيتناجون فيما بينهم فيلحظهم المسلمون بأبصارهم فشق عليهم ذلك وأرادوا مسجداً يكونون فيه لا يغشاهم إلا من يريدون ممن هو على مثل رأيهم وكان أبو عامر الفاسق يقول: لا أقدر أن أدخل مربذكم هذا، وذاك أنّ أصحاب محمد يلحظونني وينالون مني ما أكره. قالوا: نحن نبني مسجداً تتحدث فيه عندنا[1] ومن هذا تظهر الأبعاد الخطيرة لهذا البناء، وتتضح المسوغات الحقيقية لصرامة الموقف الإسلامي من مثل هذه المكائد المبطنة بأهداف ذات أبعاد سياسية، فلما عاد رسول الله ﷺ من تبوك أتاه خبر مسجد الضرار فدعا مالك بن الدخشم أخا بني سالم بن عوف ومعن بن عدي أو أخاه عاصم بن عدي أخوي بني العجلان فخرجا سراعاً حتى أتياه فحرقاه وهدماه وتفرق عنه أهله، ونزل فيهم قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (التوبة:١٠٧) ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ (التوبة: من الآية١٠٨) وكان الذين بنوه اثني عشر رجلاً[2].

فيتبين من هذه المواقف التي تستقي قيمها من توجيهات الكتاب والسنة لا تحيد عنهما، وأنها لم تكن تحول بين الناس وبين ما يقولون مادام ذلك لا يورث فتنة

(١) الصالحي: سبل الهدى والرشاد، ٥/ ٢٥٩.

(٢) ينظر الواقدي: المغازي، ٣/ ١٠٤٥. ابن هشام: السيرة النبوية، ٥/ ٢١٢.

ويحدث صراعاً، وكان النبي ﷺ يتجاوز عمّا يقع له من حقوق بما في ذلك محاولتهم اغتياله ﷺ كل ذلك لكي لا يقال إن محمداً ﷺ يقتل أصحابه ولكي لا يشيع المبطلون أن المسلمين يعملون بالقتل ويحبون سفك الدماء كما يروج ضدهم باطلاً في هذا العصر، وبالمقابل لم يكن المسلمون يتهاونون مع من يحاول العبث بعقيدتهم أو يتستر بها ويعمل على تسخيرها لخدمة أهدافه الخاصة، لذلك كانت مهاجمة تجمع المنافقين في بيت سويلم اليهودي وإحراق مسجد الضرار، موافقة لأخلاق الحرب في عصر الرسالة، لأن هذه المراكز أقيمت لمحاربة وحدة الصف وبث الشائعات والإرجاف بالمسلمين، والعمل على كشف العورات والتواصل مع الأعداء، فكان الموقف منها ضرورة شرعية وسياسية تخدم الاستقرار والأمن الذي هو حاجة ملحة لكل أبناء المجتمع في أي دولة كانت.

وإذا كان هناك بعض من تاب من المنافقين فإنّ عامتهم ظلوا في شكهم يترددون، يبثون الشائعات ويثيرون الشبهات، ففي بعض الطريق إلى تبوك، ضلت ناقة النبي ﷺ فخرج أصحابه في طلبها، وكان عُمارة بن حزم الأنصاري، وهو ممن شهد العقبة وبدر وقتل يوم اليمامة ؛كان عند رسول الله ﷺ وفي رحله المنافق زيد ابن اللصيت القينقاعي وهو لا يعلم أنه منافق، فقال: أليس محمد يزعم أنه نبي يخبركم عن خبر السماء؟ وهو لا يدري أين ناقته! فقال رسول الله ﷺ وعمارة عنده: إن رجلاً قال: " هذا محمد يخبركم أنه نبي ويزعم أنه يخبركم بأمر السماء وهو لا يدري أين ناقته " وإني والله ما أعلم إلا ما علمني الله وقد دلني الله عليها وهي في هذا الوادي"[1] وهذا يشير إلى أن أمر كثير من المنافقين لا يعرفه المسلمون، فهذا زيد صحبهم طوال هذا الطريق الطويل وهم لا يعلمون عن حاله لو لم يتحدث بما أثار حوله الشكوك وأدى إلى كشف حاله، وإذا كان الذين حول المنافق لا يعرفون

---

(١) السهيلي: الروض الأنف، ٢/ ٣٨٤. ابن هشام: السيرة النبوية، ٥/ ٢١٢. الصالحي: سبل الهدى والرشاد، ٥/ ٦٤٧.

حقيقته، فكيف بمن هو بعيد عنهم ولا يعلم منهم إلا ظاهر القول، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ (النساء: من الآية١٤٢) فجاءت خطورة المنافقين من منهجهم القائم على المخادعة والتمويه، وقدرتهم على التأقلم مع الأوضاع المستجدة، ومن هنا يتضح سبب هذا التهديد الهائل لهم الذي جاء في عدة آيات. في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ (النساء:١٤٥) وقوله ﷻ: ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (النساء:١٣٨) وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ (النساء: من الآية١٤٠).

والحاصل من كل هذه المواقف الخطرة التي تهدد وحدة الصف وتبث الدعاية للعدو وتثبط المسلمين، فإنّ أخلاق الحرب في عصر الرسالة لم تخرج عن طور حلمها وسعة عفوها ومراعاتها لبنية المجتمع ومشاعر الناس وصلة الأرحام وجهل البعض بمقاصد وأهداف المنافقين، مما يؤكد سياسة الحكمة وسعة درايتها ودقة تشخيصها للأحداث وشمولية رؤيتها لمصالح الأمة وبعدها عن الانجرار إلى مواطن الفتن أو الانحراف عن الهدف، وقدرتها على التحكم بقرار الحرب والسلم وتسخير ذلك كله لخدمة نشر التوحيد وحماية الوحدة وتأصيل المسار نحو أهداف الرسالة الكبرى على أسس من الصبر والحكمة، وفي كل ذلك من الدروس والعبر التي يجب تعميم العمل بها بين أبناء الأمة في هذا العصر، والتعريف بها حتى يفقهها العاملون في حقول الدعوة وخدمة الإسلام؛ للتبصر والتأني والبعد عن التسبب في إيقاد الفتن وتصديع الصفوف وتهديد الأمن والسلم ومستقبل الأمة.

رَفْعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

المبحث الثاني

آداب الحرب مع اليهود في عصر الرسالة

الموقف من اليهود في المدينة بعد الهجرة

فصّل القرآن الكريم العلاقة مع اليهود بكل جوانبها فتحدث عنهم بما يظهر أخلاقهم مع الأنبياء ومع الأمم الأخرى ومع بعضهم البعض ومع رسول الله ﷺ فأصبحت النظرة إلى اليهود متكاملة عند المسلمين، بل أصبح علماء المسلمين أكثر معرفة باليهود واهتماماتهم وماضيهم من كثير من اليهود أنفسهم، فضلاً عن معرفة الأنصار المباشرة بهم وبتطلعاتهم وسياساتهم ووسائل ابتزازهم وغدرهم.

وقد أنصفهم القرآن الكريم كغيرهم من الأمم، فبين ما للمؤمنين منهم والصالحين من قدرات وإيجابيات وفضائل واجتباء على العالمين، كما حذّر من مكر كفرتهم قتلة الأنبياء ومن أحقادهم على الأنبياء والصالحين وتعاملهم بالربا والنكث وإيقاد الفتن بين الشعوب، ومن الآيات التي أظهرت فضائل المؤمنين من بني إسرائيل حين حملوا رسالة التوحيد وناصروا الأنبياء على غيرهم من الوثنيين، فذكّرهم القرآن بذلك المقام وتلك الفضيلة، قال ﷻ: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ (البقرة:٤٧). وقال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (السجدة:٢٤) [1] وقوله ﷻ: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ

---

(١) ينظر: مسلم، معالم قرآنية في الصراع مع اليهود، ١٠٠.

أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة:١٣٦) وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (العنكبوت: من الآية٤٦) وقوله ﷻ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران:٦٤) وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ (لأعراف: من الآية١٥٨). والآيات القرآنية التي تظهر مزايا المؤمنين من أهل الكتاب كثيرة وفي أكثر من سورة من كتاب الله تعالى، ومحاولات النّبي ﷺ تحبيب الإسلام إليهم وبيانه أنه يستقي مما كان يستقي منه نبي الله موسى ؑ. قال تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ (لأعراف:١٥٩) وقال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (الجاثية:١٦). وحاول النبي ﷺ بسماحته احتواء التصادم مع اليهود بكل الوسائل، وكان ذلك حاضراً في نفسه ﷺ من بداية دخوله المدينة، فكان أول خطواته في هذا الاتجاه هو كتابة وثيقة المدينة "وكتب رسول الله ﷺ كتاباً بين المهاجرين والأنصار وادع فيه يهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم"[(١)].

وتعد وثيقة المدينة من أدل الشواهد على النهج السلمي الحضاري المنصف، ومن أهم المحاولات الهادفة التي سلكها المسلمون لتجنب الحرب وتنظيم العلاقة مع اليهود على أسس عملية، لا تدع باباً للتداخل الذي يفضي إلى التصادم

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، ٣/ ٣١. الصارم المسلول، ١/ ٦٦. ابن كثير: تفسير سورة البقرة، الآية (٩). زاد المعاد، ٣/ ١٠١.

معهم، فنظمت الوثيقة وسائل التعامل بين جميع الأطراف وبينت الواجبات والمسؤوليات في حال السلم والحرب، ولم تهمل أحداً من اليهود إلا وذكرته وحددت سبل العلاقة معه، وذلك بعد بناء المسجد في المدينة، وكان من نتائج الوثيقة أن النبي ﷺ وادع اليهود وعاهدهم ونظم العلاقة فيما بين سكان المدينة على أسس واضحة ترك فيها الباب مفتوحاً لمن أراد الالتحاق بأهل هذه الصحيفة، والتزم بما فيها من ضوابط اجتماعية ومالية وسياسية وعسكرية.

كما نظمت العلاقة بين أهل المدينة، ضد من يريدهم بسوء ولاسيما قريش، ونظمت القضاء وكل أحوال الحرب والسلم والأمن والعدالة، وعينت هذه الوثيقة سلطة عليا في المدينة تمثلت برسول الله ﷺ **وأن كل خلاف بين أهلها مرده إلى محمد رسول الله** ﷺ وأن البر دون الإثم لا يكسب أحد إلا على نفسه، **وأن الله على** أصدق ما في هذه الصحيفة. وقد ذكرها ابن إسحاق مفصلة إلا أن نص الصحيفة لم يسلم من النقد[(١)] في سنده ومتنه على الرغم من دقته وأهميته وشهرته. فيتبين مما سبق أن إدارة الرسول ﷺ في المدينة كانت تهدف إلى تكوين أمة مترابطة فيما بينها، للأفراد فيها حرية العمل والتنظيم، وللسلطة المركزية حق الاهتمام بالعدالة والأمن العام والقضاء والحرب والسلم، على أن تكون التقوى والأخلاق الإسلامية الفاضلة، هي أساس التعامل في المجتمع الجديد[(٢)] وليس هذا الموضع موضع التفصيل في تنظيمات النبي ﷺ في المدينة ولكن في هذه التنظيمات موطن الشاهد البيّن على حضارية قيم المسلمين في عصر الرسالة، وحرصها الشديد على خيار

(١) شرّاب ، محمد محمد حسن : المدينة المنورة في فجر الإسلام والعصر الراشدي ، (ط١) ، دمشق ، دار القلم ١٤١٥ هـ / ١٩٩٤م وقد أورد انتقادات مطولة لسند الصحيفة ومتنها ووجه نقده لنصها في السيرة النبوية، وكذلك لابن سيد الناس في كتابه عيون الأثر، والبيهقي، في دلائل النبوة، إلا أنه لم يكن دقيقا في نقده ولا توثيقه، ينظر: المدينة النبوية، ١/ ١١٥. وعيون الأثر: ١/ ١٩٨. حيث يظهر عدم الدقة في المقارنة ونقل النصوص. وينظر ابن القيم: زاد المعاد في هدي خير العباد، ٣/ ٥٧.

(٢) العلي: الدولة في عهد الرسول ، ١/ ١١٢. الخليفة: الأنصار في العصر الراشدي، ٤٢ .

السلم، وإقامة قواعد الأمن والاستقرار على أسس واضحة راسخة، بين جميع أبناء الأديان والأمم، ولكن متى كان اليهود وأعداء الصحابة يحرصون على السلم إن كانت لهم شوكة وقوة يستندون إليها؟!.

ومثلما عامل النّبي ﷺ اليهود بالاحترام والاعتراف بنبوة موسى عليه السلام وأخوته، ونظم وسائل العيش المشترك معهم، كذلك عاملهم بالرفق والتسامح والتجاوز عمّا كان يصدر منهم من أذى تجاه شخصه الكريم ﷺ[1] قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (البقرة:١٠٤) في إشارة إلى عدم استخدام لفظ راعنا لأن يهود المدينة كانوا يحرفونها عن مقاصدها لينالوا من النّبي ﷺ واتهامه حاشاه بالرعونة[2] كما يتمنون ذلك في سرائرهم. وبلغ من أخلاق اليهود واستهانتهم بضوابط الأمن بعد كتابة الصحيفة أنهم يشتمون النّبي ﷺ وهو في بيته، ولكنه كان يستوعب كل ذلك بحلمه وتواضعه ﷺ وكان من رفقه بهم إذا نالوا منه ﷺ أنه لا يزيد أن يقول وعليكم. قالت الطاهرة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: "استأذن رهط من اليهود على النبي ﷺ فقالوا: **السام عليك، فقلت: بل عليكم السام واللعنة. فقال: "يا عائشة، إنّ الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله". قلت: أولم تسمع ما قالوا: قال ﷺ: " قلت: وعليكم"**[3] ولم يقبل ﷺ أن تغلظ أم المؤمنين رضي الله عنها القول لهم على الرغم من علمه ﷺ بعظيم

---

(١) البخاري: الجامع الصحيح، ، كتاب الجهاد، باب: من صف أصحابه عند الهزيمة، ونزل عن دابته واستنصر. ح (٢٧٧٧).

(٢) السيوطي: الاتقان في علوم القرآن، ١/٣٩٩، ح (٢٧٠٠) الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ٣/٤٤٦.

(٣) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتلهم، باب: إذا عرَّض الذمِّيُّ بسب النبي ﷺ ولم يصرِّح ح (٦٥٢٨) البيهقي: سنن البيهقي، كتاب السير: باب يشترط عليهم أن يفرقوا بين هيئتهم وهيئة المسلمين، ح (١٨٥٠٣) قال معمر: قال أصحابنا: وهذه السنن لا يمكن استعمالها إلا بعد المعرفة بهم وليس كل أحد يعرفهم فلا بد من غيار يتميزون به عن المسلمين.

حبها له ﷺ وغيرتها الشديدة عليه، وكان ﷺ يُعلّم أصحابه مكر اليهود ويأمرهم بالصبر والصفح عنهم ولم يكن يرضى ﷺ أن يردّ أحد عليهم بأكثر مما خرج منهم، وهذا منتهى الرفق والإنصاف والرحمة التي لم يكن رسول الله ﷺ يخرج عن منهجها إلا إذا انتهكت محارم الله أو هددت عقيدة التوحيد ومنع ﷺ عن تبليغها للناس.

قال أنس بن مالك ﷺ: "مرَّ يهودي برسول الله ﷺ فقال: السام عليك، فقال رسول الله ﷺ: "وعليك". فقال رسول الله ﷺ: "أتدرون ما يقول؟ قال: السام عليك". قالوا: يا رسول الله، ألا نقتله؟ قال: " لا، إذا سلَّم عليكم أهل الكتاب، فقولوا: وعليكم"[1] وقال ابن عمر رضي الله عنهما: قال رسول الله ﷺ:" إن اليهود إذا سلَّموا على أحدكم إنما يقولون: سام عليك، فقل: عليك"[2] وهذه النصوص تدل على حلم النبي ﷺ وحبه العافية للناس بكل أجناسهم وأديانهم فهو يتجاوز عن حقوقه الشخصية ويدعو أصحابه إلى ذلك رحمة وحلماً وحباً للأمن والسلام، ولم يحدثنا التاريخ أن المسلمين بدأوا أحداً من اليهود بسوء ما لم يكن ذلك دفاعاً عن النفس أو إحباطاً لمخطط عدواني.

كل ذلك وغيره يؤكد أن قيم الحرب في عصر الرسول ﷺ مبنية على التودد إلى اليهود وأهل الكتاب عامة والإحسان إليهم، على أمل إنتشالهم من حال العداوة إلى حال السلم، ولا سيّما أنّهم يشتركون مع المسلمين بالإيمان بالله تعالى وأنهم أهل كتاب، ولكن محاولات النّبي ﷺ التوددية التسامحية؛ لم تجد نفعاً مع اليهود الذين أبا عامتهم إلا كفراً[3] وأظهروا الحقد والحسد الذي ينفث في أصحابه الكِبر وسفه

(١) البخاري: كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتلهم، باب: إذا عرَّض الذمّيُّ بسب النبي ﷺ ولم يصرِّح، ح (٦٥٢٧).

(٢) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتلهم، باب: إذا عرَّض الذمّيُّ بسب النبي ﷺ ولم يصرِّح، ح (٦٥٢٩). الترمذي: سنن الترمذي، أبواب السير، باب ما جاء في التسليم على أهل الكتاب، ح (١٦٥٣) (١٦٥٢).

(٣) ابن القيم: زاد المعاد في هدي خير العباد، ٣/ ٥٧.

الحق وغمط المسلمين والتعاون مع أعدائهم، وهذا ما فعله اليهود دون أن يكون لهم أيّ مسوغ في ذلك، ولكنها ثقافة الكراهية التي يحملها الكثير منهم تجاه دعاة الخير والعدل، وتجاه الأنبياء. قال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ (البقرة: من الآية٨٧) وقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (آل عمران:٢١) وبلغ من ظلمهم أن شهد بعض علمائهم الزور على الإسلام حين جاءهم المشركون من قريش يسألونهم عن دين الشرك ودين الإسلام وأيهما أصدق؟ فأجابوا المشركين بما يبين لهم أنّ دينهم أفضل من دين المسلمين! [(١)] قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾ (النساء:٥٠) ولم يرد المسلمون على استفزازات يهود المدينة من الغمز واللمز والطعن بالنبي ﷺ وما إلى ذلك من وسائل كانوا لا يجاهرون في ممارستها ويكتفون بالتلميح ولحن القول، فعاملهم النبي ﷺ وأصحابه بالتجاوز والتغافل والتسامي، والاستعلاء بالحق والإعراض عن الجاهلين، طمعاً في استصلاحهم وإزالة ما في قلوبهم من توجس أو حسد يقودهم إلى مثل تلك الأفعال السوقية، لكن حلم المسلمين وعفوهم لم يزد اليهود إلا إصراراً على الأذى والإعلان بالعداوة دون أن يكون لهم أي مسوغ في اتخاذ تلك المواقف وسلوك طرقها الوعرة.

إعلان ومجاهرة اليهود بالعداوة للمسلمين

وقد بدأت عداوة اليهود بالظهور العلني والتحدي الاستفزازي بعد انتصار المسلمين على المشركين في معركة بدر فنقضوا العهد الذي كان بينهم وبين المسلمين

---

(١) ابن كثير: السيرة النبوية، ٣/ ١١.

حين تجاهلوا بنود الصحيفة[1] ومشاركتهم في الحملة الإعلامية المفتراة على المسلمين للتشويش على انتصارهم العظيم في معركة بدر، على الرغم من أن نتائجها هزت الجزيرة العربية وما حولها، وسمّاها القرآن الكريم الفرقان. قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ (الأنفال: من الآية٤١) ولكن اليهود أخذوا يذيعون أخبار كاذبة بأن رسول الله ﷺ قد قُتل وأن مصداق ذلك ناقته التي جاء عليها زيد بن حارثة ﷺ وحاولوا تضليل الناس في تلك الشبهة، بينما جاء عليها زيد ليكون ذلك علامة على مصداق ما يقوله بين المسلمين وذلك لعظمة البشارة واستبعاد تحقق كل ما يقوله للمسلمين من تساقط صناديد الشرك قتلى وأسرى بأيدي المسلمين، وكذلك تشويشهم على عبد الله بن رواحة البشير الثاني إلى المدينة، "وَقَالَتْ يَهُودُ: مَا جَاءَ زَيْدٌ إلاّ فَلاّ"[2] قال تعالى: ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (آل عمران: من الآية١١٨) وقد أسهم في تولى كِبر ذلك التشويش والفتنة والنقض زعيم اليهود وشاعرهم كعبُ بن الأشرف، وذلك يوم بعث رسول الله ﷺ "حين فرغ من بدر بشيرين إلى أهل المدينة زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة فلما بلغ ذلك كعب بن الأشرف قال ويلك أحق هذا؟! هؤلاء ملوك العرب وسادة الناس يعني قتلى قريش، ثم خرج إلى مكة فجعل يبكي قتلى قريش ويحرض على رسول الله ﷺ"[3] **وكان قومه يشاركونه في مشروعه العدواني الناقض لاتفاقية التعايش السلمي الذي أصبح يسود المدينة بعد الهجرة**

---

(١) ينظر البيهقي: سنن البيهقي، كتاب السير: باب من لا تؤخذ منه الجزية من أهل الأوثان، ح (١٨٤١٠).

(٢) ينظر الواقدي: المغازي، ١/ ٨٤، ٨٥.

(٣) سنن البيهقي: كتاب الجزية، باب من لا تؤخذ منه الجزية، ح (١٨٤١٠). ابن كثير: السيرة النبوية، ٣/ ١٢.

النبوية، ولكن ابن الأشرف لما رأى الأسرى مقرنين كُبِّتَ وَذَلَّ ثُمَّ قَالَ لِقَومِهِ: وَيْلَكُمْ ... فَمَا عِنْدَكُمْ ؟ قَالُوا: عَدَاوَتُهُ مَا حَيِينَا!!. قَالَ: وَمَا أَنْتُمْ وَقَدْ وَطِئَ قَوْمَهُ وَأَصَابَهُمْ؟ وَلَكِنِّي أَخْرُجُ إِلَى قُرَيْشٍ فَأُحُضّهُمْ وَأَبْكِي قَتْلاهُمْ فَلَعَلّهُمْ يَنْتَدِبُونَ فَأَخْرُجَ مَعَهُمْ. فَخَرَجَ حَتّى قَدِمَ مَكّةَ"[1] ونفذ ما خطط له دون أي تردد أو حساب لأوضاع المدينة وما فيها من ضوابط أمنية واتفاقيات سياسية، فتبين أن ابن الأشرف أصرّ على نقض العهود، وأنه لم يكن يفعل ذلك بمفرده وإنما كان يمضي أموره بعد استشارة قومه الذين تأكد أنهم يشاطرونه الرأي وأنهم لا يقيمون وزناً لاتفاقية السلام وأنهم يضمرون عداوة النبي ﷺ مدى حياتهم، وأن ما كانوا يفعلونه هو من باب كسب الوقت وانتظار الدوائر التي يتمنون أنها تدور على المسلمين، وبدلاً من أن يفرح اليهود بانتصار المؤمنين يوم بدر على المشركين وانتصار حليفهم رسول الله ﷺ الذي تربطهم به اتفاقية موثقة يشترك فيها الجميع بمواجهة قريش إذا هاجمتهم وفي الدفاع عن المدينة ضد أي عدو يستهدفها، بدلاً من ذلك اختار زعيم اليهود نقض تلك الوثيقة ذات الأبعاد الأمنية الخطيرة، ثم انضم إلى المشركين يحالفهم ويدعو إلى نصرتهم دون أي سبب لذلك الموقف العدواني، سوى ما كان يحمله من ثقافة الاستخفاف بالآخرين والتهاون بقيم الوفاء بالعهد، الذي ذكره القرآن الكريم عن اليهود، قال تعالى: ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (البقرة:١٠٠)

ويبدو أن النّبي ﷺ لحظ ذلك التحول الخطير في موقف اليهود، قال ابن عباس رضي الله عنهما: "لما أصاب رسول الله ﷺ قريشاً يوم بدر فقدم المدينة، جمع اليهود في سوق قينقاع. فقال ﷺ يا معشر يهود أسلموا قبل أن يصيبكم مثل ما أصاب قريشاً، فقالوا: يا محمد لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال إنك لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس وأنك لم تلق مثلنا! فأنزل الله

---

(١) الواقدي: المغازي، ١/ ١٣٩. حبنكة: مكايد يهودية عبر التاريخ، ١٠٣.

عز وجل في ذلك من قولهم: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ (آل عمران: ١٢-١٣) [(١)] لكن ابن الأشرف ومن معه أصمّوا أذانهم عن سماع صوت السلم والوفاء بالعهد؛ واختاروا طريق الفتنة ونقض العهود.

قال ابن عمر رضي الله عنهما: "حاربت النضير وقريظة، فأجلى النبي ﷺ بني النضير وأقرّ قريظة ومنّ عليهم، حتى حاربت قريظة، فقتل رجالهم، وقسم نساءهم وأولادهم وأموالهم بين المسلمين، إلا بعضهم لحقوا بالنبي ﷺ فأمنهم وأسلموا، وأجلى يهود المدينة كلهم: بني قينقاع وهم رهط عبد الله بن سلام، ويهود بني حارثة، وكل يهود المدينة"[(٢)].

وكان اليهود يعملون على وقوع القتال بين المسلمين وغيرهم من العرب بكل الوسائل، كما ظهر ذلك في ممارساتهم وأقوالهم بعد انتشار أخبار سرية نخلة التي قادها عبدُ اللَّهِ بْن جَحْش ﷺ إِلَى وادي نَخْلَةَ، وهي وادي بُستَان ابن عامر؛ في رجب على رأس سبعة عشر شهرًا، فأصابت من المشركين وغنمت، ففرح اليهود بالشرّ أن يقع بين المسلمين والمشركين، وقَالَتْ الْيَهُودُ: عمرو بن الْحَضْرَمِيّ من المشركين قتله واقد بن عبد اللّهِ الليثي من المسلمين، عمرو عمرت الحرب، والحضرميّ حضرت الْحَرْبُ، وواقد وقدت الحرب، قال ابن واقد: قد تفاءلوا

(١) ينظر سنن البيهقي، كتاب السير، باب من لا تؤخذ منه الجزية من أهل الأوثان، ح (١٨٤٠٩). الواقدي: المغازي، ١/ ١٤٤.

(٢) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب المغازي، باب: حديث بني النضير ح (٣٨٠٤).

بذلك فكان ذلك من اللّه على يهود[1] وما كان يصدر عن اليهود من مثل هذه المواقف والأقوال يؤكد أن ما تكنه صدورهم أكبر وأنهم كانوا مصرّين على العداوة والمباغضة وتجاهل العهود وكل دعوات التفاهم والتصافي التي كانت تصدر عن المسلمين بصدق ونية طيبة.

مقتل كعب بن الأشرف

كان كعب بن الأشرف " شاعراً وكان يهجو رسول الله ﷺ ويحرض عليه كفار قريش في شعره وكان رسول الله ﷺ قدم المدينة وأهلها أخلاط منهم المسلمون الذين تجمعهم دعوة رسول الله ﷺ ومنهم المشركون الذين يعبدون الأوثان ومنهم اليهود وهم أهل الحلقة والحصون وهم حلفاء للحيين الأوس والخزرج فأراد رسول الله ﷺ حين قدم المدينة استصلاحهم كلهم كما اتضح ذلك، وكان الرجل يكون مسلماً وأبوه مشرك، والرجل يكون مسلماً وأخوه مشرك وكان المشركون واليهود من أهل المدينة حين قدم رسول الله ﷺ يؤذون رسول الله ﷺ وأصحابه أشدّ الأذى فأمر الله رسوله والمسلمين بالصبر على ذلك والعفو عنهم ففيهم أنزل الله جل ثناؤه (ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً) إلى آخر الآية وفيهم أنزل الله جل ثناؤه ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة: من الآية١٠٩) فلما أبى كعب بن الأشرف أن ينزع عن أذى رسول الله ﷺ وأذى المسلمين، فقال رسول الله ﷺ: "من لكعب بن الأشرف، فإنه قد آذى الله ورسوله" فقام محمد بن مسلمة ﷺ فقال: يا رسول الله، أتحب أن أقتله؟ قال:

---

(١)الواقدي: المغازي، ٢/ ١٧.وينظر ابن القيم: زاد المعاد، ٣/ ١٣٠. المباركفوري: الرحيق المختوم، ٢٠٠.

(نعم) [1] فنفذ ذلك ابن مسلمة ﷺ فأسكت صوت الفتنة ونقض العهود وعدو الاستقرار والأمن في المدينة. وروي أمر رسول الله ﷺ سعد بن معاذ ﷺ أن يبعث رهطاً ليقتلوه فبعث إليه سعد بن معاذ محمد بن مسلمة الأنصاري وأبا عبس الأنصاري والحارث بن أخي سعد بن معاذ في خمسة رهط وذكر الحديث في قتله[2].

فكان من أسباب قتله إصراره على البغي والفتنة وانطلاقه إلى قريش يبكي قتلاها بأشعاره ويحرض على مهاجمة المسلمين في المدينة، وداعياً الأعراب للمشاركة في ذلك الهجوم، ويشبب بنساء المسلمين وينال من النبي ﷺ وأصحابه في شعر يدعو إلى الحرب وإيقاد الفتن، دون أي التفات إلى تحذير المسلمين ودعوتهم له للكف عن هذا العبث الخطير، و "أبى ابن الأشرف أن ينزع عن أذى النّبيّ ﷺ وأذى الْمُسْلِمِينَ وقد بلغ منْهُمْ "[3] لكنه لم يكف عن ذلك بل عاد إلى حصنه في المدينة مصراً على محالفة المشركين ومعاداة النبي ﷺ وجماعة المسلمين، وبلغ من أذاه للمسلمين واغتراره بتحالفاته مع المشركين أن لقبه الإمام مسلم في صحيحه **بطاغوت اليهود!** وبلغ من ذلك أن ضاق به حلم رسول الله ﷺ الواسع حتى قال ﷺ: " من لكعب بن الأشرف؟ فإنه قد آذى الله ورسوله "[4] ومما يشير إلى خطورة ابن الأشرف على الأمن والسلام في المدينة؛ ما روي أن النبي ﷺ فزع إلى الصلاة والدعاء إلى الله تعالى في يوم مقتله؛ كما فعل يوم الأحزاب حين لجأ إلى الدعاء حتى بعث الله على المشركين الرّيحَ، وَقَامَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ يصلّى إلى أن ذهب ثُلُثُ اللّيْل، وَكَذَلِكَ فَعَلَ

---

(١)البخاري: الجامع الصحيح، كتاب المغازي، باب: قتل كعب بن الأشرف، ح (٣٨١١

(٢) البيهقي: سنن البيهقي، كتاب السير، البيهقي باب من لا تؤخذ منه الجزية من أهل الأوثان، ح (١٨٤٠٨)

(٣) الواقدي: المغازي، ١/ ١٣٩. حبنكة: مكايد يهودية عبر التاريخ، ١٠٣.

(٤) مسلم: صحيح مسلم، كتاب، الجهاد والسير باب قتل كعب بن الأشرف طاغوت اليهود،ح (١٨٠١)

لَيْلَةَ قُتِلَ ابْنُ الأَشْرَفِ، وَكَانَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ إِذَا حَزَبَهُ الأَمْرُ أَكْثَرَ الصَّلاةَ"[1] مما يبين حجم العدوان الذي يقوم به ويدبر له ضد المسلمين.

وقد جعل النبي ﷺ آخر خياراته مع ابن الأشرف الخيار العسكري، كما هو حاله ﷺ مع جميع خصومه، على مبدأ أنّ آخر الدواء الكي، فعندما كان ابن الأشرف يبكي قتلى المشركين يوم بدر ويحرض أهل مكة والقبائل على مهاجمة المسلين، أمر النّبي ﷺ شاعره حسان بن ثابت أن يواجهه بالشعر أيضاً، وأن يُعرّض بكل من يؤيه من أهل مكة، ففعل حسان حتى أصبح من يستضيف ابن الأشرف يقول له أهله: "ما لنا ولهذا اليهوديّ؟ ألا ترى ما يصنع بنا حسّان؟ ... فكلّما تحوّل عند قوم دعا رسول اللّه ﷺ حسّان، فقال ابن الأشرف: نزل على فلان. فلا يزال يهجوهم حتّى نبذ رحله فلمّا لم يجد مأوى قدم المدينة. فلمّا بلغ النّبيّ ﷺ قدوم ابن الأشرف. روي أنه قال: اللّهمّ اكفني ابن الأشرف بِمَا شِئْت في إعْلانِهِ الشّرّ وَقَوْلِهِ الأَشْعَارَ"[2] "فلما قتلوه فزعت اليهود ومن كان معهم من المشركين فغدوا على رسول الله ﷺ حين أصبحوا فقالوا إنه طرق صاحبنا الليلة وهو سيد من سادتنا فقتل فذكر لهم رسول الله ﷺ الذي كان يقول في أشعاره وينهاهم به ودعاهم رسول الله ﷺ إلى أن يكتب بينه وبينهم وبين المسلمين كتاباً ينتهوا إلى ما فيه فكتب النبي ﷺ بينه وبينهم وبين المسلمين عاما صحيفة كتبها رسول الله ﷺ تحت العذق الذي في دار بنت الحارث فكانت تلك الصحيفة بعد رسول الله ﷺ عند علي بن أبي طالب رضي الله عنه"[3] وذُكر أن علياً رضي الله عنه روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: "من سب نبياً

(١) الواقدي: المغازي، ١/ ٣٥٨. المباركفوري: الرحيق المختوم، ٢٤٤.

(٢) الواقدي: المغازي،١/ ١٤٤. ٢٤٢. ابن تيمية: الصارم المسلول، ١/ ٧٧. ابن القيم: أحكام أهل الذمة، ٣/ ١٤٣١.

(٣) سنن البيهقي، كتاب السير، باب من لا تؤخذ منه الجزية من أهل الأوثان، ح (١٨٤٠٨). ابن القيم: أحكام أهل الذمة، ٣/ ١٤٢٠.

فاقتلوه ومن سب أصحابي فاجلدوه"[1].

فاتضح أن قتل ابن الأشرف كان لا بدّ منه بعد ما تجاوز المسلمون عن بوائقه ونيله من نبيهم ﷺ وتعريضه بنسائهم، والأخطر من ذلك نقضه للعهد الذي في الوثيقة وتحالفه مع قريش ومباشرته تحريض قريش والقبائل الأخرى على مهاجمة المدينة وقوله لهم إنا معكم[2] مما يشير إلى أن السبب المباشر لقتله ليس ما كان ينتقص به المسلمين ونبيهم ﷺ فقط، وإنما مباشرته التحضير العسكري لإشعال حرب شعواء ضد المسلمين في عقر دارهم لا تبقي منهم ولا تذر، فاجتمعت كل هذه الأسباب الداعية إلى دفع هذا الشر بكل الوسائل فكان ما لا بد منه لاستئصال هذا الخطر المحدق بالمدينة وأهلها من جانب، ومن جانب آخر أخذ بتحالفاته الأخيرة يمثل خطراً على السلام المتفق عليه بين الأطراف التي اشتركت بكتابة الوثيقة داخل المدينة، فأصبح ابن الأشرف خطراً على السلام والأمن العام لأهل المدينة وبقاؤه بعد نقض العهد وهو ليس من عامة قومه وإنما زعيم وله قوة وحصن يتحصن به مما جعل منه قاعدة متقدمة لمشركي قريش الذين يسعون بكل طاقاتهم للتخلص من الكيان الإسلامي الناشئ في طريق تجارتهم ووجاهتهم وعقيدتهم الجاهلية التي يتوجه مشركوا العرب إلى أصنامها، ولهذا كان قتل ابن الأشرف عملاً مشروعا أثمر الحفاظ على السلام الذي تجدد في صبيحة اليوم الذي قتل فيه وتبين أنّ النّبي ﷺ كان أشدّ حرصاً على الأمن والسلامة في كل أرجاء المدينة ولكل أهلها لذلك دعاهم إلى كتابة كتاباً يحتكمون إليه وينتهون إلى ما فيه من اتفاق، وهذا ما تم بعد التخلص من ابن الأشرف الذي تمرد على السلم وجعل من حصنه قاعدة لرصد حركات المسلمين والاطلاع على عوراتهم ومساندة أعدائهم.

---

(1) الصارم المسلول: ١/ ٩٨. وقال إن في القلب من سنده حزازة. أحكام أهل الذمة، ٣/ ١٤٥٥. قال في سنده: في القلب منه شيء.

(2) ابن القيم: أحكام أهل الذمة، ٣/ ١٤٢٦.

مقتل أبي رافع عبد الله، ويقال سلام بن أبي الحقيق

ويبدوا أن هناك من اليهود من لم يتعض بمصير ابن الأشرف فأراد أن يقوم بذات الدور العدواني التآمري على الأمن والسلم وأسس التعايش المشترك بين أهل الأديان في الأقاليم والحصون المحيطة بالمدينة ومن هؤلاء أبي رافع عبد الله بن أبي الحقيق، ويقال: سلام بن أبي الحقيق، كان بخيبر، وذلك بعد مقتل كعب بن الأشرف، وكان السبب في قتله "أن ابن أبى الحقيق قد أجلب في غطفان، ومن حوله من مشركي العرب، وجعل لهم الجعل العظيم لحرب رسول اللّه ﷺ"[1] وبذلك ينطبق عليه كثير من الأسباب التي كانت وراء قتل ابن الأشرف، فلما تبين للمسلمين إصراره على الغدر وتسعير الشرّ بعث إليه رسول الله ﷺ رهطاً من الأنصار منهم عبد الله بن عتيك فقتله[2] وجاء في الصحيح: "بعث رسول الله ﷺ إلى أبي رافع اليهودي رجالاً من الأنصار، فأمّر عليهم عبد الله بن عتيك[3] وكان أبو رافع يؤذي رسول الله ﷺ ويعين عليه، ويقيم التحالفات مع قبائل غطفان وغيرها من مشركي العرب؛ ويقدم لهم الإغراءات العظيمة لغزو المدينة وهو من بني النضير انتقل إلى خيبر بعد غزوة بني النضير[4] وكان في حصن له بأرض الحجاز يوم مقتله. فتمثل هدف السرية التي هاجمته بالتخلص من خطورة ما يقوم به من مخططات لغزو المدينة وإفشال عمله قبل استحكام خطره على المسلمين، فنجحت السرية في دفع هذا الشر عن المسلمين وإحباط ما كان يخطط له ابن أبي الحقيق. وقد باشر قتله عبد الله بن عتيك فانكسرت رجله بعد انتهائه من تلك العملية التي دفعت خطر حرب شعواء وأسهمت في حقن دماء كثير من المشركين والمسلمين

---

(١) الواقدي: المغازي، ١/ ٢٨٨. ينظر ابن القيم: زاد المعاد، ٣١٩.

(٢) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الخمس، باب: قتل أبي رافع عبد الله بن أبي الحقيق.ح (٣٨١٢/ ٣٨١٤).

(٣) ينظر ابن عبد البر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ٣/ ٩٤٦.

(٤) ابن هشام: السيرة النبوية، ٢/ ٢٧٤. العيني: عمدة القاري، ١٧/ ١٢٥.

فيما لو تم تخطيطه، وبعد إنجاز تلك العملية الاستباقية بعد أن ثبتت كل أدلتها مع الإصرار على مباشرة العدوان. قال عبد الله: " فانتهيت إلى النبي ﷺ فحدثته، فقال: "ابسط رجلك" فبسطت رجلي فمسحها، فكأنها لم أشتكها قط "[1] قال الواقدي: خرجوا ليلة الاثنين في السّحر لأربع خلون من ذي الحجّة على رأس ستّة وأربعين شهراً، وغابوا عشرة أيّام. ويقال: كانت تلك السّريّة في شهر رمضان سنة سِتّ. وقال ابن القيم كانت في ذي القعدة أو ذي الحجة من سنة خمس[2] وهذه القصة إن كانت تبين إصرار قادة اليهود وزعماؤهم على محاربة رسول الله ﷺ والوقوف بوجه دعوته والعمل على حرف معانيها وتشويه مقاصدها بين النّاس، والمضي في عقد التحالفات المعادية للمسلمين والتنصل من كل اتفاق يدعو إلى السلم والتفاهم وعلاقات حسن الجوار، فإنها تظهر بالمقابل قوة الرصد التي يتمتع بها المسلمون ومعرفتهم بكل من يمكر بهم وبعقيدتهم وهم وإن كانوا يحلمون عن الجهلة ويتجاوزون عن الحمقى والحاقدين، فإنهم إذا استنفذوا الوسائل السلمية وأيقنوا بخطورة خصومهم من زعماء الفتن على الأمن والسلام وعقيدة التوحيد؛ فإنهم يواجهونهم بجزم وقوة ودقة مُتناهية يصلون فيها إلى هدفهم دون الإضرار بشيء سواه، ويحققون مقاصدهم في إغلاق أبواب الشر والتخلص من دعاة الحرب حفاظاً على السلم وتجنباً لما هو أشد خطراً على الأمن في حال تركوا أولئك الرؤساء ينسجون التحالفات العدوانية ويوقدون نيران الحرب.

مقتل أُسَيْر بن زارم أمير خيبر بعد ابن أبي الحقيق

لّما قُتل أبو رافع أمّرت اليهود أسير بن زارم فقام في اليهود، فقال: إنه واللّه ما سار مُحمّدٌ إلَى أحد من الْيَهُودِ إلاّ بعث أَحَدًا من أصحابه فَأَصَاب مِنْهُم مَا أراد،

---

(١) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب المغازي، باب: قتل أبي رافع عبد الله بن أبي الحقيق.ح (٣٨١٣) ابن القيم: زاد المعاد، ٣/ ٣٢٠.

(٢) الواقدي: المغازي، ١/ ٢٨٨. قال ابن القيم كانت في ذي القعدة أو ذي الحجة سنة خمس من الهجرة. ٣/ ٣٢٠.

ولكِنّى أصنع ما لا يصنع أصحابى، فقالوا: وما عسيت أن تصنع ما لم يصنع أصحابُك؟ قال: أسِيرُ فى غطفان فأجمعهم، فسار فى غطفان فجمعها، ثمّ قال: يا معشر اليهود، نسير إلى مُحَمّدٍ فى عقر داره فَإنّه لم يُغز أحَدٌ في داره إلاّ أدرك منه عدوّه بعض ما يريد، قالوا: نِعم ما رأيت، فبلغ ذلك النّبِىّ ﷺ حين قدم عليه خارجة بن حُسَيْلٍ الأشجعى وكان دليل المسلمين إلى خيبر حين فتحها، فقال: تَرَكْت أُسَيْرَ بْنَ زَارِمَ يسير إليك في كتائب اليهود. فندب رسول اللّه ﷺ النّاس فانتدب له ثلاثون رجلاً. قال عبد اللّه بن أنيس: فكنت فيهم فاستعمل علينا رسول اللّه ﷺ عبد اللّه بن رواحة، وقد تمكن عبد الله بن أنيس الجهني ﷺ من قتل أسير بن زارم في منطقة قرقرة ثبار[1] قرب خيبر وتخليص المسلمين من غزو كان يتربص بهم الدوائر وإغلاق هذا الباب الذي كان يجلب الشر على المسلمين[2] ليتفرغوا إلى غيره من المكائد التي كان يحيكها زعماء اليهود ضد النبي ﷺ وما جاء به من الدين الحنيف، لكن هذه الإجراءات الاحترازية المحدودة من النبي ﷺ وإن جنبت المنطقة بعض الحروب التي سعى إليها أولئك الزعماء؛ إلا أنها لم تؤد الغرض المطلوب كاملاً في الحفاظ على السلم وإلزام اليهود بالوفاء بعهودهم والإحساس بالمسؤولية تجاه الأمن العام لأهل المدينة فاستمر زعماؤهم في ممارسة وسائل التحريض والدس والوقيعة وإذاعة الأحقاد ونشر ثقافة الفتنة، على الرغم من كل ما حصل من الدروس والعبر والاتفاقيات التي أبرمت لخدمة السلم بينهم وبين المسلمين.

---

(١) ثبار: موضع على ستة أميال من خيبر فيه قتل عبد الله بن أنيس أسير زارم اليهودي. ياقوت: معجم البلدان، ٢/ ٧٢.

(٢) ابن سعد: الطبقات، ٢/ ٩٢. المغازي، ٢/ ٦٠. السيرة النبوية، ٦/ ٢٩. وهناك خلاف حول اسم زارم أو زرام وتاريخ السرية.

العدل مع القتلة من اليهود

لا يمكن لباحث منصف من أي أمة أو ملة كانت أن يجد مأخذاً على رسول الله ﷺ يجعله مدخلاً للطعن على عالمية رسالته ﷺ ونظرته إلى الأمم والأديان بعين الاحترام والتقدير والتعامل معهم بمنتهى الحكمة والعدل والإنصاف، وما ذلك إلا لأنه ﷺ جاء رسولاً للبشرية جمعاء فهو ﷺ يتمنى هداية الجميع، كما يتمنى الأمن والاستقرار والرفاه لهم جميعاً وهذا ثابت في مواقفه التي تعامل بها مع اليهود، فلم يثبت أن أحداً من الصحابة بدأهم باستفزاز أو نكران لحق من حقوقهم؛ فضلاً عن نقض لعهد أو بدء بعدوان، وذلك أن المسلمين كانوا يحملون عقيدة عالمية ذات قيم حضارية رائعة، ترسم وسائل التواصل الإنساني على ضوابط من المساواة والاعتراف بالآخر وقيمه وعقائده المعتبرة مع التبجيل وإظهار القواسم المشتركة مع المسلمين، وتعطي لكل ذي حق حقه دون حيف أو انحياز. قال تعالى: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ (العنكبوت:٤٦)

وكان المسلمون يعملون بهذه القواعد الأخلاقية على أتم وجه وأكمله. قال سهل بن أبي حثمة: انطلق عبد الله بن سهل ومحيصة بن مسعود بن زيد إلى خيبر، وهي يومئذ صلح، فتفرقا، فأتى محيصة إلى عبد الله بن سهل وهو يتشحط في دمه قتيلاً، فدفنه ثم قدم المدينة، فانطلق عبد الرحمن بن سهل ومحيصة وحويصة ابنا مسعود إلى النبي ﷺ فذهب عبد الرحمن يتكلم، فقال ﷺ: (كبر كبر) وهو أحدث القوم، فسكت فتكلما، فقال: "تحلفون وتستحقون قاتلكم، أو صاحبكم" قالوا: وكيف نحلف ولم نشهد ولم نر؟ قال: "فتبرئكم يهود بخمسين". فقالوا: كيف نأخذ أيمان قوم كفار، فعقله النبي ﷺ من عنده[1] وفي روية أخرى أن النبي ﷺ قال لأصحابه ﷺ: "تأتون

---

(١) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب أبواب الجزية والموادعة باب: الموادعة والمصالحة مع المشركين بمال وغيره، ح (٣٠٠٢). مسلم: صحيح مسلم، كتاب، القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب، القسامة، ح (١٦٦٩).

بالبيِّنة على من قتله؟" قالوا: ما لنا بيِّنة، قال: " فيحلفون ". قالوا: لا نرضى بأيمان اليهود، فكره رسول الله ﷺ أن يبطل دمه، فوداه مائة من إبل الصدقة [1] ولم يعاقب اليهود على تلك الجريمة التي ارتكبوها حيث لم يكن بينهم أحد سواهم، ولكن المسلمين لم يقسموا تورعاً.

وقد تجسد وفاء رسول الله ﷺ وأصحابه لليهود أنهم حافظوا على جميع بنود الاتفاقيات التي عقدت بينهم، كما حافظوا على حسن الجوار وحسن القول والعمل معهم، بل حافظوا على روح التسامح والتغاضي عما كان يبدر من بعضهم من جرائم في وضح النهار، في مثل هذا الاغتيال الذي تم بين أظهر اليهود، فلم يتجاوز عليهم ﷺ أو يتخذ ذلك ذريعة للنيل من أحد منهم لم يثبت عليه الجرم ثباتاً قطعياً لا شك فيه ولا لبس، ولم يأذن لأحد من أصحابه أن يتجاوز حدود شرع الله تعالى، واكتفى من اليهود بظاهر قولهم، وتحمل ﷺ دية ذلك الصحابي ﷺ حفاظاً على العدل والأمن وحسن الجوار، وقد كان حكم القسامة يعمل به منذ أيام الجاهلية، أي لم يبتدع المسلمون قانوناً جديداً لمحاسبتهم، روى مسلم " أن رسول الله ﷺ أقرّ القسامة على ما كانت عليه في الجاهلية " [2] ولعلَّ هذا الموقف يظهر كم كانت الرغبة عند رسول الله ﷺ في أن يخلد اليهود في بلاد العرب إلى المعايشة والوفاء بالعهود والتعاون على بناء مجتمع حضاري يعيش فيه جميع أبنائه بأمن وسلام، فكان تارة يتغافل عن بعض بوائقهم، وتارة يؤدب الفرد الذي يثبت منه الإصرار على الأذى مرة بعد مرة، ولكنه ﷺ لم يبدأهم بموقف عدائي، ولم يظلم منهم أحداً أو يأخذه على التهمة والظنة وهذا منتهى الإنصاف والعدل والالتزام بأخلاق التعايش وحسن الجوار، ولكن الكثير من زعماء اليهود وعامتهم قوم يجحدون الإحسان إليهم والتجاوز عنهم.

---

(١) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الديات، باب، القسامة، ح (٦٥٠٢)

(٢) مسلم: صحيح مسلم، كتاب، القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب، القسامة، ح(١٦٧٠)

ومن مواقف العدل والرحمة مع اليهود

تعامل المسلمون مع اليهود في المدينة وغيرها بمنحهم منتهى الحرية في النقد والتعبير والتعامل والبيع والشراء، وبمنتهى العدل والتسامح في ما يتعلق بوسائلهم في الاستفزاز وبث الأباطيل والشائعات والتحريض على الفتن، وتمزيق الصف المسلم بكل الوسائل المتاحة لهم، كما تجاوزوا عن إرجافهم بالمسلمين وبث الدعاية فيما بينهم عن قوة خصومهم وكثرة عددهم وقدراتهم الدفاعية ووفرة العتاد والتموين، وعملهم على وضع العوائق أمام حركة بعض المسلمين والعمل على الحيلولة دون التحاقهم برسول الله ﷺ أثناء تحركاته، ولم يحاسبهم المسلمون على كل ما يقومون به في هذه الأبواب التعويقية الإرجافية، وذلك تماشياً مع قيم المسلمين وثوابتهم في ضمان حرية الرأي حسن الجوار.

ولّما تجهّز المسلمون إلى خَيْبَر شقّ ذلك على يهود المدينة الّذين هم موادعون لرسول اللّه ﷺ وعرفوا أنّ المسلمين إذا دخلوا خيبر انتصروا على قواتها وإن كانت تفوقهم في العدد والعدة وقوة الحصون، كما انتصروا على بني قَيْنُقَاع والنّضير وقُرَيْظة، فلم يبق أحد من يهود المدينة له على أحد من المسلمين حقّ إلاّ لزمه يطالبه فيه يبغي إشغاله وتعويقه، ومن ذلك ما ذكره الواقدي أنه كان لأَبى الشّحْم اليهودي عند عبد اللّه بن أبى حدْرد الأَسْلَمي ﷺ خمسة دراهم في شعير أخذه لأهله فلزمه، فقال: أجّلني فإني أرجو أن أقدم عليك فأقضيك حقّك إن شاء اللّه، فقال أَبو الشّحْم حسدًا وبغيًا: تحسب أنّ قتال خَيْبَر مثل ما تلقونه من الأعراب؟ فيها والتّوْراة عشرة آلاف مقاتل، قال ابن أبى حدرد: أي عدوّ اللّه تخوّفنا بعدوّنا وأنْت في ذمّتنا وجوارنا؟ واللّه لأرفعنّك إلى رسول اللّه، فقلت: يا رسُول اللّه ألا تسمع إلى ما يقول هذا اليهوديّ؟ وأخبرته بما قال أَبو الشّحْم. فسكت رسول اللّه ﷺ ولم يرجع إليه شيئا، فقال اليهودي: يا أَبا القاسم هذا قد ظلمني وحبسني حقّي وأخذ طعامي قال رسول اللّه ﷺ: "**أعطه حقّه**"، قال عبد اللّه: فخرجت فبعت أحد

ثوبي بثلاثة دراهم وطلبت بقيّة حقّه فَقَضَيْته، ولبست ثوبي الآخر وكانت عليّ عمامة فاستدفأت بها، وأعطاني سلمة بن أسلم ثوبًا آخر فخرجت في ثوبين مع المسلمين ونفّلني اللّه خيرًا[1].

وكان يهود المدينة يقولون حين تجهّز النبي ﷺ إلى خيبر: ما أمنع واللّه خيبر منكم لو رأيتم خيبر وحصونها ورجالها لرجعتم قبل أن تصلوا إليهم، حصون شامخات في ذرى الجبال والماء فيها واتن إنّ بخيبر لألف دارع ما كانت أسد وغطفان يمتنعون من العرب قاطبة إلاّ بهم فأنتم تطيقون خيبر؟ فجعلوا يوحون بذلك إلى أصحاب النبي ﷺ فيقول أصحاب النّبي ﷺ: قد وعدها اللّه نبيّه أن يغنمه إيّاها، فخرج رسول اللّه ﷺ إليهم فعمّى اللّه عليهم مخرجه إلاّ بالظّنّ حتّى نزل رسول اللّه ﷺ بساحاتهم ليلاً[2] فكان النصر والفتح المبين الذي لم تكدره أراجيف المرجفين ولا تهويلات أهل الأهواء والمغرضين.

ومن مظاهر الرحمة الأخرى أن صَفِيّةُ بِنْتُ حُيَيّ كانت تحت كنانة بن أبي الحُقيق، وقد كان رسول اللّه ﷺ سباها قبل أن ينتهي إلى حصن الكتيبة، وكان ﷺ قد أرسل بها مع بلال إلى رحله، فمرّ بها بلال وبابنة عمّها على القتلى، فصاحت ابنة عمّها صياحًا شديدًا، فكره رسول اللّه ﷺ ما صنع بلال فقال: "**أذهبت منك الرّحمة ؟**"[3] تمرّ بجارية حديثة السّنّ على القتلى.

وقالت صفية لما سبيت أرسل بي النبي ﷺ إلى رحله ثمّ جاءنا فقال: "**إن أقمت على دينك لم أكرهك**، وإن اخترت اللّه ورسوله فهو خير لك" قالت: أختار اللّه ورسوله والإسلام، فأعتقني رسول اللّه ﷺ وتزوجني وجعل عتقي مهري، وكنت ألقى من أزواجه، يفخرن عليّ يقلن: يا بنت اليهودي، وكنت أرى رسول اللّه ﷺ يلطّف بي ويكرمني، فدخل عليّ يومًا وأنا أبكي، فقال: "ما لك؟" فقلت: أزواجك

---

(١) الواقدي: المغازي، ٢/ ١١٥.

(٢) الواقدي: المغازي، ٢/ ١١٨. المباركفوي: الرحيق المختوم، ٣٦٧.

(٣) ابن القيم: زاد المعاد، ٣/ ٢٥٧.

يقلن: يا بنت اليهودي، قالت: فرأيت رسول اللّه ﷺ قد غضب، ثمّ قال: "إذا قالوا لك أو فاخرُوك، فقولي: أبى هارون وعمّي مُوسى"[1] وبعد أن طلب اليهود من رسول الله أن يعملوا في أرض خيبر بالشطر من الثمر، كان ﷺ يبعث عبد اللّه بن رواحة يخرص عليهم النّخل ويقسم ثمره فكان إذا خرص. قال: إن شئتم فلكم وتضمنون نصف ما خرصت، وإن شئتم فلنا ونضمن لكم ما خرصت. وإنّه خرص عليهم أربعين ألف وسق فجمعوا له حليّاً من حليّ نسائهم فقالوا: هذا لك، وجاوز في القسم. فقال: يا معشر اليهود، واللّه إنّكم لمن أبغض خلق اللّه إلي وما ذاك حملني أن أحيف عليكم، قالوا: بهذا قامت السّموات والأرض فكان عبْد اللّه بن رواحة يخرص عليهم، فلمّا قتل ﷺ يوم مؤتة بعث رسول اللّه ﷺ أبا الهيَثم بن التّيهان ﷺ يخرص عليهم، ويقال: جَبّار بن صخْر، فكان يصنع بهم مثل ما كان يصنع عبد اللّه بن رواحة[2] وقيل: الذي خرص بعد ابن رواحة عليهم فروة بن عمرو، وكان المسلمون لا يأخذون من بقولهم شيئًا إلاّ بثمن، فربّما قال اليهودي: للمسلم أنا أعطيكه باطلاً فيأبى المسلم إلاّ بثمن"[3].

ولعل في هذه الصور المشرقة في التعالي عن الانتقام أو الضيق بما يقوله الآخرون من الحاسدين والحاقدين، أو بما يقوم به بعض يهود من أعمال استفزازية بيّنة المقاصد، مايبين روح العفو وأصالة التسامح في أخلاق الحرب في عصر الرسالة، التي قوبلت بغدر ونقض وعدوانية اليهود. فقد رسم المسلمون في موقفهم من أبي الشحم اليهودي الذي كان يُرجف بالمسلمين، ويعمل على تعويق حركتهم وموقف ابن أبي حدرد ﷺ الذي سمع ما سمعه من أبي الشحم دون أن يكون منه أي رد فعل مباشر أو أن يصدر منه كلام مشين سوى تذكيره أنه في ذمة المسلمين؛

---

(١) ابن الجوزي: زاد المسير، تفسير سورة الحجرات الآية (١١) تفسير أبو السعود: سورة الحجرات تفسير الآية (١٢) البضاوي: سورة الحجرات، تفسير الآية (١١) الواقدي: المغازي، ٢/ ١٣٦.

(٢) الصنعاني: المصنف، كتاب الزكاة، باب الخرص، (٧٢٠٤).

(٣) ينظر الواقدي: المغازي، ٢/ ١٥٨. ٢/ ١٤٧.

ومن ثم رفع أمره إلى ولي الأمر رسول الله ﷺ الذي كان موقفه أكثر تسامياً مع ذلك اليهودي، حيث اضطر ابن أبي حدرد إلى بيع ثيابه لأداء ما عليه من الدَين لمن هو في سلطان المسلمين وتحت سيطرة قضائهم، وهذا ما يوضح صورة العدل الإسلامي الذي لا يحابي أحداً على الحق ولا يفرق فيه بين عدو وصديق، وهذه من ميزات أخلاق المسلمين في عصور قوتهم كما رسم لهم ذلك رسول الله ﷺ حين قال لصاحبه وهو يعلم حاله أعطه حقه، وفي عدم أخذ المسلمين شيئاً من مزروعات اليهود إلا بثمن حتى لو عرض اليهود عليهم ذلك دون الثمن؛ ما يؤكد البعد عن مواطن الشبهات وشدة الوفاء لكل من يتعايش معهم، وحرصهم على العدل والبعد عن مواطن الريبة، أو استغلال مواقع المسؤولية وانتهاز ساعات التمكن والقدرة على الآخرين لفرض الشروط المجحفة أو الوقوع فيما يعمل به أدعياء حقوق الإنسان في هذا العصر.

وكذلك في عدم استشاطة المسلمين غضباً من إرجاف يهود المدينة بهم، وتهويلهم من القوة والعتاد والعدد والحصون في خيبر، فلم يُسكتهم المسلمون أو يمنعوهم التعبير عن رأيهم، وإنما كانوا يردون عليهم رداً مبنياً على يقين التصديق بكل ما يقوله رسول الله ﷺ أو يَعد به ﷺ وتبين أن المسلمين لا يتخلون عن خُلق الرحمة والعمل على إعانة ومواساة كل مصاب، فقد أنكر رسول الله ﷺ على بلال رضي الله عنه أن يمر بإحدى السبايا قريباً من بعض القتلى ولامه على ذلك لوماً شديداً، وفي تخيير النبي ﷺ لصفية بنت حيي بين الإسلام وبين الإقامة على دينها وإبلاغه لها ذلك بنفسه ﷺ ما يدل على حرية التعبير والاعتقاد في دولة المسلمين وعمل قادتها بذلك وتأصيلهم لهذا المبدأ، وفي ردّ النبي ﷺ على صفية رضي الله عنها حين أغضبها بعض نسائه، وتعليمه لها كيف تردّ على من يقول لها بأنها يهودية، ما يدل أيضاً على موقع أنبياء وأئمة الديانات السماوية في المفاهيم الإسلامية ومكانتهم في ثقافتهم. فمن هذه المواقف وما بني عليها من أحكام يمكن استشراف ومعرفة أخلاق الحرب عند المسلمين وما انطوت عليه أيامها ولياليها من وفاء وتسامح، حفاظاً على حسن الجوار وروح التواصل والتعاون مع الجميع.

رَفْعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

المبحث الثالث

أسباب إجلاء اليهود من الحجاز

إصرار اليهود على البغي ونقض العهود

حاول النبي ﷺ بما أوتي من حكمة وعلم وصبر وتواضع وزهد ومودة وغير ذلك من صفات النبوة أن يتجنب مواجهة اليهود مواجهة عامة طمعاً في استصلاحهم، فانتقل في التعامل معهم من الثناء على ماضي المؤمنين منهم وعلى أنبيائهم؛ إلى كتابة الوثيقة التي تنظم سبل التعامل فيما بينهم وبين المسلمين داخل المدينة وفيما بين أهل المدينة ككل؛ ومن يردهم بشر من خارجها، إلى التغافل عن بوائقهم في الغمز واللمز بالنبي ﷺ وبدينه؛ إلى التجاوز عن كثير من أخلاقياتهم التي أثارها فيهم الحسد على خروج النبوة منهم إلى العرب، إلى النصح والتذكير والحوار والمناظرة، ولما لم ينفع ذلك في إعادتهم إلى الرشد والإنصاف، حذر النبي ﷺ وتوعد المصرّين منهم على العدوان ونقض العهود، فلمّا لم تنه تلك الإجراءات الشرعية العادلة حالة العداء الذي لا مسوغ له، عمل النّبي ﷺ على تقليم مخالب الفتنة وأذرع الشرّ من زعماء اليهود، دون التعرض لمن لم تزل قدمه في وحل الغدر والنقض والتعاون العلني مع المشركين ضد المسلمين، إلا أن كل هذه الوسائل التي تبين إنسانية الإدارة النبوية ورحمتها وصبرها ودقة تقديرها للأحداث آنذاك؛ وتعاليها عن الانتصار للذات وقدرتها على الصبر والاستيعاب ونشر ثقافة المودة وحسن الجوار، لم تتمكن من امتصاص أحقاد زعماء اليهود على النبوة والدعوة الناشئة، مما أجبره ﷺ على مباشرة دفع تلك الأخطار المحدقة بالعقيدة والأمة والعمل على التخلص من مثيري الفتن ومؤسسي التحالفات العدوانية، فقام أصحابه بذلك خير قيام مما قلص الآثار المباشرة للنشاطات التي كانت تهدد الأمن

والاستقرار في المدينة، لكن الزعماء الآخرين الذين ورثوا فكر أسلافهم المكذب للنبي ﷺ أصرّوا على ذات المنهج حتى جروا أقوامهم بما حاكوه من تحالفات آثمة وبما نقضوه من عهود موثقة إلى صراع مرير عاد عليهم وعلى من أطاعهم بالوبال الذي حصدوه من ثمار غدرهم ونقضهم المتعمد لكل ما عاهدوا عليه، وقد كان لحيي بن أخطب زعيم بني قينقاع الدور الأكبر في جر اليهود إلى التحالف مع المشركين والعمل على حرب الإسلام والمسلمين، وقطع ما بينهم من حبال التفاهم والتصافي ومشترك التوحيد، مما دفع بالنبي ﷺ إلى اتخاذ إجراءات أكثر صرامة ضد من يباشرون التآمر على حياته ﷺ أو على أمته ورسالته ﷺ أو يتعاون مع المشركين، وهذا ما حصل مع بني قينقاع حتى طفح الكيل وانتهى المطاف إلى ضرورة إخراجهم من المدينة حفاظاً على الأمن والاستقرار فيها، وسداً لأبواب الشر التي يفتحونها بتحالفاتهم وإغراءاتهم للمشركين وتحريضهم على مهاجمة المدينة.

الموقف من غدر بني قيْنُقاع

عندما هاجر النبي ﷺ وادعته يهود كلّها، وكتب بينه وبينهم كتاباً. وألحق فيه كلّ قوم بحلفائهم وجعل بينه وبينهم أمانًا، وشرط عليهم شروطاً، فكان فيما شرط ألاّ يظاهروا عليه عدوّاً، لكنهم نقضوا ذلك العهد من جهة واحدة دون مسوغ، والسبب كان التعاطف مع المشركين وحسد المسلمين على ما تحقق لهم من نصر يوم بدر، **فبغت يهود وقطعت** ما كان بينها وبين رسول اللّه ﷺ من العهد، فجمعهم النبي ﷺ **في سوق قينقاع**. فقال ﷺ يا معشر يهود أسلموا قبل أن يصيبكم مثل ما أصاب قريشاً. فقالوا: **يا محمد لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال إنك لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس وأنك لم تلق مثلنا!** [1] فالذي يبدو أن النّبي ﷺ اكتفى بما قام به من تحذير صارم ولم يستفزه ﷺ ردّ زعماء قينقاع الذي يتسم بتجاهل التحذير والمباشرة بأعمال تثبت تحديهم للنبي ﷺ وإلى ما

---

(١) سنن أبي داوود: كتاب الخارج والفيء، باب كيف كان إخراج اليهود من المدينة،(٣٠٠١).

يدعو إليه من الوفاء بالعهود والمسالمة. فبينا هم على ما هم عليه من **إظْهَارِ الْعَدَاوَةِ وَنَبْذِ الْعَهْدِ جَاءَتْ امْرَأَةٌ نَزِيعَةٌ** من العرب تحت رجل من الأنصار إلى سوق بني قينقاع، فجلست عند صائغ في حليّ لها، فجاء رجل من يهود قينقاع فجلس من ورائها وهي لا تشعر فخلّ درعها إلى ظهرها بشوكة، فلمّا قامت المرأة بدت عَوْرَتُهَا فضحكوا مِنها. فقام إليه رجل من المسلمين فاتّبعه فقتله فاجتمعت بنو قينقاع، وَتَحَايَشوا فقتلوا الرّجل المسلم **وَنَبَذُوا الْعَهْدَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ** وحاربوا، وتحصّنوا في حصنهم. فكانوا أوّل من سار إليه رسول اللّه ﷺ وأوّل من حاربه من اليهود، وذلك بعد نزول قوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ (لأنفال:٥٨) فسار إليهم رسول اللّه ﷺ بهذه الآية، فحصرهم في حصنهم خمس عشرة ليلة حتّى قذف اللّه في قلوبهم الرّعب، فنزلوا على حكم رسول اللّهِ ﷺ فَوَثَبَ عبد الله بن أُبَيّ بن سلول زعيم المنافقين إلى النبي ﷺ فقال: يا مُحمّد أحسن في مواليّ فأقبل عليه وكانوا أَرْبَعُ مائة دارع وثلثمِائة حاسر، فأمر بهم ﷺ أن يجلوا من المدينة؛ فسلكوا إلى أذرعات في الشام فكَانُوا بها، فما كان أقلّ بقاءهم[1] أي لم يلبثوا فيها إلا قليلاً.

قال الإمام الشافعي يشترط عليهم إن أصاب أحد من رجالهم مسلمة بزنا أو اسم نكاح أو قطع الطريق على مسلم أو فتن مسلماً عن دينه أو أعان المحاربين على المسلمين فقد نقض عهده ولم يختلف أهل السيرة أن بني قينقاع كان بينهم وبين رسول الله ﷺ **موادعة وعهد**، فأتت امرأة من الأنصار إلى صائغ منهم ليصوغ لها حلياً وكانت اليهود معادية للأنصار فلما جلست عند الصائغ عمد إلى بعض حدائده فشدّ به أسفل ذيلها وجيبها وهي لا تشعر؛ فلما قامت المرأة وهي في

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ٢/ ٢٦٤. الواقدي: المغازي،١/ ١٣٣،١٣١. المباركفوري: الرحيق المختوم، ٢٣٦.

سوقهم نظروا إليها منكشفة فجعلوا يضحكون منها ويسخرون، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فنابذهم وجعل ذلك منهم **نقضاً للعهد**[1] فيتضح من هذا النصوص أن قينقاع هم الذين بدأوا بالاتصال بالمشركين والتهديد بالقتال والمباشرة بنقض العهد، تبين ذلك في ردهم على رسول الله ﷺ ومن خلال العدوان على المرأة المسلمة وقتل المسلم الذي دافع عنها، وكل ذلك كان بتدبير جماعي منهم ولم يكن باجتهاد فردي يطهره القصاص والبراءة من ذلك الفعل، وذلك ما أكد لرسول الله ﷺ أن قينقاع لا يقيمون وزناً لعهد ولا ميثاق وبالتالي فهم خطر على أمن المدينة وسلامة أهلها، فضلاً عن أنهم يمدون أيديهم لكل معتد على المسلمين يناصرونه ويزودونه بالإمداد والتموين، ويفشون الأخبار عن المسلمين وتحركاتهم، فهذه المواقف وغيرها من الأعمال العدوانية هي التي اضطرت رسول الله ﷺ إلى إخراجهم من المدينة اتقاء لشرّهم ودرءاً لمكرهم وتحالفاتهم العسكرية الهادفة إلى القضاء على المسلمين.

الموقف من غدر بني النضير

بعد انتصار المسلمين في بدر، وبعد مقتل كعب بن الأشرف وأمثاله من مسعري الفتن خافت قبائل اليهود وأخلدت إلى المسالمة، ولكن بعد معركة أحد اجترؤوا من جديد على التواصل مع المشركين في مكة وتجديد التعاون معهم ضد المسلمين[2] مما يؤكد أن هناك عوامل خارجية كانت تغذي التواصل بين القبائل اليهودية في المدينة مع مشركي قريش، وكان التوافق بينهما قائم على حرب المسلمين ولكنهم كانوا ينتظرون الفرصة المناسبة لذلك. وكان "كفار قريش كتبوا إلى ابن أبي ومن كان يعبد معه الأوثان من الأوس والخزرج ورسول الله ﷺ يومئذ

---

(١) سنن البيهقي، كتاب السير: باب يشترط عليهم إن أحدا من رجالهم إن أصاب مسلمة بزنا أو اسم نكاح أو قطع الطريق، (١٨٤٢٠).

(٢) المباركفوري: الرحيق المختوم، ٢٩٥.

بالمدينة قبل وقعة بدر إنكم آويتم صاحبنا وإنا نقسم بالله لتقاتلنه أو لتخرجنه أو لنسيرن إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلتكم ونستبيح نساءكم، فلما بلغ ذلك عبد الله بن أبي ومن كان معه من عبدة الأوثان اجتمعوا لقتال رسول الله ﷺ فلما بلغ ذلك النبي ﷺ لقيهم فقال "لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ ما كانت تكيدهم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم" فلما سمعوا ذلك من النبي ﷺ تفرقوا فبلغ ذلك كفار قريش فكتبت كفار قريش بعد وقعة بدر إلى اليهود: إنكم أهل الحلقة والحصون، وإنكم لتقاتلن صاحبنا أو لنفعلنّ كذا وكذا ولا يحول بيننا وبين خدم نسائكم شيء وهي الخلاخيل، فلما بلغ كتابهم النبي ﷺ **أجمعت بنو النضير بالغدر** فأرسلوا إلى النبي ﷺ اخرج إلينا في ثلاثين رجلاً من أصحابك، وليخرج منّا ثلاثون حبراً حتى نلتقي بمكان المنْصَف فيسمعوا منك فإن صدّقوك وآمنوا بك آمنا بك فقص خبرهم فلما كان الغد غدا عليهم رسول الله ﷺ بالكتائب فحصرهم فقال لهم "إنكم والله لا تأمنون عندي إلا بعهد تعاهدوني عليه" **فأبوا أن يعطوه عهداً** فقاتلهم يومهم ذلك، ثم غدا الغد على بني قريظة بالكتائب وترك بني النضير ودعاهم إلى أن يعاهدوه **فعاهدوه** فانصرف عنهم وغدا على بني النضير بالكتائب فقاتلهم حتى نزلوا على **الجلاء** فجلت بنو النضير واحتملوا ما أقلت الإبل من أمتعتهم وأبواب بيوتهم وخشبها فكان نخل بني النضير لرسول الله ﷺ خاصة أعطاه الله إياها وخصه بها. قال تعالى ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ﴾ (الحشر: من الآية٦) يقول بغير قتال[1] وهذا النص يبين تواصل النضير مع المشركين المحاربين للمسلمين، ويظهر استعدادهم للتعاون على حربهم بينما يؤكد حرص النبي ﷺ على أن تكون العلاقة معهم علاقة

---

(١) سنن أبي داوود: كتاب الخراج والفيء والإمارة، باب خبر النضير، (٣٠٠٤) قال الألباني: صحيح الإسناد.

واضحة لا تدليس فيها ولا توجس وأن يكون ذلك متفق عليه في كتاب يحتكم الطرفان إليه في حال الخلاف لكن النضير كانوا يرفضون ذلك.

قال أبو هريرة ﷺ: بينا نحن في المسجد، إذ خرج إلينا رسول الله ﷺ فقال (انطلقوا إلى يهود) فخرجنا معه. حتى جئناهم. فقام رسول الله ﷺ فناداهم. فقال: "يا معشر يهود! أسلموا تسلموا" فقالوا: قد بلغت. يا أبا القاسم! فقال لهم رسول الله ﷺ (ذلك أريد. أسلموا تسلموا) فقالوا: قد بلغت يا أبا القاسم! فقال لهم رسول الله ﷺ "ذلك أريد" فقال لهم الثالثة. فقال: "اعلموا إنما الأرض لله ورسوله. وأني أريد أن أجليكم من هذه الأرض فمن وجد منكم بماله شيئاً فليبعه. وإلا فاعلموا أن الأرض لله ورسوله"[1] وكل هذه الأحداث والمحاورات كانت تجري قبل الاشتباك المباشر مع النضير.

وكَانَ بَنُو النّضِيرِ حلفاء المشركين الذين غدروا بأصحاب النبي ﷺ السبعين عند بئر معونة أحد مياه بني سليم بين أرضهم وأرض بني عامر[2] وقد نجا من الصحابة عمرو بن أمية الضمري ﷺ وفي طريق عودته إلى المدينة قتل رجلين قصاصاً لمن قُتل من أصحابه كما كان يعتقد، فتبين أن لهذين الرجلين عهد من رسول الله ﷺ فلما علم النبي ﷺ بذلك قال لأؤدينهما، فخرج رسول اللّهِ ﷺ إلى بني النّضير فكلّمهم أن يعينوه في دِيَةِ الرجلين الكلابيين اللّذين قتلهما عمرو بن أميّة، وذلك بحسب ما كان متفق عليه بين المسلمين واليهود في المدينة. فقالوا: نفعل يا أبا القاسم ما أحببت، اجلس حتّى نطعمك فاستند النبي ﷺ إلى بيت من بيوتهم، فقال حُيَيّ بْن أَخْطَبَ: يَا مَعْشَرَ الْيَهُود، لَن تجدوه أَخْلَى مِنْهُ السّاعَةَ، فَإِنّهُ إنْ قُتِلَ

---

(١) البخاري: كتاب الإكراه، باب: في بيع المكره ونحوه، في الحق وغيره.ح (٦٥٤٥). كتاب أبواب الجزية والموادعة، باب، إخراج اليهود من جزيرة العرب، ح (٢٩٩٦). صحيح مسلم، كتاب، الجهاد والسير، باب إجلاء اليهود من الحجاز،ح (١٧٦٥).

(٢) ابن هشام السيرة النبوية، ٤/ ١٣٩. ابن سعد: الطبقات، ٢/ ٢٧٥.

تَفَرّقَ أصحابه، فاطرحوا عليه حجارة من فوق هذا البيت الذي هو تحته فاقتلوه، فعلم النبي ﷺ بِمَا هَمّوا به فنهض سريعًا كأنّه يريد حاجة وتوجّه إلى المدينة[1].

فلمّا انتهى إلى أصحابه، قال أبو بكر: يا رسول اللّه قمت ولم نشعر، فقال ﷺ: همّت اليهود بالغدر بي، فأرسل إليهم محمّد بن مسلمة، فقال لهم: إن رسول اللّه ﷺ أرسلني إليكم يقول: قَدْ نقضتم العهد الذي جَعَلْت لكم بما هممتم به من الغَدر بي، ويقول: اخرجوا من بلدي، فقد أجّلتكم عَشْرًا فمن رئي بعد ذلك ضربت عنقه، فمكثوا على ذلك أيّامًا يتجهّزون، فبينما هم على ذلك إذْ جاءهم رسول ابن أُبَيّ بن سلول: يَقُول: لا تَخْرُجُوا وَأَقِيمُوا في حصونكم يعدهم النصر مع حلفائه، فطمع حُيَيّ فيما قال ابْن أُبيّ، فرفض الخروج من المدينة وأعلن بالحرب؛ لكن المنافقين لم ينصروه بعد أن حصره المسلمون في حصنه ولم يخرج إليه أحد منهم[2] فأرسل إلى رسول اللّه ﷺ يقول نحن نعطيك الذي سَأَلْت، وَنَخْرج مِن بلادك. فَلم يقبل منهم رَسُولُ اللّهِ ﷺ وأعطاهم ما حملت الإبل إلاّ الحلقة أي السلاح. فأبى حُيَيّ أن يقبل يوماً، أو يومين، فلمّا رأى ذلك يامِين بن عمير، وأبو سعد بن وهب، قال أحدهما لصاحبه: وإنّك لتعلم أنّه لرسول اللّه فما تنتظر أن نسلم، فنأمن على دمائنا وأموالنا؟ فنزلا من اللّيل فأسلما فأحرزا دماءهما وأموالهما. ثم خرج بنو النضير من المدينة، بعد أن أخذوا ما لهم من ديون على المسلمين[3] فتبين أن النضير كانوا يعلمون أن النبي ﷺ حقّ وأنّ ما يقومون به يمثل وجهاً من وجوه العدوان والنقض والتعاون مع العدو، لكن ذلك لم يكن عند المسلمين مسوغاً لمحاسبتهم قبل إنذارهم وتحذيرهم، وبعد أن خضعوا لشروط الصلح أديت إليهم حقوقهم بما في ذلك ديونهم التي على المسلمين ولم يؤذن لأحد من المسلمين أن يسمعهم ما ينال

---

(١) الواقدي: المغازي، ١/ ٢٦٤. هارون: تهذيب سيرة ابن هشام، ١٦١،وقال دية العامريين. المباركفوري: الرحيق المختوم، ٢٩٤.

(٢) ابن سعد: الطبقات، ٢/ ٥٧. ابن القيم: زاد المعاد، ٣/ ١١٥، الواقدي: المغازي، ١/ ٢٦٦. المباركفوري: الرحيق المختوم، ٣٩٥.

(٣) الواقدي: المغازي، ١/ ٢٦٨، ٢٧٠، ٢٦٩.

منهم حتى خرجوا من المدينة بعد إصرارهم على النقض علانية دون أي معوقات أو منغصات من مواقف التشفي أو التأنيب بل كان المسلمون يتمنون لو أنهم التزموا العهود والمواثيق وحقوق الجوار التي كانوا عليها.

ومما يبين حضارية التعامل الإسلامي وسماحته مع الآخرين، بما في ذلك اختيار العقيدة والولاء لها ما روي عن سعيد بن جبير في أسباب النزول في قوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ (البقرة: من الآية٢٥٦) قال نزلت في الأوس والخزرج كانت المرأة منهم إذا كانت نزرة أو مقلاة - أي قليلة الولد - تنذر لئن ولدت ولداً لتجعلنه في اليهود تلتمس بذلك طول بقائه فجاء الإسلام وفيهم منهم، فلما أجليت النضير قالت الأنصار يا رسول الله أبناؤنا وإخواننا فيهم فسكت عنهم رسول الله ﷺ فنزلت: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ فقال رسول الله ﷺ قد خُيّر أصحابكم فإن اختاروكم فهم منكم وإن اختاروهم فأجلوهم معهم[1] فلم يأذن ﷺ لأصحابه أن يأخذوا أبناءهم الذين تهودوا إلا إذا كان ذلك برغبة من الأبناء، مما يؤكد الاحترام الكبير الذي يكنه المسلمون لأهل الكتاب وأتباع الديانات السماوية، واعترافهم بهم وبكتبهم وأنبيائهم، وهذا ما يعمل كثير من المغرضين على طمسه واتهام المسلمين بأنهم يلزمون الناس باعتناق عقيدتهم كرهاً، مسقطين النصوص الواضحة في القرآن الكريم التي يستقي منها المسلمون آداب ووسائل نشر دينهم في مثل قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ﴾ (الكهف: من الآية٢٩) وهذا وجه من وجوه التشويه والتزييف المتعمد الذي يتعرض له الإسلام ولا سيما في هذا العصر.

الموقف من غدر بَنِي قُرَيْظَةَ

أثبتت قريظة أنها كبقية إخوانها من قبائل اليهود في التعامل بالغدر والنقض

(١) البيهقي: سنن البيهقي، كتاب السير: باب من لحق بأهل الكتاب قبل نزول الفرقان، ح (١٨٤٢٠).

مع النبي ﷺ والمسلمين وأنه لم يكن يمنعهم من ذلك سوى انتظار الفرصة المواتية لاقتناصها والتنصل مما بينهم وبين النبي ﷺ من عهود ومواثيق، فعلى الرغم من وفاء النبي ﷺ وأصحابه لهم، وتمسكهم بآداب حسن الجوار وعدم إقحامهم في أي أمر من أمور الدعوة وتبعاتها. قال زعيم قريظة لحيي حين كان يفاوضه على نقض العهد: "إني لم أر من محمد إلا صدقا ووفاء وقد وادعني"[1] ولكن سرعان ما استجاب كعب بن أسد لدعوة الغدر بالنبي ﷺ وأصحابه فما إن رأت قريظة الأحزاب وما معهم من القوة والعدد والعدة حتى استجابوا لمساومة حيي بن أخطب وما عرض عليهم من أوهام وأماني أزاغتهم عن الوفاء عما في أعناقهم من عهود و"نقض كعب العهد وأظهر البراءة من رسول الله ﷺ وما كان بينه وبينه"[2] وذلك في أحرج الظروف التي مرّ بها المسلمون وأحلكها وأقساها، مما زاد محنة المسلمين وتأزم أوضاعهم في أيام الخندق وحصار الأحزاب لهم، فأصبح المسلمون وذراريهم وممتلكاتهم في خطر محدق ماحق، وكان مقاتلوا قريظة سبعمائة وخمسون مقاتلاً، وكان رسول اللّه ﷺ حين قدم صالح قريظة والنّضير ومن بالمدينة من اليهود ألاّ يكونوا معه ولا عليه. ويقال: صالحهم على أن ينصروه ممّن دهمه منهم ويقيموا على معاقلهم الأولى التي بين الأوس والخزرج[3] لكن قريظة أسقطت كل تلك المواثيق، ليثبتوا أن التحالف مع الأقوياء ركن من أركان سياستهم منذ ذلك العهد.

وكانت الأحزاب عَشَرة آلاف وَالْخيل أَلْف فَرسٍ والسلاحُ كَثِيرٌ، ولشدة ثقة حيي بن أخطب بنتائج حملة الأحزاب عاهد كعب بن أسد زعيم قريظة: "لئن لم يقتل مُحمّدٌ في هذِهِ الفورة ورجعت قريش وغطفان قبل أن يصيبوا مُحَمّدًا،

---

(١) البيهقي: سنن البيهقي، كتاب السير: باب نقض أهل العهد أو بعضهم العهد، ح (١٨٦٣٦)

(٢) البيهقي: سنن البيهقي، كتاب السير: باب نقض أهل العهد أو بعضهم العهد، ح (١٨٦٣٦)

(٣) الواقدي: المغازي، ١/ ٣٣٤. ينظر المباركفوري: الرحيق المختوم، ٣١٤.

لأدخلن معك حِصنك حتّى يصيبنى مَا أَصَابَك، **فَنَقَضَ كَعْبٌ الْعَهْدَ الذي كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَسُولِ اللّهِ ﷺ**[1] دون أي حجة؛ ودعا حُييّ بالكتاب الذي كتبه رَسُولُ اللّهِ ﷺ **بَيْنَهُمْ فَشَقّهُ**[2] وكان ذلك النقض يعني مشاركة قريظة في العمل على استئصال المسلمين كياناً ودعوة لذلك كانت جريمة قريظة أكبر من كل ما سبقها، فلما علم النبي ﷺ **بأن قريظة نقضت العهد** وحاربت، دعا سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، وأسيد بن حضير، فقال: إنّه قد بلغني أنّ بني قريظة قد نقضوا العهد الذي بيننا وبينهم وحاربوا، فَاذْهَبُوا فانظروا،فلما انتهوا إلى كعب بن أسد وجدوا القوم قد نقضوا العهد!! فناشدوهم اللّه والعهد الذي كان بينهم أن يرجعوا إلى ما كانوا عليه قبل ذلك وألاّ يطيعوا حييّ بن أخطب[3] **فقال كَعْبٌ: لا نَرُدّهُ أبداً، قد قطَعْته. وقال: إنّكم واللّه ما لقيتم أحدا يحسن القِتال، ولا يعرفه، نحن واللّه نحسن قتالكم**، ونالوا من رسول اللّه ﷺ ومن المسلمين أقبح الكلام وشتموا سعد بن عبادة شتما قبيحًا. "**فلما انتهوا إليهم وجدوهم على أخبث ما بلغهم**"[4] فأصبح الحال عل ما وصفه القرآن الكريم في قوله تعالَى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ وَرَسُولُ اللّهِ ﷺ والمسلمون وجاه العدوّ لا يستطيعون الزّوال عن أماكنهم يَعْتَقِبُونَ خَنْدَقَهُمْ وَيَحْرُسُونَهُ، لشدة ضغط قوات المشركين عليهم حتى تَكَلّم قَوْمٌ من المنافقين بِكَلام قبيح، فقالوا: يعدنا مُحَمّدٌ كنوز كسرى وقيصر وأحدنا لا يأمن أن يذهب إلى حاجته وما وعدنا اللّهُ وَرَسُولُهُ إلاّ غُرُورًا[5] وحين كان المسلمون على تلك الحال كانت قيادة قريظة

(١) البيهقي: سنن البيهقي، كتاب السير: باب نقض أهل العهد أو بعضهم العهد، ح (١٨٦٣٦)

(٢) الواقدي: المغازي، ١/ ٣٣٥. ينظر المباركفوري: الرحيق المختوم، ٣٠٩.

(٣) الواقدي: المغازي، ١/ ٣٣٦. ابن هشام: السيرة النبوية، ٤/ ١٩٨.

(٤) البيهقي: سنن البيهقي، كتاب السير: باب نقض أهل العهد أو بعضهم العهد، ح (١٨٦٣٦)

(٥) الواقدي: المغازي، ١/ ٣٣٧. الغزالي: فقه السيرة، ٢٩٧.

تستقبل زعماء المشركين وتمدهم وتحسين رفادتهم وتزودهم بالمعلومات، وكانت مجموعات منهم ترصد حصون المسلمين لتبث الرعب في قلوب النساء والذرية، وكانَتْ عمة النبي ﷺ صَفِيّةُ بنت عبد المطلب في حصن فارع، فأقبل عشرة من بني قُريظة نهارًا، فجعلوا ينقمعون ويرمون الحصن ودنا أحدهم إلى باب الحصن يريد أن يدخل فقتلته صفية فهرب من بقى منهم[1] معتقدين أن في الحصن قوة حماية من المسلمين.

وخلاصة موقف قريظة أنه كان من أسوء مواقف قبائل اليهود في المدينة وأخطرها تجاه المسلمين وذلك أن قريظة عرفت وفاء المسلمين وشدة حرصهم على الوفاء بالعهود، كما علمت شدتهم على من يعبث بالأمن ويحرض على الفتن؛ وكان من المفترض أن يستفيدوا مما وقع لمن فعل ذلك من بني قينقاع وبني النضير لكن كراهيتهم لرسول الله ﷺ كانت وراء كل ما وقعوا به من أفعال مشينة جنوا ثمارها المرة بقصاص عادل حكم به حليفهم سيد الأوس سعد بن معاذ ﷺ وذلك لّما انصرف الْمُشْرِكُون عَنْ الْخَنْدَق " فلما رجع رسول الله ﷺ من الخندق وضع السلاح. فاغتسل. فأتاه جبريل وهو ينفض رأسه من الغبار. فقال: وضعت السلاح؟ والله ما وضعناه، اخرج إليهم. فقال رسول الله ﷺ (فأين؟) فأشار إلى بني قريظة. فقاتلهم رسول الله ﷺ فنزلوا على حكم رسول الله ﷺ فردّ رسول الله ﷺ الحكم فيهم إلى سعد بن معاذ ﷺ. قال: فإني أحكم فيهم أن تقتل المقاتلة، وأن تسبى الذرية والنساء، وتقسم أموالهم[2] و" في هذه القصة أن حيياً لم يزل بهم حتى شأمهم فاجتمع ملؤهم على الغدر على أمر رجل واحد غير أسد وأسيد وثعلبة خرجوا إلى رسول الله ﷺ[3] فحين قُدم حيي لتضرب عنقه قال: واَللّه ما لمت نفسي

(١) ابن هشام السيرة النبوية، ٢/ ٢٢٩. المباركفوري: الرحيق المختوم، ٣١٠.

(٢) مسلم: كتاب، الجهاد والسير، باب جواز قتال من نقض العهد، وجواز إنزال أهل الحصن على حكم حاكم عدل، (١٧٦٩).

(٣) البيهقي: سنن البيهقي، كتاب السير: باب نقض أهل العهد أو بعضهم العهد، ح (١٨٦٣٦)

في عداوتك، ولكِنّهُ مَنْ يَخْذُلْ اللّهُ يُخْذَلْ[1] قال ابـن عمـر: إن يهـود بـني النـضير وقريظة حاربوا رسول الله ﷺ فأجلى رسول الله ﷺ بني النضير، وأقـرّ قريظـة ومـنّ عليهم. حتى حاربت قريظة بعد ذلك. فقتـل رجـالهم. وقـسم نـساءهم وأولادهـم وأموالهم بـين المـسلمين. إلا أنّ بعـضهم لحقـوا برسـول الله ﷺ فـأمنهم وأسـلموا، وأجلى رسول الله ﷺ يهود المدينة كلهم: بني قينقاع "وهـم قـوم عبـد الله بـن سـلام" ويهود بني حارثة. وكل يهودي كان بالمدينة[2] فيتضح أن التعامـل مـع اليهـود كـان قائماً على الصدق والوفاء والمناصحة والتعاون وحسن الجوار، واستمر المـسلمون متمسكين بهذه القيم في تعاملهم مع اليهود، يتجاوزن عن استفزازاتهم وتحرشـاتهم الفكرية والسياسية والاجتماعية وغيرها، لكن حلم المسلمين هذا وصـبرهم لم يـزد اليهود إلا طمعاً في الـتخلص مـن المـسلمين ونبـيهم ﷺ سـواء كـان ذلـك بالغـدر والخداع أم بالتحالف مع الأعداء ونقض العهود ومباشرة العدوان.

كل هذه الأسباب وغيرها ألجأت المسلمين إلى الدفاع عن أنفسهم، والتحوط لمكر زعماء اليهود وانتهازية الكثير منهم؛ في ساعات الشدة والحرج التي مرّ بها المسلمون؛ لممارسة غدرهم والتنفيس عن أحقادهم التي يحملونها في صدورهم، على الرسالة والرسول ﷺ ولكن مكرهم كان يعود عليهم وبالاً وشراً، بسبب حذر المسلمين وتحوطهم من غدر اليهود، واليهود وإن آذوا المسلمين في كثير من الأوقات، إلا أن كيدهم عاد إلى نحورهم، فباؤوا بما يبوء به الغادرون من الطرد وسوء الذكر، وما يتوافق مع ثمار مكرهم وعدوانهم ونقضهم. قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ (فاطر: من الآية٤٣).

---

(١) الواقدي: المغازي، ٢/ ١٣. الصالحي: سبل الهدى والرشاد، ٥/ ٦٨٥.

(٢)مسلم: صحيح مسلم، كتاب، الجهاد والسير، باب إجلاء اليهود مـن الحجـاز،ح (١٧٦٦) البيهقـي: سنن البيهقي، كتاب السير، باب ما يفعله بالرجال البالغين منهم، ح (١٧٨٠٠) كتاب الـسير: بـاب لا يسكن أرض الحجاز مشرك، ح (١٨٥٣٣).

مع يهود خيبر

لما عفا النبي ﷺ عن يهود بني النضير وأذن لهم بالخروج ومعهم ما تحمله الإبل؛ كان أول عمل قاموا به حين وصلوا خيبر هو البحث عن حلفاء من المشركين لمهاجمة النبي ﷺ وأصحابه، فكان الذين حزبوا الأحزاب نفر من بني النضير ونفر من بني وائل، وكان من بني النضير حيي بن أخطب وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق وغيرهم، خرجوا حتى قدموا على قريش فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ فنشطت قريش لذلك[1] فكانت نتائج العفو عن بني النضير خطيرة على المسلمين منها غزوة الخندق وحصار المسلمين، ونقض بني قريظة للعهد مع النبي ﷺ ووقوعهم في سوء أعمالهم بعد انصراف الأحزاب عنهم، ولعلّ ما قام به بنو النضير من دور تحريضي تآمري بعد السماح لهم بمغادرة المدينة كان من الأسباب التي جعلت المسلمين لا يتسامحون مع بني قريظة لأن العفو عنهم بعد أن تعمدوا الغدر، يعني أمراً واحداً هو أن يقبل المسلمون بحصار جديد قد لا تنفك مخالبه عنهم، لذلك لم يكن أمام القائد المجرب سعد بن معاذ من حكم غير ما حكم بثه عليهم على الرغم من أنهم كانوا حلفاءه في الجاهلية ولذلك أقرّ النبي ﷺ حكمه ونوّه به ﷺ فكان حكماً شرعياً وقائياً دفاعياً، درأ الشر القادم عن كيان المسلمين الناشئ، وأزال عنهم خطراً أكيداً كان من الممكن أن يضيف قوة وخبرة إلى أعدائهم المتربصين بهم في خيبر في حال لو لم يكن الحكم على ما كان عليه ضد قريظة، تأكد ذلك من خلال مقترحات سَلاّمِ بْنِ مشكم حين استشاره اليهود فقالُوا: فما الرأي أبا عمرو؟ قال: مُحَمّدٌ قدْ فرغ من يهود يثرب، وهو سائر إليكم فنازلٌ بساحتكُم وصانعٌ بكُم ما صنع ببني قُرَيْظة. قالوا: فما الرأي؟ قال: نسير إليه بمن معنا من يهود خيبر، فلهم عدد ونستجلب يهود تَيْمَاءَ، وَفَدَك، ووادى الْقُرى؛ فقالت

---

(١) البيهقي: سنن البيهقي، كتاب السير: باب نقض أهل العهد أو بعضهم العهد، ح (١٨٦٣٦) الواقدي: المغازي، ١/ ٣٢٤.

اليهودُ: هذا الرأي[1].

وهذا الموقف يؤكد مرّة أخرى عدالة الحكم الصادر على بني قريظة، ودقة تشخيص سعد بن معاذ ﷺ للواقع السياسي والعسكري الذي كان قائماً عند إصداره ذلك الحكم عليهم، وهذا أيضاً يؤكد أن اليهود لم ينتفعوا بتجاربهم وبما جنوه من مرارة الغدر برسول الله ﷺ في المدينة؛ حين جعلوا من خيبر مركزاً للدس والتآمر وتحريض القبائل على المسلمين. **فكان من الأسباب المباشرة لفتح خيبر أنهم ممن تمالؤوا على المسلمين، وأعانوا أحْزاب المشركين في غزوة الخندق.** فغزاهم النّبي ﷺ وحاصر حصونهم، وانتصر عليهم، فدخل بعض الحصون عُنْوَةً، ودخل بعضها صُلْحاً، وسارع آخرون إلى طلب الأمان، فكان لكل صنف حكمه، ولم يُجْلِ أحداً من دياره، **إلا أنه صالحهم على أنّ للمسلمين إجلاءهم متى شاؤوا**[2].

قال ابن القيم عن فتح خيبر: "إنما فتحت عنوة وقد حصل بين اليهود والمسلمين بها من الحراب والمبارزة والقتل من الفريقين ما هو معلوم، ولكن لما ألجئوا إلى حصنهم نزلوا على الصلح الذي بذلوه أنّ لرسول الله ﷺ الصفراء والبيضاء والحلقة والسلاح ولهم رقابهم وذريتهم وجلوا من الأرض فهذا كان الصلح"[3] قال أنس ﷺ: "وأصبناها عنوة"[4] وقال: "فأتيناهم حين بزغت الشمس. وقد أخرجوا مواشيهم، وخرجوا بفؤوسهم ومكاتلهم ومرورهم، فقالوا: محمد والخميس"[5] وفي هذا دليل على عمق خبرة المسلمين في الرصد والحركة والاستطلاع وقدرتهم على الوصول إلى أهدافهم بكل دقة ومهارة، يتضح ذلك من

---

(١) الواقدي: المغازي،٢/ ٢٥.

(٢) الواقدي: المغازي،٢/ ٢٥. ينظر السهيلي: الروض الأنف، ٤/ ٨٠ فما بعدها.

(٣) ابن القيم: زاد المعاد، ٣/ ٢٥٨.

(٤) صحيح مسلم: كتاب الجهاد، باب غزوة خيبر (١٣٦٥) صحيح ابن حبان: كتاب السير باب الخروج وكيفية الجهاد (٤٧٤٦).

(٥) مسلم: صحيح مسلم، كتاب، الجهاد والسير، باب غزوة خيبر،ح (١٣٦٥)

خلال الطريق الذي سلكه ﷺ حين خرج من المدينة، حيث سلك ثنيّة الْـوداع، ثـمّ أخذ علَى الزّغابة ثُمّ عَلَى نَقْمَى، ثُمّ سلك المستناخ ثُمّ كبس حصن الوطيح، وكان معه دليلان من أشجع يُقَالُ لأحدِهما: حَسِيلُ بن خارجة، والآخـر: عَبْـدُ اللّـهِ بْـن نُعَيْم، قالوا: وانتهى رسول اللّه ﷺ إلى الصّهْبَاءِ فصلّى بها العصر ثُمّ دعا بالأطعمـة فلم يُؤْتَ إلاّ بالسّويق والتّمر فأكل رسول اللّه ﷺ وأكلـوا معـه ثـمّ دعـا بـالأدلاّء حُسَيْل بن خارجة الأشجعي وعبد اللّه بن نعيم الأشجعي. قال فقـال رسـول اللّـه ﷺ لحسيل: "امْض أمامنا حَتّى تَأْخُذنا صدور الأَوْدية حَتّى نأتي خيبر من بينها وبين الشّام، فَأَحُولُ بَيْنَهُم وَبَيْن الشّام وَبَيْن حلفائهم من غطفَان، فسلك به طريقاً اسمها مَرْحَب، فيسلك بين حياض والسّرير، فاتّبع صدور الأودية حتّى هبط به الْخَرَصـة، ثمّ نهض به حتّى سلك بين حصني الشّقّ والنّطاة[1].

فوعظ رسول اللّه ﷺ النّاس وفـرّق بيـنهم الرّايـات، وكانـت ثـلاث رايـات، وكانت راية النّبيّ ﷺ سوداء من بُرْدٍ لأم المؤمنين الطـاهرة عائـشة تُـدْعى العقـاب ولواؤه أبيض، ودفع راية إلى عليّ ﷺ وراية إلى الحُباب بن المنـذر، ورايـة إلى سـعد بن عُبَادة[2].

فانتهى رسول اللّه ﷺ إلى حصن ناعم ومعـه المـسلمون وحـصون نـاعِم عـدّة فرمت اليهود يومئذ بالنّبل وقاتلـت بقـوة، وروي أن رسـولُ اللّـه ﷺ قـال في أيـام خيبر: "إنّ اليهود جاءهم الشّيطان فقال لهـم: إنّ مُحَمّـدًا يقـاتلكم علـى أمـوالكم، نادوهم قولوا لا إله إلاّ اللّه ثمّ قدْ أحرزْتُم بذلك أموالكم ودماءكم وحسابكم على اللّه فَنَادَوْهُمْ بذلك فنادت اليهود: إنّا لا نَفْعَلُ"[3].

وفي خيبر قال النبي ﷺ: "لأعطين الراية رجلاً يفتح الله على يديه"... فقال ﷺ: أين علي؟ فقيل: يشتكي عينيه، فأمر فدعي له، فبصق في عينيـه، فـبرأ مكانـه حتـى

(١) السهيلي: الروض الأنف، ٤/ ٧١. الواقدي: المغازي، ٢/ ١١٦.

(٢) الواقدي: المغازي، ٢/ ١١٨.

(٣) الواقدي: المغازي، ٢/ ١٢١. ونظر المباكفوري: الرحيق المختوم، ٣٦٩.

كأنه لم يكن به شيء، فقال ﷺ: نقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال النبي ﷺ: "على رسلك، حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم، فوالله لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم"[1].

فهذا النص الصحيح يبين لكل منصف أن غاية المسلمين الأولى هي دعوة الناس وإرشادهم وهدايتهم، وأن ذلك عندهم أهمّ من الفتوح والانتصارات فهذا رسول الله ﷺ يُعلّم أصحابه وهم في ظروف ميدانية حاسمة وخطرة؛ أن الدعوة أولاً وأن هداية رجل واحد خير من المغانم والانتصارات، وهذه قيم خالدة ثابتة لا توجد إلا في دعوة التوحيد التي يرعاها الوحي وتقودها النبوة ويرقبها الإخلاص المنبثق من الضمائر التي تحس بمباشرة الرقابة الربانية وعلمها بما في ذات الصدور.

ومن اللافت للنظر في أحداث فتوح حصون خيبر تعاون بعض اليهود مع المسلمين في الدلالة والتعريف بأسرار بعض الحصون، ولعلّ ذلك يعكس روح الثقة بالمسلمين والميل إلى نصرة النبي ﷺ والشك في موقف زعماء اليهود فكرياً وعسكرياً بناء على ما لدى اليهود من معلومات حدثهم بها أحبارهم؛ أو حفظتها كتبهم فتعلموها وهي تدعو إلى نصرة النبي ﷺ وتبين مواصفاته، ومن ذلك أيضاً أنّ رجلاً من أهل حصن النّطاة في خيبر نادى في المسلمين أنا آمن وأبلّغكم؟ فأجابه المسلمون إلى ما يريد فقدم معلومات أسهمت في الإسراع بفتح حصن النطاة، ولما فتحوا حصن الشّق ردّ رسول اللّه ﷺ إلى الْيَهُودىّ زوجته وكانت في الشّق، فدفعها إليه. وطاف عمر ﷺ بأصحابه حول العسكر وفرّق بعضهم في الرصد والحراسة فأُتي برجل من اليهود في جوف اللّيْلِ فدلّ المسلمين على أسرار دفاعات وأسلحة ومخططات اليهود في حصن الكتيبة، فأطلقه النبي ﷺ ودفع إليه زوجته، فلمّا فتح

---

(١) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب: دعاء النبي ﷺ إلى الإسلام والنبوة، وأن لا يتخذ بعضهم بعضا أرباباً من دون الله. ح (٢٧٨٣). مسلم: صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي ﷺ ح (٢٤٠٦).

رسول اللّه ﷺ حصني الوطيح وسلالم أَسْلَمَ اليهودي[1] وأقام رسول اللّه ﷺ على محاصرة الّذين في قلعة الزّبير ثلاثة أيّام فجاء رجلٌ من اليهود يُقال له: غَزَالٌ، فقال:للنبي ﷺ تؤمني على أن أدلّك، فأمّنه رسول اللّه ﷺ على أهله وماله، فافتتح الشق وكان آخر حُصون النّطاة وكان هناك حصون صغيرة لكن اليهود أخلوها[2] ثمّ تحوّل ﷺ إلى حصون الْكَتِيبَة وَالْوَطِيحِ وَسُلالِم، حصن بن أبى الحقيق الذي كانوا فيه، فتحصّنوا في الْقَمُوص وهو في الْكتيبة، وكان حصنا منيعا، وفي الْوَطِيحَ وَسُلالِم، فَلَمّا أَيْقَنُوا بالهلكة سألوا رسول اللّه ﷺ الصّلح، فنزل ابن أبى الحقيق فصالح رسول اللّه ﷺ على حقن دماء من في حصونهم من المقاتلة وترك الذرّية لهم ويخرجون من خيبر وأرضها بذراريهم[3].

قال ابن عمر رضي الله عنهما: " وكان رسول الله ﷺ لما ظهر على خيبر أراد إخراج اليهود منها فكانت الأرض حين ظهر عليها لله ولرسوله وللمسلمين، فأراد إخراج اليهود منها فسألت اليهود رسول الله ﷺ ليقرّهم على أن يكفوه عملها ولهم نصف الثمر، فقال لهم رسول الله ﷺ: نقرّكم بها على ذلك ما شئنا، فقرّوا بها حتى أجلاهم عمر ﷺ إلى تيماء وأريحا[4] وقال ﷺ: "نقركم ما أقركم الله"[5] فأعطى النبي ﷺ خيبر لليهود: " أن يعملوها ويزرعوها، ولهم شطر ما يخرج منها[6] وذلك استجابة لرغبتهم وقبولاً بقسمتهم على الرغم مما كانوا يُحرّضون عليه من القبائل

---

(١) الواقدي: المغازي، ٢/ ١١٩

(٢) الواقدي: المغازي، ٢/ ١٣٢. المباركفوري: الرحيق المختوم، ٣٧٢.

(٣) ابن القيم: الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، ١/ ١٠. زاد المعاد: ٣/ ٢٥٥. الواقدي: المغازي، ٢/ ١٣٣.

(٤) البيهقي: سنن البيهقي، كتاب السير: باب المهادنة إلى غير مدة، ح (١٨٥٩٩).

(٥) البيهقي: سنن البيهقي، كتاب السير: باب المهادنة إلى غير مدة، ح (١٨٥٩٩).

(٦) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الخمس، باب: ما كان للنبي ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه، ح (٢٩٨٣).

ويقيمون ضده من التحالفات ويجمعون عليه من الجموع لاستئصال دولته وإبطال دعوته، لكنه ﷺ ما كاد يدعى إلى السلم حتى أسرع الإجابة وما دعي للمصالحة على الأرض بما ينفع يهود خيبر حتى حقق لهم تلك الرغبة، وهذا كله يؤكد على أصالة حب السلم والصلح وحب الخير في مفاهيم وثوابت الحضارة الإسلامية المنبثقة تعاليمها من قيم الكتاب والسنة؛ التي يستقي منها المسلمون أخلاق الحرب والسلام على مرّ العصور.

نقض يهود خيبر للعهد

انتهت الحرب في خيبر واختار اليهود الصلح والعمل في الأرض بدل الجلاء والطرد من الحجاز ولو إلى حين، وعرضوا هذه الرغبة على رسول الله ﷺ فقبل ذلك وتم الاتفاق وأمن الناس بعضهم بعضاً لكن يهود خيبر أبوا إلا غدراً ونقضاً وكيداً برسول الله ﷺ وأصحابه. قال أبو هريرة ﷺ: "لما فتحت خيبر أهديت للنبي ﷺ **شاة فيها سم**، فقال النبي ﷺ: "اجمعوا إلي من كان ها هنا من يهود". فجمعوا له، فقال: "إني سائلكم عن شيء فهل أنتم صادقي عنه". فقالوا: نعم، قال لهم النبي ﷺ: "من أبوكم". قالوا: فلان، فقال: "كذبتم، بل أبوكم فلان". قالوا: صدقت، قال: "فهل أنتم صادقي عن شيء إن سألت عنه". فقالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبنا عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا، فقال لهم: "من أهل النار؟". قالوا: نكون فيها يسيراً، ثم تخلفونا فيها، فقال النبي ﷺ: "اخسؤوا فيها، والله لا نخلفكم فيها أبداً". ثم قال: "هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه". فقالوا: نعم يا أبا القاسم، قال: "هل جعلتم **في هذه الشاة سماً**؟" قالوا: نعم!! قال: "ما حملكم على ذلك" قالوا: أردنا إن كنت كاذباً نستريح، وإن كنت نبياً لم يضرك"[1].

ولما كان رسول الله ﷺ يقبل الهدية ولا يأكل الصدقة "أهدت له يهودية بخيبر شاة مصلية سمّتها فأكل رسول الله ﷺ منها وأكل القوم فقال ﷺ: "ارفعوا أيديكم

(١) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب المغازي، باب: معاملة النبي ﷺ أهل خيبر. ح (٤٠٠٢).

فإنها أخبرتني أنها مسمومة" فمات بشر بن البراء بن معرور فأرسل ﷺ إلى اليهودية" فقال: ما حملك على الذي صنعت؟" قالت إن كنت نبياً لم يضرك الذي صنعت وإن كنت ملكاً أرحت الناس منك، فأمر بها رسول الله ﷺ فقتلت ثم قال في وجعه الذي مات فيه" ما زلت أجد من الأكلة التي أكلت بخيبر فهذا أوان قطعت أبْهري"[1].

وروي أن النبي ﷺ عفا عنها ولم يقتلها[2] قال الإمام أحمد: واختلفت الأسانيد في المرأة التي سمّت النبي ﷺ بخيبر، فروي أنه لم يتعرض لها ﷺ وروي أنه أكل من تلك الشاة المسمومة بشر بن البراء فمات، فقتلها ﷺ فيحتمل أنه لم يتعرض لها في الابتداء، فلما مات منه بشر بن البراء أمر بقتلها، وهذا هو الأظهر. والله أعلم[3].

ولما كانت رواية الصحيح تذكر أن أمر تقديم السمّ تم بعلم وسبق ترصد وإصرار وتخطيط وتدبير جماعي، ولم تكن أمراً فردياً، ولا يمكن أن تتم بالصورة التي تمت بها بتدبير فردي دون أن يكون هناك تعاون وتخطيط بعد الحصول على المعلومات المناسبة حتى فيما يحبه النبي ﷺ من أجزاء الشاة، وكذلك فيما قررهم به النبي ﷺ واعترافهم الصريح بما قاموا به من عمل غادر ينقض ما اتفق عليه من الصلح، وإن كانت المنفذة لذلك امرأة منهم فهذا لا يغير في النتيجة شيئاً، وإنما يؤكد أمراً واحداً بيناً صريحاً عملت كثير من الأقلام والكتب على طمسه وتزييفه

---

(١) سنن أبي داوود، كتاب، الديات، باب فيمن سقى رجلاً سماً أو أطعمه فمات أيقاد منه؟ ح (٤٥١١) و(٤٥١٤) قال الألباني: حسن صحيح. الحاكم: المستدرك، ذكر مناقب بشر بن البراء، ح (٤٩٥٥) وقال صحيح على شرط مسلم. والأبهر عرق مستبطن القلب. قال ابن مقبل: وللفؤاد وجيب تحت أبهره لدم الوليد وراء الغيب بالحجر. السهيلي: الروض الأنف ٤/ ٨١.

(٢) سنن أبي داوود، كتاب الديات، باب فيمن سقى رجلاً سماً أو أطعمه فمات أيقاد منه؟ (٥٥١٠) السهيلي: الروض الأنف ٤/ ٨١.

(٣) البيهقي: معرفة السنن والآثار، باب قتل العمد وشبه العمد، ح (٥٠٦٩). وينظر التبريزي: مشكاة المصابيح، كتاب الفضائل والشمائل، باب شمائل سيد المرسلين، ح (٥٩٣١).

ألا وهو خُلق العفو والتسامح والصبر والاحتساب المتأصل في عقيدة المسلمين وأخلاقهم؛ وهذا ما أكده رسول الله ﷺ وأصحابه ﷺ في صبرهم وعفوهم عن اليهود، وهم في أتم حالات الاقتدار على القصاص ممن علم وشارك وخطط ونفذ هذا العمل الغادر المشين، وإن كان النبي ﷺ قتل تلك المرأة قصاصاً بعد قتل صاحبه بذلك السم؛ فإن هذه مكرمة أخلاقية أخرى تشهد على حضارية ورحمة قيم الحرب في عصر الرسالة، وأن المسلم لا تأخذه العزة بالإثم إذا انتصر واقتدر وتمكن من الآخرين، حتى لو كانوا من ألدّ أعدائه كما كان ذلك قائم في خيبر، واقتصار النبي ﷺ على إقامة الحد على من باشر تنفيذ تلك الجريمة[1] يعد عملاً إنسانياً رائعاً لا يمكن أن يقوم به إلا الرحماء المنصفون في الأرض، وإلا كيف يعفوا عمّن شارك في التخطيط والرصد وتوفير المستلزمات وجمع المعلومات إلى غير ذلك من تهم توقع من قام بها تحت طائلة المشاركة بالقتل العمد، وبالتالي الخضوع للقصاص وحكم العدالة، ولكن رسول الله ﷺ عاملهم بالرحمة والتغاضي عن غدرهم والاكتفاء بالقصاص من تلك المرأة الحاقدة التي باشرت القتل في وقت الصلح والسلم، وهذا ما تنفرد به أخلاق الحرب عند المسلمين على ما سواها، من أخلاق اكتوى العالم بلهيبها في الماضي والحاضر، ولعل السامع والمشاهد لما يجري في كثير من بلاد المسلمين على أيدي الغزاة والمحتلين يلمس الفرق الواسع بين من تحكمه عقيدة التوحيد ويخضع لها، وبين من يحكم عقيدته بأهوائه ومصالحه وردود أفعاله، حتى لو كان ذلك ضمن دائرة المحرم شرعاً وقانوناً، وحتى لو أدى ذلك إلى قتل الأبرياء والأطفال والنساء، وتدمير أسباب الحياة ومقوماتها، وهذه المواقف هي التي تظهر

(١) الواقدي: المغازي، ٢/١٣٨. قال: لما فتح رسول اللّه ﷺ خيْبر واطمأنّ جعلت زَيْنَبُ بِنْتُ الْحَارِث سماً في شاة، بعد أن شاورت اليهود فى سموم فأجمعوا لها على هذا السّمّ بعَيْنِه الذي وضعته، فسمّت الشّاة وأكثرت فى الذّراعين والكتفين، فلمّا انصرف ﷺ إلى منزله وجد زينب جالسة عند رحله، فقالت: أبا القاسم هديّة أهديتها لك، فوضعت بين يديه ﷺ.

البون الشاسع بين قيم الحرب في السيرة النبوية المحكومة بقيم الكتاب والسنة وما فيهما من ثوابت الرحمة والعدل، وبين قيم الحروب المعاصرة المحكومة بالأهواء والمطامع وحب السيطرة على الآخرين وثرواتهم وأجوائهم وبحارهم؛ حتى لو أدى ذلك إلى قتل الأبرياء والنساء والأطفال والحرث والنسل وغير ذلك مما هو مشاهد ومسموع في هذا العصر.

ولما كان لليهود دور أساس في التحريض على عامة ما هو إسلامي صحيح في الماضي والحاضر، والتشويه لكثير من قيم وأخلاق العرب في عصر السيرة النبوية وما بعده وعملهم المستمر على تضليل الناس وصرفهم عن قبول الإسلام بشهادة الزور أو بالتحالف أو بشراء الذمم وتقديم المغريات لمحاربة النبي ﷺ وأصحابه كما هو ظاهر في أحداث عصر النبوة، ولما كانت تلك الأخلاق متأصلة في فكرهم وثقافتهم، وعلم النبي ﷺ منهم ذلك عياناً حيث لم يجد معهم الصبر والحلم والعفو، استشرف ﷺ مستقبل العلاقة مع اليهود من خلال معاناته معهم ﷺ ومن هدي الآيات القرآنية التي تناولت هذا الجانب ومن خلال ما يراه ﷺ بعين النبوة المبصرة، فأكد على ثوابت الحذر منهم، وفي النهاية بشر أمته بالظفر والنصر على كل ما يخططون ويمكرون من أجله. فقال ﷺ: "تقاتلون اليهود حتى يختبئ أحدهم وراء الحجر فيقول يا عبد الله المسلم هذا يهودي ورائي فاقتله"[1] ولا شك أن مواصفات ذلك الجيل الذي يخاطبه الشجر والحجر ستكون من مواصفات عصر النبوة الذي لا يعرف الظلم ولا الحقد أو التشفي بالضعيف، وإنما يعمل بقيم الرحمة والمسامحة والحزم والعدل، والعمل بما يُمَكِّن لتلك الأخلاق ويحميها وحينها لن يكون ضرر ولا ضرار، وإنما هو العدل والإنصاف وإزاحة الظلم والطغيان، وهذا ما يرتجيه

---

(١) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب أبواب الجزية والموادعة، باب: إذا غدر المشركون بالمسلمين، هل يعفى عنهم، ح (٢٩٩٨) كتاب المغازي، باب: معاملة النبي ﷺ أهل خيبر. ح (٤٠٠٣) البيهقي: سنن البيهقي، كتاب السير، باب قتال اليهود، ح (١٨٣٧١).

جميع بني البشر في كل عصر ومصر، وهو ما يبرئ مثل هذه المبشرات من أي صبغة ذات طابع غير طابع الحق والعدل ونصرة قيم الأمن والسلام والإسلام، والتواصل بين الأمم والشعوب في الأرض.

مع أهل فدك

أراد رسول الله ﷺ أن يشغل أهل فدك[1] عن نصرة أهل خيبر فلما اقترب من خيبر أرسل إليهم مُحيصة بن مسعود الأنصاري ﷺ أخو بني حارثة، يدعوهم إلى الإسلام ويحذرهم من المشاركة في حربه، فلما قدم إليهم مُحيصة أخذوا يتربصون وينتظرون إلى ماذا تصير الأمور، وأخذوا ينشرون الشائعات عن قوة أهل خيبر وكثرتهم، فلما انتصر المسلمون على أهل خيبر فتّ ذلك في عضد أهل فدك، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ مع مُحيصة بن مسعود نون بن يوشع في نفر من يهود فدك فصالحوا رسول الله ﷺ على مثل ما صالح أهل خيبر، فكانت خيبر فيئاً بين المسلمين وكانت فدك خالصة لرسول الله ﷺ لأنهم لم يجلبوا عليها بخيل ولا ركاب[2] فقبل رسول الله ﷺ منهم الصلح لأنه يمثل هدفاً في قيم المسلمين، يقدم على الحرب حتى لو كانت تلك الحرب مضمونة النتائج لصالح المسلمين، تأكد ذلك في فدك حيث لم يكن لأهلها منعة أمام قوة المسلمين، ولكن حرص النبي ﷺ على الصلح جعله يقبل ما عرضه عليه يهود فدك وعلى ما اقترحوه له من الصلح دون أن يزيد عليهم شروطاً جديدة أو يفرض عليهم قيوداً، مما يؤكد نقاء أهداف المسلمين من حب الاستعلاء أو الاستقواء على الضعيف، وسماحتهم في عصر قوتهم على من كان يؤذيهم أو يتحالف مع أعدائهم ويمدهم بوسائل القوة وأسبابها، أو من يستخدم الإعلام التضليلي ضد عقيدتهم ومقاصدها النبيلة في كل

---

(١) فَدَك: بلدة بينها وبين المدينة يومان، وبينها وبين خيبر دون مرحلة، وهي مما أفاء الله على رسوله ﷺ الفيومي: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، كتاب الفاء، ٢/ ٤٦٥.

(٢) السهيلي: الروض الأنف، ٤/ ٨٢. الخليفة: الأنصار في العصر الراشدي، ٨٣.

تحركاتها، ويبين أيضاً عظيم رحمتهم بالناس وتشجيعهم لبوادر الصلح، وتنميتهم لثقافته المحببة إلى نفوس المسلمين المنبثقة من عقيدتهم ولنتائجه الطيبة على السلم والاستقرار الداخلي والخارجي.

مع أهل وادي القرى

لم يكن النبي ﷺ يُدعى إلى صلح إلا أجاب إليه إسهاماً منه ﷺ في نشر السلم بين الناس بكل أديانهم وأجناسهم، وسعياً وراء تدويل ثقافة التصالح والتسامح في محيط بلاد المسلمين، وفي حال امتناع المحاربين لرسول الله ﷺ عن قبول الصلح والسلام كان ﷺ يواجههم عسكرياً حين يكون ذلك خياراً لا بد منه، حتى إذا ظهر عليهم ﷺ عرض عليهم الصلح مرة أخرى رحمة منه ﷺ ورأفة وحباً للعافية، ولما امتنع أهل وادي القرى[1] عن مصالحته ﷺ أو قبول الإسلام، مغترين بحصونهم وبمن جاءهم من حلفائهم من الأعراب، مما شجعهم على خيار المواجهة حيث استقبلوا المسلمين بالرمي من داخل حصونهم، مما اضطر النبي ﷺ إلى أن يعبئ أصحابه ويصفّهم للقتال، ثم دفع لواءه إلى سعد بن عُبادة، وراية إلى الحُباب بن المنذر، وراية إلى سهل بن حنيف، وراية إلى عبّاد بن بشر، ثُمّ دعاهم رسول اللّه ﷺ إلى الإسلام قبل مباشرة قتالهم، وأخبرهم إن هم أسلموا أحرزوا أموالهم وحقنوا دماءهم وحسابهم على اللّه، لكنهم أصروا على القتال فقاتلهم المسلمون حتى فتحت عنوة، فأقام رسول اللّه ﷺ بوادي القُرى أربعة أيّام وقسم ما أصاب على أصحابه بوادي القرى، وترك النّخل والأرض بأيدي اليهُود وعاملهم عليها[2].

---

(١) وادي القرى بين المدينة والشام من أعمال المدينة كثير القرى، والنسبة إليه واديٌّ. قال الشاعر جميل بثينة:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة ... بوادي القرى إني إذاً لسعيد.

ياقوت: معجم البلدان، ٤/ ٤٣٣.

(٢) ابن سيد الناس: عيون الأثر، ٢/ ١٤٣. الواقدي: المغازي، ٢/ ١٦٠.

فلمّا بلغ يَهُودُ تَيْمَاء[1] ما وطئ به رسول اللّه ﷺ خيبر وفدك ووادى القرى، صالحوا النبي ﷺ على الجزية وأقاموا بأيديهم أموالهم، فلمّا كان زمن عمر ﷺ أخرج يهود خيبر وفدك، ولم يخرج أهل تيماء ووادى القرى، لأنّهما داخلتان في أرض الشّام، ويروى أنّ ما دون وادي القُرى إلَى المدينة حجاز، وأنّ ما وراء ذلك من الشّام، وانصرف النبي ﷺ من وادي القرى راجعاً بعد أن فرغ من خيبر ومن وادى القرى وغنّمه اللّه[2].

وفي كل ما تقدم من أحداث في السيرة النبوية، يتأكد أن رسول الله ﷺ استمر متمسكاً بخلق العفو والمسامحة منذ أن كان مطارداً في مكة، وحين أخرج منها مهاجراً، وبعد أن عاد إليها فاتحاً، أكد ذلك بموقفه الذي هو زينة العمل الإنساني، حين قال لمن آذاه وأخرجه وقاتله: إذهبوا فأنتم الطلقاء، وكذلك كان مع اليهود بنقضهم وغدرهم وتعاليهم وتجاوزهم حدود اللياقة في أكثر من موقف منذ دخل المدينة ﷺ إلى أن أطعموه السمّ في خيبر، كل ذلك يؤكد شمولية الوفاء والعفو ويبين سمو أخلاق المسلمين في تعاملهم مع اليهود وعدم ردهم على استفزازات قادتهم إلا بالوسائل المشروعة، وتبين أيضاً عمل المسلمين الدؤوب على ترويج ثقافة المصالحة والتعاون والتواصل بين جميع أبناء المجتمعات الإسلامية ومن معهم من أهل الكتاب وغيرهم، وفي المواقف الإنسانية الرحيمة، التي عمل بها رسول الله ﷺ وأصحابه مع من مارس ضدهم الغدر والاغتيال، وأقام التحالفات العدوانية، تتجلى أخلاق الحرب في عصر الرسول ﷺ ويتبين أن المجتمع الإسلامي مبني على أسس ثقافية منبثقة من عقيدة الرحمة والعدل والتعايش المشترك التي أصّلها رسول

---

(١) تيماء: بُليد في أطراف الشام، بين الشام ووادي القرى، على طريق حاج الشام. والتيماء الأرض الواسعة المضللة التي لا ماء فيها. قال بعض الأعراب: إلى الله أشكو لا إلى الناس أنني بتيماءَ تيماء اليهود غريبُ. ياقوت: معجم البلدان، ٤/ ٤٧١

(٢) ابن القيم: زاد المعاد، ٣/ ٣١٣. الواقدي: المغازي، ٢/ ١٦١.

الله ﷺ منذ أن وطأت قدماه أرض المدينة بعد الهجرة، حيث قام ببناء المسجد لإيجاد المجتمع القائم على روح الجماعة والنظام والتعاون، ومن ثم كتابة الصحيفة لتأصيل روح التعايش السلمي بين أبناء الديانات السماوية والتفاهم المبني على التعددية والتنوع الثقافي المحكوم بقيم العدل والمساواة بين جميع أبنائه، وفي ذلك دروس وعبر لأبناء مجتمعاتنا المعاصرة، لاستلهام تلك المعاني التي تبث روح المحبة والتسامح والتعاون والاقتداء بهدي رسول الله ﷺ القائم على أرفع القيم الأخلاقية التي وصفها الله تعالى بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم:٤) تلك القيم الكفيلة بحفظ الأمن وزراعة الأمل وتنقية القلوب في المجتمعات التي تعمل بها وتتبناها، فتفتح لهم أبواب النماء والبناء وعوامل الرفاه والتقدم على مصراعيها، لما تثمر من ثقة واستقرار في النفوس وحرية في القول والعمل والمعتقد.

رَفْعُ

عبد الرَّحمن النجدي

أسكنه الله الفردوس

الخاتمة ونتائج البحث

بعد الفراغ من هذا البحث يمكن الإشارة بثقة إلى أن أخلاقيات الحرب في عصر الرسول ﷺ كنز من كنوز القيم والآداب والمعاني الإنسانية، وأن رجال تلك المرحلة هم الذين تتعلم منهم الدنيا سبل العمل بالصبر والحلم والعفو والرحمة والشجاعة، فهم أئمة تلك الميادين الذين قابلوا الأذى بالحلم، والغدر بالوفاء، والقسوة بالرحمة، والجفاء باللين، والحرمان بالعطاء، والإساءة بالإحسان، وظلم الشرك بعدل التوحيد، وهم من أشادوا حب الأوطان وزرعوا الغيرة عليها في القلوب، بعد أن حرمتهم الجاهلية من أوطانهم وديارهم، فلم تختلف نواياهم ولم يتمنوا الانتقام؛ بل كانوا يودون لو أنّ قيم الإسلام وما فيها من العدل والرحمة هي التي تسود العلاقات البشرية، كما اتضح مدى حبهم للنظام والطاعة وحماية الأمة والتحذير من الخروج عليها أو التفريط بهويتها.

ـ وعلاقة المسلمين مع غيرهم قائمة على قيم السلام والإسلام، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾ (البقرة: من الآية٢٠٨) والحرب في أخلاقيات عصر الرسالة ضرورة لدفع الشر وحماية البلاد والعباد وضمان حرية الدعوة، قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ (البقرة: من الآية٢١٦).

ـ وأخلاقيات الحرب في عصر الرسالة كانت مبنية على معاني قوله تعالى: ﴿كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ (النساء: من الآية٧٧) ولكن المشركين طغوا في ظلمهم، فأذن الله تعالى للمؤمنين بالدفاع عن أنفسهم وحماية عقيدتهم، قال ﷻ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ﴾ (الحج:٣٩) فأصبح من أهداف الحرب في السيرة النبوية دفع هيمنة الشرك والجهل والظلم

الذي حارب القيم التي جاء بها النبي ﷺ رحمة للعالمين.

- وأخلاقيات الحرب عند المسلمين تضمن حرية الاعتقاد، وترفض الإكراه على الدين، قال تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ (البقرة: من الآية٢٥٦) وقال ﷻ: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا﴾ (الكهف: من الآية٢٩) بياناً لمسؤولية الاختيار.

- فالمسلمون لم يبدؤوا المشركين بحرب، قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ﴾ (الروم:٤٤) ولكن المشركين مارسوا القهر والقتل ومنعوا المسلمين من ممارسة شعائر عقيدتهم سنين عديدة قبل أن يفرّوا بدينهم، ولم يأذن النبي ﷺ لأصحابه بالدفاع عن النفس في مكة، وحين جاءه عبد الرحمن بن عوف ﷺ وأصحاباً له "فقالوا: يا رسول الله إنا كنّا في عزّ ونحن مشركون فلما آمنّا صرنا أذلة!! فقال ﷺ: "إني أمرت بالعفو؛ فلا تقاتلوا"[1] فكان سلاح المسلمين لمدة ثلاثة عشر عاماً هو الصبر والعفو والمسامحة، لكن ذلك لم يجد أمام عداونية المشركين الذين اضطروا النبي ﷺ إلى الهجرة.

- وكما كان النبي ﷺ يُعلم أصحابه قيم الشجاعة ومعاني البطولة؛ كان يعلمهم عدم تمني الحرب ولقاء العدو، حتى اشتملت أخلاق المسلمين على جماع الصبر ودرجات الإحسان وحسن الخلق وجمال العفو والإشفاق على المشركين، والدعاء لهم والاعتذار عنهم لجهلهم، في قوله ﷺ: " فإنهم لا يعلمون" وقول من آذى النبي ﷺ " أنك لا تكافئ بالسيئة السيئة"[2].

(١) النسائي، سنن النسائي، كتاب الجهاد:باب وجوب الجهاد،ح (٣٠٨٦). الحاكم: المستدرك: كتاب الجهاد، (٢٣٧٧).

(٢) ينظر القرطبي: الإعلام بما في دين النصارى، ٢٩٩، ابن قتيبة: تأويل مختلف الحديث، ١٥٩، ابن الجوزي: صيد الخاطر، ٢٩٥.

ـ ولم يغير النبي ﷺ قيم العفو والمسامحة يوم الهجرة فحين لحق به سراقة يريد قتله ﷺ وصاحبه ثم ساخت الأرض بفرسه وأخذ ينادي بالأمان أجابه النبي ﷺ إلى ذلك وعفا عنه.

ـ وبلغ من شدة حب المسلمين للنبي ﷺ ما بيّنه خبيب بن عدي ﷺ بجوابه للمشركين وهو على أعواد القتل بأنه يحب العافية للنبي ﷺ وأن لا تصيبه شوكة يشاكها، وتقديم ذلك على حياته وحريته.

ـ وكان من ثمار رحمة النبي ﷺ وصبره على مشركي قريش أنه لم يبق قرشي حين وفاته ﷺ لا يفتديه بنفسه وماله وما يملك، فضلاً عن أن يعاديه أو يحاربه، فما أحوج الأمة إلى التحلي بأخلاقه ﷺ والاقتداء بهديه والتمسك برحمته ورفقه وعفوه لنشر روح المحبة والمودة بين أبناء الأمة.

ـ ولم يكن من مقاصد أخلاق المسلمين الكسب المادي فالنّبي ﷺ في مكة رفض عروض قريش عليه في المال والنساء والملك وقال لهم: "ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم"[1] وهذا موقف يدعو إلى التمعن في نزاهة المسلمين في تعاملهم مع مختلف الشعوب، وحرصهم على نشر قيم التسامح والمحبة والرحمة، وتأصيل قواعد العيش الآمن المشترك، وقدرتهم على علاج مشكلات الأمة، وضرورة ترسم ذلك في الدعوة والتعريف بالإسلام.

ـ صبرَ المسلمون على الجوع وشظف العيش وهم في ميادين القتال، كما حصل لهم في بدر والخندق وتبوك وذات الرقاع وغير ذلك، وبلغ بهم الحال أن يحملوا زادهم على رقابهم وأن يقتات أحدهم يومه كله بتمرة واحدة؟ دون أن يغير ذلك من أخلاقهم في الطاعة والنظام وكف اليد واللسان.

ـ ومن خصائصهم أن ضيق العيش لم يزدهم إلا صبراً وإقداماً على التضحية

---

(١) المتقي الهندي، كنز العمال، ٦/ ٢١١، ح (١٥١٦٤) ابن سيد الناس: عيون الأثر، ١/ ١٩٥. ابن هشام: السيرة النبوية، ٢/ ١٣٦.

في سبيل الله، ولم يؤثر على آداب الحرب في عصر الرسالة، فلم يُذكر في مصدر موثوق أن أحداً منهم قد تجاوز الحد على غيره أو أنه أكل لقمة من غير مصدر حلال، أو لبس ثوباً أو ركب دابة أو قام بأي لون من ألوان التطاول على الآخرين، على الرغم من كل ما مرّ بهم من الحاجة والخصاصة.

- ومن قيم الحرب في عصر الرسالة التحذير من الخروج على الجماعة وإيقاد الفتن بين المسلمين قال ﷺ: "ومن خرج على أمتي، يضرب برها وفاجرها، ولا يتحاشى من مؤمنها، ولا يفي لذي عهد عهده، **فليس مني ولست منه**"[1] وكان النبي ﷺ يحث على اللين والتيسير، والبعد عن الغلظة والتكلف

في مثل قوله ﷺ: "يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا"[2] وقوله ﷺ: "تطاوعا ولا تختلفا"[3].

- فأثبتت آداب الحرب في عصر الرسالة أن من يخرج عن منهج الحق والعدل لا يجني نصراً ولا يحمي أرضاً ولا ثروة، ولا يؤتمن على عقيدة، وذلك أنه لا يملك قواعد النصر وأسباب الرقي وقيم التمكين، وهذا مشاهد في هذا العصر عند كثير ممن يعلنون التشويه والتزييف والتحريف لأحداث ووقائع وقيم الحرب في عصر الرسالة!.

- ثقافة الحرب في عصر النبي ﷺ عالمية الأبعاد شاملة للكون وحقوق الناس تتضح من تشريع الدفاع عن مساجد المسلمين وكنائس النصارى ومعابد اليهود، قال ﷻ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ

---

(1) مسلم: صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب في طاعة الأمراء وإن منعوا الحقوق، ح (١٨٤٨).

(2) البخاري: كتاب المغازي، باب: سرية عبد الله بن حذافة، وعلقمة بن مجزز المدلجي. ويقال: إنها سرية الأنصاري. (٤٠٨٦/ ٤٠٨٨).

(3) مسلم: صحيح مسلم، كتاب، الجهاد والسير، باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير ح (١٧٣٣) (١٧٣٢). (١٧٣٤)

يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ (الحج: من الآية٤٠) ومن خلال الرسل والكتب التي بعثها النبي ﷺ. وتتأكد في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (سبأ: من الآية٢٨).

ـ لا يكون العمل موافقاً لأخلاق الحرب عند المسلمين إلا إذا كان خالصاً لوجه الله تعالى لهذا كان النبي ﷺ يردد قوله: "والله أعلم بمن يقاتل في سبيله"، "والله أعلم بمن يُكلم في سبيله"[1]

ـ وظهر في هذا البحث أن من أخلاق الحرب في السيرة النبوية كرم النفس وسماحة الروح، ودقة وسائل التنظيم والإعداد والتدريب، وشدة الحرص على الوقت وقوة التحمل في سبيل بناء الشخصية المثالية في الأخلاق والمعرفة، كما ظهر جلياً الاستعداد للتضحية والعمل على طلب الشهادة في سبيل الله ضمن الضوابط الشرعية والوسائل الإنسانية لحماية الدين والبلاد وحقوق العباد.

ـ وبلغ الاهتمام بإعداد القوة في أخلاق الحرب في عصر الرسالة أن أي تفريط في وسائلها يعني الإلقاء في التهلكة. قال أبو أيوب الأنصاري ﷺ: "الإلقاء بالأيدي إلى التهلكة: أن نقيم في أموالنا ونصلحها وندع الجهاد، فلم يزل أبو أيوب ﷺ يجاهد في سبيل اللّه حتى دفن بالقسطنطينية"[2].

ـ قدرة أخلاق الحرب عند المسلمين على التأقلم مع المستجدات، والحيوية في صناعة وسائل سد العجز في العدد والعتاد والتموين والنقل، ومعالجة الأزمات التي تعترض مسارهم بأيسر الطرق.

ـ رعاية السلم والحفاظ على الأمن في حال النصر وعدم السماح لأحد

---

(١) مسلم: كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد (١٨٧٦). البخاري: كتاب الجهاد، باب: من يجرح في سبيل الله عز وجل.ح (٢٦٤٩).

(٢) سنن أبي داوود، في قوله عز وجل: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ (البقرة: من الآية١٩٥) باب الشجاعة والجبن، (٢٥١٢).

بالاعتداء أو النهب؛ كما اتضح ذلك في فتح مكة، وكما تبين في تعامل المسلمين ونزاهتهم مع اليهود في خيبر.

ـ رفض ثقافة العنف وتشجيع ثقافة التفاؤل ومحبة السلام وأخلاق الأنبياء وما فيها من الرحمة والعفو والصفح، والترويج لكل ما يؤازر تلك الثقافة ويغذيها في حياة المجتمع حتى في اختيار الأسماء وما توحي إليه، وهذا ما أكده النبي ﷺ في أكثر من مناسبة في مثل رفضه أن يحلب ناقة عنده مَن اسمه حرب أو مرّة، وإذنه لمن اسمه يعيش أن يحلبها[1] وقوله ﷺ: "تسمّوا بأسماء الأنبياء، وأحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن، وأصدقها حارث وهمام، وأقبحها حرب ومرة"[2].

ـ ومن أخلاقهم في الحركة التعاون والتناصر والترابط والصبر على وعثاء السفر، والتخفيف عن المسلمين في عباداتهم كجواز الإفطار والقصر في الصلاة، وحقوق الحيوانات في تناول ما يعينها على الحركة، والالتزام بآداب الأخوة من السلام والتوديع واستقبال العائدين بعد إعلام أهليهم تجنبا لمفاجأة الأهل بالعودة إليهم دون أن تأخذ مظاهر البهجة مكانها في نفوسهم.

ـ ومن آداب الحرب في عصر الرسول ﷺ تقديم برّ الوالدين على الجهاد في سبيل الله، حيث منع النبي ﷺ من لم يحصل على إذن والديه للمشاركة في الجهاد. وقال له ﷺ: "ففيهما فجاهد"[3].

ـ ومنها رعاية شؤون الأسرة وحمياتها في حال المشاركة في القتال والتأكيد على حرمة أُسر المشاركين في القتال وأهمية رعايتهم وأجر من يفعل ذلك.

ـ اتضحت المكانة السامية للمرأة في قيم الحرب في عصر الرسالة، بما في ذلك السبايا والإماء والجواري وتبين التشديد في تحريم قتل النساء والضعفاء والمسالمين

---

(١) مالك: الموطأ، باب ما يستحب من الفأل والاسم الحسن، (٨٧٨).

(٢) سنن أبي داوود: كتاب الأدب، باب في تغيير الأسماء، ح (٤٩٥٠).

(٣) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد والسير، باب الجهاد بإذن الأبوين، ح (٢٨٤٢).

أو ترويعهم والعمل الدؤوب على رعايتهم وحماية حقوقهم في ميادين القتال.

- **تخويل المرأة المسلمة صلاحية منح الأمان والجوار للأعداء**، وفي هذا رد على الدعوات التي تثير الشبهات وتبث الشائعات حول حقوق المرأة في الإسلام، وتبين أن هذه الميزة وعلى هذا المستوى الأمني الرفيع لا تحظى به المرأة في غير قيم الحرب في عصر الرسول ﷺ، قالت أم المؤمنين الطاهرة عائشة رضي الله عنها: "إن كانت المرأة لتجير على المؤمنين فيجوز"[1] جوارها وينفذ عهدها.

- **نظام الأمان في آداب الحرب عند المسلمين يمثل أوسع نظام في العالم** ويوفر أنواع الحماية والرعاية لمن يشمله، وليس للأمان صيغة معينة أو لغة معينة، وإنما يصح بأي لفظ عربي أو غيره أو بطريق الكتابة أو الأشارة المفهومة، بطلب من المستأمن أو بعرض من المسلمين.

- وبلغ التحذير من التفريط بالأمان أن النبي ﷺ تبرأ ممن لا يفي به. قال ﷺ " إذا أمّن الرجلُ الرجلَ على نفسه ثم قتله فأنا بريء من القاتل **وإن كان المقتول كافراً**"[2] ولما أخذ المشركون العهد على حذيفة ووالده؛ أن لا يشاركا في بدر، قال ﷺ: "انصرفا، نفي بعهدهم، ونستعين الله عليهم"[3].

- أخلاق المسلمين تحرم نقض العهود من جانب المسلمين ما لم تنته مدتها أو ينقضها الآخرون بإحدى وسائل النقض المعتبرة، والتمسك بمواجهة أهل الغدر بالوفاء وشدة الحيطة والحذر.

- وتحرم إفشاء أسرار المسلمين، ومن يقع في أعمال الجاسوسية من المسلمين أو من أهل الذمة أو من العدو؛ فإنّ أمره موكول إلى ولي الأمر يوقع فيه العقوبة

---

(١) أبو داوود: سنن أبو داوود، باب في أمان المرأة، (٢٧٦٤).

(٢) البيهقي: سنن البيهقي، كتاب السير، باب من أسلم من أهل الصلح سقط الخراج عن أرضه، ح (١٨٢٠٣).

(٣) مسلم: صحيح مسلم، كتاب، الجهاد والسير، باب الوفاء بالعهد،ح (١٧٨٧).

المناسبة.

ـ تشجيع العمل على تحرير الرقيق على المستوى الرسمي والشعبي وتأسيس أفكار دمج الرقيق في المجتمع وفتح الأبواب أمامهم للوصول إلى أعلى المواقع، مع رعايتهم عملاً بوصية رسول الله ﷺ فيهم وبوضع القواعد الأساسية في التعامل معهم وطلب المسامحة حين الإساءة إليهم بالعتق أو الإحسان إليهم، ووضع قواعد مساواتهم في الملبس والمأكل والمسكن وحاجات الفطرة الأخرى من زواج وغيره.

ـ رعاية حقوق الأسرى والعطف عليهم والعمل على إنفاذ وصية رسول الله ﷺ فيهم في قوله ﷺ "أحسنو إسارهم" وتوفير ضروريات الحياة لهم، والبعد عن إلزام الأسير بأي عمل لا يرغبه وتشجيع المنِّ عليهم من غير فداء كما حصل في أكثر من مناسبة في السيرة النبوية.

ـ وتقر حق الأسير بعد الأمان من الطعام والشراب واللباس والمأوى، والرد على أسئلته وتلبية متطلباته المشروعة، واحترام معتقده، وعدم تعذيبه أو إكراهِه على ما لا يريد، وعدم التصرف في شأنه إلا بعلم ولي الأمر، وحفظ سبل العودة الآمنة إلى دياره حين إطلاقه.

ـ القيام بحفظ أجداث المشركين، والبعد عن المثلة بهم ومواراتهم إن لم يقم الآخرون بدفنهم.

ـ رعاية أهل الذمة والوفاء بعهودهم، فلم يكتف النبي ﷺ بالوصية بهم حتى حذر من يظلمهم بأنه ﷺ سيكون خصمه وحجيجه يوم القيامة، والتكفل بحمايتهم وضمان حريتهم في ممارسة عباداتهم وطقوسهم، والتأكيد على رعاية أهل الجزية والعفو عن العاجزين منهم وعدم التشدد في ذلك.

ـ وتبين أن المسلمين يختارون الحوار والتواصل السلمي بينهم وبين الأمم والأديان الأخرى فاهتموا لذلك بالرسل وأحسنوا استقبالهم وجائزتهم كما اهتموا بالكتابة إلى الزعماء والملوك يعرضون عليهم الإسلام بألطف العبارات وأصدق

الدعوات وأوضح الحجج، واتضح موقف أهل الكتاب من النبي ﷺ ودعوته وأنهم كانوا على علم بعامة مواصفاته وأن أكثرهم كانوا على ثقة بصدقه وصحة دعوته ﷺ.

ـ وقيم المسلمين تؤكد الحرص الشديد على نشر ثقافة الصلح بين الناس في كل قضاياهم المدنية والعسكرية، وتبينت مكانة الساعين في الصلح، وصلاحيتهم في ردّ الصلح الجائر وإزالة الظلم، وسعة الصلاحيات المنوطة بهم في آداب الحرب في عصر الرسالة.

ـ اتضح شدة حذر المسلمين واحتراسهم من الجاسوسية ونشاطاتها، وتبين عجز المشركين وغيرهم عن اختراق الصف الإسلامي لما فيه من الحصانة والمناعة ضد ما هو مخالف لقيم وأخلاق الحرب عند المسلمين، وفي الوقت ذاته ظهرت قدرة المسلمين على اختراق أمنع حصون الأعداء وإنجاز أهدافهم ودقة معلوماتهم في الرصد والاستطلاع والمعرفة بتدابير الأعداء.

ـ وآداب الحرب في عصر الرسالة تؤكد على أن المؤمن كيّس فطن حذر، دائم الاستعداد لا يؤخذ على غفلة، و"الحرب خدعة"[1] تتخذ فيها الخطط والمناورات والتمويه، وبلغ من نباهة المسلمين وجرأتهم في عصر الرسالة أن النبي ﷺ كان يرسل الرجل سرية وحده فيؤدي ما يوكل إليه.

ـ ومنها قيمهم أن لا تزر وازرة وزر أخرى فلا تُقتل قبيلة بذنب آثم من أبنائها، وتنمية إحساس الفرد بالمسؤولية تجاه المجتمع والأمة وتشجيعه على المبادرة باتخاذ ما يلزم من اجراءات عند الضرورة.

ـ ومنها تكسير الأصنام لما تجلبه معتقداتها من ثقافة تخريفية تلغي العقول وتُشيع الجهل والعجز والتواكل في المجتمع وهذا لا يتوافق مع أخلاق الحرب في

---

(١) مسلم: صحيح مسلم، كتاب، الجهاد والسير، باب جواز الخداع في الحرب،ح (١٧٣٩). البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب: الحرب خدعة.ح (٢٨٦٥) ح (٢٨٦٦).

عصر الرسالة.

- وبلغ الصبر على المنافقين في أخلاق المسلمين أقصاه، وفي ترفق النّبي ﷺ برأس النفاق ابن سلول، ورده اللطيف على ابنه حين طلب أن يأذن له في تخليص المسلمين من شرّه. فقال ﷺ: "بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا"[1] مراعاة لوحدة الصف وجمع الكلمة ولكي "لا يتحدث الناس أنه ﷺ كان يقتل أصحابه"[2] ليقدم للأمة درساً في الحرص على وحدة الصف لا تنساه أبداً.

- وتبين في هذا البحث سعة آفاق أخلاق وآداب الحرب في عصر الرسالة، في تعاملها مع اليهود، وأظهرت تبجيلها لعقيدتهم وإجلالها لأنبيائهم والتمسك بحسن الجوار، على الرغم من كل ما صدر من زعمائهم، لكن اليهود أصرّوا على نقض العهود والتعاون مع الأعداء[3] وفي هذا ما فيه من الدروس.

- سماحة المسلمين مع اليهود في خيبر حتى بعد إصرارهم على نقض الصلح الذي تم الاتفاق عليه[4].

- وبينت هذه الدراسة أسباب إجلاء اليهود من الحجاز، بعد أن اختاروا طريق الغدر ونقض العهود والتواصل مع المشركين بدل التعاون على إرساء الأمن وحماية المدينة من الأعداء.

- ظهر حرص المسلمين على هداية اليهود يوم خيبر في أحرج الظروف في قول النبي ﷺ لعلي رضي الله عنه: "انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم، فو الله لأن يهدي الله رجلاً بك، خير لك من أن يكون

---

(١) ينظر ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، سورة المنافقون، تفسير الآية، (٥).

(٢) مسلم: صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب نصر الأخ ظالما أو مظلوما، ح(٢٥٨٤).
وفي الشرح: فكسع: من الكسع وهو ضرب دبر غيره بيده أو رجله وقيل هو ضرب العجز بالقدم.

(٣) ينظر سنن أبي داوود: كتاب الخراج والفيء، باب كيف كان إخراج اليهود من المدينة، (٣٠٠١).
سنن البيهقي، كتاب السير: باب نقض أهل العهد أو بعضهم العهد، ح (١٨٦٣٦).

(٤) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب المغازي، باب: معاملة النبي ﷺ أهل خيبر. ح (٤٠٠٢).

لك حمر النعم"[1].

ـ تمسك المسلمين بالدعاء وتفويض الأمور إلى الله تعالى بعد استنفاذ وسائل الإعداد وما في ذلك من رقابة الضمير الذي لا يجيز غير فعل الحق، وهذا ما تفتقده كثير من القوى العالمية المعاصرة التي غالباً ما يرافق تحركات قواها العسكرية الخراب والدمار، ويبيح الكثير منهم السلب والنهب وإتلاف أموال الناس وقطع الطرق وفرض الضرائب؛ فتكون الأعمال العسكرية عند هذا الضرب من القوى المهزومة حضارياً وأخلاقياً، باب من أبواب الارتزاق وفرض المكوس والتسول وظلم الأبرياء والضعفاء.

ـ وهذه المواقف تؤكد أن قيم وآداب الحرب في عصر الرسول ﷺ تمتاز بقيمها وسلوكها ومقاصدها عن غيرها؛ وأنها أسهمت في إطفاء الفتن وانتشار الأمن والاستقرار في البلاد التي قادتها، بينما البلاد التي يدخلها الغزاة والمحتلون في هذا العصر وقبله لا تزداد إلا لهيباً واستعاراً وقتلاً ودماراً، وذلك أن آدابها وأفعال كثير من جندها فاقدة لقيم العدل وإنصاف الضعيف واحترام الآخر، مما يبين ما تؤكده أخلاق الحرب عند المسلمين من **أن القوة الأخلاقية أشدّ أثراً من القوة العسكرية** المجردة، ولذلك كانت القوة الأخلاقية في السيرة النبوية تبعث على الثقة والطمأنينة، فتزرع الأمل وتنبت المصداقية التي تثمر الأمن والاستقرار وتصنع المشترك الإنساني الذي يلتقي على مائدة عدله الجميع.

ـ فهذه من ثوابت أخلاق وقيم الحرب في عصر الرسالة لا يأتيها الباطل ولا تعبث بها الأهواء، صبر واحتساب وعفو ورحمة وصدق وأمان وإيثار ووفاء وعدل ومساواة وحرية، واستعداد لخدمة السلام والاستقرار في العالم ونبذ لكل ما يخالف ذلك، ولهذا لا يصح أي اتهام للإسلام بالعنف والتطرف.

ـ وأخلاق الحرب في عصر النبي ﷺ بأصالة قيمها وعدلها ورحمتها وحيويتها

---

(١) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب: فضل من أسلم على يديه رجل، ح (٢٨٤٧).

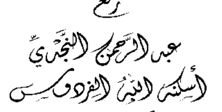
وعالميتها، هي المؤهلة لقيادة السلم والأمن والتواصل العادل في العالم، إذ أن ثوابتها تقوم على العالمية والمساواة، وهذا لا يتحقق في جهود بشرية، وإن كتب بعضه على الورق، ذلك أن هذه الوثائق الورقية، تُسقط من حساباتها الإيمان بالله واليوم الآخر، وغالباً ما يكون فيها الخصم هو الحكم، وإذا كان الأمر كذلك فمن ينتصر للضعيف؟ أما في أخلاق وآداب الحرب في عصر الرسالة فالرقيب لا يغيب لا في السر ولا في العلن، ومن تجاوز على أي مخلوق فلابد من الجزاء، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ (البقرة: من الآية٢٢٩) وعلى هذا فإن منظومة أخلاق وآداب وقيم الحرب في عصر الرسول ﷺ بما فيها من القيم والضوابط وجميل المعاني، والقابلية للتجديد ومواكبة متطلبات الحياة، هي المؤهلة لقيادة العدل وبسط الأمن على وجه الأرض، وإن لم يكن لها هذا الدور في هذا العصر، فما هو إلا لضعف أنصارها، وجهل الكثير من الناس بما فيها من القيم، وغياب كثير من معاني التضحية والصبر والعلم التي كانت في عصر الرسالة؛ من نفوس عامة أبنائها. قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ (الأنعام:٩٠).

اللهم اغفر لي ولوالديّ وللمسلمين يوم يقوم الحساب

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

د. حامد محمد الخليفة.

١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م



المراجع والمصادر

*ابن الأثير: المبارك بن محمد الجزري أبو السعادات، ت ٦٠٦هـ ١٢٢٤م.

- النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى، محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م، ٥ أجزاء.

*ابن الأثير: محمد بن محمد بن عبد الكريم أبو الحسن، ت ٦٣٠هـ ١٢٣٢م .

- الكامل في التاريخ، راجعه نخبة من العلماء، دار الكتاب العربي، بيروت،(ط،٣)١٤٠٠هـ ١٩٨٠م، الأحزاء، ٩.

*الأصبهاني: أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، ت٤٣٠هـ ١٠٣٨م.

- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتاب العربي، بيروت , الطبعة الرابعة ، ١٤٠٥ , الأجزاء : ١٠ .

*الأصبهاني: إسماعيل بن محمد بن الفضل الأصبهاني.

- دلائل النبوة، تحقيق: محمد محمد الحداد، دار طيبة، الرياض، (ط،١) ١٤٠٩هـ الأجزاء: ١.

*البخاري: محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، ت ٢٥٦هـ ٨٦٩م.

- الجامع الصحيح المختصر، تحقيق: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت (ط،٣) ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧م، الأجزاء، ٦.

- خلق أفعال العباد، تحقيق: د. عبدالرحمن عميرة، دار المعارف، الرياض، ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م.

*البزار: أحمد بن عمربن عبد الخالق العتكي البزار، ت ٢٩٢هـ ٩٠٤م.

- البحر الزخار المعروف بمسند البزار، طبعة المكتبة الألكترونية الشاملة.

*البعلي: محمد بن أبي الفتح البعلي الحنبلي أبو عبد الله .

- المطلع على أبواب الفقه، تحقيق: محمد بشير الأدلبي، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠١هـ ١٩٨١، الأجزاء:١.

*البغوي: الحسين بن مسعود الفراء أبو محمد ت ٥١٦هـ .

- معالم التنزيل، طبعة المكتبة الألكترونية الشاملة الأجزاء: ١.

*البكري: عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي أبو عبيد، ت ٤٨٧هـ ١٠٩٤م.

- معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق: مصطفى السقا، (ط،٣) عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٣هـ، ٤ أجزاء.

*البيضاوي: ناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي، ت ٦٤١هـ.

- تفسير البيضاوي أنوار التنزيل وأسرار التأويل، طبعة المكتبة الألكترونية الشاملة، الأجزاء،١.

*البيهقي: أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، ت ٤٥٨هـ ١٠٦٥م .

- شعب الإيمان، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، (ط،١) ١٤١٠هـ , الأجزاء : ٧ .

- سنن البيهقي الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر، دار الباز، مكة المكرمة، ١٤١٤ هـ ١٩٩٤م، ١٠ أجزاء.

*التبريزي: محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي، ت ٧٤١هـ ١٣٤٠م.

- مشكاة المصابيح، تحقيق: تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، (ط،٣) ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥م، ٣ الأجزاء.

*الترمذي: محمد بن عيسى أبو عيسى السلمي، ت ٢٧٩هـ .

- سنن الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٥ أجزاء. الأحاديث مذيلة بأحكام الألباني.

*ابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم بالحراني أبو العباس، ت ٧٢٨هـ .

- منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقَدَرية، تحقيق: محمد رشاد سالم, مؤسسة قرطبة, (ط،١) ١٤٠٦هـ ٨ أجزاء .

- درء تعارض العقل والنقل, تحقيق: محمد رشاد سالم, دار الكنوز الأدبية، الرياض، ١٣٩١هـ ١٠ أجزاء.

- الصارم المسلول على شاتم الرسول, تحقيق: محمد عبد الله عمر الحلـواني, محمد كبير أحمد شـودري, دار ابـن حـزم، بـيروت, (ط١) ١٤١٧ هـ ٣ أجزاء.
- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، تحقيـق: علـي حـسن ناصـر, عبـد العزيز إبراهيم العسكر, حمدان محمـد, دار العاصـمة، الريـاض, (ط١) ١٤١٤, ٦ الأجزاء.
*ابن الجارود: عبد الله بن علي بن الجارود أبو محمد النيسابوري .
- المنتقى من الـسنن المـسندة, تحقيـق: عبـد الله عمـر البـارودي, ، مؤسـسة الكتاب الثقافية، بيروت, الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ ١٩٨٨, الأجزاء : ١ .
*ابن الجوزي: جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمـد أبـو الفـرج، ت ٥٩٧هـ ١٢٠٠م.
- صفة الصفوة, تحقيق: محمود فاخوري، محمد رواس قلعه جي, دار المعرفة، بيروت, (ط٢) ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م، ٤ أجزاء.
- زاد المسير في علم التفسير، المكتب الإسلامي، بـيروت، (ط٣) ١٤٠٤م، ٩ أجزاء.
- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم, دار صادر، بيروت, (ط١) ١٣٥٨هـ ١٠ أجزاء.
*الحاكم: محمد بن عبد الله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري، ت ٤٠٥هـ ١٠١٤م .
- المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القـادر عطـا، دار الكتـب العلمية، بيروت، (ط١) ١٤١١هـ ١٩٩٠م، ٤ أجزاء.
*ابن حبان: محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، ت ٣٥٤هـ ٩٦٥م .
- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبـان، تحقيـق: شـعيب الأرنـؤوط، مؤسـسة الرسـالة، بـيروت، (ط٢) ١٤١٤هـ ١٩٩٣م، الأجـزاء: ١٨، الأحاديـث مذيلة بأحكام شعيب الأرنؤوط عليها .

- الثقات، تحقيق: شرف الدين أحمد، دار الفكر (ط،١) ١٣٩٥هـ ١٩٧٥م, ٩ أجزاء.
*ابن حُبيش: عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله، ت ٥٨٤هـ ١١٨٨م.
- الغزوات الضامنة الكاملة والفتوح الجامعة الحافلة الكائنة في أيام الخلفاء الثلاثة الأول، تحقيق: سهيل زكار، دار الفكر بيروت، (ط،١) ١٤١٢هـ ١٩٩٢م.
*ابن حجر: شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي، ت ٨٥٢هـ ١٤٤٨م .
- العجاب في بيان الأسباب، تحقيق: عبدالحكيم محمد الأنيس، دار ابن الجوزي، الدمام (ط،١) ١٩٩٧م، أجزاء ٢.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ ١٣ جزء.
- تلخيص الحبير في أحاديث الرافعي الكبير, تحقيق: السيد عبد الله هاشم اليماني المدني, المدينة المنورة، ١٣٨٤هـ ١٩٦٤م, الأجزاء: ٢.
- الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: علي محمد البجاوي دار الجيل، بيروت, (ط،١) ١٤١٢هـ, ٨ أجزاء.
*ابن حزم: علي بن أحمد ين سعيد الأندلسي، ت ٤٥٦هـ.
- جوامع السيرة، دار الكتب العلمية، بيروت،(ط،١) ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.
*الحلبي: علي بن برهان الدين، ت ٩٧٥هـ ١٠٤٤م .
- السيرة الحلبية، (بلا، ط) دار إحياء التراث العربي، بيروت، (بلا. تا).
*الحموي: ياقوت بن عبد الله الحموي أبو عبد الله ت ٦٢٦هـ .
- معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، طبعة جديدة، بيروت، ١٤١٦هـ ١٩٩٦م.
*ابن حنبل: أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني، ت ٢٤١هـ ٨٥٥م .

- مسند الإمام أحمد بن حنبل، مؤسسة قرطبة، القاهرة، ٦ أجـزاء، الأحاديث مذيلة بأحكام شعيب الأرنؤوط عليها.
- فـضائل الـصحابة، تحقيـق: وصـي الله محمـد عبـاس, مؤسـسة الرسـالة، بيروت, (ط،٣) ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.

*ابن حميد: عيد بن حميد بن نصر أبو محمد.
- المنتخب من مسند عبد بن حميد، تحقيق: صبحي البدري السامرائي, محمـود محمد خليل الصعيدي مكتبـة الـسنة، القـاهرة،(ط،١) ١٤٠٨هـــ ١٩٨٨م, الأجزاء: ١.

*الحميدي: عبدالله بن الزبير أبو بكر الحميدي القرشي, ت ٢١٩هـ ٨٣٤م . مسند الحميدي, تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمـي, دار الكتـب العلميـة, مكتبـة المتنبي، بيروت, القاهرة, الأجزاء: ٢.

*ابن خزيمة: محمد بن إسحاق بن خزيمة أبو بكر السلمي النيـسابوري، ت ٣١١هـ ٩٢٣م. - - صـحيح ابـن خزيمـة، تحقيـق: محمـد مـصطفى الأعظمـي، المكتـب الإسلامي، بيروت، ١٣٩٠هـ١٩٧٠م، ٤ أجزاء.

*الخلال: أحمد بن محمد بن هارون بن يزيد الخلال أبو بكر .
- السنة، تحقيق: د. عطية الزهراني، دار الراية الرياض، (ط،١)، ١٤١٠هـ ٣ أجزاء.

*ابن خلدون: ولي الدين عبد الرحمن بن محمد الإشبيلي الشهير بـابن خلـدون ت ٨٠٨هـ.
- تاريخ ابن خلدون العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجـم ومـن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، الطبعة المعتمـدة في المكتبـة الألكترونيـة الشاملة.

*ابن خياط: خليفة بن خياط الليثي العصفري أبو عمر، ت ٢٤٠هـ ٨٥٤م .

- تاريخ خليفة بن خياط, تحقيق: أكرم ضياء العمري, دار القلم, مؤسسة الرسالة، دمشق, بيروت, (ط،١) ١٣٩٧ , الأجزاء: ١.
*الدارقطني: علي بن عمر أبو الحسن الدارقطني البغدادي، ت٣٨٥هـ .
- سنن الدارقطني، تحقيق: السيد عبد الله هاشم يماني المدني دار المعرفة، بيروت، ١٣٨٦هـ ١٩٦٦م، ٤ أجزاء.
*الدارمي: عبدالله بن عبدالرحمن أبو محمد الدارمي، ت ٢٥٥هـ .
- سنن الدارمي، تحقيق: فواز أحمد زمرلي, خالد السبع العلمي، دار الكتاب العربي، بيروت، (ط،١) ١٤٠٧هـ الأجزاء: ٢، الأحاديث مذيلة بأحكام حسين سليم أسد.
*أبو داوود: سليمان بن الأشعث أبو داوود السجستاني الأزدي، ت ٢٧٥هـ ٨٨٨م .
- سنن أبي داود، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، ٤ أجزاء. مع الكتاب: تعليقات كَمَال يوسُفْ الحوُت، مذيلة بأحكام الألباني.
*الذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، ت ٧٤٨هـ .
- سير أعلام النبيلاء، تحقيق: محمد أيمن الشبراوي، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م.
*الرازي: محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي ت ٦٦٦هـ ١٢٦٧م .
- مختار الصحاح، ضبط سميرة خلف الموالي، المركز العربي للثقافة والعلوم، بيروت، بلا تاريخ.
*ابن راهوية: إسحاق بن إبراهيم بن مخلد بن راهويه.
- مسند اسحاق بن راهوية، ما يروي عن عمه خبيب وأم كلثوم، تحقيق: عبد الغفور بن عبد الحق البلوشي، مكتبة الإيمان، المدينة المنورة، (ط،١) ١٤١٢هـ ١٩٩١م، ٥ أجزاء.

*الزرقاني: محمد عبدالعظيم الزرقاني.
- مناهل العرفان في علوم القرآن، تحقيق: مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر، بيروت، (ط،١) .١٩٩٦م، الأجزاء: ٢.
*الزركشي: محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي أبو عبد الله، ت ٧٩٤هـ ١٣٩١م.
- البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت،١٣٩١هـ، أجزاء ٤.
*الزيلعي: عبدالله بن يوسف أبو محمد الحنفي الزيلعي .
- نصب الراية لأحاديث الهداية, تحقيق: محمد يوسف البنوري, دار الحديث، مصر ، ١٣٥٧هـ ٤ أجزاء.
*ابن سعد: محمد بن سعد بن منيع أبو عبدالله البصري الزهري ت ٢٣٠هـ ٨٤٤م.
- الطبقات الكبرى, دار صادر، بيروت, ٨ أجزاء. وطبعة دار التراث العربي، بيروت، (ط،١) ١٤١٧هـ ١٩٩٦م.
*أبو السعود: محمد بن محمد العمادي أبو السعود، ت٩٥١هـ ١٥٤٤م .
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بلا تاريخ، ٩ أجزاء.
*سعيد بن منصور: ت ٢٢٧هـ .
- سنن سعيد بن منصور، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، المكتبة الألكترونية الشاملة.
*السمهودي: نور الدين علي بن أحمد المصري، ت ٩١١هـ ١٥٠٥م.
- وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار إحياء ا لتراث العربي، بيروت،(ط،٢) ١٣٩٣هـ ١٩٧١م. ٤ أجزاء.
*السهيلي: عبد الرحمن بن عبد الله ت ٥٨١ هـ ١١٨٥م .

- الروض الأنف شرح سيرة النبوية لابـن هـشام، طبعـة المكتبـة الألكترونيـة الشاملة.

*ابن سيد الناس: أبو الفتح محمد بن محمد بن عبد الله بن يحيى بن سيد الناس ت ٧٣٤هـ ١٣٣٣م .

- عيون الأثر في فنون المغازي والـشمائل والـسير مكتبـة القدسـي، القـاهرة، ١٣٥٦هـ.

*السيوطي: عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي، ت ٩١١هـ ١٥٠٥م .

- الدر المنثور في التفسير بالمأثور، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣م، ٨ أجزاء.

- الإتقان في علوم القرآن، طبعة المكتبة الألكترونية الشاملة، ٢ جزء.

- لباب النقول في أسباب النزول، دار إحياء العلوم، بيروت، جزء: ١.

- تاريخ الخلفاء, تحقيق: محمد محي الدين, مطبعـة الـسعادة، مـصر, (ط،١) ١٣٧١هـ ١٩٥٢م.

*الشاطبي: إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي المالكي، ت ٧٩٠هـ ١٣٨٨م .

- الموافقات في أصول الفقه، تحقيق: عبـد الله درّاز دار المعرفـة، بـيروت، بـلا تاريخ، الأجزاء: ٤.

*الشافعي: محمد بن إدريس الشافعي، ت ٢٠٤ هـ .

-كتاب الأم في الفقه الشافعي، طبعة المكتبة الألكترونية الشاملة.

*الشوكاني: محمد بن علي الشوكاني ت ١٢٥٠هـ .

- الدراري المضية شرح الدرر البهية، دار الجيل، بـيروت، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م الأجزاء : ١.

- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفـسير، طبعـة المكتبـة الألكترونية الشاملة، الأجزاء : ٥.

- نيل الأوطار من أحاديث سـيد الأخيـار شـرح منتقـى الأخيـار, الطباعـة المنيرية, الأجزاء : ٩ .

*الشيباني: أحمد بن عمرو بن الضحاك أبو بكر الشيباني .
- الآحاد والمثاني، تحقيق: باسم فيصل أحمد الجوابرة, دار الراية، الرياض (ط،١) ١٤١١، ١٩٩١, ٦ أجزاء.
*ابن أبي شيبة: أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي العبسي، ت ٢٣٥هـ ٨٤٩م .
- المصنف في الأحاديث والآثار, تحقيق: كمال يوسف الحوت, مكتبة الرشد، الرياض, (ط،١) ١٤٠٩هـ ٧ أجزاء.
*الصالحي: محمد بن يوسف الصالحي الشامي، ت ٩٤٢هـ ١٥٣٥م .
- سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، تحقيق: عبد العزيز عبد الحق حلمي، لجنة إحياء التراث، (بلا، ط) مطابع الأهرام، القاهرة، ١٣٩٥هـ ١٩٧٥م.
*الصنعاني: أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني ت ٢١١هـ .
- مصنف عبد الرزاق, . تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي, المكتب الإسلامي بيروت, الطبعة الثانية، ١٤٠, الأجزاء:١١.
*الطبراني: سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم، ت ٣٦٠هـ ٨٧٣م .
- المعجم الكبير, تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي, مكتبة العلوم والحكم، الموصل, (ط،٢) ١٤٠٤، ١٩٨٣, الأجزاء: ٢٠.
- المعجم الأوسط، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد, عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، ١٤١٥هـ الأجزاء:١٠.
- الروض الداني، المعجم الصغير، تحقيق: محمد شكور محمود الحاج امرير، المكتب الإسلامي, دار عمار، بيروت, عمان، (ط،١) ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م، جزئين.
*الطبري: محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري أبو جعفر، ت ٣١٠هـ ٩٢٢م.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، طبعة المكتبة الألكترونية الشاملة، الأجزاء: ١٢.

- تاريخ الأمم والملوك, دار الكتب العلمية، بيروت, (ط،١) ١٤٠٧, ٥ أجزاء.
*الطيالسي: سليمان بن داود بن الجارود أبو داود البصري، ت ٢٠٤هـ ٨١٩م .
- مسند أبي داود الطيالسي, دار المعرفة، بيروت, الأجزاء: ١.
*العبدري الشهير بالمواق: محمد بن يوسف ت ٨٩٧هـ .
- التاج والإكليل لمختصر خليل، دار الفكر، بيروت (ط،٢) ١٣٩٨هـ.
*ابن عبد البر: أبو عمر يوسف بن عبد الله النمري ت ٤٦٣هـ ١٠٧٠م.
- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق: محمد علي البجاوي، دار المعارف، القاهرة، (ط، ١) ١٣٨١هـ ١٩٦١م.
- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي, محمد عبد الكبير البكري، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ١٣٨٧هـ, ٢٢ جزء.
*ابن عذاري: أبو عبد الله محمد المراكشي ت ٦٩٥هـ ١٢٩٥م .
- البيان المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب، تحقيق: س. كولان. بروفنسال، دار الثقافة بيروت، (ط،٢) ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م.
*ابن أبي العز الحنفي: صدر الدين علي بن محمد بن أبي العز الحنفي ت ٧٩٢هـ .
- شرح الطحاوية في العقيدة السلفية، تحقيق أحمد شاكر، الرياض ١٤١٨هـ وطبعة المكتبة الألكترونية الشاملة.
*ابن عساكر: علي بن الحسين بن هبة الله بن عبد الله، ٥٧١هـ .
- تاريخ مدينة دمشق، تحقيق: محب الدين العمروي، دار الفكر، بيروت، ١٤١٥هـ ١٩٩٥م.
*العيني: بدر الدبن محمود بن أحمد العيني، ت ٨٥٥ هـ .
- عمدة القاري شرح صحيح البخاري، طبعة المكتبة الألكترونية الشاملة.
*الفراهيدي: أبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي .

- كتاب العين، تحقيق: مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، بلا تا،٨أجزاء.
*الفيروزآبادي: محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، ت ٨١٧هـ ١٤١٤م.
- القاموس المحيط , . طبعة المكتبة الألكترونية الشاملة. الأجزاء: ١.
*الفيومي: أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي.
- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، المكتبة العلمية، بيروت. الأجزاء: ٢.
*القشيري: مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، ت ٢٦١هـ ٨٧٤م.
- صحيح مسلم دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ٥ أجزاء. مع الكتاب: تعليق محمد فؤاد عبد الباقي.
*القرطبي: محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي أبو عبد الله، ت ٦٧١هـ ١٢٧٢م.
- الجامع لأحكام القرآن، طبعة المكتبة الألكترونية الشاملة الأجزاء: ٢٠. و(ط،١) المكتبة العصرية، ١٤٢٥هـ ٢٠٠٥م.
*القرطبي: الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن الإسلام، تحقيق: أحمد حجازي السقا، دار التراث العربي، القاهرة، ١٣٩٨هـ الأجزاء: ١.
*القضاعي: محمد بن سلامة بن جعفر أبو عبد الله القضاعي، ت ٤٥٤هـ ١٠٦٢م .
- مسند الشهاب، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد، مؤسسة الرسالة، بيروت (ط،٢) ١٤٠٧هـ ١٩٨٦م. الأجزاء: ٢.
*ابن القيم: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، ت ٧٥١هـ .
- زاد المعاد في هدي خير العباد , تحقيق: شعيب وعبد القادر الأرناؤوط , مؤسسة الرسالة، مكتبة المنار الإسلامية، بيروت، الكويت , (ط،١٤) ١٤٠٧هـ ١٩٨٦م، ٥ أجزاء.

- الطرق الحكمية في السياسة الشرعية, تحقيق: محمد جميل غازي, مطبعة المدني، القاهرة, الأجزاء: ١.
- إعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد, دار الجيل، بيروت، ١٩٧٣م، ٤ أجزاء.
- أحكام أهل الذمة، تحقيق: يوسف أحمد البكري، شاكر توفيق العاروري, دار ابن حزم، الدمام، بيروت, (ط١) ١٤١٨هـ ١٩٩٧م الأجزاء: ٣.
- الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (الداء والدواء) دار الكتب العلمية، بيروت.
- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة، دار الكتب العلمية، بيروت، بلا تاريخ، جزئين.

***ابن كثير**: إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي أبو الفداء، ت ٧٧٤هـ ١٤٧٢م .
- تفسير القرآن العظيم، طبعة المكتبة الألكترونية الشاملة، (ط٢) وطبعة مؤسسة الريان، ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م، ٤ أجزاء.
- البداية والنهاية, مكتبة المعارف، بيروت, الأجزاء: ١٤. وطبعة دار الحديث، (ط٦) ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م.
- السيرة النبوية فصول من السيرة سيرة ابن كثير، طبعة المكتبة الألكترونية الشاملة.

***ابن ماجة**: محمد بن يزيد أبو عبدالله القزويني، ت ٢٧٥هـ ٨٨٨م .
- سنن ابن ماجه، دار الفكر، بيروت، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الأجزاء: ٢، مع الكتاب: تعليق محمد فؤاد عبد الباقي، والأحاديث مذيلة بأحكام الألباني.

***مالك**: مالك بن أنس أبو عبد الله الأصبحي الإمام .
- موطأ الإمام مالك، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، مصر، الأجزاء: ٢. وطبعة دار القلم، دمشق، (ط١) ١٤١٣ هـ ١٩٩١ م.
- تحقيق: تقي الدين الندوي، ٣ أجزاء.

*الماوردي: علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري، ت ٤٥٠هـ .
- الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار الكتب العلمية، بيروت، بلا تاريخ.
*المتقي الهندي: علي بن حسام الدين المتقي الهندي، ت ٩٩٥هـ.
- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٩م.
*المزي: جمال الدين يوسف بن الزكي عبدالرحمن أبو الحجاج المزي ت ٧٤٢هـ .
- تهذيب الكمال في أسماء الرجال، تحقيق: بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، (ط،١) ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م، الأجزاء : ٣٥.
*الملطي: أبي الحسين محمد بن أحمد بن عبد الرحمن الملطي الشافعي .
- التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع، تحقيق: محمد زاهد الكوثري، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، (ط،٢) ١٩٧٧م. جزء، ١.
*ابن منظور: محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، ت ٦٢٦هـ ١٢٢٨م .
- لسان العرب, دار صادر، بيروت, (ط,١) الأجزاء : ١٥.
*النَسائي: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي، ت ٣٠٣هـ ٩١٥م .
- المجتبى من السنن، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، (ط،٢) ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م، ٨ أجزاء، الأحاديث مذيلة بأحكام الألباني.
- سنن النسائي الكبرى، تحقيق: عبد الغفار سليمان البنداري, سيد كسروي حسن, دار الكتب العلمية، (ط،١)١٤١١ هـ١٩٩١م, ٦ أجزاء.
*هارون: عبد السلام هارون .
- تهذيب سيرة ابن هشام، مكتبة السنة، القاهرة، (ط،٦) ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م.
*ابن هشام: أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري، ت ٢٧٨هـ ٨٣٣م .
- السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٦م، وطبعة المكتبة الشاملة.

*الهيثمي: الحافظ نور الدين علي بن أبي بكر، ت ٨٠٧هـ ١٤٠٤م .
- بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث بن أبي أسامة، تحقيق: حسين أحمد صالح الباكري، مركز خدمة السنة، المدينة المنورة، (ط،١) ١٤١٣، ١٩٩٢، الأجزاء: ٢ .
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد. دار الفكر، بيروت، ١٤١٢هـ الأجزاء: ١٠.
*الواقدي: محمد بن عمر بن واقد ت ٢٠٧هـ .
- كتاب المغازي، تحقيق: مارسدن جونس، دار المعارف القاهرة، ١٩٦٥م، وطبعة المكتبة الألكترونية الشاملة.
*أبي يعلى: أحمد بن علي بن المثنى الموصلي التميمي، ت ٣٠٧هـ .
- مسند أبي يعلى، تحقيق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، دمشق ,(ط،١) ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م, الأجزاء: ١٣.

قائمة المصادر

*الألباني: محمد ناصر الدين .

- صحيح وضعيف الجامع الصغير وزيادته، المكتب الإسلامي، أجزاء:١.
- السلسلة الصحيحة، مكتبة المعارف، الرياض, ٧ أجزاء.

*ابن باز والعثيمين: عبد العزيز بن باز, محمد بن صالح العثيمين .

- فتاوى مهمة لعموم الأمة، تحقيق: إبراهيم الفارس، (ط،١) دار العاصمة، الرياض، ١٤١٣هـ الأجزاء: ١.

*البهي: محمد البهي .

- الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، (ط،٦) دار الفكر، بيروت، ١٩٧٣م.

*حبنكة: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني .

- مكايد يهودية عبر التاريخ، (ط،٥) ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥م.

*حمدان: نذير حمدان .

- الرسول ﷺ في كتابات المستشرقين، دار المنارة، جدة،(ط،٢) ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م.

*حميد الله: حميد الله محمد .

- الوثائق السياسية من العهد النبوي والخلافة الراشدة، (ط،٣) دار الإرشاد، بيروت، ١٣٨٩هـ ١٩٦٩م.

*خطاب: محمود شيت .

- اللواء الركن، الرسول القائد ﷺ (ط،٢) مكتبة النهضة، بغداد، ١٩٦٠م.

*الخليفة: حامد محمد الخليفة.

- مهاجرة الحجاز تكوينهم وأثرهم في بناء الدولة في عصر الرسول ﷺ (ط،١) الشارقة، ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م.

- الأنـصار في العـصر الراشدي،سياسـياً عـسكرياً فكريـاً، (ط،١) مكتبـة الصحابة، الشارقة، ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م.
- الإنصاف فيمـا وقـع في تـاريخ العـصر الراشـدي مـن الخـلاف، الـسقيفة، استشهاد عثمان ﷺ موقعة الجمل، موقعة صفين، علي ومعاويـة رضـي الله عنهما، طبعة دار القلم الأولى، دمشق، ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م.
- يوسف بن تاشفين موحـد المغـرب وقائـد المـرابطين ومنقـذ الأنـدلس مـن الصليبيين، (ط،١) دار القلم، دمشق، ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م.

*الزحيلي: وهبة الزحيلي .
- آثار الحرب في الفقه الإسلامي، دار الفكر دمشق، بلا تاريخ.

*السامرائي: خليل ابراهيم السامرائي .
- علاقات المرابطين بالممالـك الاسـبانية بالأنـدلس وبالـدول الإسـلامية، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م .

*السباعي: مصطفى السباعي .
- مـن روائـع حـضارتنا،(ط، ٥) المكتـب الإسـلامي، بـيروت، ١٤٠٧هــ ١٩٨٧م.

*شرّاب: محمد محمد حسن .
- المدينة المنورة في فجر الإسلام والعصر الراشدي، دمشق، دار القلـم، (ط١) ١٤١٥ هـ ١٩٩٤م.

*الشيباني: محمد بن عبد الهادي بن رزّان .
- مواقف المعارضة في خلافة يزيد بن معاوية، دار البيارق .

*العلي: صالح أحمد العلي .
- الدولة في عهد الرسول ﷺ جزءان، مطبعة المجمع العلمـي العراقـي، بغـداد، ١٩٨٨م.

*الغزالي: محمد الغزالي .
- فقه السيرة، دار القلم، دمشق، (ط،٢) ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.
*فرج: محمد فرج .
- العبقرية العسكرية في غزوات الرسول ﷺ مطابع الدار القومية، القاهرة، بلا،تا.
*قطب: سيد قطب إبراهيم .
- في ظلال القرآن، طبعة المكتبة الأكترونية الشاملة.
*المحامي: حسن عبد الغني المحامي .
- المنافقون وشعب النفاق، دار الثقافة، (ط،٢) الدوحة، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.
*محفوظ: محمد جمال الدين علي .
- سلسلة نظريات الإسلام العسكرية، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٧٧م.
*آل محمود: عبد الله بن زيد .
- الجهاد المشروع في الإسلام؛ (ط،٣) مؤسسة الرسالة،بيروت، ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م.
*مسلم: مصطفى مسلم .
- معالم قرآنية في الصراع مع اليهود، (ط،٢) دار القلم، دمشق، ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م.

مراجع أخرى

*الزيادي: محمد فتح الله الزيادي .
- ظاهرة انتشار الإسلام وموقف بعض المستشرقين منها، طرابلس الغرب، (ط،١) ١٣٩٢هـ ١٩٨٣م، مقال للكاتب paul harvy في صحيفة the daily advertiser عدد الخميس ١٥ يناير سنة ١٩٨١م.
- صحيفة يولاندز بوسطن الدنمركية، يوم الثلاثاء ٢٦/٨/١٤٢٦، ٣٠/

٩/ ٢٠٠٥م.

- الجزيرة نت. www.algazera.net. يوم: ١٦/ ٦/ ٢٠٠٧م

- B.B.C.ARABC.COM يوم: ١٦/ ٦/ ٢٠٠٧م.

المحتويات

المبحث الثالث ٣٨٥

أسباب إجلاء اليهود من الحجاز

تم بحمد الله تعالى.

المؤلف

- الدكتور حامد محمد الخليفة، من مواليد العربية السورية محافظة ديار الزور، أتم دراسته حتى الثانوية في بلاده.
- وأتم الدراسه الجامعية والدراسات العليا كلها في جامعة بغداد قسم التاريخ كلية الآداب.
- حصل على البكالوريوس من جامعة بغداد عام (١٤٠٨هـ ١٩٨٧م).
- ونال شهادة الماجستير من جامعة بغداد عام (١٤١٦هـ ١٩٩٥م):
- وحصل على الدكتوارة من جامعة بغداد أيضاً عام ١٤٢٠هـ في ١٣/ ٦/ ٢٠٠٠م.
- <u>المؤلفات المطبوعة:</u>
- **الإنصاف فيما وقع في العصر الراشدي من الخلاف (السقيفة، استشهاد عثمان** رضي الله عنه، موقعة **الجمل**، موقعة **صفين، علي ومعاوية** رضي الله عنهما) الطبعة الأولى في مطابع الواحة، عمّان، ٢٠٠٣هـ والطبعة الثانية، دار القلم، دمشق، ٢٠٠٤م الطبعة الثالثة وزارة الأوقاف في دولة قطر، ١٤٣٠هـ ٢٠١٠م.
- **مهاجرة الحجاز تكوينهم وأثرهم في بناء الدولة في عصر الرسول** صلى الله عليه وسلم، دار الصحابة، الشارقة.
- **الأنصار في العصر الراشدي**. سياسياً عسكرياً فكرياً. دار الصحابة، الشارقة.
- **يوسف بن تاشفين قائد المرابطين** موحد المغرب ومنقذ الأندلس من الصليبيين ... دار القلم دمشق، بيروت. ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣ ومطبوع أيضاً في دار الصحابة الشارقة.
- **الموقف من التاريخ الإسلامي وتأصيل الهوية**. دار القلم دمشق، ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م.
- **إمام الأمة وقائدها خليفة رسول الله أبو بكر الصديق**. مطبعة الحسام، عمّان، ١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م.
- **ريحانة النبي ﷺ الحسين بن علي بن أبي طالب** رضي الله عنهما دار القطوف عمّان ١٤٢٩هـ.
- **أخلاق وآداب الحرب في عصر الرسول ﷺ**، دار عمار، عمّان ١٤٣١هـ .
- **الموقف من الشبهات على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب** ﷺ دار عمار، عمّان، ١٤٣١هـ.
- **الموقف ممن يُقدم أحداً على خليفة رسول الله ﷺ أبي بكر الصديق** ﷺ دار الفيحاء، عمّان، ١٤٣١هـ ٢٠١٠م.



هذا الكتاب

... أُرسلَ النبي ﷺ رحمة للعالمين: فكان في سلمه وحربه رؤوفاً رحيماً، فأنتج للبشرية جيل القدوة المتمثل بأصحابه رضي الله عنهم الذين قدموا ميراث النبوة على الوجه الصحيح الذي أراده ﷺ تأكد ذلك في مواقفهم السياسية والعسكرية؛ التي واجهوا فيها طواغيت الأرض وامبراطوريات الظلم والشر، وحققوا عليها أروع الانتصارات وأبهى المواقف الإنسانية.

فصارت أخلاق وآداب الحرب التي قادها الصحابة رضي الله عنهم في عصر رسول الله ﷺ قرة عين الحضارة الإنسانية، وجوهرة الأمن والاستقرار في الأرض، وثبت أن قيمهم تلك وحدها هي القادرة على معالجة أزمات العالم في كل عصر ومصر: بسماحتها وعدلها وشموليتها.

فمن أحبَّ العدل والأمن والسلام عليه أن يُوقِّر صُناعه وأئمته، ويتعرف على سيرتهم ويتخلق بآدابهم ويؤمن بعقيدتهم، ويجعل من الكتاب والسنة والصحابة خطوطاً حمراء، لا يُهادن أعداءها إلا مشبوه أو مُتهم على الدين والأمة، ولا يتجاوزها إلى زائغ هالك، أو سبئي أو مرتد.

وهذا الكتاب يبحث في هذه المعاني القادرة على بناء المشترك الإنساني المتوازن، ويعرض آداب وأخلاق الحرب التي عمل بها النبي ﷺ وأورثها أصحابه رضي الله عنهم الذين تجلت في مواقفهم النبيلة، القيمُ الإنسانية، وأخلاق الفروسية، ولا سيما في عفافهم وإشفاقهم على الضعفاء، ورحمتهم بالأسرى، ووفائهم وطهرهم في كل أحوالهم، ليتأكد للجميع أنّ تبجيل عقيدتهم هو مفتاح الأمن والاستقرار، وأن تجاهلها وإقصاءها يفتح أبواب الشرّ والدمار.

المؤلف



دار عمار للنشر والتوزيع

عمان - ساحة الجامع الحسيني - سوق البتراء - عمارة الحجيري

هاتفاكس ٤٦٥١٤٣٧ - ص.ب ٩٢١٩٩١ عمان ١١١٩٢ الأردن

E-mail: dar_ammar@hotmail.com